

موسوعة

وصف مصر

١٢

مقياس النيل

تأليف: علماء الحملة الفرنسية

ترجمة: منى زهير الشايب

وصف مصر

مقياس النيل

١٢

الجزء الثانى عشر

وصف مصر

مقياس النيل

تأليف : علماء الحملة الفرنسية

ترجمة : منى زهير الشايب



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٢

مكتبة الأسـرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

موسوعة وصف مصر

وصف مصر ـ المجلد (١٢)

مقياس النيل

ترجمة : منى زهير الشايب

الغلاف

والإشراف الفنى:

الفنان : محمود الهندى

الإخراج الفنى والتنفيذ:

صبرى عبدالواحد

المشرف العام :

د. سمير سرحـــان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة التنمية المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم :

نعم استطاعت مكتبة الأسرة بإصداراتها عبر الأعوام الماضية أن تسد فراغا كان رهيباً فى المكتبة العربية وأن تزيد رقعة القراءة والقراء، بل حظيت بالتفاف وتلهف جماهيرى على إصداراتها غير مسبوق على مستوى النشر فى العالم العربى أجمع، بل أعادت إلى الشارع الثقافى أسماء رواد فى مجالات الإبداع والمعرفة كادت أن تنسى وأطلعت شباب مصر على إبداعات عصر التنوير وما تلاه من روائع الإبداع والفكر والمعرفة الإنسانية المصرية والعربية على وجه الخصوص. ها هى تواصل إصداراتها للعام التاسع على التوالى فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية بالنشر الموسوعى بعد أن حققت فى العامين الماضيين إقبالاً جماهيرياً رائعاً على الموسوعات التى أصدرتها. وتواصل إصدارها هذا العام إلى جانب الإصدارات الإبداعية والفكرية والدينية وغيرها من السلاسل المعروفة وحتى إبداعات شباب الأقاليم وجدت لها مكاناً هذا العام فى «**مكتبة الأسرة**» .. سوف يذكر شباب هذا الجيل هذا الفضل لصاحبته وراعيته السيدة العظيمة/ **سوزان مبارك**..

د. سمير سرحان

تقديم

لمّا كان لنهر النيل هذا الدور العظيم الذى أسهم به فى قيام واحدة من أعرق وأقدم حضارات العالم، فقد كان - على الدوام - محطًا لأنظار الرحالة والمستشرقين والعلماء قديمًا وحديثًا، وملهمًا للشعراء الذين نظموا فيه قصائد خالدة، وللفنانين الذين تغنوا به والذين مثلوه فى أعمالهم الفنية بصورة ربما لم يظهر بها نهر آخر.

ولم يتوقف فضل النيل - الذى حبى الله به مصر - على جعل أرضها خضراء تتميز عن الصحراوات القاحلة التى تحيط بها من كل ناحية، وإنما شارك أهلها أفراحهم وأحزانهم وكان أساسًا لعقائدهم القديمة، وحدد نسق الحياة اليومية لهم، ونظم أعمالهم، وارتبط - بصفة عامة - بحياتهم السياسية والدينية والاقتصادية والحربية أيضًا.

وقد تناولت العديد من الأعمال الأدبية والعلمية هذا النهر الفياض وظواهره ودوره فى حياة أهل البلدان التى يجرى بها جنوبًا وشمالاً، ولم يقتصر ذلك على أعمال المفكرين العرب والمستشرقين، وإنما كان أيضًا نتاج أبحاث الدارسين من أهل الشعوب الأوروبية، الذين أدركوا أهمية نهر النيل وأرادوا إلقاء المزيد من الدور عليه، من خلال دراسات مختلفة ارتبطت به من قريب أو بعيد.

ويأخذنا هذا الكتاب فى رحلة عبر الزمان والمكان لنعيش مع نهرنا الخالد بدءًا من منابعه حتى مصبه، مع إطلالة على تاريخه منذ القدم حتى دخول الفرنسيين أرض مصر، والإشارة إلى كل ما يرتبط به من أمور، ومدى تأثيره فى حياة شعب مصر وأرضها.

يضم هذا المجلد دراستين تتناولان مقياس النيل بجزيرة الروضة، والنقوش التى يحويها، ووادى النيل.

وتنقسم الدراسة الأولى بقلم السيد مارسيل إلى ستة أجزاء ومقدمة، يشرح فيها الكاتب مدى شغفه بدراسة النقوش والكتابات القديمة، ثم يسرد أسماء عدد كبير من الرحالة والمستشرقين الذين زاروا بلاد المشرق وخاصة مصر، ويأسف لأن معظمهم لم يوجه الاهتمام الكافى بموضوع بحثه الهام حول النقوش والكتابات التى تزين مقياس النيل والعمائر عربية الطراز، كما يشير للكتاب الإغريق واليونانيين والعرب الذين استقى منهم معلوماته، والذين تناولوا نهر النيل ومقياس الروضة.

وجاء الجزء الأول دراسة لغوية متخصصة تتناول أسماء نهر النيل قديمًا وحديثًا فى اللغات الإثيوبية والأمهرية والقبطية والعبرية والفارسية والسريانية والإغريقية واليونانية والعربية، وقام الكاتب بتحليل لغوى لهذه الأسماء والصفات مع إجراء مقارنات بينها وربط ذلك بمياه النهر ومجراه وروافده وفيضاناته وما يتعلق به من ظواهر، ويعد هذا الجزء من الدراسة بعيدًا إلى حد كبير عن الموضوع الأساسى للمجلد، اللهم إلا إذاً اعتبرناه مقدمة تمهيدية تستحق التقدير لما تقدمه من افتراضات وتحليلات لا تخلو من الوجاهة والواقعية.

وينتقل الكاتب بعد ذلك ليتناول مقاييس النيل التى شيدت على مر العصور بدءًا من مصر القديمة ومرورًا بحكم الفرس والبطالمة والرومان وانتهاءً بالعصر الإسلامى، مشيرًا إلى بعض الأحداث التاريخية التى مرت بمصر ومدى تأثيرها على المنشآت الهامة لاسيما مقياس النيل، ويقدم أخيرًا وصفًا مختصرًا لبعض مقاييس النيل التى شيدت على مجرى النهر جنوبًا وشمالاً فى عصور مختلفة.

ثم يتناول بعض الروايات التى نقلها عن الكتاب العرب والتى تحوى - كما يذكر - العديد من الخرافات والتجاوزات حول مقاييس النيل التى سبقت الحكم الإسلامى.وبعد ذلك يشير إلى تلك المقاييس التى شيدت خلال حكم الأمويين والعباسيين، وبانتهاء هذا الموجز التاريخى ينتهى الجزء الأول من الدراسة.

ويبدأ الجزء الثانى بمقدمة عن جزيرة الروضة - مقر المقياس - ويتناول تاريخ المقياس منذ بنائه الأول وإعادة بنائه والإضافات والإصلاحات والترميمات التى أجريت به خلال حكم الأمويين والعباسيين والفاطميين والمماليك البحرية والشراكسة، والسلاطين العثمانيين والباشوات والبكوات، وأخيرًا أثناء وجود الفرنسيين فى مصر، ويقسم هذا الجزء إلى ستة عصور:

- العصر الأول: من عام ٩٦هـ: ١٧٧هـ - بناء.

- العصر الثانى: من عام ١٩٩هـ: ٢٣٢هـ - إعادة بناء.

- العصر الثالث: من عام ٢٣٣هـ: ٤٨٤هـ - إصلاحات.

- العصر الرابع:: من عام ٤٨٥هـ: ٩٢٥هـ - إصلاحات.

- العصر الخامس: من عام ٩٢٥هـ: ١٢١٣هـ - إصلاحات.

- العصر السادس: من عام ١٢١٣هـ: ١٢١٥هـ - ترميم المقياس على يد المهندسين الفرنسيين.

ويعرض الكاتب بعض الأحداث التاريخية ووصف عيد النيل وفتح سد الخليج، والشئون الإدارية المرتبطة بالنيل والمقياس، وتأثير فيضانات النيل. ثم يتناول السيد مارسيل فى الجزء الثالث الحالة الراهنة للمقياس زمن الحملة الفرنسية، ويقدم وصفًا معماريًا فنيًا للمقياس وللأجزاء المحيطة به، ولمسجد المقياس، ولأطلال قصر السلطان الصالح نجم الدين. ويشير إلى إدارة المقياس وما يتعلق به من إقطاعات مادية والمشرف عليه، ووسائل الإعلان عن الفيضانات، وبعض الأحداث والطقوس والاحتفالات المرتبطة بفيضان النيل مثل عيد وفاء النيل، ويوم الصليب، وفتح السد، وقصة عروس النيل وأخيرًا يعرض التأثير النافع

والضار لفيضانات النيل على أرض وشعب مصر، من خلال ما ورد فى كتابات المؤلفين العرب.

ويقدم الجزء الرابع الكتابات الكوفية والقرمطية والعربية والفرنسية التى نقشت على العمود والعارضة العلوية والأفاريز التى تزين جوانب الغرفة والحوض الداخلية، وكتابات المسجد، وهى تتكون من بعض آيات القرآن الكريم والأقوال المأثورة والحكم وتواريخ لتسجيل الأحداث. وقد حدد الكاتب ستة عصور لهذه الكتابات، وتناول بعض كلماتها بالتحليل اللغوى. ثم يناقش فى الجزء الخامس علم قراءة الكتابات الكوفية والقرمطية، وجاء هذا الجزء من الدراسة بعيدًا عن الموضوع الرئيسى، وإن دل على روح المثابرة والتدقيق التى تميز كاتبنا، الذى فضل أن يختتم دراسته فى الجزء السادس بتقديم النصوص الأصلية للكُتاب الذين استرشد بأعمالهم خلال بحثه القيم.

أما الدراسة الثانية فهى من تأليف السيد لوپير الأب وتتناول وادى النيل، وكما يقول الكاتب فقد كان هذا الجزء ضمن مجموعة من التقارير التى وضعتها لجنة كُلفت بدراسة نهر النيل وظواهره، بناءً على قرار المجمع المصرى بالقاهرة، وشملت مهام اللجنة محاولة ترشيد الفائض من المياه، وتحسين الملاحة النهرية، وضمان سلامة القرى وعمليات الرى، واهتم أعضاء اللجنة بدراسة نظام النيل وقتى الفيضان والتحاريق، ومجراه ومصباته وفروعه وانحداره وسرعته وطبيعة مياهه...

ونظرًا لأن الدراسة الأولى قد تناولت نهر النيل من عدة أوجه، فقد حرص السيد لوپير على عدم التكرار وتناول الموضوعات المشتركة بإيجاز، مكتفيًا بإحالة القارئ إلى دراسة السيد مارسيل.

ويشمل الجزء الأول من هذه الدراسة عدة موضوعات صُبغت فى مجملها بصبغة جغرافية وعلمية وتاريخية أيضًا، مثل وصف منابع النيل ومجراه ونظامه ومصباته ونوعية المياه ورواسبها ومصروف نهر النيل ومواسم الفيضانات وأسبابها وتأثيرها وقياسها، وتضمنت هذه النقاط سرد بعض الوقائع التاريخية

والتجارب العلمية، التى أسهمت فى بناء عدة نظريات، ومناقشة شئون الإدارة الداخلية وتأثيرها على النيل بصفة عامة.

ويتناول الكاتب فى الجزء الثانى من الدراسة وصف مقاييس النيل مع تقديم موجز تاريخى لها، ووصف معمارى فنى مفصل لأجزاء مقياس الروضة والترميمات التى أجراها به مهندسو الحملة الفرنسية بناء على أوامر الجنرال «مينو»، ثم يعقد مقارنة بين الارتفاعات الافتراضية والفعلية للفيضانات. وينتقل بعد ذلك إلى وصف الأعياد والطقوس التى ارتبطت بنهر النيل مثل عيد فتح السد وعيد الصليب.

ويختتم المؤلف دراسته الشيقة بعدة جداول تمثل جزءًا من سجل الارتفاع اليومى لمياه النيل وقت الفيضان، ووقت انخفاض النهر، مدونة بالتاريخ الهجرى والميلادى والتقويم الجمهورى الفرنسى، وقد استخدمت القدم الفرنسية وذراع المقياس لتحديد ارتفاع المياه، وعقد الكاتب مقارنة بين الإعلانات العامة وبين الارتفاع الحقيقى للفيضان.

وقبل أن أترك للقارئ فرصة الأستمتاع بهذا العمل الجاد أود أن أشير إلى بعض الملاحظات:

- أشاد الكاتب فى مقدمة العمل بمؤلف كتاب «نصوص الأهرامات» دون أن يذكر اسم هذا المؤلف، علمًا بأنه توجد عدة كتب تحمل هذا العنوان.

- أشار المؤلف إلى عدة علامات هيروغليفية أعتقد أنها تمثل مقاييس النيل المحمولة - كما أطلق عليها - وإلى المقاييس المبنية التى شيدها ملوك مصر القديمة، وفى الواقع فقد جانبه الصواب تمامًا فى هذا الجزء، فالعلامات لا تعدو كونها أوان وأدوات ورموز، وهى جميعها لا تمت لعملية قياس النيل بأية صلة، والحال كذلك فيما يتعلق باللوحة التى استشهد بها والتى ترتبط بالعقائد الدينية للمصرى القديم.

- حدد الكاتب عدد أيام بعض الشهور العربية، علمًا بأنها يمكن أن تحوى تسعة وعشرين أو ثلاثين يومًا، كما ذكر أن بعضها لابد وأن تسبقه كلمة «شهر» دون غيره من الشهور الأخرى.

ـ لم يوفق الكاتب عندما ذكر أن العنوان الكامل لسورة «هود» هو «سورة هود عليه السلام»، وعندما ظن أن عدم وجود البسملة فى أول سورة «التوبة» من قبيل السهو.

ـ ادعّى الكاتب أن العرب حينما فتحوا مصر أشاعوا فيها الدمار.

ـ اكتفى المؤلف فى بعض المباحث بذكر العنوان فقط اعتمادًا على إحالة القارئ للوحات الكتابات والأبجديات.

ـ فى حالة تدخل المترجم فى النص يكون ذلك بين معقوفتين [ ]

ـ فضل المترجم تقديم نصوص الكتاب الإغريق واليونانيين والعرب، والكتابات التى نقشت فى المقياس، كما وردت تمامًا فى الأصل الفرنسى دون تدخل.

ـ وأخيرًا فقد احتوى النص الفرنسى على نصوص وكلمات بلغات مختلفة عديدة، قام الكاتب بترجمتها إلى اللغة الفرنسية ـ مثلما هو الحال بالنسبة لأسماء نهر النيل فى المقدمة ـ وقد اكتفى المترجم بنقل هذه الكلمات والعبارات إلى اللغة العربية نقلاً عن الفرنسية.

وفى النهاية أود أن أتقدم بجزيل الشكر لكل من أسهم فى إخراج هذا المجلد إلى النور، وأخص بالشكر زوجى الفاضل الذى شملنى بكل رعاية حتى استطعت إنجاز عملى.

والله ولى التوفيق،

منى زهير الشايب

الهرم: ٢٠٠٢/٩/٢٧

العنوان الأصلى للدراسة

دراسة حول

« مقياس جزيرة الروضة والنقوش التى يحويها »

تأليف : السيد مارسيل

المدير السابق للمطبعة الملكية وعضو بجوقة الشرف

مقدمة

منذ حداثة سنى والشغف قد ملأ نفسى لدراسة لغات وتاريخ شعوب الشرق، وقد رأيت لزمن طويل وبكل أسف أن معظم الرحالة الذين مروا بهذه البلاد لم يكترثوا بجمع الكتابات الكوفية وغيرها من الكتابات بالأحرف العربية القديمة(*)، التى تزدان بها وبوفرة المنشآت المعمارية التى شيدها حكام العصور الإسلامية الأولى.

ويُعد بنيامين من تودل أقدم الرحالة الذين زاروا مصر منذ الهجرة، وهو يهودى شهير قام خلال القرن الثانى عشر الميلادى بزيارة كل معابد اليهود فى العالم، ولم تكن زيارته لمصر تهدف لشىء آخر سوى التعرف على عادات وشعائر أهل طائفته والتحاور مع أحبار اليهود المقيمين هناك. وقد قام بكتابة ملخص لرحلاته باللغة العبرية، ولدينا منه ترجمتان باللغة اللاتينية واثنتان أخريان باللغة الفرنسية.

ويحوى كتابه أشياء بالغة الغرابة، لكنه لم يلق بالاً للمنشآت المعمارية القديمة فى البلاد التى زارها، وبالتالى فلم تلفت انتباهه مطلقًا النقوش والكتاباتُ التى تزين هذه المنشآت.

(*) راجع الملاحظات فى نهاية هذه الدراسة .

ولا يجب إذن أن ننتظر أدنى اهتمام بالموضوع الذى نحن بصدد الحديث عنه من الرحالة محدودى العدد الذين زاروا مصر فى القرن السادس عشر الميلادى.

وفى البداية سأذكر من بينهم چون بيلون وهو طبيب فرنسى، وباليرن سكرتير دوق آنجو، وكريستوف فوريه، وأخيرًا الأمير رادزيڤل.

وقد طاف الأولان منهم بأماكن كثيرة فى الشرق، الأول خلال حكم ملكينا فرانسوا الأول وهنرى الثانى منذ عام ١٥٤٦ حتى عام ١٥٤٩، والآخر منذ عام ١٥٨١ إلى ١٥٨٣ خلال حكم هنرى الثالث، أما رحلات الاثنين الآخرين فقد تمت فى عام ١٥٦٥ وعام ١٥٨٣.

ولا يبدو أن هؤلاء الرحالة قد وجهوا اهتمامًا بمعرفة آداب وتاريخ البلدان التى زاروها، بل ويبدو أن الثلاثة الأخيرين لم يكن لديهم هدف آخر سوى إرضاء شغف غامض فى نفوسهم دون دافع محدد، اللهم إلا إذا كان هذا الدافع هو زيارة الأماكن المقدسة، ولم يهتم أولهم إلا بالتاريخ الطبيعى على وجه الخصوص، واستطاع أن يجمع خامات ومواد جديرة بالملاحظة تكشف عن روح التفحص المطلوبة لاسيما فى العصر الذى عاش فيه.

وقد مكث بروسبير ألبان فى مصر ثلاثة أعوام منذ عام ١٥٨٠ إلى عام ١٥٨٣ مع چورچ همى قنصل البندقية فى القاهرة الذى صاحبه بصفته طبيبه الخاص، ولكنه اقتصر فى رحلته على تجميع ملاحظات عن التاريخ الطبيعى والفيزياء وعلم الأمراض، وكانت هذه العلوم هى الشىء الوحيد تقريبًا الذى تضمنته أبحاثه.

أما أشهر الرحالة الذين زاروا مصر فى القرن السابع عشر فكانوا: سڤارى من بريڤ وكان سفيرًا لهنرى الرابع لدى الباب العثمانى لمدة اثنين وعشرين عامًا، وزار مصر عام ١٦٠٥ عند عودته من القسطنطينية، والإنجليزى سانديس، والإيطالى بيترودو لاڤال وقد زار الأول مصر عام ١٦١٠ والثانى عام ١٦١٥، وقيصر لامبرت وهو تاجر من مارسيليا وزارها منذ عام ١٦٢٨ إلى عام ١٦٣٢، وأخيرًا فيرمانيل وبولاى اللذان زارا مصر أحدهما عام ١٦٣١ بصحبة فوڤيل ودولوناى ودوستوشوف، أما الثانى فزارها عام ١٦٥٠.

ولا يجب أن أنسى ضمن هذا الحصر العالم الكاتب مؤلف «نصوص الأهرامات» وچون جريفث وليونيز مونكونيز، وكورنىّ بروين، وشازل، وملشيزوك تيڤينوت الذى لا يعرف الملل والذى مر ببلدان الشرق جميعًا أكثر من مرة، وكذا ڤانسليب الذى مكث بمصر خلال الفترة بين عامى ١٦٧٢ و١٦٧٣.

إلا أن هؤلاء الرحالة جميعًا لم يذكروا فى ملخص رحلاتهم أى نقش كوفى أو قرمطى أو حتى عربى، بل اكتفوا بأن يصفوا عادات أهل البلاد بطريقة سطحية وجزئية وغير دقيقة، وأضافوا بعض الملاحظات على التاريخ الطبيعى والطبوغرافيا كلما أمكن ذلك.

وعلى الرغم من ذلك فلا يمكن إلقاء اللوم على ڤانسليب واتهامه بعدم الدقة، بل على العكس فقد سنحت لنا الفرصة لكى نتعرف عليه كواحد من أكثر الرحالة دقة الذين زاروا مصر، ومن ناحية أخرى كان من المحتمل أن يقع ڤانسليب فى بعض الأخطاء خلال تسجيله للملاحظات على قدر تمكنه من معرفة لغة البلد الذى يصفه، وبالمثل فيصدق نفس القول على اللغات الشرقية الأخرى. ولدينا له أعمال قيمة عن اللغة الإثيوبية ودراستها بالغة الأهمية للأبحاث التى تجرى عن اللهجة التى تحدث بها المصريون القدماء.

ويدين له الأدب الشرقى - على وجه الخصوص - بنشر قاموس هذه اللغة الذى وضعه العالم لودولف، وقام بنشره للمرة الأولى، وأراد أن يعيد طباعته من جديد بإضافة عدة تغييرات.

وأمتلك مخطوطًا لڤانسليب يحوى التصحيحات والإضافات العديدة التى ألحقها بالطبعة الثانية، وبسبب إعداده لهذه النسخة عاش حياة متواضعة فى السنوات الأخيرة من عمره، غير أن موته قد حال دون ظهورها إلى النور.

ويشتهر بين المستشرقين سڤارى من بريف الذى تحدثت عنه توًا كمدير للمطبعة الملكية وعضو باللجنة المصرية، وسوف أقوم هنا بواجبى وأخصص لذكراه بضعة أسطر كتبتها سريعًا ربما لم توضع فى عمل جيد يدين له بجزء من الدقة والتمحيص اللذين تميز بهما فى عمله الطبوغرافى.

فمن خلال مجهودات هذا الرجل وعلى نفقته الخاصة استطعنا كتابة الأحرف العربية الرائعة التى تشكل أحد المقتنيات الثمينة الرئيسية الخاصة بطباعة النقوش الشرقية بالمطبعة الملكية، وقد تميزت هذه الأحرف بكل فخامة ممكنة فى الشكل، وتزايدت كثيرًا منذ ذلك الحين بإضافة طبوغرافية مجمع التبشير وحديثًا أيضًا طبوغرافية فلورانسا التى ندين لبونابرت بحيازتنا لها.

وعلى الرغم من أنها نقشت منذ بداية عصر لويس الثالث عشر فإن الأحرف العربية لسڤارى تقدم فى تنفيذها رشاقة وتناسقًا وتناسبًا تتساوى أو ربما تزيد عن جمال الخطوط التى يمكن أن تقدمها لنا أفضل المخطوطات الشرقية.

وباعتراف أشهر خطاطى الطباعة فى عصرنا فإن الدقة التى شكلت بها مناقش الطباعة التى تخص أكبر المطابع والتى تتميز أيضًا بتعقيد خطوطها، يجعلها تمثل فى الحقيقة عملاً فنيًا يستحوذ على الانتباه ويتساوى من ناحية الصعوبة مع ما نلاقيه عندما نقوم بالنقش على الصلب بنفس القوة والدقة.

ومن بين الرحالة فى بداية القرن الثامن عشر دولاكروا وبول لوكاس الذى أرسل إلى الشرق أكثر من مرة بأمر من لويس الرابع عشر وزار مصر عام ١٧١٤، وب. سيكارد الذى مكث بها سنوات عدة كمبشر، وشارل بيرى وجرانچر، والواقع أنهم لم يقوموا بجمع أى من نقوش العرب القدماء، بل يبدو أنهم ساروا على نفس النهج الذى تبعه من سبقهم من الرحالة، فلم يكن لديهم أية رغبة سوى تجميع العملات اليونانية والرومانية والأحجار المنقوشة وبعض المخطوطات التى اشتروها غالبًا بالصدفة، وعادة بدون اختيار أو تمييز.

ويصدق نفس القول على ماييه الذى كان قنصلاً لفرنسا بمصر وقتًا طويلاً، على الرغم من كل التسهيلات التى تمنحها له مهام وظيفته الدبلوماسية، ويبدو أنه لم يستفد باللقب الذى تحلى به إلا لكى يزور الأهرامات ويتفحصها بدقة ويولى اهتمامًا خاصًا بوصفها، أو لكى يجمع العناصر التى تساعده فى تأسيس المنهج الچيولوچى الذى قام بوضعه فى مؤلف اشتهر بتفرده وجرأة افتراضاته ومن بين هؤلاء الرحالة أيضًا فورمنت مترجم الملك للغات الشرقية، وكان قد زار

الشرق بأمر من لويس الخامس عشر عامى ١٧٢٩ - ١٧٣٠ مع خاله وبصحبة القس سيفين وهو عضو متقاعد فى الأكاديمية الملكية للنقوش والآداب، وقد تبع السيد ليرونكور عام ١٧٤٥ وعين قنصلاً عامًا بالقاهرة، ويبدو أن النقوش العربية فى مصر قد لفتت انتباهه، لكن مؤلفه لا يضم نسخة منها، كما أن الترجمة مختصرة وخاطئة وغير دقيقة.

أما بوكوك فقد ارتحل فى كل بلدان الشرق سنة ١٧٣٧ وما تلتها، وكان عضو الجمعية الملكية وعضو جمعية الآثار القديمة بلندن، وضم إلى عمله الواسع رغبته النهمة فى الاستزادة والمعرفة، ويحوى ملخص رحلته ملاحظات شيقة عن العادات والديانة والشرائع والحكومة والعلوم والجغرافيا والتاريخ الطبيعى للأمم التى زارها، لكنه هو أيضًا أهمل جمع الكتابات التى تنتمى لهذا النوع والتى لابد وأنه شاهدها بكثرة فى البلدان المتعددة التى زارها.

وفى منتصف هذا القرن تقريبًا أو بعد ذلك بوقت قصير يذكر التاريخ اثنين من الرحالة لهما شهرة براقة قاما بزيارة مصر، وأعنى هنا البارون دوتوت ودوبروسن، فبعد أن مكث أولهما وقتًا طويلاً فى تركيا كمبعوث للبلاط الفرنسى خلفًا للسيد دوفيرچين عام ١٧٥٥، مر عند عودته بمصر وبالممالك المغربية. أما الثانى فقد مر بمصر وهو فى طريقه إلى الحبشة، حيث دعته رغبته لاكتشاف منابع النيل، وقد توقف بها عدة سنوات، لكن مؤلفاتهما تحوى القليل من الأشياء الهامة عن مصر ولا تضم أيضًا أية كتابات.

ومن بين أواخر الرحالة الذين زاروا مصر قرب نهاية هذا القرن، يجب أن أذكر بروسن وروك وسيستين ونيبور، إلا أن الأخير منهم هو الوحيد الذى ذكر عددًا كبيرًا من النقوش القرمطية التى قام بجمعها خلال رحلته لشبه الجزيرة العربية، ولم يقدم منها نوردن سوى نقش واحد يشوب نسخته التحريف إلى حد كبير لدرجة أنها غير واضحة المعالم وغير مقروءة تمامًا.

ومن بين من زار مصر أيضًا سونيتى وهو ضابط متقاعد ومهندس فى البحرية الفرنسية وعضو العديد من الجمعيات العلمية والأدبية، وقد أتى إلى

مصر بأمر من الحكومة، وهناك انشغل بدراسة التاريخ الطبيعى والجغرافيا على وجه الخصوص ولم تلفت الآثار انتباهه بشكل كبير، ولم يقم بجمع أية نقوش خلال رحلته.

وينطبق هذا على سافارى على الرغم من حماسه المعروف للغة والآداب العربية والسيد دوفولنى ويعد مؤلفه ثمينًا للغاية من عدة نواح، فلم يقم الاثنان بجمع أية نقوش من مصر ويبدو أن الأول منهما قد اقتصر على الوصف الطبوغرافى للبلد، وقد جمله بكل السحر من خياله الجرىء والشاعرى، بينما قصر الثانى اهتماماته على العادات والتاريخ والنظام السياسى للبلد.

ويلى هذين الرجلين الشهيرين. وفى أثناء حملتنا على مصر. براون وهورنمان حيث زارا هذا البلد فى عجالة شديدة منعتهما من جمع أية نقوش ولم تمثل بالنسبة لهما سوى أرض للعبور، لم تكن من وجهة نظريهما ذات أهمية فى أى شىء إلا أنها تقودهما إلى هدف أكثر بعدًا.

وعلى الرغم من ذلك فلابد وأن تكون النقوش العربية قد بدت ذات أهمية لكل هؤلاء الرحالة، حيث إنهم لم يجهلوا دون شك أن الشعوب التى تدين بالإسلام لا تزين الجوامع والقصور باللوحات والنقوش البارزة والتماثيل كبقية الشعوب الأخرى لأن دينهم يمنعهم من ذلك سواء أكانت هذه الزخارف رسمًا أو نحتًا، ولا يحل محل الأشكال الإنسانية والحيوانية التى تزين المبانى سوى الكتابات التى تجمع على أية حال المزية المزدوجة، فهى تمثل برشاقة وثراء أحرفها زخرفة معمارية رائعة بالإضافة إلى أهميتها التاريخية بتحديدها التواريخ والفترات التى سمح لهم هذا النوع من الزخارف بكتابتها بصورة أكيدة، ولذلك فقد استحبوا أن يملئوا كل أجزاء مبانيهم المعمارية بنقوش الأنواع المختلفة من الأحرف، وأن يضيفوا إلى الكتابة أشكالاً زخرفية رائعة ويميزوا تعدد هذه الأشكال بالترف الذى يسمح به فن الخط لديهم.

وأتساءل هنا إلى متى ستبقى رغبتى التى أشعر بها حية، فحينما استدعيت لأشارك فى الحملة التاريخية على مصر وجدت نفسى أمام أقوى رغباتى أتنقل

بين القصور التى كانت يومًا تخص صلاح الدين ونور الدين، وهما اسمان شهيران حتى بين أفراد شعوبنا الغربية، وكانا دائمًا يوحيان لخيالى فى الصغر بحماس متقدٍ، وكنت أتغذى على تاريخهما!

وفى ظل هذه الظروف المحببة وغير المتوقعة كان كل شىء يوحى إلى بمحصول ثرى من الآثار الشرقية، لاسيما من النقوش والميداليات بالخط الكوفى أو القرمطى، وهى فرع من دراسات كان يدفعنى إليها دائمًا شغفى الخاص، وهنا شعرت بأن هذه الحصيلة سوف تزودنى بنتائج عدة قيمة، حيث إن النصر قد يسر لنا دخول العديد من المساجد فى العاصمة المصرية بحرية، وهى الأماكن التى يجملها على الدوام الحماس الدينى وإنجازات الخلفاء العباسيين والفاطميين، كما أعطانا النصر أيضًا الحق المطلق فى الدخول إلى المبانى الأثرية الأخرى التى تضم كمية كبيرة من هذه النقوش، وقد كانت هذه الأماكن ممنوعة تمامًا حتى وقتنا هذا على الرحالة الأوروبيين وأحيانًا أيضًا على سكان البلد الأصليين أنفسهم.

وهكذا فمنذ اللحظة التى وطأت فيها قدمى هذه الأرض الكلاسيكية المليئة بالكنوز المجهولة، أشعلت حماسى لبحث وملاحظة ورسم كل النقوش الكوفية والقرمطية التى استطعت اكتشافها، فأصبحت المجموعة التى اقتنيتها زاخرة بالعديد من الكشوفات التى قمت بها ـ هذا بالإضافة إلى اكتشاف حجر رشيد الشهير ـ وقد قمت بتطبيق طرق طباعية خاصة للحصول على علامات سريعة وسهلة دون أن تؤثر السرعة الكبيرة فى التنفيد سلبًا على الدقة المتناهية، بل تجعلها ـ إذا استطعنا القول ـ تبدو نسخًا متناسقة ومتماثلة تمامًا.

وقد سجلت فى دراسة من هذا المؤلف طرقًا استخدمتها للحصول على هذه النتيجة المزدوجة، ولهذا لن أتوقف عندها هنا أكثر من ذلك.

ومن بين كل المبانى الأثرية التى قدمت لى نقوشًا عدة من هذا النوع المبنى الأثرى الذى جذب انتباهى أكثر من أى شىء آخر، والذى نعتبره دومًا ـ ولنا الحق ـ أحد أكثر هذه المنشآت أهمية، وهو مقياس النيل الذى أسس منذ القرن

الهجرى الأول ومازال باقيًا حتى أيامنا هذه فى الطرف الجنوبى لجزيرة الروضة ويعرف باسم «المقياس».

وسوف أتجرأ وأقول: إن هذا المبنى كان أكثر الأعمال أهمية فى تاريخ كل الخلفاء، سواء للغرض الذى بنى من أجله، أو لعدد وطريقة حفظ ومساحة النقوش التى يضمها، أو أيضًا لفترات التاريخ العربى والمصرى على وجه الخصوص التى يرتبط بها، وأخيرًا للتأثير الذى يحدثه قياس الفيضانات الموسمية للنيل فى سياسة الحكومة وتحديد دخل الدولة.

ترجع النقوش الكوفية التى يضمها مقياس النيل والمبانى الملحقة به إلى فترات مختلفة من تشييده أو ترميمه أو الإصلاحات المتوالية التى أجريت به، ولكى نصنف هذه النقوش بطريقة إيجابية متميزة وفقًا للعصر الذى كتبت فيه يبدو لى أنه لا غنى عن تقديم ترجمة لها ومناقشة الدلالات التاريخية والأدبية التى تحويها وإضافة بعض التفاصيل المختصرة عن تاريخ هذا الأثر وبعض مقاييس النيل الأخرى التى سبقته.

وقد استقيت معظم التفاصيل التى سأقدمها هنا من المعلومات التى أمدنى بها قاضى المقياس الخاص المكلف بإدارته، وأيضًا من المؤرخين الشرقيين الذين تناولوا هذا الأثر والذين حصلت على مخطوطاتهم فى القاهرة. هذا بالإضافة إلى الكتاب العرب الذين استعنت بكتاباتهم واعتقدت أنه لا غنى عن إضافة بعض العبارات الخاصة بهم على هيئة نصوص ملحقة بهذه الدراسة؛ لكى تكون مبررات أو مفسرات للأحداث التى أوردتها، وهم: جرجس بن العميد ويشتهر باسم المكين والمقريزى وقد حملت معى من مصر نسخة خطية جيدة جدًا لمؤلفه، وعبداللطيف والسيوطى وابن إياس.

هذا بالإضافة إلى عدد من المؤرخين والجغرافيين الآخرين الذين يتمتعون بجدارة بشهرة واسعة ليس فقط فى الشرق وإنما فى الغرب أيضًا.

ويعد مؤلف المقريزى على وجه الخصوص. وسأستعين هنا بتعبيرات العالم المتواضع السيد لانجليه الذى أشرف دائمًا بأننى تتلمذت على يديه ـ دون نزاع الأكثر كمالاً وشمولاً ودقة فى الحديث عن مصر.

ويبدو لى السيوطى وكأنه يستحق مديحًا مماثلاً، فقد كانت مؤلفاته ضمن المؤلفات ذائعة الصيت بين المستشرقين والمؤرخين الذين تحدثوا عن مصر، ويجب أن أشهد أننا قد وجدنا ضمن مجموعته العلمية معجمًا ضخمًا بقدر ما هو شامل ومفيد يتناول كل ما يتعلق بهذا البلد.

أما مؤلف عبداللطيف فهو أقل شمولاً من السابقين، ولكنه يحوى تفاصيلاً فى غاية الأهمية عن تاريخ وطبوغرافية مصر، ويكفى لمدحه أن أقول إن السيد البارون سلفستر دوساسى - الذى ينهل من علمه الواسع كل المستشرقين ليس فقط الفرنسيون وإنما الأوروبيون جميعًا، ويتفق الجميع على إلحاق التقدير والتحية بجهوده المتميزة - وقد اعتبر هذا الكاتب يستحق اهتمامه الخاص وعمله الدءوب، وأراد أن يكرس جهوده لترجمة هذا المؤلف إلى اللغة الفرنسية، وقد نشرت هذه الترجمة منذ خمسة أعوام من المطبعة الحكومية عندما عهد إلى بإدارتها.

وبالإشارة إلى المرشدين الذين تبعتهم والمصادر التى اغترفت منها مادتى العلمية فإن هذا كله يؤكد بلا شك صدق هذا العمل المطلق ودقته، وتتأكد هذه الصفة الأخيرة من ناحية أخرى بعدد الوثائق التاريخية التى أمدتنى بجزء من النقوش الواردة فى هذه الدراسة مع إضافة شرح لها.

وللوصول إلى هذا الهدف بطريقة أكثر تأكيدًا، أعتقد أنه يجب أن أرفق بنصوص المؤلفين الشرقيين التى تتناول المقياس والتى تمثل الجزء السادس من هذه الدراسة ترجمة حرفية لها باللغة اللاتينية، لأن الجانب الأعظم من هذه النصوص لم يترجم بعد أو ينشر بلغتهم.

ويبدو لى هذا التجميع ذا فائدة حقيقية إلى حد كبير بقدر ما يضم فى جزئه الأكبر كتابات المؤرخين العرب الذين ولدوا بمصر، فسوف نجد به الأحداث المتعلقة بالمقياس وقد وصفت فى نفس الأماكن التى حدثت بها، وقام بوصفها كُتَّابٌ معاصرون سمح لهم مركزهم بمعرفة كل التفاصيل بدقة متناهية.

وأعتقد أنه من الضرورى أيضًا أن أسبق هذه النصوص العربية ببعض أقوال المؤرخين اليونانيين واللاتينيين الذين ذكرتهم فى هذه الدراسة، إلا أن نصوصهم ستكون أقل عددًا من المؤلفات الشرقية، وقد أضفت ترجمة لاتينية للنصوص اليونانية حتى لا توجد أى عقبة أمام القراء الذين لم يعتادوا قراءة هذه اللغة الأخيرة.

الجزء الأول

الفصل الأول
حول النيل وأسمائه المختلفة

يتعلق الموضوع الأساسى لهذه الدراسة بمنشأة معمارية خصصت للنيل فقط وكانت له بمثابة المعبد وقدس الأقداس، إذا ما جاز لى استخدام مثل هذه التعبيرات. وقبل أن أقدم موجزًا تاريخيًا لمنشآت من نفس النوع شيدت لقياس ارتفاع الفيضانات، أعتقد أنه من صميم دراستى أن أبدأ هنا بذكر بعض الكلمات عن عادات الشرقيين فيما يتعلق بهذا النهر، وعن الأسماء المختلفة التى أطلقوها عليه وما يزالون.

وعدد هذه الأسماء كبير، ويبدو الواحد منها وكأنه يختلف تمامًا عن الأسماء الأخرى، وعلى الرغم من ذلك فعندما قمت بالبحث لكى أكتشف الأصل والمدلول الخاص بكل اسم منها وحاولت أن أتتبع أصل الكلمة ذاتها، وجدت أنه يوجد بينها جميعًا علاقات إيجابية أكثر قربًا مما يعتقد الكثيرون الذين لم يقوموا بمثل هذا العمل التتبعى.

إن مناقشة هذه العادات والأسماء المختلفة تبدو لى وكأنها أهم من أن توضع هنا، لأن بعضها يمكن أن يفيد فى تسهيل فهم الإشارات التى تحويها نقوش المقياس المختلفة وأيضًا مؤلفات المؤرخين الذين ذكرتهم فى هذه الدراسة.

المبحث الأول

أسماء النيل عند القدماء

نجد فى أماكن متفرقة من التوراة أنه تمت الإشارة إلى النيل بأربعة أسماء مختلفة لا توجد بينها علاقة لا فى تركيبها اللغوى ولا فى الجذور التى ترجع إليها، وهذه الأسماء هى:

جيحون، ونهر، ونهل، وسسيحور.

وفى الواقع فإننا لا نؤيد مناقشة ما إذا كان أول هذه الأسماء ـ والذى لا يوجد إلا فى كتب موسى(*) ـ يرتبط بالنيل بطريقة مؤكدة، فقد قدم عدد كبير من المفسرين والمعلقين رأيًا معاكسًا كذلك، واعتمدوا على معلومات مطولة للغاية، ولكنها مستمدة فى معظمها من هذا الاعتراض الذى لا طائل منه، وقالوا إن الادعاء بأن موسى قد أطلق على النيل اسم جيحون يعنى أن ننسب إليه خطأً جسيمًا فى معرفته بالجغرافيا، بسبب البعد الشاسع الذى يوجد بين منابع النيل ومنابع الأنهار الأخرى التى توجد بجواره فى عدن.

وللرد على هذه الاعتراضات يمكننا أن نكتفى بالقول بأن كُتَّاب أول خمسة كتب من التوراة، وكذلك كُتَّاب الأجزاء الأخرى منها قد وقعوا فى أخطاء واضحة

(*) انظر الملاحظات فى نهاية هذه الدراسة.

لا نستطيع أن نوافق عليها سواء فى الجغرافيا أو علوم الطبيعة، وهى أخطاء تسبب فيها المفهوم المحدود الذى اتسمت به العلوم والمعارف فى زمنهم، دون أن يؤدى ذلك إلى اعتراض هؤلاء الذين لاحظوا هذه الأخطاء وذلك بسبب الاحترام الواجب لهذه الكتب المقدسة، وعلاوة على ذلك فإنها تتميز بخاصية أخرى وهى أنها تمثل أقدم الكتب التاريخية الموجودة فى نظرنا.

إن هذا الخطأ لا ينسب فقط إلى موسى، فإن القدماء. وهم أسوأ الجغرافيين فى معظمهم ـ لم تكن لديهم فكرة مؤكدة ومحددة عن اتجاه النيل ومنابعه، فقد أخبرنا بوسينيساس وفيلوسترات أنهما أعتقدا أن نهر النيل ينبع من الفرات الذى يصب مياهه فى مستنقع فى إثيوبيا يطلق عليه النيل، وأن الإسكندر الأكبر قد وجد فى نهر إندوس تماسيح ورأى بقولاً تشبه بقول مصر على ضفاف نهر أساسين. وهو نهر آخر يصب فى نهر إندوس ـ وعندئذ لم يشك مطلقًا أنه اكتشف المنابع الحقيقية للنيل.

ومن ناحية أخرى فإن نص موسى يتسم بأنه إيجابى وله معان واضحة، ويتكون من أقوال معروفة من تعبيرات جزئية للجمل العبرية، ولذلك تبدو لى كل التفسيرات الأخرى مقحمة ولا يمكن أن نقبلها إلا بعصر الكلمات وإبعادها تعسفيًا عن معانيها المحددة والأدبية.

وفى الواقع فإن هذا النص يذكر ـ دون أى غموض ـ أن النهر الذى يعطيه اسم جيحون يروى أرض شوس (كوش)، وقد اتفق المفسرون بالإجماع على ترجمة هذا الاسم ببلاد الحبشة.

وفضلاً عن ذلك فإن السبتانت (*) ومؤلف الفولجات قد ارتضوا أن ينقلوا الكلمة العبرية جيحون بكتابة أخرى لتصبح عند المجموعة الأولى منهم جحن وعند الثانى جيحن. ونجد أيضًا هذا الاسم وقد تحول فى النسخة العربية إلى جيحان وفى النسخة السريانية إلى جيحون وفى العبارات الكلدانية لأونكيلوس وچوناثان إلى جيحون وفى النص العبرى ـ السامرى جيحون.

(*) السبعون . (المترجم)..

أما النسخة السامرية فهى النسخة الوحيدة التى ترجمت هذا الاسم بدلاً من أن تنقله بكل بساطة، واستبدلته بكلمة مختلفة تمامًا هى كلمة عسقوف. وسوف نعود إلى هذه الكلمة ونتناولها بطريقة أكثر اتساعًا فى نهاية هذا الجزء.

وتحمل النسخة الفارسية لخمسة الأجزاء الأولى من التوراة ليعقوب تاعوزى كلمة جيحون مثلها مثل النسخة السريانية.

ويتفق كل الأحبار والمتخصصين فى اللغة العبرية على إرجاع أصل كلمة جيحون إلى الجذر «جوح» الذى يعنى (يخرج بقوة أو يندفع).

وعند الحديث عن البحر بصفة خاصة أو عن الكميات الكبيرة للمياه: «اهتز، هدر، قاوم ضفافه». وهكذا فإن مشتقات هذا الجذر تتفق مع المعنى المطلوب، وتوجد أيضًا فى الكلمة المتجانسة فى اللغات الشرقية الأخرى المجاورة أو المشتقة من اللغة العبرية.

وإذا تتبعنا هذا الرأى - المبنى على أسس واهية كانت أم حقيقية، والتى لن أسمح بمناقشتها هنا أكثر من ذلك - عن التطابق بين النيل وجيحون الذى تحدث عنه موسى، فسنجد أن مفردات اللغة القبطية الحديثة تشير للنيل عادة باسم بى - كيون، وما هى فى الواقع إلا نفس الكلمة السابقة مضافًا إليها أداة التعريف الخاصة بهذه اللغة.

ووفقًا لنفس الدوافع السابقة يعطى الإثيوبيون للنيل اسم تاكازى جيون أى نهر جيون، واسم جيون يكتب فى لغتهم أحيانًا بطريقتين أخريين: جيون وجيوون.

ونجد أيضًا اسم كيهون، وكأنه أحد أسماء نهر النيل التى وردت فى الدراسة الجغرافية لموسى من خراسان، والتى أضافها لتاريخه عن أرمينيا.

وقبل أن أنهى هذا الموضوع يجب أن أشير إلى أنه على الرغم من الاتفاق الإجماعى لكل مفسرى التوراة على أن كلمة جيحون تشير إلى نهر النيل، فإن الحبر سلمون يرخى يقول إن أول الأنهار الأربعة التى تحدث عنها موسى هى «الفيزون» وهو النيل نفسه. وقد عارض ابن عزرا هذا الرأى بينما اتبعه صادياح جاون الفيومى فى نسخته العربية لخمسة الأجزاء الأولى من التوراة، وكذا فعل

واضع الترجمة العربية التى تتوافق حرفيًا مع النسخة القبطية للتوراة فى مخطوطى، واتبعه كذلك الرحالة اليهودى الشهير بنيامين من تودل الذى تحدثت عنه قبلاً.

وعلاوة على ذلك فربما يكون فى الإمكان التوفيق بين هذين الرأيين اللذين يبدوان للوهلة الأولى متنافرين، فقد اعتبر الفرعان الرئيسيان لنهر مصر - وهما الأباوى فى الشرق والبحر الأبيض فى الغرب وكأنهما النيل نفسه عند الشعوب الأخرى على مر العصور، إلا أن الرأى لم يستقر تمامًا حتى يومنا هذا بخصوص هذا الموضوع فى أوروبا، وما يزال بالمثل غير واضح فى أفريقيا وعلى ضفاف هذين الفرعين، وإذا أشرنا إلى الفيزون كأحد هذين النهرين فإنى أتصور بذلك - بالإضافة إلى ما سبق - أن السؤال يقدم حله بنفسه، هذا بالإضافة إلى أن الفيزون وفقًا للنص العبرى وبالنسبة لكل المفسرين يتجه فى أرض حيفيلة، وتبدو هذه الأرض وكأنها بالتأكيد بلاد الحبشة نفسها، وحيث إنه لا يوجد نهر كبير آخر إلا الأباوى فى هذه المنطقة فإن الفيزون سيكون بذلك هو الأباوى. وقد اعتقد الكثير من المعلقين أنه باسم جيحون أراد موسى أن يشير إلى نهر النيجر، ولعل هذا الاعتقاد الذى تمت الموافقة عليه دون الكثير من الاعتراضات، يتماشى جيدًا مع الفكرة التى ذكرناها توًا، لأن كل الآثار القديمة تؤيد ذلك، ويبدو من المتعارف عليه اليوم أن النيجر له اتصال ما بالفرع الغربى للنيل أى بالبحر الأبيض.

ويفسر بنيامين من تودل - الذى سيكون حكمه هنا ذا ثقل كبير، بطريقة إيجابية للغاية - توافق الفيزون والأباوى بقوله «إنه من بلدة عدن إلى أسوان تستغرق الرحلة بطول نهر الفيزون ٢٠ يومًا، وينبع الفيزون من بلدة كوش، وهناك يحكم - كما يقول - حاكم يحمل لقب سلطان الحبشة».

وفى تاريخه عن الملوك المسلمين بالحبشة قدم المقريزى موجزًا جغرافيًا بالغ الأهمية عن هذا البلد وقال إن السيحون هو فرع من النيل، يقع فى الجانب الشرقى من الحبشة، بينما ادعى مؤلف النسخة العربية من التوراة المترجمة عن القبطية أنه هو نفسه الفيزون والنيل.

وهكذا لا يمكن إطلاقًا أن نستبعد الاعتقاد بأن الفيزون هو بحق المنبع الشرقى للنيل الذى يأتى من مقاطعة جوچام فى الحبشة ويحمل اسمى الأباوى والنهر الأزرق، وأن الجيحون فى المقابل هو المنبع الغربى الذى يخرج من جبال القمر ويتصل أغلب الظن بالنيجر، ويطلق عليه اليوم النيل الأبيض والنهر الأبيض.

* * *

أما الاسم الثانى للنيل فى التوراة فهو نهر وقد استخدمه العبرانيون بكثرة للتعبير عن هذا النهر، ويتصل عندهم عادة باسم مصر بهذه الطريقة: نهر مصراييم، ويعنى حرفيًا فى هذه الحالة نهر مصر.

وتبدو هذه التسمية مطابقة للتسمية التى عَرَّف بها هوميروس نهر النيل، وفى الواقع فإن أمير الشعراء هذا لم يعط لهذا النهر الاسم نهر مصر.

ويقول ديودور الصقلى - الذى نثق فى الأحداث التى يوردها فى معظم الأحوال لكننا لا نثق تمامًا فى الأسباب التى يفسرها بها أو فى الإشارات التى يستنتجها عنها - إن النيل قد حمل هذا الاسم، ولكنه يفسر ذلك بقوله إن اسم مصر كان اسمًا لملك قديم فى هذا البلد وتشريفًا له أطلق اسمه على النهر الذى يروى هذه الأرض.

وفى بعض الأحيان أيضًا يمكن لاسم نهر أن يستخدم مفردًا فى التوراة للتعبير عن النيل، ويعنى فى هذه الحالة النهر فقط بصفة مطلقة، ويحدث ذلك عندما يشتق اسم خاص من اسم علم، ولعل هذا مألوف للغاية فى اللغات الشرقية. ويجب أن أضيف أيضًا أن العبرانيين أنفسهم يميزون النيل فى بعض أجزاء التوراة بالاسم المفرد إيسار والذى يعنى أيضًا النهر.

وكثيرًا ما يطلق على النيل فى الكتب القبطية اسم فيسارو، أو باللهجة الصعيدية ب - إيرو أى النهر.

ويطلق العرب على الفرات اسم نهر، وهو نفس الاسم الذى يطلقه عليه العبرانيون بعدما أطلقوه من قبل على نهر النيل، ويسمى الفرس أيضًا بنفس

الاسم وهو رود الذى يحمل نفس المعنى فى لغتهم نهر أوكسوس الذى يطلق عليه بعض المؤرخين الشرقيين اسم جيحون إلا أن أسماءه الحقيقية هى آب آمو ودهان شير. هذا بالإضافة إلى اسم أكثر شيوعًا له وهو نهر بلخ، وقد أُطلق عليه لقربه من مدينة بلخ.

كما يعطى الأثيوبيون إلى النيل فى بعض الأحيان أيضًا اسم تاكازى أى النهر.

ولكن يجب أن أشير إلى أن هذا الاسم الأخير للنيل عند الأثيوبيين والذى ذكره بعض الرحالة بتجازى، يطلق فى أغلب الأحيان وبطريقة خاصة على نهر تيجروس أحد أضخم أفرع النيل فى الحبشة، والذى يطلق عليه الرحالة أيضًا اسم عطبرة.

* * *

أما ثالث الأسماء التى أطلقها العبرانيون على النيل فهو نهل أو نخل، ونجده مثل سابقه يرتبط كثيرًا باسم مصر فيقال نهل مصراييم. وفى الواقع فإن هذا الاسم ليس شيئًا آخر إلا الاسم الذى أطلقه الإغريق واليونانيون على هذا النهر بصفة عامة وكان عندهم نيلوس، وذلك بإضافة النهاية المميزة للكلمات فى لغتهم.

أما تسمية نوشول التى أطلقها بومبونيوس ميلا على جزء من نهر النيل فى أثيوبيا، فهى تحتفظ أيضًا بالنطق المجرد لحرف حت أو خت الذى تحويه كلمة نهل وفى الواقع فإن هذا الاسم يمثل بذاته جذرًا فى اللغة العبرية، ومن هنا لا نجد أفضل من أن نفسره أو نترجمه حرفيًا، وسوف يتماشى بذلك وبطريقة خاصة جدًا وإيجابية مع النيل تبعًا لاتجاه مجراه وفيضاناته السنوية التى تسببها الأمطار الموسمية فى أثيوبيا.

وفى الواقع فإن اسم نهل - وفقًا لكل المعجميين العبرانيين - يعنى بطريقة تعبيرية فى هذه اللغة «واديًا ضيقًا ومنحصرًا يشكل مجرى تنهمر فيه السيول بسرعة ويمتلئ فى وقت الأمطار الشديدة». ولهذه الكلمة نفس المفهوم فى اللغات الشرقية الأخرى، فسنجدها فى اللغة الكلدانية نهلاً ومنهلاً، وفى السريانية نهلو،

وفى السامرية نهل وفى الفارسية نحلاً، وهذه الكلمات جميعها تعطى بدقة نفس المعنى الذى تعطيه الكلمة العبرية، وتزودنا اللغتان العربية والأثيوبية بكلمات مشابهة لأجزاء مختلفة من هذا الجذر اللغوى، وتستخدم هذه الكلمات كثيرًا، وتتشابه حروفها الأساسية تمامًا مع أحرف هذا الجذر العبرى.

* * *

أما بالنسبة للاسم الرابع للنيل فهو سيسيحور أو سيحور، ونصادفه فى أماكن عديدة فى التوراة، ونجده مكتوبًا أيضًا بطريقة أخرى هى سيساحور، ويبدو لى دون شك أنه هو نفس الاسم الذى ذكره كل من هيرودوت وبلوتارخ وبلينى عالم الطبيعة، وقالوا إنه أحد الأسماء القديمة للنيل.

ويذكر دنيس يريچيت هذا الاسم أيضًا، ولكنه يقول إنه من أصل إثيوبى حيث يطلقه الإثيوبيون على جزء من نهر النيل يعبر أرضهم.

ويرجع العبرانيون أصل هذا الاسم للجذر سسحر الذى يعنى مضطربًا وأسود، ولمشتقاته سواء فى لغتهم الخاصة أو فى اللغات الشرقية الأخرى نفس المعنى. ويشير أوثثات - الذى علق على أعمال دنيس - أن الإغريق يترجمون هذه الصفة ويطلقون على النيل أيضًا اسم ميلاس الذى يعنى فى لغتهم نفس المعنى، وقد احتفظ اليونانيون أيضًا بهذه التسمية الأخيرة وأصبحت عندهم ميلو وميللو، وأطلق كل من سكستوس بومبيسوس فستوس وأوسون نفس الاسم أيضًا على نهر النيل.

وفى الواقع لم يكن هذا الاسم بعيدًا عن استخدام المحدثين، فقد استخدمه العالم «چاك جرونوڤيوس» الذى يتبع فى أعماله أسلوبًا جامدًا فظًا بالنسبة للكلمات الأقل استخدامًا.

ورجوعًا إلى أصل هذه التسمية يبدو من المعتقد أن السبب فى ذلك يرجع للحالة المضطربة والعكرة التى تكون عليها مياه النيل خلال فيضانه السنوى، ويعتقد أيضًا أن اسم الأسود قد أطلق على هذا النهر لأنه ينبع من أرض أثيوبيا أو بلاد السود، وإذا ما ارتضينا هذا التفسير فسندرك الدافع من وراء إطلاق

اسم النيجر على نهر كبير آخر يجرى فى أفريقيا. ولن أستمر هنا مطلقًا فى هذا النقاش وسأكتفى فقط بعرض بسيط للتفسير الحرفى لهذا الاسم، مع ملاحظة أن الافتراض الثانى يبدو لى أكثر حيث إنه ـ كما سبق وأن رأينا ـ يعتمد على مثال آخر كما أنه يلتصق بتفسير اسم آخر للنيل سأتناوله فيما بعد.

ولعل ما يؤكد هذا الافتراض الأخير هو أن إيشيل يطلق على الجزء الذى يجرى من النيل بدءًا من المنبع حتى الجنادل اسم بوتاموس إريوتى، بينما يطلق على الجزء الذى يبدأ من الجنادل ويصب فى البحر المتوسط اسم نيلوس.

ويمكن أن ألاحظ أيضًا أن اسم النيل فى اللغة السنسكريتية هو كالى الذى يعنى أسود وجميل فى نفس الوقت.

* * *

إن أقدم اسم أطلقه المصريون على نهر النيل ـ كما يذكر ديودور الصقلى ـ هو اسم بحر، وأضاف أن هذا الاسم له عند اليونانيين نفس المدلول. ويمككنا أن نلاحظ بداية فيما يتعلق بهذه التسمية، أنه فى الفترة الزمنية الحديثة والقريبة يطلق سكان مصر وبقية أهل الشرق على النيل عادة تسمية البحر أكثر مما يطلقون عليه تسمية النهر، وبدون شك فإن الاتساع الكبير لهذا النهر لاسيما الامتداد الشاسع لشواطئه كان هو الدافع الأساسى الذى جعل سكان مصر قديمًا وحديثًا يطلقون عليه هذا الاسم.

ونجد هذه التسمية أيضًا متضمنة فى أحد نصوص بلينى عالم الطبيعة الذى قام ـ فى مؤلفه العلمى ـ بتجميع عدد من الروايات الفريدة التى وردت عند مختلف الشعوب التى قام بذكرها، ثم ذكر لاحقًا فى الفصل الحادى عشر من كتابه الخامس والثلاثين عند حديثه عن النيل أنه يشبه البحر.

ولا يمكننا أن نعتقد بسبب هذه الجملة المنفردة التى قالها بلينى أن النيل بنفس هياج البحر، حيث إن مياه النيل بعيدة كل البعد عن ذلك، فإننا نستطيع أن نميز بين مياه النهر الهادئة ومياه البحر المضطربة حتى بعد أن تعبر هذه المياه البوغاز وتصب فى البحر وتتوغل لمسافات بعيدة عن الشاطئ. وعلى هذا فإن

المعنى المنطقى الوحيد الذى يمكننا أن نفهمه من عبارة بلينى هو «أن مياه النيل تشبه البحر»، ومن ناحية أخرى فإن المفهوم المحدد للمقطع الذى استخدم فيه بلينى هذه العبارة لا يمكن أن يقبل تفسيرًا آخر.

وقد أخبرنا العالم روسى أن كلمة «بحر» كانت تكتب بطريقة خاطئة فى معظم كتب ديودور، بينما سجلت كل المخطوطات تقريبًا هذه الكلمة بطريقة أفضل بكثير ـ ووفقًا لما يرى ـ فقد احتفظت إلى حد كبير بشكلها المصرى القديم، وذلك لأن جذر الكلمة سوف يكون فى هذه الحالة كلمة «أوشماو» أو «أوشيماو» التى تعنى «وفرة ـ كم كبير من المياه ـ مياه كثيرة ـ نهر كبير» ـ وتتكون الكلمة من جزءين قبطيين هما «أوش» بمعنى كبير أو كثير و«مو» أو «موو» الذى يعنى ماء فى اللهجة المنفية والذى يكتب أيضًا مو فى الكلمات المركبة و«موو» فى اللهجة الصعيدية و«مو» فى اللهجة البشمورية، وهى إحدى أقدم اللهجات فى اللغة القبطية، ولكن للأسف لم يتبق لنا منها سوى آثار قليلة للغاية، ويبدو أن هذه اللهجة هى نفسها التى احتفظت بمعظم كلمات اللغة المصرية القديمة.

وفى الواقع فلست أدرى ما إذا كان ممكنًا أن نتعرف على بقايا هذه الكلمة المصرية القديمة فى المعاجم الحديثة؟ وهل هى نفسها التى تعنى الآن المحيط أو البحر فى اللغة العربية؟

ويمكننا أن نتفهم جيدًا عن طريق هذا التفسير عبارة ديودور الصقلى، حين ذكر أن أول آلهة المصريين القدماء كان إله البحر ولكننا يجب أن ندرك أن هذا الإله لا يمكن أن يكون هو النيل نفسه، حيث إن كل الدلائل التى وصلت إلينا تشير إلى أن المصريين القدماء كانوا ينظرون إلى البحر نظرة خوف. وقد ذكر بلوتارخ فى كتابه عن إيزيس وأوزوريس أن البحر ـ عندما يطلق عليه اسم تيفون ـ كان يمثل بالنسبة للكهنة المصريين شيئًا مخيفًا لدرجة جعلتهم يرفضون استخراج الملح منه كما نفعل نحن، بل وكانوا يلقون الرعب فى قلوب الذين يقومون بأعمالهم فى البحر.

وهكذا فلم يكن البحر هو الإله الذى تعبد له المصريون القدماء، وإنما هى وفرة المياه التى يقدمها لهم نهر النيل بدءًا من منبعه، والتى تؤدى إلى فيض

وإخصاب الأرض. ولعلنا ندرك جيدًا أن نهر النيل بأسمائه المختلفة كان يتمتع بدرجة كبيرة من التقديس من سكان مصر القدماء.

* * *

وقد ذكر ديودور الصقلى أيضًا أن النيل قد أطلق عليه اسم «طائر العقاب»، وأعطى مبررًا لهذه التسمية قصة خرافية حكاها عن بروميته وهو أحد ملوك مصر القدماء، وعن هرقل.

وربما يمكننا أن نتشكك ـ ولنا الحق فى ذلك ـ فى أن هذه القصة قد بنيت على أساس خاطئ فى نقل ما تضمنته المخطوطات التى اعتمد عليها ديودور الصقلى فى كتابة مؤلفه، والتى ربما ضمت كلمات «مطر»، و«ممطر»، وما تكونه الأمطار بدلاً من كلمة «طائر العقاب»، والكلمات الأولى ـ كما نعرف ـ يمكن أن تتوافق جيدًا مع نهر النيل ومع أسباب فيضاناته. ومن هنا قام ديودور بتخيل أحداث قصته عن هرقل وبروميته، مدفوعًا بألا يكون جاهلاً لأصل هذه التسمية أمام مواطنيه الذين كانوا دائمًا يعشقون الغرائب والأساطير التى يتناقلونها بدون تفكير، لاسيما عندما تتعلق ببعض الأشخاص الذين سمعوا عنهم كثيرًا من خلال معتقداتهم الدينية.

ولأن هذه النظرية تبدو فى حد ذاتها غريبة أكثر من كونها طريفة، وعلى الأقل هكذا تبدو لى، فيجب أن نبحث إذن فى مصدر آخر عن أصل كلمة «طائر العقاب» التى نقرؤها بصورة حقيقية مفهومة فى تجانس كلمتين، ربما أخطأ ديودور بسهولة فى الخلط بينهما عندما سمعهما من كهنة مصر القديمة، الذين كانوا يسردون عليه التاريخ القديم، فلم تكن أذنه متمرسة بصورة كافية على التمييز بين الحروف المنطوقة الغريبة على لغته الأم.

ومن هنا يبدو أن الأصل الحقيقى لهذه التسمية المدَّعاة كان هو التشابه الذى يوجد بين كلمة «أوشيماو» ـ والتى كانت أحد الأسماء التى أطلقت على نهر النيل كما رأينا من قبل ـ وبين كلمة «أوأخم» أو «أوأخوم» التى تعنى طائر العقاب فى اللهجة المنفية للغة القبطية الحديثة.

* * *

وقبل أن نصل لأبعد من ذلك أعتقد أنه من الأفضل أن أعيد الحديث عن كلمة «عسقوف» التى أشرت من قبل أن السومريين قد ترجموا بها كلمة جيحون التى وردت فى النص العبرى. وبداية يجب أن نلاحظ أن كل أسماء الأماكن والأنهار التى وردت فى أسفار موسى الخمسة لا تبدو فى النسخة السامرية منقولة ومنسوخة، ولكنها مترجمة بأسماء أخرى، ترتبط فى الواقع بعادات وأفكار قديمة وهامة، وسيكون من الشيق أن نبحث لنكتشف أصلها، ولكن هذه الأبحاث ستكون دخيلة على موضوع دراستى هنا، ولذلك فسوف أتوقف عند هذا الحد.

إن الشكل الوحيد لكلمة عسقوف يتكون من خمسة أحرف، أربعة منها أساسية وضرورية للنطق، ولعل هذا يمنعنا أن نرجعها إلى جذر أولى يتكون من ثلاثة أحرف فقط، فجذور الكلمات الرباعية أو حتى الخماسية كانت نادرة جدًا ليس فقط فى اللغة السومرية ولكن أيضًا فى اللغة العبرية واللغات الشرقية الأخرى، وإنما على الأحرى الكلمات التى تندرج تحت هذا النوع والتى نفترض أنها جذور أصلية ليست فى الواقع جذورًا حقيقية، وإنما فقط تعبيرات مركبة من جذرين ثنائيين، سواء مازالا مستخدمين فى اللغة أو أصبحا غير مستخدمين.

ومن هنا ندرك أن هذا الاسم يحمل فى الحقيقة طابع كلمة مكونة من كلمتين، مما يدفعنا إلى أن نتحقق منهما ونحللهما بغرض أن نكتشف ما إذا كان يوجد فى العناصر المكونة لهما بعض التشابه أو التقارب مع الأسماء الأخرى التى عرفناها لنهر النيل.

وإذا اعتقدنا أنه بإمكاننا أن نتقبل هذا الافتراض الأولى دون النظر إلى غرابته، فإن هذه الكلمة يمكن أن تنقسم بسهولة إلى الكلمتين التاليتين: «عسق» و«وف»، ويمكن لأولاهما أن تعنى ظلمات ومظلم فى اللغة السامرية وهى نفس المعانى التى تشير إليها كلمة حسك أو حاسك العبرية. ويستخدم الحرف الأول من الكلمة السومرية كثيرًا وهو «ع» ليحل محل حرف «حت» عند العبريين، ويمكننا أن ندرك ذلك من خلال عدد كبير من الأمثلة.

أمـا الحـرف الثـانى وهو «سـامك» فـإنه يحل مـحل الحـرف «سـسـين» عند العبـريين عادة، كمـا أنه يتم الخلط كثيـرًا بين هذين الحـرفين فى اللغة العبـرية. ويحل الحـرف الأخير «قوف» عند السومـريين محل حـرف «قـاف» عند العبـريين، وبهذه الطريقـة فإن الكلمـتين العبـرية والسـومـرية يمكن إلى حد مـا أن تصبـحـا متشابهتين.

وفيما يتعلق بالكلمة الثانية التى تمثل المقطع الثانى من الاسم المركب، فسنجد أنها تمثل الجـذر العبرى الذى لم يعد مستخدمًا الآن، وهو «آف» أو «أوف» والذى يمكن أن يكتب أيضًا «آوف». ولا نجـد هذه الكلمة الأساسية فى كتب التوراة التى نقرؤها والتى لم تستخدم فيها الكلمات الجـذرية التى تُكون اللغة العبـرية، ولكننا يمكننا أن نتتبع آثارها من خلال أحد الأفـعال شـائع الاسـتخدام فى هـذه اللغة والذى اشـتق بدوره من الجـذر: آفف، بمعنى: يحـيط، ويهـتـز، ويدور. ولعل هذا يظهـر جليًا فى اللغة العربيـة فهى اللغـة التى نضطر كثيـرًا إلى البحث فيها عن أصـول الكلمـات المشـتقـة وعن جـذور أصليـة، وينطبق هذا على الكلمـات التى مـازالت تستخدم فى اللغة العبرية على الرغم من أن جذورها لم تعد تستخدم، وهى ظاهـرة نقـابلهـا كـثيـرًا فـى اللغـات ذات الأصل الواحـد، فنجـد أن إحـداها تحتفظ بجذور لغوية لم تعد مستخدمة فى اللغات الأخرى، على الرغم من أن الكلمات المشتقة عنها لا تزال تستخدم.

ونجد فى اللغة العربية أن الفعل الأسـاسى «وفى» يعنى فى الشكل الثالث له: يأتى ويصل ويقدم، ومن الكلمات المشتقة عنه «يافوف» التى تعنى سـريع ومندفع وعاجل.

ومن هنا فـإن الدلالة الكاملة لكلمـة «عـسـقـوف» سـتكون «يخـرج بعنف من الظلمات»، وسوف نجد فى المقطع الأخير من هذه الكلمة نفس المعنى الذى رأيناه من قبل فيمـا يتعلق باسم النيل الأول «جيحون»، أما المقطع الأول فيعطينا مفهومًا زائدًا متضـمنًا فى الجملة المرافقة لهذه الكلمة فى نص موسى، وهو مفهوم قد أدركه جيدًا المؤرخون الإغريق ويوجد فى معنى ودلالة الاسم الرابع لنهـر النيل عند العبـرانيين «سسيحور»، الذى تناولناه من قبل.

وعلاوة على ذلك فإذا ارتضينا هذا التعبير «يخرج من الظلمات» فإننا يمكن أن نجد أنفسنا أمام افتراضين مختلفين: يرتبط الافتراض الأول منهما بأن أهل الشرق والعرب يطلقون على البحر عادة اسم بحر الظلمات، وهنا يتبلور الرأى الذى تبناه الإغريق وهو أن البحر كان المصدر الحقيقى لنهر النيل.

وعندما نتناول فى الافتراض الثانى كلمة «عسق» السامرية وكلمة «حاسق» العبرية ندرك أنهما لا تعنيان فقط «الظلمات»، ولكن أيضًا: العتمة والإبهام والغموض والاسوداد، ومن هنا يمكننا أن نطلق هذه التسمية على بلاد السود أو الأثيوبيين التى رأيناها من قبل، وقد أطلق عليها موسى اسم: آرت كوش أى «بلاد كوش» والتى يأخذ منها النيل مياهه. وبذلك فإن هذا الاسم يكون متماشيًا ـ كما أشرت من قبل ـ مع اسم سسيحور العبرى واسم إيبيس المصرى القديم واسم ميلاس الإغريقى.

ومن خلال افتراض آخر ودون اللجوء إلى استبدال الأحرف يمكننا أيضًا أن نجد أصلاً لغويًا لكلمة «عسقوف»، فكلمة «عسق» تعنى: يغمر ويطغى ويفيض فى اللغة السامرية، بينما تقابل كلمة «وف» كلمة «وفّى» فى اللغة العربية ـ كما ذكرنا من قبل ـ وإذا أخذنا بهذه النظرية فإن الكلمة هنا تعنى «النهر الذى يفيض والذى يسير بسرعة فى مجراه».

وعلاوة على ذلك فهناك أيضًا افتراض ثالث لا يبدو لى أنه خالٍ من الواقعية والاحتمالية، فهناك تشابه كبير بين أشكال حرف النون (N) وحرف فى (F) فى الكتابة السامرية، فهل يدعونا هذا إلى أن نفترض أن الذين قاموا بنقل النصوص قد أخطأوا واستبدلوا أحد الحرفين بالآخر؛ إن الأمثلة التى تشير إلى ذلك كثيرة، ويمكننا أن نؤيدها بأكثر من سبب لاسيما فيما يتعلق باسم نهر غريب أكثر مما يتعلق الأمر بكلمة معروفة ومستخدمة فى لغة كاتب هذه النصوص.

وانطلاقًا من هذا الافتراض فإذا قرأنا «عسقون» بدلاً من عسقوف فسوف نحصل على اسم شائع الاستخدام فى كل لغات التوراة مثلما هو الحال بالنسبة لكلمة «جيحون»، والتى تقدم نفس المعنى بدقة، وعلى هذا الأساس سوف يشتق هذا الاسم وفقًا للأشكال اللغوية من الجذر «عسق» بمعنى يفيض ويغمر.

وسوف أكتفى هنا بتقديم هذه الافتراضات الثلاثة دون أن أتبنى أحدها بصورة نهائية، ولن أقوم بعرض أفكارى حول هذا الموضوع فى أى مكان آخر من هذه الدراسة.

* * *

يطلق على النيل فى اللغة الأمهرية ـ وهى لهجة اللغة الأثيوبية الحديثة ـ اسم آباوى، الذى يكتب وينطق باللغة العامية «أباى»، وكتبه المؤلفون العرب «أبى».

وقد اشتق الإثيوبيون هذين الاسمين من أبابى التى تعنى البحار والأمواج العالية وهو نفس المعنى الذى تشير إليه الكلمة العربية «أباب» (*)، إلا أن هذا الاسم يستخدم فى إثيوبيا على وجه الخصوص للإشارة إلى أمواج البحر، وإلى البحر نفسه.

إن هذه التسمية التى تطلق على النيل تبدو فى مجملها صحيحة بالنظر إلى مدلول بعض الكلمات التى قالها لى أحد قساوسة مدينة جواندار التى نعرفها نحن باسم: جوندار، وسوف أقوم هنا بترجمة العبارات التى استخدمها: «يأتى أباى من الغرب ويصب فى بحيرة تسانا، وبعد أن نقوم بعبوره بكامل طوله نصل إلى الناحية الشرقية، ثم نصعد إلى الشمال لنجد أنفسنا فى مصر، إن مياهه صافية، ونستطيع أن نميز بينها وبين مياه البحيرة بسهولة، حيث إن مياهها ذات لون أسود ولا تمتزج معها مياه النهر أبدًا، كما أن مياه البحيرة التى يصب فيها النهر تتسم بسرعة كبيرة وبخطورتها الشديدة على المراكب التى تعبرها».

تمدنا كلمة آباوى بأصل لغوى لاسم آخر، يبدو أن المؤرخين الإغريق واليونانيين قد أطلقوه قديمًا على النيل نقلاً عن الأثيوبيين من سكان مروى، وهو اسم «أستابوس». وفى الواقع فإن سترابون قد ذكر أنه بالقرب من مروى ينقسم النيل إلى فرعين: يحمل أحدهما اسم أسابوس أو أسواباس، فى حين يحمل الآخر اسم أسابواس، كما أطلق بلينى على النيل فى إثيوبيا اسم أستابوس، وأطلق على فرعيه أستوساپ وأستابور، وقد لاحظت فى البداية وفى الوقت

(*) أباب من أيب فى اللغة العربية تعنى اشتاق أو تجهز (المترجم).

الحالى أن كلمتى حزات ـ آباوى أو حتسات ـ آباوى تعنيان فى اللغة الإثيوبية انفصال النيل وانخفاض النيل، وربما أيضًا النيل السفلى والنيل الصغير، وأعتقد أنه من الأفضل أن نضيف إلى هذه الملاحظة الأولية ـ على الرغم من أنها بدت لى كافية منذ الوهلة الأولى ـ افتراضًا آخر أو نظرية أخرى متكاملة إلى حد كبير، لاسيما وأنها تقدم لنا فى الوقت نفسه المصدر اللغوى الكامل لكل الأسماء التى أطلقها الجغرافيون الإغريق واليونان على النيل أو على روافده المختلفة التى خلطوا بينها وبين النيل بصفة مستمرة.

بنى هذا الأصل اللغوى على الدلالة اللغوية للكلمة الإثيوبية «أوحاذا» التى تعنى: يسيل ويوزع مياهه مثل سيل أو نهر، ومن هذا الجذر اللغوى تشتق كلمة أوحيذ، وبصيغة الجمع تصبح «أواحيذت»، وتعنى مياه ونهر وسيل.

إن هذا الجذر اللغوى يمدنا بالتفسير الطبيعى للمقطع الأول من الكلمة التى أوردها ديودور الصقلى وسترابون وهيرودوت وبلينى وسولان ـ الذى نقل عنه باختصار ـ وبنبونيوس ميلا مثل أستابوس وأستابور وأستوساب. يمكن للكلمة الإثيوبية التى قمنا بتحليلها هنا أن تُنطق فى اللغة القديمة أحاذت أو أحذت، ولن يمثل هذا الافتراض أى عقبة أمام المستشرقين لاسيما عندما نضع فى الاعتبار أن فى اللغة الأثيوبية الكلمات التى تبدأ بحرف «أُو» تفقد هذا الحرف عادة سواء فى مشتقاتها أو فى تركيباتها النحوية، ويصدق القول على كلمتى أسابوس وأستابوس التى أعطاهما هؤلاء الجغرافيون نفس المكانة التى يعطيها المحدثون إلى كلمة آباوى الآن، وهى ليست شيئًا آخر ـ عند حذف نهاية الكلمة المعتادة فى لغتهم الخاصة والتى قام بإضافتها الإغريق واليونان ـ سوى كلمة أحذت ـ أبو، بمعنى نهر آباوى.

وقد قام ديودور ـ فى حديثه عن هذا النهر ـ بترجمة اسمه بالآتى: «المياه التى تخرج من الظلمات» وقد رأينا من قبل أن كلمة الظلمات تشير عند القدماء إلى بلاد السود، ووفقًا لهذه الترجمة فإن حديث ديودور يعنى إذن أن أستابوس هو فرع النيل الأكثر قربًا من هذه البلاد فقط.

إن نهر أستابور الذى يمثل أيضًا نهر تيجروس، يطلق عليه الإثيوبيون بصورة أكثر شيوعًا تاكازى أى النهر وهو يعبر أرض «بورا»، ومن هنا فإن كلمة أحذتبورا تعنى نهر بورا. وسوف أضيف أيضًا أننا لانزال نجد بقايا لهذا الاسم القديم أستابوراس متضمنة فى التسمية المحورة عطبرة، وهو الاسم الذى أطلقه بعض المحدثين على النهر.

ويبدو لى نهر أستوساب هو نفسه نهر مارب عند المحدثين، وفى الواقع فإننا لا نستطيع أن نشك فى التطابق بين النهرين وفقًا للاعتبارين التاليين:

١ - اتفق كل الجغرافيين على تحديد مكان هذا النهر على يمين إستابوراس، وهو مكان لا يمكن أن يتوافق إلا مع مارب.

٢ - لاحظ بلينى وسولان أن هذا الاسم يعنى نهرًا مختبئًا، وقد نقل لنا لودولف أن مارب تختفى تحت الأرض فى جزء من مجراه مثلما هو الحال بالنسبة لنهر رون (نهر فرنسى)، ونهر جواديانا وغيرهما الكثير من الأنهار الكبيرة.

ومن هنا فإننا لا نرى فى كلمة أساوباس سوى أحذت أزاب التى تعنى نهر «عذب»، وفى الواقع فإن نهر «مارب» يروى بلاد باجيه ومن ضمنها مدينة عذب أو عيذاب؛ وهى مدينة رئيسية فى هذا البلد، وكانت فى وقت من الأوقات عاصمة إثيوبيا بالكامل، بل وعاصمة بعض البلاد الأخرى التى حكمتها ملكة سبأ الشهيرة التى قامت بزيارة سليمان. وأخيرًا فقد ذكر لودولف أن هناك قبيلة تدعى عذابو لا تزال تعيش بالقرب من منابع نهر مارب.

لم يعد يتبقى لنا هنا سوى اسم أساياباس الذى ذكره سترابون وحده وحدد موقعه بالقرب من مروى، ووفقًا لمواقع الأنهار الأخرى يمكننا أن نعتقد أن هذا الرافد الرابع هو أحد الروافد التى تمر على مقربة من مدينة جيبا، كما هو موضح فى الخريطة التى أمدنا بها لودولف، وعلى هذا الأساس يمكننا أن نترجم عبارة أحذت جيبا بنهر جيبا.

* * *

ولا تزال كلمة «حاذ» تعنى فى اللغة الإثيوبية «سهم»، وفى الواقع فإن تركيبها اللغوى ونطقها هو نفس تركيب ونطق الكلمة الإثيوبية السابقة إلى حد كبير، ومن

هذا المنطلق فإن هذه الكلمة تمدنا بالكثير من الإشارات التى ترتبط باللغة المصرية القديمة، ومن هنا يتضح أيضًا ما ذكره بعض الكُتَّاب الإغريق عن أن المصريين قد أعطوا للنيل اسم سهم.

* * *

وحتى لا نسقط اسمًا من الأسماء التى أطلقها القدماء على نهر النيل، سأضيف هنا أننا قد قرأنا فى كتاب إراتوستن أن هناك أحد الملوك المصريين القدماء كان يدعى فرورون، وهو اسم أطلق أيضًا على نهر النيل كما يضيف الكاتب.

وعند البحث عن المصدر اللغوى لهذا الاسم تبيّن أنه ربما يعنى النهر الذى ينساب بهدوء فى مجراه، ومن هذا المنطلق يمكننا أن نعقد توافقًا بين هذا الاسم وبين الكلمة القبطية ف. حرور التى تعنى السكينة والهدوء، والتى اشتقت بدورها من الجذر اللغوى حرى بمعنى يسكن.

* * *

وبخلاف الأسماء التى رأيناها من قبل تطلق على نهر النيل فى اللغة القبطية، فإن قاموس كروز القبطى وفقًا لما يذكره كرشر - يطلق على هذا النهر أيضًا اسم «أميرى»، وإذا ما أردنا أن نلتزم بالواقعية فربما يمكننا فى البداية افتراض أن هذا الاسم فى حد ذاته ليس شيئًا آخر سوى اسم نهر الذى قمنا بتحليله سابقًا، إلا أن المصريين قد ألحقوا به بعض التغييرات المعتادة فى لغتهم، وذلك باستبدال الحرف «نون» لدى العبرانيين بحرف «مو» لديهم كما هو الحال بالنسبة لكلمة «نوف» التى جعلوها «موف». وبكلمة نو - آمون التى أصبحت مومونفيس... وهكذا.

ولقد أشار بعض علماء المستشرقين إلى هذا الاستبدال فى الحروف على أنه قاعدة حدثت فى أحيان كثيرة، ومن الأمثلة التى تتبع هذه القاعدة ما نراه فى اسم «ميلاس» الذى أطلقه الإغريق على النيل والذى كان مرادفًا لكلمتى نهل ونيلوس كما أشرنا من قبل.

وعلاوة على ذلك فمهما كان الأمر وأيًا كانت الاحتمالات والافتراضات التى نعطيها لإثبات هذه النظرية، فلا يمكننا فى الواقع أن نمنع إيجاد بعض التشابه

بين هذا الاسم واسم الملك موريس الذى يطلق عليه أيضًا أميريس، والذى قام بالكثير من الأعمال المتعلقة بنهر النيل وفقًا لما أورده المؤرخون. ولكن يبدو أن الأصل اللغوى المتغير لتسمية النيل هذه يدل على أن الاسم «أميرى» هو نفسه اسم اللون الأزرق فى اللغة القبطية وفقًا لما ذكره كرش، ومما يؤيد هذا الرأى أن الأعراب الذين يعيشون فى النوبة يطلقون على الأباوى اسم البحر الأزرق.

وبالإضافة إلى ذلك يجب أن أشير إلى أن كلمتى إكسفافوس وإكسفافيوس اليونانيتين تعنيان أيضًا أزرق وأسود. ومن هنا فإن تسمية النهر الأزرق التى أطلقت على النيل يمكن أن تكون قد اشتقت من تسمية النهر الأسود التى رأيناها من قبل، والتى أطلقت عليه فى لغات مختلفة.

* * *

كان من الممكن أن أتوسع أكثر من ذلك فى هذا الموضوع، ولكن رغبتى الملحة فى نشر هذه الدراسة جعلتنى أسقط عددًا كبيرًا من الملاحظات حول بعض الأسماء الأخرى التى أطلقت فيما مضى على نهر النيل، فالمواد العلمية التى قمت بجمعها حول هذا الموضوع تكفى لعمل دراسة كاملة، وقد أغرانى ذلك أكثر من مرة أن أحذف من هذه الدراسة كل ما قرأناه عن موضوع أسماء النيل وذلك بفرض أن أضيفه إلى دراسة متخصصة أخرى ليتم عمل مجلد فريد.

وعلى الرغم من ذلك فلا أستطيع أن أمنع نفسى من أن أضيف أصلاً لغويًا جديدًا لكلمة «إكزامن» التى تتصل إلى حد كبير بأسماء النيل الأخرى، والتى صادفتها فى الوقت الذى كنت أضع فيه اللمسات الأخيرة لهذا الجزء من الدراسة.

عند مراجعتى للمكتبة الشرقية للعالم أسيمانى - وكنت أراجع دراسات تبدو موضوعاتها غريبة عن موضوع دراستى هنا - وجدت أن أحد ملوك إيدس كان يحمل لقب «أبجر»، وكان يحمل اسم «أوكاما» وهو اسم ترجمه أسيمانى بمعنى الأسود.

ووفقًا لترجمة هذه الكلمة السريانية التى توجد بنفس المعنى فى لغات التوراة الأخرى، والتى يتبين لنا يومًا بعد يوم أن اللغة المصرية القديمة كانت ترتبط بها

ارتباطًا واضحًا، فإن اسم إكزامن الذى أطلق على النيل لا يشير إلى أى معنى آخر سوى النهر الأسود، ومن هنا فإنه يرتبط كلية بمعانى معظم الأسماء القديمة التى أطلقت على هذا النهر.

المبحث الثانى
تسميات النيل

إن أحد الأسماء الرئيسية التى أطلقها الإغريق قديمًا على نهر النيل هو اسم «ديابتس» الذى يوجد فى كتابات هوميروس، وقد قام المحللون بترجمة هذه الكلمة وأضافوا تعليقات مطولة عليها.

وبدون أن أتظاهر أننى أضع رأيى فى نفس المكانة التى تحتلها آراء المشاهير الذين يتمتعون حتى الآن بتأييد كبير لما ذكروه من تفسيرات متعددة، فهل من الممكن أن نقوم ببساطة باعتبار الجزء الأول من هذه الكلمة حرف مبالغة زائد؟ فهو يدخل بهذا المعنى فى تركيب عدد كبير من الكلمات الإغريقية، وفى هذه الحالة لن تكون هذه الصفة شيئًا آخر سوى ترجمة لكلمة «جيحون» التى أطلقها العبرانيون على نهر النيل كما رأينا، والتى احتفظت فى كل اللغات الشرقية بنفس المعنى الذى أوردناه هنا.

وعلى هذا الأساس فليس هناك ما يمنع الاعتقاد بأن هوميروس قد أدرك معنى هذه التسمية، وقام بترجمتها وإضافتها إلى أشعاره الخالدة، وإذا أردنا نحن أن نحفظ لهذه الكلمة معناها العام الذى تشير إليه حتى الوقت الحالى فسوف نترجمها بسهولة: يخرج من السماء أو من المطر أو هبة السماء.

ويطلق العرب المحدثون عادة على نهر النيل صفة «الفياض»، وهو نفس الاسم الذى يطلقونه أيضًا على نهر الفرات، حيث إن هذين النهرين يقومان بإخصاب الأرض عن طريق الفيضان الذى يغمران به ما حولهما من المناطق، وعلى الرغم من ذلك فهناك اختلاف بين فيضان هذين النهرين: فنهر الفرات لا يفيض إلا بالقرب من مصبه، وليس هذا هو الحال بالنسبة لنهر النيل. ومن الصفات التى تلتصق بهذا النهر أيضًا صفة «المبارك»، التى تعبر عن امتنانهم له بسبب الخصوبة المرغوبة التى تمنحها مياهه لأرض مصر كل عام، كما يعتقدون أيضًا أن هذه المياه تمد السيدات بالخصوبة المطلوبة.

وعند حديثه عن الفيضان السنوى للنيل ذكر هورابولون أن المصريين قد أطلقوا على هذا النهر: «نوس» و«نوف» و«نون» فى وقت فيضانه، فهل يمكن أن نعتقد إذن أن الأصل اللغوى لهذه الكلمة يعود إلى الكلمة القبطية الصعيدية «نانو» التى تعنى رائعًا، والتى تمثل تضعيفًا للجذر اللغوى «نو» الذى يعنى جيدًا أو حسنًا، والذى يوجد فى اللهجات المختلفة التى حفظت لنا من اللغة القبطية؟

ويبدو أن تسمية النيل هذه كانت معروفة للفرس، فقد وجدناها مرتبطة بهذا النهر فى الفصل العشرين من «Boun - dehech ـ بون دهش» وهو مؤلف فارسى يضم علم الفلك عند الفرس، وقد وردت العبارات على النحو التالى: «إن نهر أرج يخرج من جبل البردى ويجرى فى أرض سورة التى يطلق عليها أميتشى ثم من هناك إلى أرض سبوتس التى يطلق عليها مصريدى، وهناك يطلق على النهر اسم نو أو نف».

إن التشابه فى الشكل بين الحرفين «ن» و«و» فى الكتابة الفارسية يسمح لنا بأن نقرأ الكلمة سابنتوس، كما يمكننا أن نقرأها أيضًا سبوتس، وقد بنى السيد أنكيتل قراءتها بالنطق الأول، أما أنا فأفضل نطقها بالطريقة الثانية التى هى فى الواقع ليست شيئًا آخر سوى تحريف للكلمة الإغريقية إيجبتوس.

الفصل الثانى

مقياس النيل عند المصريين القدماء

لعلنا ندرك جيدًا أن أرض مصر لا تنتج محاصيل زراعية إلا بقدر ما يغطيها ويخصبها الفيضان السنوى لنهر النيل، التى تدين له وحده بخصوبتها، كما أن الضرائب لا تقدر مطلقًا سوى على الأجزاء التى يغمرها الفيضان، لأنها ستكون فى هذه الحالة هى الأراضى التى يمكن الاستفادة منها فى الزراعة، وقد اهتم ملوك مصر القديمة ومن تبعهم من حكام على هذه الأرض اهتمامًا كبيرًا بقياس وتقييم المكاسب المختلفة التى يجود بها الفيضان سنويًا، فنهر النيل هو المصدر الحقيقى لتجديد خصوبة الأرض، ومن الطبيعى إذن أن يصبح بالنسبة لهؤلاء الحكام القاعدة التى ترتكز عليها ـ بصورة دقيقة ـ مواردهم الخاصة، كما يقر أيضًا القواعد المتبعة فى جباية الضرائب السنوية التى تفرض على هذه الأراضى.

ومنذ أقدم العصور اهتم ملوك مصر وأهلها أيضًا بقياس ارتفاع الزيادات المتدرجة لمياه النهر فى فترة الفيضان السنوى، فى عدة أماكن من مصر.

وكانت أداة القياس فى البداية ـ كما نرجح ـ أداة محمولة، ومن هنا فلا يمكن أن تكون شيئًا آخر سوى عصا طويلة مدرجة من البوص، وربما أيضًا ثبتت بها حلقة. وتوضع هذه العصا طوليًا فى مجرى النهر، وقد أشار إليها المؤرخون الإغريق فى لغتهم باسمى νειλοσκοπεῖον و νειλομέτριον

وهما الاسمان اللذان اشتقَّ منهما المحدثون اسم مقياس النيل ومراقبة النهر.

وتتكون الكلمة الأولى منهما من شقين: نيل وقياس، أما الكلمة الثانية فتتكون من: نيل ويلاحظ أو يراقب.

وقد أله المصريون القدماء نهر النيل وعبدوه تحت تسميات مختلفة، وربما أمكننا أن نعتقد أيضًا أن عجل أبيس - الذى نال درجة عالية من التقديس لديهم - كان رمزًا للنيل نفسه.

وعهد المصريون بأداة قياس النيل إلى كهنة سيرابيس، فكان من حقهم هم وحدهم أن يقوموا باستخدامها، وكانوا يحتفظون بها فى معبدهم ويمنحونها صبغة دينية. وسواء أقررنا أو رفضنا الفكرة القائلة بأن سيرابيس كان هو نفسه النيل المؤله، فيبدو أن أداة قياس النهر قد أطلق عليها هى أيضًا اسم سيرابيس، ونجد الأصل اللغوى لهذا الاسم فى هذه الحالة يقدم نفسه بنفسه فى الكلمة العبرية «سسيحور»، وهو أحد أسماء النيل الذى أشرنا إليه سابقًا، ونجده يكتب عادة أيضًا: «سسحور»، ويمكن أن يكتب كذلك بطريقة أكثر بساطة «سسحر»، وكلمة آفى أو إيف التى تعنى قياس.

وربما سنصادف ما يشير إلى العناية الفائقة التى وجهها المصريون القدماء لقياس مياه نهر النيل، من خلال بعض أشكال علامات وأحرف الكتابة الهيروغليفية التى تظهر كثيرًا فى النقوش والتى سأقدم بعضها هنا.

يمثل أحد هذه الأشكال عصا بوص طويلة تنتهى فى جزئها العلوى بعصا عرضية بشكل حرف «T»، وأحيانًا نراها وقد تضمنت عمودًا عرضيًا واحدًا أو عدة أعمدة عرضية فبهذا الشكل: ‡ و †

ويمكن أن تتداخل هذه العلامة مع علامات أخرى مثل قرنى البقرة أو زهرة اللوتس

، ولعلنا ندرك جيدًا أن هذه الزهرة، والتى كانت توجد بوفرة فيما مضى، لا

تزال موجودة حتى الآن فى مصر فى الأماكن الخصبة من جزر وشواطئ النهر، وكانت زهور اللوتس مقدسة منذ أقدم العصور لاسيما فى ارتباطها بنهر النيل عند المصريين القدماء، وقد تم الاحتفاظ بهذا الترابط حتى عصرنا الحالى من خلال أحد الأسماء التى يطلقها أهل البلاد على نهر النيل. ومن خلال دراسة النقوش الهيروغليفية وفحص ميداليات الشرف المصرية نستطيع أن نثبت أن القدماء قد استخدموا هذه الزهرة كثيرًا على أنها رمز خاص وعلامة مميزة لنهر النيل.

أما فيما يتعلق بالكؤوس والأوانى التى تملأ بالمياه، فلا يمكن أن يداخلنا الشك - بعدما استمعنا إلى روايات القدماء - فى أن المصريين الأوائل قد رأوا فى هذه الأوانى رمزًا لنهر النيل أثناء طقوسهم الدينية، وبالتالى فإن هذا الرمز لا يجب بالضرورة أن يحمل نفس المعنى فى الكتابات والنقوش المقدسة، ونجد الكثير من هذه الأوانى وقد تمتعت بأشكال متعددة، ومن بينها سوف أكتفى بأن أقدم هنا هذين الإناءين و

اللذين تم قطعهما بشكل عمودى بحيث تظهر الأجزاء الداخلية لهما.

ويبدو لى أن العلامات الهيروغليفية التى ذكرتها هنا يجب أن تشير إلى مياه النهر وإلى قياس فيضان النيل، وإن كان هذا على أية حال هو رأى الكثيرين من علماء الآثار الذين أعطوا لهذه العلامات اسم «مقياس».

وهناك نمط ثان من هذه الأوانى يظهر كثيرًا فى النقوش الهيروغليفية البارزة، ويأخذ كذلك شكل حرف «T» وتعلوه حلقة مستديرة، وتجده يظهر بثلاثة أشكال و و

وتتشابه علامات هذا النمط مع علامات النمط السابق، بل وربما أيضًا لا تمثل سوى شكل مشتق منها، وقد تلقينا من علماء الآثار عدة تفسيرات، إلا أن العدد الأكبر منهم قد اتفق على تسمية هذه العلامات «مفتاح النيل» ولا تزال هذه التسمية ترتبط حتى عصرنا الحالى ببعض أجزاء مقياس النيل.

وقد أصبحت هذه العلامة فى وقت لاحق - عن طريق تشابه فى مدلولها الرمزى - رمزًا شهيرًا للسعادة التى يتمناها المرء أو للتخلص من الآلام التى يعانى منها، وصنعت منها تمائم كانت تعلق فى أعناق المرضى، كما كانت أيضًا أحد الرموز المرتبطة بالآلهة مانحة الهبات، وقد رأيت هذه العلامة فى يد أحد الأشخاص الثلاثة الذين ظهروا على قطعة جيدة جدًا من النقش البارز، حصلت عليها من مصر، وأخبرنى الأعرابى الذى اشتريتها منه أنه جلبها من الواحة الكبيرة، حيث كانت هذه القطعة الجميلة تمثل جزءًا من بعض القطع الأثرية المتهدمة التى لا تزال باقية هناك، ومن خلال الوصف الذى أعطاه لى أعتقد أن هذا المكان كان يومًا ما معبدًا شهيرًا لچو بيتر آمون.

وفى بعض الأحيان تظهر الحلقة العلوية لمفتاح النيل بأشكال مختلفة، وتضم علامتين هيروغليفيتين صغيرتين بهذا الشكل ، ويبدو من السهل أن نتعرف من خلال إحداهما على العلامة التى استخدمت بصفة عامة ودائمة للتعبير عن المياه والفيضان.

ومرة أخرى فإن هذه العلامة أو مفتاح النيل نراها وقد رسمت أعلى شكل لإناء أو قارب بجوار علامات أخرى ظهرت معها فى مجموعات، مثل العلامتين الهيروغليفيتين التاليتين

ونراها فى الأولى وقد وضعت على يمين شكل صغير جالس القرفصاء يبدو أنه شكل لأنوبيس، أما فى العلامة الثانية فقد شغلت على العكس من العلامة الأولى الناحية اليسرى، وظهرت معها عصا أو ربما أداة لقياس الأرض تستند فى جزئها السفلى على جزءين صغيرين، بينما يعلوها جزء مائل اعتبره الأثريون بصفة عامة شكلاً لرأس هدهد. ويبدو لى أول الشكلين الهيروغليفيين هذين أنه يشير إلى بدء الفيضان، فيخرج النهر من حالته الراكدة الهادئة ويغير مستواه المنخفض، بينما يشير الشكل الثانى - والذى نرى فيه مفتاح النيل وقد وضع بصورة معاكسة لما كان عليه فى الشكل الأول - إلى انتهاء الفيضان. وفى الواقع ووفقًا لآراء الغالبية العظمى من الأثريين فقد كان الهدهد بالنسبة للمصريين

القدماء يمثل شكلاً رمزيًا لرياح الجنوب التى تساعد فى دفع مياه النيل منذ بداية الفيضان، وعند عودة الهدهد يكون ذلك إيذانًا ببدء موسم بذر الأرض.

ويقدم هؤلاء العلماء تفسيرًا لارتباط الهدهد بفيضان النهر قائلين: إن الهدهد يقوم على مدار السنة بالطيران من أثيوبيا إلى مصر العليا ومنها إلى مصر السفلى فى فترة سكون النهر، وأنه يتبع فى هذه الرحلة مسار نهر النيل، ويتغذى على الحشرات العديدة التى تعيش فى طميه والتى ييسر ارتفاع درجة الحرارة توالدها. ويعتقد العلماء أنه نظرًا لهذا الدور المتميز الذى يقوم به الهدهد فقد كان من الطبيعى إذن أن يصبح بالنسبة للمصريين القدماء الرمز المناسب للرياح الجنوبية التى يتتبع الهدهد مسارها فى فترة جفاف الأرض، وهى نفس الفترة التى يبدأ فيها هبوب الرياح، وبغض النظر عن هذا التفسير الذى أجدنى بعيدًا بعض الشىء عن تقرير مدى مصداقيته واحتماليته، فليس هناك تفسير آخر يمكن أن أبنيه على الأصل اللغوى للاسم الذى أطلقه المصريون القدماء على الهدهد.

وقد أكد كل من سبقونا فى دراسة الأحرف الهيروغليفية أن المصريين القدماء قد اعتادوا على استخدام أشكال لحيوانات ولقطع أخرى مجهولة لتعبر عن مفاهيمهم الرمزية، إلا أن هذه الأشكال لا تتوافق مع الفكرة التى ترمز إليها إلا قليلاً أو ربما لا تتوافق معها على الإطلاق، ولكن الفكرة الرمزية تتحقق من خلال توافق اسم هذا الحيوان أو هذه الأداة مع الكلمة أو المعنى المراد التعبير عنه.

وعلى سبيل المثال فقد ذكر لنا هؤلاء الدارسون أن شكل الروح كان يظهر - فى النقوش المقدسة - على هيئة طائر، ويرجع السبب فى ذلك إلى أن اسم بايت الذى أطلقه المصريون القدماء على هذا الطائر له نفس الدلالة الصوتية للكلمتين: «باى» و«هت». وتعنى أولاهما حياة، بينما تعنى الثانية روح وقلب.

ولعلنا عندما نحاول تجميع هذه الأفكار المجردة المختلفة فيما بينها، فمن الممكن أن نحصل على توافق ينتج عنه تصور شامل لكلمة الروح، التى تقدم شيئًا ملموسًا مرئيًا للعين فى إطار المعنى الرمزى، وتتوافق هذه التركيبة جيدًا مع شكل الطائر.

وعلى أية حال وعند محاولة إجراء تحليل لهذا المفهوم فى لغة المصريين المحدثين نجد أن اسم الهدهد هو «كوكوفات»، ولا يجب أن نشك أبدًا أن لغتهم القديمة كانت تحوى نفس الاسم أو حتى اسمًا مختلفًا قليلاً، وعند تحرى الكلمات التى يمكن أن يقدم تركيبها دلالة متقاربة إلى حد كبير، أو على الأقل تلك التى لا تبتعد كثيرًا عن الدلالة الصوتية هنا نجد أن الجمع بين الكلمات الثلاث غوك - هو - ف - هات يقدم تجانسًا لغويًا كاملاً تقريبًا، وتعنى هذه الجملة الصغيرة حرفيًا «نهاية الفيضان».

وسأترك هذا الافتراض الجديد ليكون قيد الاختبار، ولن أتظاهر بأنى أدافع عنه ضد من يجده مجرد صدفة بحتة، وإنما أود أن ألفت النظر إلى نسق اللغتين المصريتين القديمة والحديثة اللتين تتمتعان - بصورة ملحوظة - بنظم الكلمات المركبة أكثر من عدة لغات أخرى، فعندما نراجع بعض صفحات الكتب القبطية نقرأ فيها كلمات طويلة للغاية، وبعد أن نقوم بتحليلها - متبعين القواعد المستخدمة فى هذه اللغة - نجدها تتفكك إلى عدد من الكلمات تختلف بدورها عن الكلمة المركبة ذات المقاطع المتعددة.

وبالإضافة إلى ما سبق نجد علامة هيروغليفية أخرى على شكل قضيب من البوص به جزءان عرضيان علويان، بينما توجد الحلقة هذه المرة فى جزئه السفلى بدلا من جزئه العلوى، بهذه الطريقة ☥ ولن أتردد مطلقًا فى أن أضم هذه العلامة إلى مجموعة العلامات السابقة، فهى تتوافق مع النمط الذى عرضناه من قبل وتتمتع بنفس القيمة.

وعلى الرغم من ذلك فلن أتجاهل أن العلامات الهيروغليفية التى ذكرتها توا، وتلك التى سأتناولها فيما بعد قد ظهرت فى مناظر عدة بمفهوم يختلف عن ذلك الذى قمت بنسبته إليها هنا، والذى يبدو لى فى الواقع أنه يمثل القيمة الحقيقية والأصلية لهذه العلامات، ومن الممكن أيضًا أن تضاف إليها دلالات أخرى رمزية عند تصويرها على أنها كيان مستقل بذاته، وربما يتوافق ذلك مع الاستخدام الأصلى للأداة.

ولعل هذه القاعدة تجد مكانًا لها فى عدد كبير من اللغات القديمة أو الحديثة واللغات الأم أو اللغات المشتقة عنها، فنراها تقدم بصفة مستمرة كلمات تعبر عن أشياء مستقلة وصورًا ذات دلالات واضحة لا تلبث أن تستخدم بصورة أكثر اتساعًا لتمثل علامات لها دلالات ذهنية وفكرية، ولتعبر عن أفكار ميتافيزيقية كاملة وأفكار مجردة كان لا يمكن التعبير عنها إلا عن طريق استخدام هذه العلامات ذاتها.

وعلى أية حال فلا يوجد هنا مكان للجدل فيما إذا كانت هذه الضرورة اللغوية لم يتم الاستفادة منها بطريقة خاصة فى الكتابات المقدسة لدى المصريين القدماء، والتى تتسم بأن أفكارها المعقدة لا يمكن أبدًا أن يتم قياسها والتعبير علها بمجرد كلمات، فالكلمات عناصر بسيطة للغاية، ويصدق القول نفسه على المقاطع وحروف الهجاء، ولكننا نجد أن الأفكار التى تقدم هنا - عن طريق صورة الشىء نفسه أو عن طريق أشكال مجازية ورمزية أخرى - تتلاءم مع إعطاء الفكرة المعنى المطلوب بتحوير بسيط يمكن ملاحظته، بالرغم من أن العلامات تبدو عادة بعيدة جدًا عن قيمتها الأولية.

وبالإضافة إلى مقاييس النيل المحمولة التى ذكرتها من قبل فقد قام ملوك مصر فيما بعد ببناء منشآت خصصت لقياس النيل فى أماكن مختلفة من المملكة، يتم فيها قياس ارتفاع المياه، سواء عن طريق مقاييس منقوشة على طول جدران أحواض ضخمة تدخل فيها مياه النهر وقت الفيضان، أو عن طريق أعمدة حجرية ذات درجات مختلفة كانت توضع وسط هذه الأحواض نفسها، أو أخيرًا عن طريق درجات توضع بشكل تدريجى بدءًا من مجرى النهر.

وربما أشير إلى قياس النيل بهذه الطريقة بمجموعة أخرى من العلامات الهيروغليفية على شكل عمود يظهر بطريقتين مختلفتين، فنرى أولاهما عبارة عن وهو عمود يحمل بطول بدنه بروزات عرضية تشير إلى درجات القياس، أما فى الشكل الثانى فنرى عمودًا متوجًا فى جزئه العلوى بعدة تيجان يعلو أحدها الآخر، وتكون ما يمكن أن نراه مقياسًا عن طريق تفاوت المسافة المساحية بين بعضها وبعض.

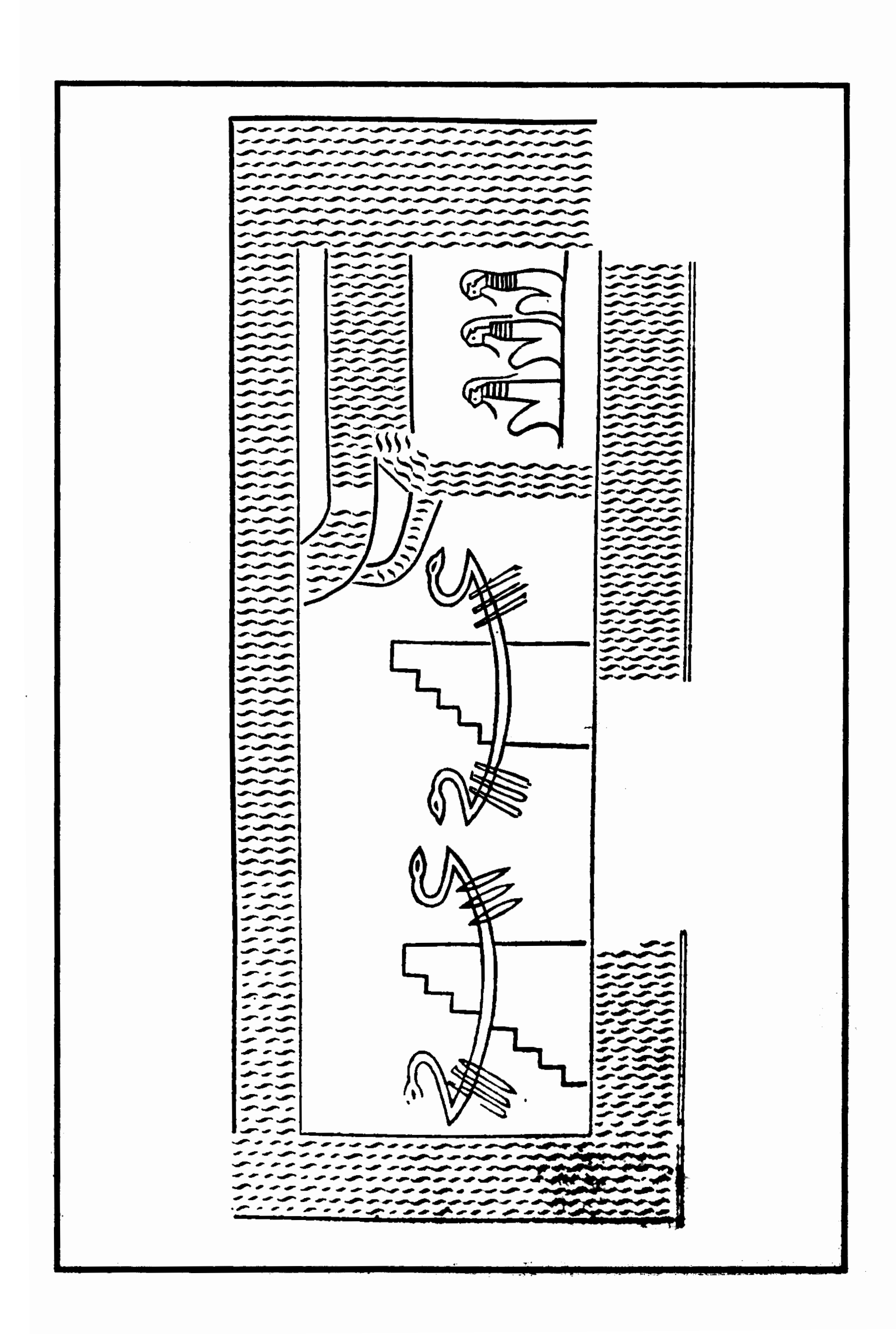
هذا بالإضافة إلى مجموعة أخرى من العلامات ذات شكل متدرج، أحيانًا ما نراها بصورة بسيطة مثل و و هذا إذا لم نعتبر الشكل الأخير منها مصلصلة كما يعتقد الكثيرون، أو تظهر أيضًا العلامة بصورة مزدوجة، مثل وأحيانًا نرى هذه العلامة وقد وضعت أعلى زهرة لوتس، التى رأينا من قبل أنها كانت رمزًا مرتبطًا بنهر النيل، وهناك علامتان أخريان و تمثلان سلمًا له عدد درجات متفاوتة، وعلامة أخرى على شكل سلم ينزل فى داخل حوض مياه مربع الشكل .

وتبدو لى هذه الأشكال جميعها على أنها تستخدم فى الواقع لقياس النيل، فى حين أن الأشكال الهيروغليفية التى أشرت إليها من قبل يمكن أن تمثل مقاييس محمولة لقياس ارتفاع المياه، أما هذه فهى بالنسبة لى مقاييس مبنية وباقية وغير متحركة، وبهذا فهى تكمل النظام الذى اتبعه المصريون القدماء لقياس مياه النهر وقت الفيضان.

وهناك شكل آخر أيضًا يبدو لى - مقارنة بالأشكال السابقة - وكأنه لا يدع لنا أى مجال للشك فى أنه ينتمى لهذا النمط، وهو شكل نراه مرسومًا بطريقتين فى أحد المناظر الضخمة التى تضمها البردية الجميلة التى بحوزتى، وفيها يشغل الرسم اللوحات المزدوجة رقم ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥ من المجلد الثانى من لوحات الدولة القديمة.

ويتكون هذا المنظر من سلمين لأحدهما خمس درجات وللآخر سبع، وقد رسما متجاورين بنفس الاتجاه وسط مساحة تحيط بها المياه من كل ناحية، ويحمل كل منهما مركبًا لها ستة مجاديف وتنتهى بدايتها ونهايتها برأسى أفعى، وتوجد إحدى المركبين فى نهاية السلم بينما توجد الأخرى فى منتصفه.

وقد اعتقدت أنه سيكون من المفيد أن أقدم هنا رسمًا أمنيًا لهذا المنظر،



وذلك حتى أعرض وجهة النظر كاملة فيما يتعلق بالعلامات الهيروغليفية التى تشير إلى مقياس النيل وبهذا فأنا أحمل القارئ على إجراء مقارنة بينها ليدرك الغرض منها والرابطة الفعلية التى تربط بين هذه العلامات بعضها وبعض.

ويبدو بالنسبة لى أنه من المستحيل أن نتجاهل دلالة هذين الشكلين، ولا نستطيع أن نمنع أنفسنا من أن نرى فيهما إحدى الطرق الأكيدة لقياس النيل، حيث يشير أحدهما إلى أدنى مستوى لمياه النيل، والآخر إلى المستوى المتوسط، فى حين أن الدرجة العلوية لكلا السلمين تبدو لى وكأنها تحدد أقصى ارتفاع للفيضان فى هذه الفترة.

وقد كان الثعبان دائمًا - بالنسبة لكل الأمم الشرقية - رمزًا للحياة والقوة الحيوية، ففى اللغات المختلفة لهذه الشعوب نرى كلمة حياة وكلمة حية متماثلتين تمامًا، أو على الأقل فإن كليهما يشتق من نفس الجذر اللغوى، ويمكن لرؤوس الثعابين التى تزين مقدمتى ونهايتى القاربين الظاهرين فى اللوحة السابقة أن ترمز هنا للازدهار والحيوية والخصوبة التى ينتظرها المصريون دائمًا من مياه النيل.

ولن أبتعد كثيرًا إذا ما اعتقدت أن ثلاثة الأشكال جالسة القرفصاء التى نراها فى الناحية اليمنى من اللوحة، بل وربما أيضًا المجاديف الثلاثة التى توجد فى مقدمة ونهاية كل قارب، ربما تكون جميعًا رمزًا لثلاثة أشهر شمسية هى شهور الفيضان. وإذا أمكننا أن نتتبع هذا الافتراض إلى المدى الذى يذهب إليه سنرى أن التدرج المتوالى والمتناسب فى ارتفاع هذه الأشكال الثلاثة - وهو تدرج محسوس على الرغم من أنه طفيف، ويظهر أكثر وضوحًا فى البردية الأصلية - يشير إلى القصر التدريجى للأيام فى فصل الصيف، وهى الفترة التى يبدأ فيها الفيضان ويستمر ذلك حتى الاعتدال الخريفى، أى الفترة التى ينتهى فيها الفيضان.

ولكى لا نتحدث هنا أكثر من ذلك إلا عن وقائع حقيقية مذكورة فى الوثائق التاريخية، فإن هيرودت - أقدم المؤرخين الأغارقة الذى جاب أرض مصر كلها

ومكث فترة من الزمن فى مدن طيبة وهليوبوليس ومنف - قد تحدث عن عدة مقاييس للنيل، يوجد أحدها فى مدينة منف، التى كانت - مثلها مثل طيبة - عاصمة للبلاد فى فترة ما. وأضاف هيرودت أن كل المنطقة التى تمتد من البحر حتى مدينة هليوبوليس والتى تشغل مساحة تساوى ألف وخمسمائة غلوة صغيرة [الغلوة وحدة قديمة من وحدات الطول] أو ٢٥ شونس، كانت تغمرها مياه النيل جيدًا وبالتالى كانت مغطاة بكمية وفيرة من الطمى الخصب.

وفى صفحات أخرى من دراساته ذكر هيرودت أن كهان معبد ڤولكان فى منف - والذين أخذ عنهم المادة التى اعتمد عليها فى كتابة التاريخ - قد ذكروا له أنه منذ تسعمائة عام وأثناء فترة حكم الملك موريس كان يكفى ارتفاع النيل لمستوى أعلى من ثمانى أذرع ليغطى أرض مصر التى تعلو مدينة منف، بينما لاحظ - خلال رحلته إلى مصر - أن ارتفاع النهر إلى ١٦ ذراعًا أو على الأقل إلى ١٥ ذراعًا لم يكن كافيًا ليغمر جيدًا ما حوله من أراضى. كما أشار إلى وجود عمود مرتفع فى أحد مناطق الدلتا استخدم كمقياس للنيل.

وهناك بعض المؤرخين الذين خلطوا بين هذا المقياس وبين المقياس الذى لازلنا نراه حتى أيامنا هذه فى جزيرة الروضة، وبهذه الطريقة أيضًا نجدهم وقد خلطوا بين جزيرة الدلتا وجزيرة الروضة التى تبدو من المحتمل جدًا أنها لم تكن موجودة زمن هيرودت، وإنما تشكلت فى وقت لاحق عن طريق التراكمات المتتابعة التى تخلفها مياه النيل كل عام بعد الفيضان.

الفصل الثالث
مقياس النيل خلال حكم الفرس

جاء قمبيز بن سيروس ليحتل مصر بجيش ضخم، جمعه من أرجاء مملكته وألحق به قواتًا من الأيونيين والإيوليين الذين اعتبرهم عبيدًا لأبيه.

وبعد موت هذا الملك تعاقب ملوك الفرس الذين سيطروا على هذه البلاد لفترة طويلة من الزمان حتى حكم داريوس، ولكنهم انشغلوا بالهدم أكثر من البناء.

وكانت مقاييس النيل - مثلها مثل كل المنشآت الهامة فى الإدارة الداخلية التى تعم على مصر بالخير والرخاء - مهملة بدون شك، فلم ينظر هؤلاء الحكام إلى هذا البلد على أنه شىء آخر سوى بلد مهزوم، تفرض عليه الجزية بعيدًا عن قلب امبراطوريتهم القوية، وتركوا شئون الحكم فى أيدى الستراب الذين أرسلوا إلى مصر وفرضوا على الشعب ضرائب تعسفية دون النظر إلى حجم الإنتاج السنوى أو أى شىء آخر، ولم يهتموا ما إذا كان سكان مصر يستطيعون أم لا تحمل هذه الضرائب الباهظة التى فرضوها عليهم.

وهكذا فلا يجب أن تصيبنا الدهشة عندما لا نعثر على أية آثار لمقاييس النيل التى شيدت فى هذه الفترة ولا حتى اعتناء بالمقاييس التى كانت موجودة بالفعل

والتى بقيت من الفترات السابقة، ويظهر ذلك جليًا من الكتابات التى وصلت إلينا حاملة تفاصيل تاريخ الفرس فى فترة كانوا يحكمون فيها مصر.

الفصل الـرابع
مقياس النيل خلال حكم البطالمة

طُرد الفـرس من مـصـر على يد الإسكندر الأكبـر الذى لم يمهله القـدر لكى ينفذ الأفكار العظيمـة التى أراد أن يضيفها إلى أرض مصـر، ولكنه اختـار مكانًا قبالة جزيرة فاروس بالقرب من مصب الفرع الكانوبى للنيل ليبدأ تشييد مدينة الإسكندرية التى كان مقدرًا لها - بسبب موقعها المتميـز - أن تصبح مـركزًا رئيسيًا لتجارة الهند. ومكث الإسكندر فترة زمنية قصيرة فى مصر لم تمكنه من إرساء قواعد الإدارة الداخلية بصورة واضحة، كما أننا لا نجد أى شىء يتعلق بمقياس النيل عند قراءتنا لتاريخ هذا الفاتح، وبعد موت الإسكندر عام ٣٢٤ ق. م، ولم يكن قد ترك ابنًا قادرًا على أن يحمى أرجاء امبراطورية وليدة، قام قادة الجيش بتقسيم تركته الضخمة فيما بينهم وأسسوا ممالك مختلفة، كلٌ فى الجزء الخاص به.

وهكذا أصبح بطليموس الذى عرف أيضًا باسم لاجوس وسوتر حاكمًا لمصر وفقًا لهذه الاتفاقية عام ٣٢٣ ق. م، وفى عام ٢٨٥ ق. م قام بإشراك ابنه فيلادلفوس معه فى الحكم، وبموته بعد ذلك بعامين ترك له الحكم كاملاً.

وقد انشغل هذا الحاكم وخلفاؤه بالإدارة الداخلية لبلد كانوا يعتبرونه ملكًا خاصًا لهم، يجب أن يؤول بعد وفاتهم إلى أبنائهم، ويخبرنا التاريخ أيضًا أن

هناك جماعة خاصة كانت تدير شئون الحكومة الداخلية وتقوم بتوزيع الضرائب فى مصر، وكذا بناء مقاييس النيل فى أماكن عدة على مجرى النهر.

ومن ضمن الآثار التى تنتمى لهذا النوع والتى ترجع لفترة البطالمة على أقل تقدير مقياس النيل الخاص بمدينة هيرمونثيس القديمة والتى يطلق عليها الآن أرمنت، وبصفة خاصة أيضًا مقياس النيل الذى بنى بجوار معبد مخصص لعبادة الإلهة ساتت - كما أشار سترابون - فى جزيرة فيلة على مشارف النوبة.

وفى الواقع فقد وجدنا بقايا لهذا المقياس الخاص بهذه الجزيرة التى كانت بمثابة مفتاح مصر الجنوبى، وقد كان - وفقًا لما أورده سترابون - مشيدًا بأحجار ضخمة مربعة الشكل، استطاعوا من خلاله أن يحددوا أقصى ارتفاع وصل إليه النيل فى فيضانه، وكذا الحال بالنسبة للفياضانات المتوسطة ودون المتوسطة.

وعلى الجدران الداخلية لمقياس النيل هذا نقشت علامات قياس استطاعوا من خلالها التعرف على الفياضانات الكاملة للنيل وما دون ذلك، بعدها ينقل تقرير عن حالة الفيضان للأشخاص المكلفين بالإعلان عنها فى كل أجزاء البلاد، وذلك بفرض أن يقوم الزراع بتقسيم المياه والعناية بالسدود والترع من ناحية، بينما يستطيع الحكام التعرف على الدخل الحقيقى للبلاد من ناحية أخرى، ويضيف سترابون أنه كلما كانت الفيضانات كاملة ومرتفعة كلما كان العائد ضخمًا.

ويتكون مقياس النيل الخاص بجزيرة فيلة والذى تم الكشف عنه من سلم نقشت على جدرانه الداخلية قياسات الفيضان بالأذرع، كما نقش أيضًا توقيت وزمن الفيضان، وقد كان هذا المقياس موضوعًا لدراسة هامة بقلم زميلنا السيد چيرار، قام بنشرها فى هذا الكتاب، ولمزيد من المعلومات والتفاصيل فأنا أحيل القارئ إلى هذه الدراسة.

وقد تبقى من عصر البطالمة أيضًا مقياس آخر للنيل فى إليثيا [الكاب]، وهى إحدى المدن بمصر العليا، وتدين باسمها إلى عبادة الإلهة لوسين التى أطلق عليها الإغريق اسم إليثيا. ولازلنا نرى حتى الآن ضمن أطلال هذه المدينة مساحة مستطيلة الشكل كان يشغلها قديمًا حوض ماء مبنى من الأحجار، يبدو بلا شك أنه كان مقياسًا قديمًا للنيل.

الفصل الخامس
مقياس النيل خلال حكم الأباطرة والرومان

أصبح الرومان بدورهم حكامًا لمصر فى عهد أغسطس الذى جعل منها جزءًا من امبراطوريته، ولا نملك سوى القليل من الأحداث التاريخية التى تتعلق بمقياس النيل خلال الحكم الرومانى لمصر، ولأن الضرورة كانت ملحة لمعرفة الارتفاع الحقيقى لمياه النيل وذلك حتى تجبى الضرائب المحددة من الرعايا الجدد، فقد أدى ذلك إلى فرض واجبات على الحكومة الرومانية مثلها مثل الحكومات السابقة.

ونعتقد أن الحكام الرومان قد أولوا بعض العناية إلى المبانى المتعلقة بالنيل التى شيدت فى العصور السابقة، وذلك للحصول على التقييم الحقيقى، فى حين يبدو أنهم لم يقوموا ببناء أية مبانٍ جديدة.

وقد أمدنا اليوس أريستيد ببعض التفاصيل التى تخص مقاييس النيل الموجودة بمصر خلال حكم الرومان، وأُطلق على هذا الرجل أيضًا ريتور أو سوفيست، وكان فيلسوفًا وخطيبًا شهيرًا فى نفس الوقت، عاش فى عصر مارك أوريل نحو منتصف القرن الثانى الميلادى، وجاب منطقة آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين وبلاد اليهود ومصر كلها حتى الجنادل الجنوبية. وقد أكد لنا أنه قام بنفسه برفع مقاييس آثار هذا البلد القديمة بدقة وعناية فائقتين بعد أن راجع

الكتب التى تناولتها، واستقى معلوماته من الكهنة والعلماء الذين قابلهم فى كل مدينة من مدنها، ويبدو أنه قام بأبحاث واسعة عن منابع النيل وضفافه، وذكر أن أهل عصره كانوا يقيسون ارتفاع النيل فى قفط ومنف. ووفقًا لما رآه فإن فيضان النيل يكون كاملاً ونافعًا عندما تصل المياه فى أول مقاييس النيل إلى ٢١ ذراعًا.

الفصل السادس
مقياس النيل خلال حكم الفاتحين العرب

حتى حكم الإمبراطور قسطنطين كان مقياس النيل المحمول يحفظ فى معبد الإله سيرابيس، وبعد اعتناق هذا الإمبراطور للمسيحية انهمك فى التعمق فى فهم مزايا وجوانب هذا الدين الجديد ورفعه فوق العقيدة التى كان يعتنقها، أما المصريون فقد تمسكوا بديانتهم مدعين أنهم يدينون لسيرابيس بالفيضان السنوى للنيل الذى يغطى بلادهم كل فترة. ولدوام الحصول على هذه النعمة اعتادوا أن يعيدوا المقياس المحمول إلى معبد هذا الإله بعد كل قياس لارتفاع النيل، وقد صبغوا هذا الإجراء بصبغة دينية وأطلقوا على المقياس المحمول اسم «ذراع النيل»، ومنذ ذلك الحين أمر قسطنطين أن يوضع هذا المقياس فى كنيسة الإسكندرية، فعمت الفوضى مصر وشاع بين الناس أن غضب سيرابيس لن يجعل النيل يرتفع هذا العام، وعلى الرغم من ذلك فقد ارتفع النيل فى هذه السنة وفى السنوات التى تلتها.

ومرة أخرى أعاد چوليان لابوستا الوثنية وجعلها تتمتع بكل مزاياها التى جردها منها سابقوه، وأمر بإرجاع مقياس النيل إلى معبد سيرابيس، وبقى هناك حتى عهد ثيوديسيوس الأكبر الذى أمر بتدمير المعبد بالكامل.

ولا نملك معلومات أخرى عما يتعلق بالنيل ومقاييسه حتى فتح مصر على يد القائد العربى عمرو بن العاص، الذى انتزعها من يد حكامها الرومان فى عام ١٩ للهجرة ٦٠٤ ميلادية. وقبل أن نتناول مقاييس النيل التى شيدت فى مصر منذ أن فتحها المسلمون سوف ألقى نظرة خاطفة على ما ذكره الكتاب الشرقيون، فيما يتعلق بمقاييس النيل والعادات التى ارتبطت بها فيما سبق الهجرة.

الفصل السابع
حول الكتاب الشرقيين الذين تناولوا النيل ومقاييسه

قام عدة مؤرخين وجغرافيين متميزين بالكتابة عن مصر، وخصصوا فى مؤلفاتهم فصولاً كاملة فى بعض الأحيان، أو أسطرًا قليلة فى أحيان أخرى عن النيل ومقاييسه، ولا ينطبق هذا فقط على المقريزى والسيوطى اللذين قدمت عنهما معلومات مفصلة سابقًا، ولكنى سوف أذكر أيضًا عبداللطيف، وابن إياس الذى أوردت عنه بضع كلمات فيما سبق، والقاضى، وعبدالرشيد البكوى، وقد نشرت له بعض ما كتبه عن القاهرة، وعبدالحكم. وندين لهذا الرجل بمعرفة تاريخ الغزوات والفتوحات المختلفة الخاصة بأرض مصر، مرفقة بوصف تاريخى وجغرافى لهذا البلد، كتب وفقًا لحكايات أبى القاسم بن خلف الذى اشتهر أكثر باسم الواقدى.

وهناك أيضًا العديد من المؤلفات التى تناولت النيل والآثار المرتبطة به بطريقة خاصة ومتميزة، نذكر من بينها دراسة متكاملة بقلم على بن محمد بن دراعم الموصلى الملقب بتاج الدين الذى توفى عام ٧٦١ هجرية ١٣٦١ ميلادية، ومؤَلَّف آخر وضعه أحمد بن يوسف الملقب بالنيقاشى، وقد حظى بحثه الأخير الذى كتبه بطريقة النثر بمدح السيوطى فى مقدمة مؤَلَّفه الضخم عن مصر.

وقام كذلك أحمد شهاب الدين بوضع مؤَلَّف خاص عن النيل، واعتبره متميزاً عن أى نهر آخر فى منابعه ومجراه وارتفاعه وانخفاضه السنوى، ويوجد هذا المؤلف بين المخطوطات الشرقية فى المكتبة الملكية.

وقد استحب الشرقيون أن يمزجوا كتاباتهم ببعض الخرافات والحكايات الخيالية التى يمنحونها تصديقهم الكامل، ويصدق القول على الروايات التى سأعرضها هنا عن مقاييس النيل القديمة، وهى روايات تمثل فى الواقع بالنسبة للغالبية العظمى شيئًا له طابع متميز عجيب ينتزع منهم كل الثقة، ويرتبط فقط بسرد هذه القصص التى تضم أحداثًا حقيقية، بالإضافة إلى وقائع أخرى تبدو من وجهة نظرنا خرافية وملفقة. وعلى الرغم من ذلك أعتقد أنه من واجبى ألا أحذف أيًا منها، فإن هذه الخرافات تجعلنا نتفهم بصورة دقيقة حالة المعرفة والعلم فى الشرق فى العصر الذى عاش فيه هؤلاء الكتاب، وعلى أية حال فأنا ألتزم بالأمانة العلمية فى العرض الذى أقدمه للمقتطفات التى أقوم بنشرها نقلاً عن المؤلفين الشرقيين.

ومن ناحية أخرى فربما كان علينا أن نفترض أن تلك الخرافات التى زرعها الشرقيون فى تاريخهم ما هى إلا الحقيقة نفسها، وإنما فقط يشوبها التحريف وتحاط بإطار سميك من الأخطاء الشائعة، وعندما تُعرض على فكر سليم يستطيع أن يكشف عنها غطاءها الكاذب ويستمد منها بعض المعلومات الصحيحة التى تخطلت بهذه القصص المختلفة غير المتناسقة، والتى تتبع فى معظمها النظم المتغيرة المتخبطة التى تشيع بين شعوب الشرق، وربما يتم التوصل إلى ذلك كله من خلال مناقشات مستنيرة ينجح خلالها هذا الشخص فى استنباط بعض الوقائع الحقيقية والأفكار المحددة التى تلتقطها الأعين الثاقبة.

الفصل الثامن
روايات الكتاب العرب عن مقاييس النيل التى سبقت الحكم الإسلامى فى مصر

إذا كان لنا أن نصدق الروايات التى قام بجمعها المؤرخون العرب القدامى، والتى نشرت فى مؤلفات عبد الحكم والسيوطى والقوضعى فإن البطريرك يوسف ـ الذى أعطاه المسلمون لقب نبى وذكروا أنه كان كبير وزراء ملك مصر فرعون - كان أول من قام بقياس ارتفاع نهر النيل السنوى، ويسعد المصريون كثيرًا بأن ينسبوا إليه دائمًا تشييد كل الآثار المدهشة التى تتمتع بضخامة غير معتادة، وتحكى رواياتهم أيضًا أن يوسف قام ببناء أول مقياس للنيل فى مدينة منف التى أطلق عليها الإغريق ممفيس.

وعند حديثه عن الفيوم قال عبدالرشيد البكوى «نرى بها قناة ضخمة أُطلق عليها نهر الفيوم بسبب حجمها الكبير، ولكن اسمها الشائع الذى تعرف به عادة هو قناة يوسف، ولعل السبب فى إطلاق هذا الاسم على القناة ما تذكره الرواية من أن يوسف هو الذى قام بشقها وأمر فى الوقت نفسه ببناء السدود العالية الضخمة التى لازلنا نراها فى هذا البلد بالقرب من مدينة الفيوم، كما قام أيضًا بحفر البحيرة الكبيرة التى تسمى بحيرة الفيوم أو بحر الفيوم أو بحر يوسف.

وكان الهدف وراء كل هذه الأعمال هو تجميع مياه مصر العليا فيما يشبه الخزان الكبير لتزويد البلاد بالمياه اللازمة عندما لا تصل مياه النيل إلى معدلها المطلوب الكافى - ونحن متأكدون تمامًا من أن يوسف قد أنشأ حول هذه البحيرة أيضًا ثلاث مدن كبيرة ومائة وستين قرية، كان موقعها أحد أجمل المواقع فى مصر كلها».

وقد ذكر المقريزى فى مؤلفه نفس الروايات السابقة، وقال فى الفصل الخاص بمدينة الفيوم: إن يوسف قد حدد قواعد الإدارة الداخلية للبلاد، وقام بقياس كل أرض مصر، وتحديد درجات مياه النيل بطريقة سمحت للمياه بأن تغمر الأراضى بصورة دورية وبطريقة متساوية وكافية.

وينسب بعض المؤرخين الآخرين تشييد مقياس النيل الأول إلى الهاشم أو حصليم الذى تطلق عليه بعض المخطوطات أيضًا اسم خصليم ذاكرين أنه قد قام بإنشاء أكثر من عمود لقياس النيل فى مصر مراعيًا بذلك عدد أيام السنة.

ويذكر البعض أن أول مقياس للنيل كان فى أمسوس بينما يضعه البعض الآخر فى منف. ويتناول الكثير من الكتاب الشرقيين الآخرين تشييد مقياس النيل الأول مدعين أنه كان سابقًا على حدوث الطوفان مثلما هو الحال بالنسبة لمعظم آثار مصر العليا وبعض آثار مصر السفلى مثل الأهرامات، فقد ذكروا أنها جميعًا كانت سابقة على هذه الكارثة، كما نسبوا تأسيس مدن الصعيد الرئيسية إلى أسرة ملكية عاشت قبل الطوفان، وبلغ عدد ملوكها ثمانية عشر ملكًا، أطلقوا عليهم جميعًا لقب الكاهن.

وسوف أضيف هنا الرواية التى وردت فى أحد فصول مؤلف السيوطى والتى تتناول تاريخ هؤلاء الملوك الذى أشير إليه بشكل أكثر تفصيلاً مع بعض الاختلاف فى كتاب المقريزى. ويحوى هذا الفصل الموجز التى لم ينشر من قبل عددًا كبيرًا من الروايات الخرافية التى تتعلق جميعها تقريبًا بنهر النيل وبفيضانه السنوى ولهذا فلم أجد داعيًا لغض الطرف عنها، حتى أعطى فرصة إجراء مقارنة بينها وبين الروايات الأخرى التى نعرفها عن هذا الموضوع.

ذكر من مَلَك مصر قبل الطوفان

قال المسعودى: أول من ملك مصر بعد تبديل الألسن نقراوس، وكان عالمًا بالكهانة والطلسمات، ويقال إنه بنى مدينة أمسوس، وعمل بها عجائب كثيرة منها أنه عمل صنمين من حجر أسود فى وسط المدينة إذا قدمها سارق لم يقدر أن يزول عنها حتى يسلك بينهما، فإذا سلك بينهما أطبقا عليه، فيؤخذ، وكان مدة ملكه مائة وثمانين سنة.

فلما مات ملك بعده ابنه نقراوس؛ وكان كأبيه فى علم الكهانة والطلسمات، وبنى مدينة بمصر وسماها صلحة، وعمل خلف الواحات ثلاث مدن على أساطين، وجعل فى كل مدينة خزائن من الحكمة والعجائب.

فلما مات ملك بعده أخوه مصرام، وكان حكيمًا ماهرًا فى الكهانة والطلسمات فعمل أعمالاً عظيمة، منها أنه ذل الأسد وركبه. ويقال إنه ركب فى عرشه وحملته الشياطين حتى انتهى إلى وسط البحر المحيط، وجعل فيه قلعة بيضاء، وجعل فيها صنمًا للشمس وزبر عليها اسمه وصفة ملكه، وعمل صنمًا من نحاس وزبر عليه: «أنا مصرام الجبار، كاشف الأسرار، وضعت الطلسمات الصادقة، وأقمت الصور الناطقة، ونصبت الأعلام الهائلة، على البحار السائلة، ليعلم من بعدى أنه لا يملك أحد ملكى».

ثم ملك بعده خليفته عيقام الكاهن، ويقال إن إدريس عليه الصلاة والسلام رفع فى أيامه.

ثم ملك بعده ابنه عرياق، ويقال إن هاروت وماروت كانا فى وقته.

ثم ملك بعده لوخيم بن نتراس.

وبعده خصليم، وهو أول من عمل مقياسًا لزيادة النيل؛ وذلك أنه جمع أصحاب العلوم والهندسة فعملوا له بيتًا من رخام على حافة النيل، وجعل فى وسطه بركة من نحاس صغيرة، فيها ماء موزون، وعلى حافة البركة عقابان من نحاس: ذكر وأنثى، فإذا كان أول الشهر الذى يزيد فيه النيل فتح البيت وجمع الكهان فيه بين يديه، وتكلم رؤساء الكهان بكلام لهم حتى يصفر أحد العقابين،

فإن صفر الذكر كان الماء تامًا، وإن صفر الأنثى كان الماء ناقصًا، فيعتدون لذلك. وهو الذى بنى القنطرة التى ببلاد النوبة على النيل.

وملك بعده رجل يقال له هوصال، ويقال إن نوحًا عليه الصلاة والسلام كان فى وقته.

وملك بعده ولده قدرسان.

وملك بعده سرقاق.

وملك بعده ابنه سلقوف.

وملك بعده ابنه سوريد، وهو أول من جبى الخراج بمصر؛ وهو الذى بنى الهرمين، ولما مات دفن فى الهرم، ودفن معه جميع أمواله وكنوزه.

وملك بعده ابنه هوجيت، ودفن أيضًا فى الهرم.

وملك بعده ابنه مناوس ويقال منقاوس.

وملك بعده ابنه أفروس.

وبعده ابنه مالينوس.

وبعده ابن عمه فرعان، وفى أيامه جاء الطوفان، فخرب ديار مصر كلها، وزالت معالمها وعجائبها، وأقام الماء ستة أشهر حتى نضب.

وذكر بعض من ألف فى أخبار مصر أن سفينة نوح طافت بمصر وأرضها فبارك نوح عليه السلام فيها.

* * *

وبعيدًا عن هذه الروايات فقد ذكر المقريزى وعدد كبير من الكتاب الشرقيين أن تشييد مقياس النيل الأول كان على يد الأميرة دلوكة التى حكمت أرض مصر قبل الطوفان - وفقًا لما يقولون - ولعبت دورًا كبيرًا فى القصص الخرافية، التى تُحكى عن الزمن القديم فى بلاد الشرق، ونسبت إليها الروايات أيضًا تشييد مختلف المبانى الضخمة فى هذا البلد.

الفصل التاسع
مقاييس النيل التى شيدت منذ العصر الإسلامى

المبحث الأول
مقاييس النيل التى سبقت بناء المقياس، أثناء حكم الخلفاء الأمويين الأوائل من عام ١٩ هجرية إلى عام ٩٦ هجرية

نجحت الجيوش الإسلامية فى فتح مصر فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب ثانى خلفاء النبى محمد «ﷺ»، الذى تولى الخلافة فى عام ١٣ للهجرة ٦٣٤ ميلادية خلفًا لأبى بكر أول الخلفاء الذى أوصى أن يخلفه عمر والذى حمل لقب أمير المؤمنين، وتلقب به من بعده كل خلفائه، وعلى الرغم من أن فترة خلافة عمر لم تستمر سوى عشر سنوات وستة أشهر وسبعة عشر يومًا، فإنها كانت متميزة بعدد كبير من الفتوحات، فقام المسلمون بهزيمة يزدجرد بن هرمز آخر ملوك الساسانيين فى فارس، وفتحوا مدينة المدائن عاصمة الإمبراطورية، وكذا ديار بكر وأذربيجان وخراسان، وجزءًا من بلاد الهند.

وبينما كان عمر يوسع رقعة الإمبراطورية الإسلامية ناحية الشرق لم يكن قادته أقل حظًا منه فى ناحية الغرب، فبعد أن قاموا بهزيمة الجيوش التى

أرسلها إمبراطور القسطنطينية للتصدى للجيوش العربية، أصبح المسلمون هم سادة بيت المقدس وكل بلاد سوريا ومنف والإسكندرية وكل أرض مصر شمالاً وجنوبًا، ومنها تقدم جزء من الجيوش إلى النوبة من ناحية بينما اتجه الجزء الآخر إلى إفريقية، وهناك فتحوا مدن برقة والقيروان وطرابلس ومعظم أرض ليبيا.

ووفقًا لما يقوله الكتاب العرب، فما أن أصبح المسلمون حكامًا لمصر حتى انشغلوا بتنظيم الإدارة الداخلية للبلاد، وتنظيم جباية الضرائب التى كان يحصلها الولاة باسم الخلفاء كما قاموا أيضًا بتشييد مقاييس للنيل فى مختلف المدن. وكان عمرو بن العاص الشهير هو أحد كبار القادة العسكريين فى بداية العصر الإسلامى، وهو القائد الذى كلفه الخليفة عمر بن الخطاب بقيادة الجيوش التى أرسلها لفتح بلاد الغرب، بينما اتجهت جيوش أخرى ناحية الشرق لتواجه ملك الفرس.

وقد استطاع عمرو بن العاص فى وقت بسيط أن يفتح جزءًا كبيرًا من سوريا ثم اتجه إلى مصر وانتزعها من يد الحاكم هرقل، وبعد فتح مصر عام ١٩ هـ - ٦٤٠ م أعطى أوامره بإنشاء مقياسين للنيل فى مصر العليا، أحدهما فى مدينة أسوان التى يعرفها الإغريق باسم سيين والتى لعبت دورًا كبيرًا أثناء حكم أباطرة الرومان لمصر، وبعد ذلك بوقت قصير بنى مقياسًا آخر فى مدينة دندرة.

وخلف عثمان عمر بن الخطاب، وبعد حوالى اثنى عشر عامًا خلفه على ابن أبى طالب الذى تولى الخلافة لفترة أقل من خمس سنوات، ثم جاء من بعده الحسن بن على وفاطمة، وبالتالى فهو من نسل النبى محمد مباشرة، وبعد عزل هذا الخليفة الذى لم يحكم سوى ستة أشهر انتقلت الخلافة عام ٤١ هـ - ٦٦١ ميلادية إلى الأمويين.

كان معاوية ابن أبى سفيان الذى يلقبه بعض كتابنا بمعاوية الأول هو أول حكام هذه الأسرة، وحكم فترة ٩١ عامًا، ويذكر التاريخ أن هذا الخليفة قد أمر بإنشاء مقياس جديد للنيل فى أنصنا (*) نحو عام ٤٦ هـ - ٦٦٦م.

(*) ذكر ياقوت الحموى فى معجم البلدان أنها مدينة قديمة فى الصعيد تقع شرق النيل (المترجم).

وبعد موت هذا الخليفة انتقل العرش إلى ابنه يزيد الذى حكم فترة أقل من أربع سنوات، ثم إلى معاوية الثانى حفيده الذى حكم فترة أقل من أبيه ومات بدون وريث.

ولخلو العرش من وريث تولى الخلافة عبدالله بن الزبير الذى لا ينتمى إلى الأسرة الأموية، ولكن انقطاع الخلافة عن هذه الأسرة لم يستمر فترة طويلة، فبعد حكم قصير لعبدالله بن الزبير عادت الخلافة إلى بيت بنى أمية مرة أخرى فى شخص مروان بن الحكم، وبعد حكم أقل من عام خلفه على العرش ابنه عبدالملك، وحكم فترة عشرين عامًا تقريبًا، وفى عهده حوالى عام ٨٠ للهجرة ٦٩٩م قام عبدالعزيز ابن الخليفة مروان وأخو الخليفة عبدالملك بإنشاء أشهر مقاييس النيل التى ذكرها المؤرخون العرب فى حلوان وتقع هذه القرية على الشاطئ الشرقى للنيل على مبعدة عدة فراسخ من القاهرة، وتشتهر فى تاريخ مصر بموت الخليفة العباسى الحاكم الذى تم اغتياله فى هذه القرية وفقًا لرواية عبدالرشيدالبكوى.

وقد ذكر المؤرخ جرجس ابن العميد الذى يشتهر فيما بيننا باسم المكين أن مقياس النيل هنا لم يستخدم سوى فترة قصيرة، حيث إنه تهدم بعد بنائه بسنوات قليلة أى فى عام ٩٦ هـ ٧١٤ م.

المبحث الثانى

مقاييس النيل المعاصرة لبناء المقياس خلال حكم الخلفاء العباسيين

حتى لا نعود مرة ثانية للحديث عن مقاييس النيل التى تختلف عن مقياس جزيرة الروضة، والتى كانت مشيدة فى زمن بناء هذا المقياس، فسوف أسرد هنا الواقعة الوحيدة التى قرأتها فى مجلدات الكتاب الشرقيين التى تتناول مقاييس النيل المشيدة فى أماكن مختلفة من أرض مصر، والتى لم يلبث استخدامها أن يهمل بمجرد أن بدأ تشغيل مقياس جزيرة الروضة.

فقد قام الخليفة المأمون من نسل العباسيين بإنشاء مقياس للنيل فى مصر العليا فى مكان يدعى «سورات» بالقرب من قرية تسمى بنبنودا، كما قام أيضًا بإصلاح مقياس آخر فى مدينة أخميم، وسوف أعود للحديث عن هذا الخليفة عندما أتناول أوامره الصادرة بإعادة بناء مقياس جزيرة الروضة.

وهكذا ينتهى العرض المختصر حول تاريخ مقاييس النيل التى شيدت على أرض مصر والتى كانت - باستثناء المقياس قبل الأخير الذى تحدثت عنه توًا - موجودة فى زمن يسبق تشييد مقياس جزيرة الروضة، الذى سأقدم له الآن دراسة تفصيلية خاصة تتناول تاريخه.

الجزء الثانى

الفصل الأول
جزيرة الروضة

قبل أن أتتبع العصور التاريخية المتتالية لمقياس النيل فى جزيرة الروضة، أعتقد أنه من الملائم أن ألقى نظرة سريعة على هذه الجزيرة، وأشير إلى ما كانت عليه قبل إنشاء مقياس النيل وفى الفترة التى تم فيها تشييد هذا البناء، ثم ما آل إليه وضع هذه الجزيرة فى الوقت الحاضر، إلا أن التفاصيل العلمية التى أمدنا بها السيد لانجليه تعفينى من أن أقدم للقارئ هنا إشارات عديدة لابد وأن أستعيرها من هذا المستشرق الشهير.

فقط أريد أن أفسر كلمة رَوضة أو رُوضَة - تبعًا للنطق الدارج المألوف فى مصر - التى تعنى فى اللغة العربية: بستانًا أو برارى مزروعة بالورود(١)، ويبدو أن جزيرة الروضة قد تسمت بهذا الاسم بسبب جمال موقعها وخصوبة أرضها الشديدة، علمًا بأنها تتكون كلية من طمى النيل. ولعل العدد الكبير من المنازل التى بنيت على هذه الجزيرة بغرض الترويح عن النفس قد أضاف إليها جمالاً خاصًا، ومن بين تلك المنازل التى أنشئت فى عصور مختلفة تتميز قصور عدة

---

(١) ومن مشتقات هذا الاسم : راض ، روض، ريض، روضة، ريضان، روضات ، انظر المجموعة ١٠٦٢، ١٠٦٣ من القاموس العربى - اللاتينى لفوليوس.

خلفاء حكموا مصر. وقد سمح موقعها فى وسط النيل بالقرب من مقر الحكومة بأن يتم تحصينها ضد الغزو الصليبى، فبنيت بها قلعة سنة ٦٣٨ هـ - ١٢٤١م ولم تلبث هذه الجزيرة أن سقطت فى يد الفرنسيين بعد معركة الأهرامات الشهيرة، ففى الليلة التى تلت هذا اليوم الحاسم اجتازت فرقة الجنرال مينو رافد النهر الذى يفصلها عن الجيزة واستولت عليها، ثم نقلت البضائع الخاصة بخدمة الجيش ووضعت فى هذه الجزيرة، وأنشئت بها أفران وبعد ذلك مصنع بارود ضخم عهدت إدارته إلى السيد شامبى الأب (١) عضو مجمع القاهرة، وكان يساعده المرحوم شامبى الابن، وكان شابًا ناجحًا، ولكنه أصبح فى عداد ضحايا وباء الطاعون، فأصدر المجمع المصرى رثاءً له على فقدانه المبكر.

وبعد أن أصبحت مزرعة إبراهيم بك - الواقعة على الضفة الغربية للنيل فى الجهة المقابلة لجزيرة الروضة - مركزًا عسكريًا، تم الربط بين هذا المركز وجزيرة الروضة عن طريق جسر من المراكب يقطع الرافد الصغير للنيل، ولم نلبث أن أقمنا جسرًا من المراكب على فرع النهر الأكبر، وبذلك حدث اتصال مباشر بين القاهرة والجزيرة والجيزة.

---

(١) يشغل الآن منصب مدير عام البارود وملح البارود.

الفصل الثانى
تاريخ المقياس خلال الخلافة الأموية والعباسية والفاطمية من سنة ٩٦هـ إلى سنة ٥٦٧هـ

يبدأ الجزء الأول من تاريخ مقياس جزيرة الروضة بحكم الخليفة الأموى سليمان بن عبدالملك، الخليفة الثالث عشر بعد النبى محمد (ﷺ)، وهو مؤسس مقياس النيل. ويشمل هذا الجزء فترة زمنية تمتد حوالى ٤٧١ عامًا، أى حتى اعتلاء الأسرة الأيوبية عرش مصر.

المبحث الأول
العصر الأول للمقياس:- إنشاء هذا المبنى أثناء حكم الخليفة سليمان

رأينا فى الفصل الأخير من الجزء الأول من هذه الدراسة كيف سقطت مصر تحت نفوذ الخلفاء، وظلت فى هذا العصر خاضعة لسلطة الحكام الذين أسسوا مقرًا لإمبراطوريتهم الشاسعة فى دمشق (١).

---

(١) عَرِفَ كُتَّاب العصور القديمة هذه المدينة باسم دمشق، وكانت ذائعة الصيت، ولم تتخل عن=

كان سليمان هو الأمير الثامن فى الأسرة الأموية، وهو الابن الأصغر للخليفة الأموى عبدالملك (١) وحفيد الخليفة مروان (٢)، اعتلى العرش عام ٩٦ هـ - ٧١٥م خلفًا لأخيه الأكبر الخليفة الوليد(٣).

وقد تهدم مقياس النيل الذى بناه عمه عبدالعزيز بن مروان فى حلوان فى السنة الأولى من حكم هذا الخليفة كما رأينا من قبل(٤).

=شهرتها لأى مدينة سورية أخرى، وكانت عاصمة الإقليم الذى أطلق عليه فينيقيا لبنان، وقد أضاف إلى جاذبية موقعها وادٍ به عدة مجارٍ مائية تخصبه وترطبه، وكان هذا الوادى مشهورًا عند الشرقية باسم غيطة دمشق، ويعد ذلك من الدلائل التى تؤكد أنها مدينة ضاربة فى القدم، وكانت هذه المدينة تتهدم كلية بعد كل نكبة من النكبات التى شهدتها، إلا أن أمراءها كانوا يعيدون بناءها فى كل مرة.

ويوجد بها نهر أطلق عليه الإغريق اسم «كريسورس» أى تيار الذهب، ووفقًا لرواية سترابون وبلينى وبطليموس فقد كان هذا النهر ينقسم إلى عدة قنوات تجرى بالمدينة وضواحيها، وقد أطلق عليه إيتسان دو بيزانس اسم Bardine، ومنه اشتق الاسم الحالى براد أو برادة كما كتبه مؤلف القاموس.

سقطت دمشق تحت حكم المسلمين فى شهر رجب من سنة ١٤ هـ - ٦٣٥م إبان حكم عمر ابن الخطاب الخليفة الثانى للرسول (ﷺ).

(١) توفى عبدالملك بن مروان الابن الأكبر لمروان والخليفة الحادى عشر للرسول (ﷺ) عام ٨٦ هـ - ٧٠٥م. انظر الملحوظة رقم ٢٧٠ فى الجزء الأول من هذه الدراسة.

(٢) مروان بن الحكم ذكره مؤرخونا باسم مروان الأول، تولى الحكم بعد الخليفة عبدالله بن الزبير واعتلى العرش سنة ٦٤ هـ - ٦٨٤ م، ولم يدم حكمه سنة واحدة، وخلفه ابنه الأكبر عبدالملك. انظر الملحوظة رقم ٢٦٩ فى الجزء الأول من هذه الدراسة.

(٣) الوليد بن عبدالملك هو الخليفة الثانى عشر بعد الرسول (ﷺ) والسابع فى الأسرة الأموية خلف والده عبدالملك على العرش عام ٨٦ هـ - ٧٠٥ م، وتوفى عام ٩٦ هـ - ٧١٥ م بعد حكم دام عشر سنوات، وخلفه أخوه سليمان.

(٤) انظر النص رقم ٣٧ فى نهاية هذه الدراسة.

وقد سارع أسامة الملقب بالتنوخى بن يزيد(١) - وفقًا للمكين - أو زيد - وفقًا لعبدالحكم والمقريزى - بالكتابة إلى الخليفة ليقدم له تقريرًا عن هذا الأمر، وقد كان آنذاك قَيِّمًا أو عامل خراج مصر باسم الخليفة (٢)، الذى أمره بألا يعيد بناء مقياس النيل المتهدم، وإنما يقوم بتشييد مقياس آخر فى الجزيرة الواقعة فى وسط النيل بين رافد الفسطاط (٣) ورافد الجيزة، وبتنفيذه هذه الأوامر وضع أسامة الأساسات لأول مقياس نيل فى جزيرة الروضة.

يعرف هذا المقياس الشهير بصفة خاصة باسم «مقياس» (٤)، وقد بدأ العمل فى إنشائه فى نفس هذه السنة بنشاط كبير، وتم الانتهاء من العمل فيه فى فترة أقل من عام واحد أى فى سنة ٩٧ هـ - ٧١٥ م.

وتذكر الروايات أن عمود مقياس النيل - الذى مازال موجودًا حاليا فى وسط هذا البناء - هو نفسه العمود الذى أقامه أسامة فى هذا العهد، ولعل شكل حروف الكتابات الكوفية المسجلة عليه تؤكد هذا الرأى(٥).

وقد تهدم المقياس وأعيد بناؤه عدة مرات منذ ذلك الوقت كما سنرى من خلال هذه الدراسة.

---

(١) انظر فيما يلى النص رقم ٣١ فى نهاية هذه الدراسة.

(٢) انظر النص رقم ٣٩ فى نهاية هذه الدراسة.

(٣) الفسطاط. عندما فتح عمرو بن العاص مصر نصب خيمته فى المكان الذى تقع فيه الآن مدينة الفسطاط، فجاءت حمامة وبنت عشها على الخيمة، فأمر عمرو بترك خيمته منصوبة فى هذا المكان حتى لا يزعج الطائر، وبعد فترة مر على نفس المكان وأراد الاحتفاظ بذكرى هذا الحدث الطريف فأمر ببناء مدينة هناك أطلق عليها لهذا السبب مدينة الفسطاط أى الخيمة. ويسمى هذا الموقع الآن مصر القديمة أو مصر العتيقة.

(٤) تعنى كلمة مقياس فى اللغة العربية «أداة قياس»، وهى مشتقة من الجذر قاس أى مقارنة شىء بشىء آخر.

(٥) انظر فيما يلى الجزء الرابع.

المبحث الثانى

العصر الثانى للمقياس - إعادة بناء المقياس للمرة الأولى أثناء حكم الخليفة المأمون

كان المأمون (١) هو الخليفة السابع فى أسرة العباسيين والابن الثانى للخليفة هارون الرشيد. اشتهر اسمه إلى حد كبير بيننا، وكان معاصرًا لشارلمان.

(١) إن الاسم الكامل لهذا الخليفة الشهير الذى يطلق عليه مؤرخونا مأمون أو المأمون - هو المأمون أبو العباس عبدالله بن هارون، وهو الخليفة السابع والعشرون بعد الرسول (ﷺ)، ولد سنة ١٧٠هـ - ٧٨٦ م، ولم تكن بدايات حكمه هادئة تمامًا.

شغف بحب الأدب، واعتمد على فضل بن سهيل الذى عينه وزيرًا له فى إدارة جزء كبير من شئون الحكم، وكان هذا الرجل يستحق كل تقدير على الرغم من إلمامه البسيط بشئون الدولة، إلا أن الخليفة الذى أعطى مكانة خاصة للفضل انطلاقًا من ذكرى علي رضى الله عنه أراد من وراء ذلك استعادة الأسرة العلوية رغم أنها منافسة لأسرته، وكان يأمل بذلك إنهاء الانشقاق الذى حدث بين هاتين الأسرتين والذى أدى إلى انقسام بين المسلمين، ولذلك فقد قام فى سنة ٢٠١ هـ ٨١٦ م بإشراك على بن موسى الملقب بالإمام رضا فى السلطة، وزوّجه بابنته حبيبة وكان ذلك على حساب أخيه المعتصم، مما أثار غضبًا عامًا فى الإمبراطورية لاسيما فى مدينة بغداد التى أسس فيها العباسيون مقرًا لهم وأيضًا فى الأقاليم المجاورة لها.

وحرص أفراد هذه الأسرة على العصيان ضد المأمون، وكانوا - وفقًا لما يذكر المؤرخون العرب - كثيرى العدد وربما وصل عددهم إلى «٣٣٠٠٠» فرد، واتفقوا بالإجماع على تنحيته من الخلافة، وأرادوا تنفيذ وصية هارون الرشيد فى أن يخلف المعتصم أخاه المأمون على العرش، إلا أن هذا الأمير كان لا يزال صغير السن ولا يستطيع أن يحكم بنفسه، فأجمعوا على إعلان إبراهيم بن المهدى عم المأمون خليفة.

وقد وجدت هذه الانقسامات الأليمة نهاية لها بوفاة رضا والفضل عام ٢٠٣ هـ - ٨١٨ م مما دعا المستائين إلى خلع إبراهيم والاعتراف بالمأمون مرة أخرى خليفة شرعيًا. وقد زار المأمون مصر سنة ٢١٦ هـ - ٨٣١م ولم يقم بها إلا سنة واحدة تقريبًا، ثم رجع إلى دمشق ومنها ذهب لمواجهة اليونانيين الذين تسلحوا ضده فهزمهم، ومر الخليفة بجنوده بصقلية وتوفى هناك بسبب حمى حادة قرب نهر «بدندون» عن عمر يناهز ٤٨ عامًا سنة ٢١٨ هـ - ٨٣٣م، ودفن فى «تارس» إحدى المدن الرئيسية فى صقلية، بعد فترة حكم دامت ٢٠ سنة و٨ أشهر، وخلفه أخوه الأصغر المعتصم بالله.

خلف أخاه الأكبر الخليفة الأمين عام ١٩٨ هـ - ٨١٣م، وقد حمل هذا الخليفة معه إلى العرش صفات تختلف كثيرًا عن تلك التى اتسم بها سلفه الأحمق، واستحق بحكمة سلوكه أن يُعتبر بحق واحدًا من أفضل الأمراء الذين حكموا المسلمين، فكان المأمون هو الحامى الحريص على كل المؤسسات والمنشآت التى أقامها والده هارون الرشيد والتى أُهملت فى عهد الأمين. وأصدر فى السنة التالية لتوليه الحكم أى سنة ١٩٩ هـ - ٨١٤ م أمرًا بإعادة بناء مقياس الروضة بالكامل تقريبًا، بعد أن تهدم نصفه بسبب قلة العناية التى وجهت إليه إبان حكم الأمين، حتى اعتقد بعض المؤرخين أن المأمون هو المُؤسس الأول لمقياس النيل، وهذا هو الرأى الشائع فى مصر ليس فقط بين عامة الناس وإنما أيضًا بين المنتمين للطبقة الخاصة والذين لم يقوموا بدراسة متعمقة عن تاريخ بلادهم (١).

وربما يجب أن ننسب إلى هذا العصر الكتابة الموجودة داخل المقياس فوق الفتحة الداخلية للمجرى المائى (٢)، وأيضًا الكتابتين اللتين تمتدان بطول إفريز حوض مقياس النيل على الجانبين الشرقى والشمالى (٣).

ويتميز أسلوب هذه الكتابات وكذا الأحرف المستخدمة فيها بأناقة واضحة وخطوط حادة، تتشابه إلى حد كبير مع الميداليات التى سكت فى عهد هذا الخليفة، فلها محيط واضح ودقة ملحوظة فى نسبها، كما أنها تتمتع بتنفيذ سليم يشير بطريقة واضحة إلى الرعاية المتميزة التى كان الخليفة المأمون يوليها إلى العلوم والفنون وفقًا لشهادة التاريخ، وكان يشجع التطور والتقدم بنفقات كبيرة وبكل الوسائل التى أتاحتها له سلطته كحاكم، ولهذا ستبقى ذكراه غالية دائمًا. ويرجع الفضل إليه فى معرفة العرب أفضل المؤلفين اليهود والسريانيين والأغارقة واليونانيين الذين أمر بترجمة أعمالهم إلى اللغة العربية، ونشرها وشجع على مطالعتها ودراستها، كما يرجع له الفضل أيضًا فى احتفاظ علماء

---

(١) انظر فيما يلى رسالة ديوان القاهرة.
(٢) انظر الجزء الرابع من هذه الدراسة.
(٣) نفسه.

أوروبا بعدة مؤلفات ومقتطفات لقدامى المؤلفين الإغريق واليونانيين، التى لم توجد فى لغاتهم الأصلية ووجدت فى ترجمات العرب التى وصلت إلينا.

ولم يكتف المأمون بأن ينقل إلى لغته ثروات الأمم الأخرى بل أراد أن يجمع من حوله العلماء ليس فقط من الشعوب الإسلامية الخاضعة لحكمه وإنما أيضًا من اليهود والمسيحيين والمجوس والهنود أيًا كانت ملتهم أو ديانتهم، وأغدق عليهم العطايا، وكانت تطيب له أحاديثهم الأدبية.

وترعرع من بين علماء الفلك فى عصره حبش المروزى[1] الذى ألف ثلاثة كتب فى الزيجات الفلكية[2]، وأحمد بن عبدالله (*)، ومحمد بن

---

(١) لُقبَ هذا العالم الفلكى بالمروزى لأنه من مواليد مرو، وهى واحدة من بين أربع مدن رئيسية فى إقليم خراسان الذى كان مقرًا ملكيًا لعدة سلاطين لاسيما السلاجقة، وقد دُمر بالكامل على يد التركمان بعد هزيمة السلطان شنجر.

(٢) أطلق العرب على هذه الزيجات الفلكية اسم زيج، وهى كلمة من أصل فارسى وتوازى كلمة زيك الفارسية ومعناها حرفيًا: خيط القياسات الذى يستعمل فى رسم وضبط الخطوط بشكل دقيق، وبمعنى مجازى: وَضْع خطوط عمودية وأفقية متوازية فيما بينها، ويشير اسم زيجات فلكية إلى أنها مكونة من خطوط متشابهة، أو وفقًا لما يذكر بعض المؤلفين العرب إلى أنها شديدة الدقة، وهو المطلوب فى هذه الدراسات.

ومن بين المؤلفات الفلكية الجديرة بالملاحظة والمعروفة تحت اسم زيج فى الشرق هى: زيج بطليموس وزيج الخانى، وهذه الزيجات ألفها العالم نصر الدين محمد الطوسى الذى عاش فى عصر الخليفة المعتصم حوالى عام ٦٦٠ هـ - ١٢٦١م، وقد أُطلق عليها هذا الاسم لأنها صدرت تحت رعاية كولجوخان المسمى أيضًا إلخان أو الخان. ويوجد مؤلفان بعنوان زيج شاهى يحتويان على ملخص الزيجات الفلكية لنصر الدين الطوسى الذى ذكرته توًا، صدر الأول بقلم نجم الدين، وكتب الثانى باللغة الفارسية بقلم على شاه بن محمد.

وللفرس أيضًا زيجان فلكيان قديمان جدًا، أحدهما بعنوان زيج إسفنديار والآخر بعنوان زيج شهريار. ويوجد أخيرًا زيج أولوغ بك الذى يتمتع بتقدير عالٍ فى الشرق وقد كتب باللغة العربية فى سمرقند عام ٨٤١ هـ - ١٤٣٧ م بقلم الشهير أولوغ بك بن شهرخ وحفيد تيمورلنك العظيم وترجمه محمد بن أحمد إلى الفارسية، وقد قدم الدكتور هيد طبعة له مزودة بترجمة لاتينية تحت هذا العنوان «جداول مواضع ثوابت در طول وعرض كه برصد يافته است الغ بيك بن شاهرخ بن تيمور».

(*) أحمد بن عبدالله مؤلف زيجات فلكية عنوانها زيج المأمونى وسوف أتحدث عنه فيما بعد.

كثير(١) الملقب بالفرغانى (٢) الذى نعرفه نحن باسم الفرجان ولمؤلفاته عدة طبعات (٣). وعبدالله بن سهل (٤) ومحمد بن موسى الملقب بالخوارزمى(٥) وما شاء الله(٦٢) المعروف باللقبين اليهودى والمصرى (*). وقد استطاع المأمون بفضل هؤلاء العلماء

---

(١) اسمه محمد بن كثير كما هو مدون فى أغلب المخطوطات وفى طبعة غوليوس التى سأتحدث عنها فيما بعد، غير أن بعض المخطوطات تسميه أيضًا أحمد بن كثير، وعلى أية حال فإن اسمى أحمد محمد مترادفان فى اللغة العربية ويحل أحدهما محل الآخر. [هكذا ظنّ والصواب غير ذلك].

(٢) أخذ هذا العالم الفلكى لقب الفرغانى واشتهر به لأنه من مواليد فرغان هى مدينة فى إقليم يحمل نفس الاسم، كان جزءًا من سُجديان، وقد أنجبت هذه المدينة عددًا من العلماء يحملون جميعًا نفس اللقب مثل مؤلفنا ولذلك لابد أن نتجنب الخلط بينهم، وأشير إلى بعضهم فى جغرافية أبى الفدا وفى كنز الجغرافيا للياقوتى وفى تاريخ الفلاسفة لابن كافته.

(٣) عندنا عدة ترجمات لاتينية للفرغانى، أقدمها التى أشار إليها غوليوس والتى تم تقديمها إلى نوامبرج عام ١٥٣٧ أو ربما عام ١٥٣٨ كما يذكر كيستر. وتوجد ترجمة ثانية لهذا العالم الفلكى باللغة اللاتينية نشرت بعد ذلك بحوالى ٥٠ عامًا فى فرانكفورت. كما نشر غوليوس طبعة عربية ولاتينية للفرغانى أثراها بملاحظات قيمة، إلا أنها للأسف تتوقف عند الفصل التاسع فقط من هذا الكتاب، فقد أدركه الموت عام ١٦٦٧ م ومنعه ذلك من إتمام عمله، وبدأ بنشر هذه الطبعة بنفسه ولم يتم الانتهاء منها إلا بعد وفاته بسنتين، ونشرت تحت عنوان «كتاب محمد بن كثير الفرغانى فى الحركت السماويت وجوامع علم النجوم بتمسير الشيخ الفاصل يعقوب غوليوس، أمستردام عام ١٦٦٩م.

(٤) الاسم الكامل لهذا العالم الفلكى هو عبدالله بن سهل بن نويخت.

٥) الخوارزمى أى الذى ولد فى خوارزم.

(٦) ما شاء الله، يبدو أن هذا الاسم المركب كان متداولاً فيما مضى فى الشرق وخاصة فى إفريقيا. وقد أهدى القديس أوجستن بحثه عن البدع إلى أسقف اسمه Quodvirlt-Deus، ويعنى اسمه ما شاء الله، وهذا الرجل مغربى الموطن، وكان يرأس كنيسة قرطاجة سنة ٤٣٩ م عندما تم الاستيلاء عليها ونهبها على يد جنسريك ملك الوندال الذى اقتاد هذا الأسقف وعددًا من مساعديه ووضعهم على سفينة قديمة يتسرب إليها الماء من كل جانب محرومين من الزاد، إلا أن مجموعة سير القديسين ذكرت أنه بلغ شاطئ نابلس لحسن الحظ، ويزعم البعض أن جثته محفوظة فى كنيسة القديس جوديوسوس وكانت كنيسة إفريقيا تحيى قديمًا ذكرى هذا الأسقف فى ٨ يناير، ووضعته كنيسة روما فى سيرة الشهداء فى ٢٦ أكتوبر، وكنيسة أدون فى ٢٨ نوفمبر.

(*) هذا بالإضافة إلى يحيى بن أبى المنصور. واسم يحيى ويحنا ويوحنا عند المسلمين يوافق اسم Jean، و وفقًا لما يذكر أبو الفرج فقد كان هذا العالم الفلكى من مواليد مكة.

الفلكيين أن ينفذ أدوات فلكية وعدة مراصد لمراقبة السماء وحركة النجوم، إما فى الشماسية [(١)] قرب مدينة بغداد [(٢)]، أو فوق جبل قسيون [(٣)] قرب دمشق، وكلف أحد هؤلاء العلماء بتحرير زيجات تحمل اسمه[(٤)] تبعًا لهذه المراصد، وتعد من الزيجات الهامة فى بلاد الشرق.

ونميز من بين علماء الطب الذين جمعهم المأمون فى بلاطه سهل بن سابور[(٥)]

---

(١) أى مدينة الشماس الإنجيلى، وتعنى كلمة شماس فى اللغة العربية شماس إنجيلى.

(٢) تقع بغداد أو بغداذ كم يكتبها بعض المؤلفين على خط عرض ٣٣° و ٢٠ دقيقة وفقًا لزيجات المأمون و٢٥ دقيقة وفقًا للفلكيين اللاحقين، وهى عاصمة العراق. تم إنشاؤها على الضفة الغربية لنهر دجلة على يد الخليفة المنصور أبى جعفر، وهو الخليفة الثالث والعشرون بعد الرسول (ﷺ) والحاكم الحادى عشر فى أسرة العباسيين. وذكر المؤرخون الشرقيون أن هذا الخليفة أنفق ؟ ملايين قطعة ذهبية لبناء هذه المدينة، التى سميت فى البداية باسم مؤسسها أى مدينة المنصور، كما سميت باسم آخر هو زورا «مائل» ويفسر بعض الكتاب هذا الاسم الذى أطلق على المدينة قائلين إن النهر ينحنى بانحراف فى هذا المكان إلا أن أبا الفدا يؤكد أن السبب فى إطلاق هذا الاسم هو عدم تعامد مدخل أبوابها الخارجية مع أبوابها الداخلية حيث يجب على الفرد أن يسير بانحراف ليصل من مدخل إلى آخر.

أُطلق على الموقع الذى بنيت فيه هذه المدينة قديمًا اسم بغ داد بالفارسية أى «حديقة داد» حيث كان يوجد رجل فارسى اسمه داد وكان يملك حقلاً واسعًا، ووفقًا لروايات أخرى فإن هذا المكان كان فى الماضى وقفًا لضم اسمه بغ.

(٣) يمتد من الشمال إلى الجنوب، أى من خط عرض ٣٦ إلى ٣٥° بطول شاطئ البحر المتوسط من مصب نهر أرنط حتى مصب نهر ملك. ويذكر بلينى فى كتابه الخامس المقطع رقم ٢٢ كلاما لا يخلو من المبالغة عن هذا الجبل، قائلاً: إن قمته توحى بمشهد النور والظلام فى وقت قصير، وهو الوقت الذى يستلزم الاستدارة من المشرق إلى المغرب فقط. وقسيون هو فرع من سلسلة جبال لبنان، وقد أطلق القدماء على الوادى الواقع بين هذه السلسلة وبين جبل بيريوس اسم كاسيوتيد .

ويذكر عبدالرشيد البكوى أن هناك جبلاً آخر يحمل نفس الاسم فى مصر فى شرق طيبة «البيلوزيوم» قرب المدينة القديمة التى يعرفها العرب باسم الفرما، بينما يعرفها الأقباط بأسماء براماياس وبرأمرون وبرامونى.

(٤) زيج المأمونى الذى ألفه ونشره أحمد بن عبدالله الذى تحدثت عنه من قبل، وتُعرف هذه الزيجات أيضًا باسم زيج الدمشقى.

(٥) سهل بن سابور الأهوز، ويذكر أبو الفرج أن لهجته كان بها أثر من لهجة خوزستان المحلية.

الملقب بالكوسج (١)، وجبرايل الملقب بطبيب العيون أو الكحال لأنه تخصص فى علاج الأمراض الخاصة بالعين، ويوحنا بن ماسويه، وجيورجيس بن بختيشوع، وعيسى بن الحكم وزكريا الطيفورى ويحنا بن البطريك (٢) الذى أعتقه المأمون ولُقب بالترجمان (٣) لأنه ترجم إلى اللغة العربية جزءًا كبيرًا من كتابات المؤلفين الإغريق الذين تخصصوا فى الطب.

ولعل عدد المؤرخين وعلماء الصرف والنحو والشعراء الذين كانوا يعيشون فى عصر المأمون أكبر من نستطيع إحصاءهم، ولذا فسوف أقتصر على ذكر الواقدى(٤) وعبدالملك بن هشام (٥) من بين المؤرخين والنضر(٦) ويعقوب بن إسحاق(٧) وقطرب(٨) وإسحاق الشيبانى(٩) من بين علماء الصرف والنحو وأخيرًا أبى العتاهية (١٠) من بين الشعراء.

---

(١) «الكوسج» ترادف هذه الكلمة الكلمة الفارسية «كوسة» التى تعنى: رجلاً له لحية خفيفة مملوءة قليلاً، مثلما هو الحال عند الأزبك والصينيين، ويرجع هذا التفسير للقاموس العربى لإسماعيل بن حماد الجوهرى المؤلف حوالى عام [٣٩٠ هـ] [٩٩٩ م] والذى استخدمه غوليوس كثيرًا خلال تجميعه للقاموس العربى اللاتينى.

(٢) نال يحنا بن البطريك شهرة كبيرة كفيلسوف أكثر منه كطبيب، وانتشرت ترجماته فى الشرق، واتسمت بالأمانة والدقة إلا أن لباقته فى الأسلوب كانت ضعيفة.

(٣) اشتقت كلمة «Truchement» القديمة من كلمة الترجمان ومن بعدها اشتقت كلمة «Drogman».

(٤) محمد بن عمر بن واقد الذى اشتهر باسم الواقدى، وتوفى عام ٢٠٧ هـ - ٨٢٢ م.

(٥) أبو محمد عبدالملك بن هشام بن أيوب الحميرى، توفى فى القاهرة عام ٢١٣ هـ - ٨٢٨ م.

(٦) النضر بن شميل بن خرشه، لقب بالبصرى لأنه من مواليد البصرة وتوفى سنة ٢٠٤ هـ - ٨١٩ م.

(٧) يعقوب بن إسحاق بن زيد البصرى توفى سنة ٢٠٥ هـ - ٨٢٠ م.

(٨) محمد بن المُستنير الشهير بلقب قطرب توفى سنة ٢٠٦ هـ - ٨٢١ م.

(٩) أبو عمرو إسحاق الشيبانى توفى سنة ٢٠٦ هـ - ٨٢١ م.

(١٠) توفى أبو العتاهية سنة ٢١١ هـ - ٨٢٦ م.

المبحث الثالث: العصر الثالث للمقياس:

ترميم المبنى بأمر الخليفة المتوكل

يعد الخليفة المتوكل (١) هو عاشر أمراء الأسرة العباسية وابنًا للمعتصم، تولى العرش سنة ٢٣٢ هـ - ٨٤٦م خلفًا لأخيه الواثق بالله، وقد أعاد هذا الخليفة بناء المقياس مرة أخرى فى حوالى عام ٢٣٣ هـ - ٨٤٧ م وأعطى له اسم «المقياس الجديد».

ويرجع للعصر الثالث للمقياس نصان كوفيان يفطيان إفريز الحوض من الجهتين الجنوبية والغربية (٢)، وعلى الرغم من أنهما يشكلان استمرارية مع كتابات العصرين السابقين ويتصلان بها اتصالاً وثيقًا فى المعنى إلا أن تنفيذ هذين النصين يتميز بشكل مختلف تمامًا يشير إلى أنهما لاحقان للكتابات السابقة.

وعلى أية حال فإن عدم الإتقان الذى نلاحظه فى هذين النصين يثبت بطريقة مادية - إذا ما استطعنا أن نقول ذلك - الإهمال والفتور اللذين أصابا كل أنواع المعرفة والفنون خلال حكم هذا الخليفة، الذى كان بعيدًا كل البعد عن اتباع خطى المأمون وبعض الذين خلفوه، فلم يوجه أى نوع من الرعاية للعلوم والفنون، ولم يجمع فى بلاطه العلماء من الجنسيات والديانات المختلفة كما كان يحلو لبعض الخلفاء أن يفعلوا، بل على العكس من ذلك أقصاهم تمامًا عنه بمضايقاته وتعصبه الأعمى. وهو الذى أصدر فى عام ٢٣٩ هـ - ٨٥٣ م القرار الشهير المعروف فى مصر إلى يومنا هذا بتسخير المسيحيين واليهود لاستخدامهم كمطايا للركوب. ولم يتأت هذا الظلم نتيجة فهم خاطئ للأفكار الدينية فقط وإنما أيضًا نتيجة جهل هذا الأمير وغلظته وسوء أخلاقه وقسوته،

---

(١) الاسم الكامل لهذا الخليفة هو المتوكل على الله جعفر العباسى وقد قتل سنة ٢٤٧ هـ - ٨٦١م، ويذكر عبدالرشيد البكوى أن الفرنجة قد استولوا على دمياط سنة ٢٣٨ هـ - ٨٥٢ م فى عهد هذا الخليفة.

(٢) انظر فيما يلى الجزء الرابع من هذه الدراسة.

وهذا ما يؤكده المؤرخون الذين ذكروا أنه اشتهر بقسوته على الرعية والسكان الأصليين للبلدان، وحتى على أسرته ذاتها. وانتهى به الأمر ليصبح هو نفسه ضحية أعماله، فبعد حكم دام ١٤ سنة وبضعة أشهر قتل على يد عبيده أنفسهم فى مدينة مخوريه فى سن الأربعين، بعد أن تسبب ابنه المنتصر فى إثارة هؤلاء العبيد ضده ثم خلفه باسم المستنصر بالله.

المبحث الرابع

الإصلاح الثانى للمقياس خلال حكم المتوكل سنة ٢٤٧ هـ

أعيد إصلاح المقياس مرة أخرى فى حوالى عام ٢٤٧ هـ - ٨٦١ م، أى بعد نحو ١٥٠ سنة من بنائه الأول، وكان ذلك قبل بضعة أشهر من نهاية حكم المتوكل الذى فقد فى نفس هذه السنة العرش والحياة.

وفى هذه الفترة تم رفع عمود مقياس النيل بعارضة دعم استندت على الجدارين الشرقى والغربى للحوض، وذلك بغرض منع العمود من أن يتهدم، وقد أثبت هذا الإصلاح بالتاريخ المدون فى النص العربى الموجود حتى الآن على هذه العارضة (١).. على الرغم من أنها جددت فيما بعد كما سنرى لاحقًا، وهو ما يدل عليه الشكل الحديث للأحرف التى استخدمت فى الكتابة، ففى أثناء هذا التجديد نُقِلت بدقة الكتابات التى خُطت على الكتابات القديمة وحلت محلها كتابات أخرى حديثة الأحرف، مع الحرص على المحافظة بأمانة على نقل التاريخ القديم لهذه النصوص.

المبحث الخامس

إصلاح المقياس بأمر من الخليفة المستنصر بالله

أصيبت مصر عام ٤٥١ هـ - ١٠٥٩ م بقحط كبير لم يحدث مثل من قبل، فقد ذكر ابن وصيف(٢) فى تاريخ مصر أن أقل منسوب لمياه النهر وصل فى هذه السنة إلى ثلاثة أذرع وإحدى عشرة إصبعا، وأن الفيضان ارتفع إلى ١٢ ذراعًا ثم

---

(١) انظر فيما يلى الجزء الرابع من هذه الدراسة.

(٢) ورد اسم هذا الكاتب كثيرًا فى أعمال المقريزى.

انخفض بسرعة، فلم تغمر مياه النيل البلاد. وحدثت مجاعة كبيرة واستمر هذا الوضع سبع سنوات متوالية تقريبًا، يرتفع خلالها النيل أولاً إلى أن يصل إلى ١٢ ذراعًا ثم لا يلبث أن ينخفض، وفى أحيان أخرى يرتفع بمعدل أعلى من الاثنتى عشرة ذراعًا ثم ينخفض سريعًا. وقد أدى ذلك إلى ارتفاع سعر أردب[١] القمح ليصل إلى مائة دينار[٢] ثم اختفى من الأسواق بعد ذلك، فأكل الناس الجيفة والجثث والقطط والكلاب، وقد روى المؤرخون المصريون أحداثًا مدهشة وغير مألوفة ظهرت أثناء هذه المجاعة الطويلة، إلا أننى لن أتناولها هنا.

وبعد سبعة أعوام من انتشار القحط والأحزان شاعت بين صفوف الشعب إشاعة مؤداها أن الحبشيين قد أغلقوا وحولوا مجرى نهر النيل بعيدًا عن مصر[٣] وانطلاقًا من هذا الحدث يروى ابن إياس إحدى الروايات الغريبة التى تداولها المؤرخون الشرقيون عند تناولهم لموضوع فيضان النيل، ولكنى سوف أقتصر هنا على سردها دون أن أبحثها أو أناقشها. ووفقًا لرواية ابن إياس ففى سنة ٤٥٨ هـ - ١٠٦٦ م ظل النيل منخفضًا جدًا دون أدنى ارتفاع، فكلف الخليفة بطريرك[٤] الأقباط بالذهاب كسفير إلى بلاد الحبشة عند منابع النيل؛ ليطلب من حاكمها السماح للنهر بأن يجرى إلى أرض مصر، وأضاف أن هذا البطريرك وصل بالفعل إلى الحبشة واستقبل هناك بكل تشريف واحترام، وسُئِل عن هدف زيارته، وعندها أبلغ رجاءه لملك الحبش بأن يسمح لمياه النيل بالجريان نحو بلاده مرة أخرى، أجابه الحاكم بأنه سوف يفعل ذلك إكرامًا لخاطر الرسول (ﷺ)، وبالفعل جرى النيل[٥] وزاد فيضانه فى هذه السنة.

---

(١) يساوى هذا الوزن ٣٦ رطلاً.

(٢) حوالى ١٢٠٠ فرنك من عملتنا.

(٣) يبدو لنا هذا المشروع الضخم وكأنه أكبر من كل الإمكانيات والقدرات التى يستمدها الإنسان من الطبيعة، وعلى الرغم من ذلك فقد بدا قابلاً للتنفيذ بالنسبة لألبوكيرك الشهير، ولو كان فى الإمكان تنفيذه لأصبحت مصر كلها صحراء شاسعة.

(٤) كان هذا البطريرك يدعى ميشيل وكان يرأس كنيسة الإسكندرية.

(٥) وفقًا لما يذكر أبوالمحاسن فقد ارتفع النيل فى هذه السنة ليصل إلى ١٦ ذراعًا و٩ أصابع.

أجرى الخليفة المستنصر عدة إصلاحات فى المقياس قبل سنتين من وفاته أى عام ٤٨٥هـ - ١٠٩٢م، وتسببت هذه الإصلاحات فى إعطاء البناء الشكل الذى نراه عليه اليوم، ثم أضاف إليه مسجدًا

ويرجع لهذا العصر ثلاثة نصوص: كتب الأول منها فى داخل المقياس (١) نفسه، والثانى أعلى باب المسجد (٢) والثالث على الجدار الغربى للمسجد من الخارج (٣).

وبإلقاء نظرة سريعة على هذه الكتابات تدرك جيدًا أنها تنتمى لأسلوب مختلف تمامًا عن أسلوب الكتابات التى ترجع إلى العصور السابقة، فلم تكتب بالخط الكوفى وإنما بأحرف قرمطية. وبعيدًا عن هذا الفرق الأساسى بين نوعية الكتابات يمكننا أن نلاحظ أن هذه النصوص الثلاثة تتسم بزخارف وأناقة خاصة أفضل بكثير من الكتابات التى تؤرخ بالعصور السابقة، فتتميز أحرفها برشاقة خطوطها وزخارفها المتنوعة الملتفة، ولهذا فقد تسببت هذه النوعية الجديدة من الكتابات - من خلال بعض أحرفها - فى إدخال زخارف غريبة على الشكل الأساسى للحروف المتتالية، الأمر الذى لم يكن موجودًا فى كتابات العصور السابقة التى تتسم بحروف ذات خطوط قوية صارمة لاتقبل وجود الزخارف والأناقة التى تضاف إلى الشكل النقى للحرف نفسه.

وبهذه العناية التى نفذت بها كتابات هذا العصر نجد أن الفنون والعلوم تحاول الخروج من الظلام الذى أغرقه فيها المتوكل، كما نلاحظ أن المعارف بدأت تولد من جديد تحت الرعاية التى أولاها لها الخليفة المستنصر بالله، وقد دعم هذا التطور الهدوء الذى تمتعت به مصر على مدار حكم هذا الخليفة الطويل الذى اعتلى عرش الخلافة فى عمر ٩ سنوات وظل عليه مدة ٦٠ سنة، ومكنته يقظته واعتداله غير المألوف من القضاء على عدة مؤامرات حيكت ضده.

---

(١) انظر الجزء الرابع .

(٢) نفسه

(٣) نفسه.

وبعد هذه الإصلاحات للمقياس لا يبدو أنه حظى بترجمات جديدة حتى عام ٩٢٤هـ - ١٥١٨م وهو تاريخ بدء العصر التالى للمقياس.

الفصل الثالث

تاريخ المقياس خلال حكم الأيوبيين

يشمل هذا الفصل مدة ٨١ عامًا بدءًا من بداية حكم الأيوبيين لمصر وحتى حكم المعز عز الدين أيبك أول امراء دولة المماليك البحرية الذين انتزعوا من الأيوبيين عرش مصر.

الفصل الرابع

تاريخ المقياس خلال حكم دولة المماليك البحرية من عام ٦٤٨هـ إلى عام ٧٨٤هـ

يشمل هذا الفصل تاريخ المقياس لمدة ١٣٦ عامًا منذ بداية حكم المعز عز الدين أيبك أول أمراء دولة المماليك البحرية حتى عام ٧٨٤هـ - ١٣٨٢م، أى فى السنة التى استطاع فيها المماليك الشراكسة انتزاع السلطة من الأسرة السابقة.

المبحث الأول

أحداث تتعلق بالمقياس خلال حكم دولة المماليك البحرية حتى نهاية حكم الملك الناصر

فى عام ٦٩٤هـ - ١٢٩٥م أثناء حكم الملك الناصر محمد يذكر ابن إياس أن النيل قد وصل إلى فيضانه الكامل منذ اليوم السادس من أيام النسىء، فكان معدل الفيضان فى هذه السنة ١٦ ذراعًا و ١٧ إصبعًا، ولكنه لم يلبث أن انخفض سريعًا، وحدثت المجاعة فى مصر ونقص القمح ووصل سعر الأردب إلى ثمانية ونصف مثقال ذهب.

وقد عزل هذا الأمير الشاب عام ٦٩٤هـ - ١٢٩٥م وجلس على العرش من بعده زين الدين كتبغا (١) ولكنه لم يحكم سوى عامين فقط.

---

(١) هو الملك العادل زين الدين كتبغا الملقب بالمنصورى، لأنه كان عبدًا للمنصور، وفى شهر محرم من عام ٦٩٦هـ - ١٢٩٧م أى بعد حكم دام عامين فقط هرب إلى سوريا خوفًا من حسام الدين لاجين.

ووصل فيضان النيل فى بداية شهر توت من عام ٦٩٦هـ - ١٢٩٧م إلى ١٥ ذراعًا و١٨ إصبعًا، ولكنه انخفض فجأة، فلم يرو أراضى البلاد، وعمت المجاعة والقحط مصر وكل البلاد التى تتبعها، ووصل سعر القمح أو الحنطة إلى ١٧٠ درهمًا للأردب، بينما وصل سعر الشعير إلى ١٢٠ درهمًا للأردب، وأكل الناس لحوم الخيل والجمال والبغال والقطط والكلاب، ونشرت هذه المجاعة خرابها بصفة عامة فى كل أقاليم مصر وسوريا (١).

المبحث الثانى

أحداث تتعلق بالمقياس خلال حكم المماليك البحرية خلفاء الملك الناصر

وفقًا لرواية ابن إياس ففى عام ٧٦١هـ - ١٣٦٠م وبعد قياس ارتفاع مياه النيل وجد أنها وصلت إلى ١٢ ذراعًا، وحدث وفاء النيل من بداية اليوم السادس من شهر مسرى. بينما وصل معدل الفيضان فى هذا العام - وفقًا لما يذكر المقريزى فى وصفه لمصر - إلى ٢٤ ذراعًا.

وهو ما عارضه البعض، إلا أن الشيخ جلال الدين السيوطى أكد مقولة المقريزى، حيث شهد - فى كتابه المسمى «كوكب الروضة» - بأن معدل الفيضان وصل فى هذا العام بالتقريب إلى ٢٤ ذراعًا.

وأصدر الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون أمرًا بوقف الإعلان عن معدل الفيضان، حيث كان الجميع يخشون من حدوث فيضان عام، وواصلت المياه ارتفاعها بدون توقف حتى ٢٥ من شهر بابه القبطى، مما تسبب فى إشاعة القلق والحزن بين أفراد الشعب، وتوقف استعمال جسر الفيوم وغمرت المياه حدائق جزيرة الفيل (٢) وطريق شبرا وطريق المنيا، ودخلت صفوف المنازل الأولى

---

(١) أضاف ابن إياس أنه سبق ووصف هذا الحدث المحزن فى كتابه التاريخى المسمى «بدائع الزهور فى وقائع الدهور».

(٢) توجد جزيرة الفيل بالتقريب أمام القاهرة، وقد تكونت خلال حكم الفاطميين من كومات من الرمال نتجت عن غرق مركب كانت تسمى «الفيل».

بالحسينية، وسدت الآبار وفتحت مجرى لها من خلال حوض جامع الحاكم، وهدمت العديد من منازل جزيرة الروضة، ثم أغرقها تمامًا، وقطعت فى مواضع عدة طريق بولاق، وهدمت عددًا كبيرًا من البيوت.

واستمر هذا الفيضان القوى المرعب حتى نهاية شهر بابه، ولم يحدث مثيل له مطلقًا فى مصر قبل أو بعد الإسلام، وتوجه أفراد الشعب إلى الصحراء داعين الله أن يقل معدل ارتفاع المياه فانخفضت فى اليوم ذاته بمقدار أربع أصابع، ونتيجة لهذا الفيضان المدمر أصاب مصر الخراب، وما لبث أن تفشى بها وباء الطاعون.

وصل معدل الفيضان فى عام ٧٧٢هـ - ١٣٧١م إلى أكثر من ٢٢ ذراعًا، وبقى على هذا الارتفاع حتى نهاية شهر هاتور، مما تسبب فى إشاعة الاضطراب والقلق بين المصريين، لأن أوان نثر البذور قد مرت عليه فترة من الزمن، فتوجهوا إلى جامع عمرو وجامع الأزهر [١] طالبين من الله انسياب المياه، وبالفعل انسابت.

فى عام ٧٧٥ هـ - ١٣٧٣ م تأخر وصول فيضان النيل حتى عيد النيروز، حيث ارتفع بمعدل إصبعين فوق مستوى مياهه، ولم يلبث أن انخفض، مما أثار قلق الشعب، فأمر السلطان بالصلاة الاعتيادية للحصول على المياه، فتوجه جمع من العلماء والرجال الصالحين إلى الله بالدعاء، ولكن النيل انخفض فى اليوم ذاته بمقدار خمس أصابع، ثم عادوا إلى الصلاة مرة أخرى فسقط مطر غزير روى الأراضى وأعطى الفرصة لزراعة بعض الحبوب.

وزاد النيل بعد اليوم السابع من شهر توت [٢] ١٢ إصبعًا فى يوم واحد، ثم زاد بعد يومين بمعدل ثمانى أصابع أخرى، فشاعت البهجة، ولكنه لم يلبث أن انخفض فجأة فحدث جفاف وتبعه قحط. وفى التاسع من شهر توت تم فتح السد على الرغم من أن معدل المياه كان ينقص بمقدار خمس أصابع، وفى نفس اليوم انخفضت المياه، وتبع ذلك حزن وبؤس عام.

---

(١) هو اليوم الجامع الرئيسى فى القاهرة.

(٢) يذكر نص ابن إياس شهر هاتور، ولكن وفقًا لما يقول لانجليه فيجب أن يكون شهر توت، ويؤكد المعنى صحة الرأى الأخير.

الفصل الخامس
تاريخ المقياس خلال حكم المماليك الشراكسة

يشمل هذا الفصل تاريخ المقياس خلال فترة زمنية تمتد إلى ١٤٠ عامًا، منذ بداية دولة المماليك الشراكسة ـ الأولى عام ٧٨٤هـ ـ ١٣٨٢م حتى غزو السلطان العثمانى سليم الأول مصر عام ٩٢٤هـ ـ ١٥١٨م.

المبحث الأول

أحداث تتعلق بالمقياس خلال حكم دولة المماليك الشراكسة الأولى

فى عام ٨١١هـ ـ ١٤٠٨م وبعد أن وصل النيل إلى ارتفاعه الكامل قام السلطان الملك الناصر فرج بفتح السد، وحدث هذا أيضًا فى عام ٨١٢هـ ـ ١٤٠٩م، إلا أن مياه النيل استمرت فى الارتفاع حتى وصلت إلى ٢٢ ذراعاً وإصبع واحدة وبقيت على هذا الارتفاع حتى منتصف شهر هاتور، مما سبب كثيرًا من الضرر للمصريين، فقد أغرق النهر أكثر من مائتى عزبة وعددًا كبيرًا من الأراضى الزراعية وحدائق جزيرة الفيل، وغمر الطرقات، وامتدت المياه حتى منازل الحسينين وغمرت الأراضى تمامًا.

وقد ترك زين الدين العرش لأخيه عزالدين عبدالعزيز (١) الذى لم يحكم سوى ٦٩ يومًا فقط، ثم عاد زين الدين للحكم مرة ثانية وبقى على العرش مدة سبع سنوات، وبعدها فقد حياته عام ٨١٥ هـ ـ ١٤١٢م.

المبحث الثانى

أحداث تتعلق بالمقياس خلال حكم دولة المماليك الشراكسة الثانية حتى نهاية حكم شهاب الدين أبى الفتاح

فى عام ٨٢٣ هـ ـ ١٤٢٠م تأخر موعد الفيضان وزاد سعر القمح، واستمر هذا الوضع لعدة أيام، فأمر السلطان بالصيام لمدة ثلاثة أيام فى القاهرة، وعلى الرغم من ذلك فلم يزدد معدل المياه، فخرج السلطان والخليفة والقضاة والعلماء ورجال الدين والشعب من المدينة لتأدية الصلاة الاعتيادية بهدف الحصول على الماء، وكان السلطان يرتدى جبة من الصوف الأبيض ويلف رأسه بمئزر أبيض مثبت فى شريط دائرى يتدلى أحد طرفيه على الظهر، واتجه بهذا الزى إلى الصحراء، وقام قاضى القضاة جلال الدين البلقينى ليلقى الخطبة (٢) أو الوعظ الاعتيادى للحصول على المياه، وكان السلطان ساجدًا على الرمال بدون سجادة يؤدى الصلاة ويذرف الدموع ويلتمس من العلى القدير أن يستجيب لمطلبهم.

---

(١) لم يحكم الملك المنصور عز الدين عبدالعزيز إلا ٦٩ يومًا فقط وفقًا للجنابى، و٤٧ يومًا وفقًا لابن أبى السرور، وشهرين و٩ أيام وفقًا لابن يوسف، وبعد ذلك خرج أخوه الناصر من عزلته فى شهر جمادى الثانية، فعزل هذا الأمير وتم إقصائه إلى الإسكندرية فى شهر صفر من العام التالى، ومات فى يوم الإثنين السابع من شهر ربيع الثانى.

(٢) الخطبة هى نوع من الإرشاد أو الوعظ تلقى فى المسجد الرئيسى لكل مدينة، وفى المساجد التى أنشأها الخلفاء بعد صلاة الظهر، فيشكر الإمام الله ويمجد ذكرى محمد (ﷺ). وفى العصور التى جمع فيها الخلفاء بين مهام العاهل الدينى وسلطان المسلمين كان الأئمة يتوجهون بالدعاء إلى الله متمنين للحكام طوال وازدهار الحكم وكذا الحال بالنسبة لخليفته وقد كان هذا الشرف مخصصًا للخلفاء فقط حتى عام ٢٠٥هـ ـ ٨٢٠م، وكان أحد خصائص السلطة. وهناك بعض المؤلفات تحمل أيضًا عنوان الخطبة.

وفى اليوم بعد التالى لعودة السلطان إلى القاهرة زاد النيل بمعدل ١٢ إصبعًا، واستمر فى الازدياد حتى حان الوفاء، ولكن هذه الزيادة لم تكن كافية، فلم ترتو نصف الأراضى تقريبًا فحدث جفاف وتلته المجاعة.

وفى عام ٨٢٤هـ - ١٤٢١م زاد النيل فجأة بمقدار ٣٠ إصبعًا فى أول يوم من أيام القياس، مما سبب سعادة غامرة لكل المصريين، وفى هذه الليلة سار السلطان بقارب فى النيل وقام بتلاوة صلاة التسابيح، وفى اليوم التالى زاد معدل الفيضان، فغمرت السلطان سعادة كبيرة، فقد كان الارتفاع القديم للمياه عشر أذرع، وحدث الوفاء فى بداية شهر مسرى، ووصل معدل الازدياد العام إلى ١٨ ذراعًا و٢٠ إصبعًا وفى عام ٨٥٤هـ - ١٤٥٠م بلغ ارتفاع المياه القديمة. ست أذرع وبضع أصابع، وتوقف الفيضان عن الازدياد عندما كان مطلوبًا أربع أصابع فقط لحدوث الوفاء، مما نشر الشائعات بين الشعب، ومرشهر مسرى وبدأ شهر توت بدون وصول النيل لمنسوبه الاعتيادى.

وتم تفريغ حبوب القمح فى الموانى وتخزينها فى المخازن وتذمر السكان من ارتفاع سعر الخبز، ثم انخفض النيل بمقدار ثلاث أصابع فزادت صيحات الشعب، وأمر السلطان بالصلاة العامة للحصول على المياه، فخرج الخليفة والقضاة والشيوخ ورجال الدين وكل الخاصة للصلاة. ولم يشارك السلطان الظاهر جقمق، مثلما فعل المؤيد فى ظروف مشابهة، ووضع منبر فى الصحراء وصعد فوقه رئيس القضاة الشافعية للصلاة من أجل الحصول على المياه، وأراد الرجل أن يضع المعطف الذى كان يلبسه على المنبر ولكنه سقط على الأرض، وكان هذا بمثابة فأل غير حسن.

وبعد الرجوع إلى القاهرة ذكر ابن أبى الرداد أن النيل قد زاد إصبعًا واحدة مما أعطى بعض الأمل، ولكن بدلا من الاستمرار فى الزيادة انخفض النهر وانتهى شهر توت بنقص قدرة سبع أصابع على حدوث الوفاء، وعندما تم فتح السد لم تدخل فيه المياه إلا بكمية ضئيلة واختفت سريعًا، فشاعت الأحزان وضرب البلاد القحط والمجاعة، وحدثت حالات وفاة بين الرجال، ووصل سعر أردب القمح إلى سبعة دنانير.

المبحث الثالث

أحداث تتعلق بالمقياس خلال حكم دولة المماليك الشراكسة الثانية بدءا بحكم أبى سعيد خشقدم حتى نهاية هذه الأسرة

تأخر وصول الفيضان فى عام ٨٦٦هـ - ١٤٦٢م حتى بداية شهر أبيب واستمر هذا التأخير مدة أربعة عشر يومًا، وتغير مذاق المياه وأصبحت بلون أخضر، فلم يستطع أى شخص أن يشرب منها مما أفزع المصريين، وزادت أسعار الأطعمة بصورة ملموسة، وأصبح الخبز نادر الوجود فى الأسواق واستشعر الجميع قدوم المجاعة.

واستمر النيل على حاله مما أثار قلق الشعب وفقدوا الأمل فى حدوث فيضان هذا العام، وأراد السلطان الظاهر خشقدم هدم المقياس حتى يجنب الشعب غناء معرفة زيادة أو نقص مياه النيل، إلا أن الشيخ أمين الدين الأقصرى نصحه بالتروى، وحينئذ أمر السلطان رؤساء القضاة والشيوخ بالذهاب إلى المقياس والصلاة هناك داعين الله أن تزيد المياه.

وتكررت الصلاة فى المقياس على مدار عدة أيام، وبعد ١٤ يومًا زاد النيل بمقدار إصبعين وقام ابن أبى مداد بنقل الخبر إلى السلطان فألبسه على الفور عباءة مبطنة بالفرو، واستمر الفيضان حتى حدث الوفاء أواخر أيام شهر مسرى.

وفى عام ٨٧٠هـ - ١٤٦٦م تأخر وصول الفيضان ستة أيام حتى يوم ١١ من شهر مسرى، فذهب الأمير تمران قائد قوات الحرس والخدم فى يوم الجمعة التالى إلى جزيرة الروضة وحرق الخيام، وضرب مجموعة من الحواة بالسياط وكذا فعل مع بعض الأشخاص الذين كانوا يلهون هناك، وكان يومًا مرعبًا.

وفى يوم السبت الموافق ٢٧ من ذى الحجة زادت مياه النيل وحدث الوفاء، وفى يوم ٢٠ من مسرى قام الأتابك غانم التاجر بفتح السد تبعًا للتقاليد. وفى عام ٨٧١هـ - ١٤٦٧م توقف النيل فى بداية الفيضان مدة ثمانية أيام متتالية، فزادت أسعار الحبوب وارتكب الشعب أعمال عنف ضد بائعى القمح، فأمر السلطان الظاهر خشقدم القضاة الأربعة والشيوخ بالذهاب إلى المقياس لأداء

الصلاة والدعاء للحصول على المياه، وعندما وصلوا إلى المقياس زاد النهر وحدث الوفاء يوم ١٦ من مسرى، أى فى بداية شهر محرم عام ٨٧٢هـ. ثم توجه السلطان إلى المقياس ودهن العمود بالطيب وصعد إلى القارب وذهب لفتح السد، وكانت هذه هى المرة الأخيرة التى يفعل فيها ذلك، حيث توفى بعد فترة قصيرة، ثم خلفه أبو سعيد بلباى (١) الذى كان على مشارف السبعين عامًا، ولكنه عزل بعد ذلك بشهرين تقريبًا وأرسل ليسجن فى الإسكندرية.

وانتقل العرش إلى أبى سعيد تمربغا (٢)، الذى عزل بعد ذلك بعامين، ليحل محله قايتباى (٣) الذى استمر فى الحكم لمدة ٢٩ عامًا ونصف.

وفى عام ٨٨٢هـ - ١٤٧٨م حل الوفاء فى آخر يوم من شهر أبيب، وفى اليوم الأول من شهر مسرى قام الحاجب لاچين بفتح السد وزاد النيل حتى وصل إلى

---

(١) الملك الظاهر أبو سعيد بلباى أو يلباى، اعتلى العرش يوم وفاة خشقدم بعد أن قارب السبعين عامًا، وبعد جلوسه عليه لمدة ٥٦ أو ٥٧ يومًا أوشهرًا و٢٦ يومًا وفقًا لما يقول الجنابى بداغير قادر على إدارة شئون البلاد فتم عزله بالإجماع فى ٧ من جمادى الأولى، وأرسل إلى الإسكندرية ليسجن هناك وفقًا للجنابى، فقد اعتبر هذا الرجل أبًا لكل أفراد المماليك سواء نتيجة أفعاله أو نتيجة فترة حكمه القصيرة تلك.

(٢) الملك الظاهر أبو سعيد تمربغا لقب بالرومى والظاهرى، لأنه كان من بلاد الروم مثل سابقه، وكان من مماليك الظاهر جقمق، جلس على العرش فى نفس اليوم الذى عزل فيه بلباى، ثم عزل يوم ٦ من شهر رجب بعد حكم دام ٥٨ أو٥٩ يومًا فقط وفقًا لما يقول أحمد بن يوسف، ولكنه عومل معاملة كريمة وأرسل إلى دمياط ليعيش حرًا فى هدوء.ويشير الجنابى إلى أن هذا السلطان والاثنين اللذين سبقاه كان لهم جميعًا نفس اللقب عند اعتلائهم العرش، وهو شئ نادر وجدير بالملاحظة.

(٣) الملك الأشراف قايتباى لقب بالمحمودى والظاهرى لأنه جلب إلى مصر بمعرفة الخواجة محمود الذى باعه إلى بارسباى، وحصل على حريته على يد الظاهر جقمق، اعتلى العرش فى اليوم السادس من شهر رجب عام ٨٧٢هـ - ١٤٦٨م واحتفظ به لمدة ٢٩عامًا و٤ أشهر و٢٠ يومًا، وتوفى يوم ٢٢ من ذى القعدة عام ٩٠١هـ - ١٤٩٦م وفقًا لرواية المقريزى.

ويذكر أحمد بن يوسف أنه توفى يوم الأحد ٢٧ رجب، ودفن يوم الاثنين ٢٨ رجب مثلما ورد فى رواية الجنابى.

٢٠ ذراعًا و٢١ إصبعًا فى نهاية شهر بؤونة، ولم يحدث خلال فترة زمنية طويلة فيضان بهذه القوة، حيث غطت المياه الطرقات والكبارى، وغمرت أراضى المنيا وشبرا وجزيرة الروضة وطرق القاهرة وبولاق وجزيرة الفيل وكوم الريش، وملأت الآبار.

حدث الوفاء يوم ٤ من شهر مسرى فى عام ٨٨٣هـ ـ ١٤٧٩م، وقام يزبك بفتح السد، وفى ليلة الوفاء حدث شىء غريب فقد تهدم جسر أبى المنجا وانفصل طرفاه، فأحدث ذلك خسائر ضخمة فى البلدان الموجودة شمال هذه القناة، وغمرت المياه مخازن حبوب أصحاب هذه الأراضى، ومما هو جدير بالملاحظة أن مياه النيل لم تتسبب مطلقًا فى هدم جسر قناة أبى المنجا من قبل.

وفى هذه الليلة نفسها حدث الوفاء وزادت المياه بمقدار ١٢ إصبعًا.

وفى عام ٩٠٢هـ ـ ١٤٩٦م وأثناء النزاع بين ابن السلطان والأمير أقبر دى توقفت مياه النيل عن الارتفاع فى الأيام التى كان متوقعًا فيها اكتمال الفيضان، ولم تزدد إلا بمعدل ضئيل حتى يوم ٢٧ من شهر مسرى، حيث اكتمل الفيضان، وفتح السد يوم ٢٨ من شهر مسرى الموافق ١٢ من ذى الحجة، وكلف الأمير أقبردى حاكم القاهرة الوالى بأداء هذه المراسم، وعندما وصل إلى السد وجد أن الشيخ عبدالقادر الدشطوطى قد قام بهدم جزء من السد وانسابت المياه من هذه الفتحة، فاشتعل الصراع بين الفريقين وتسبب هذا الحدث فى أن يعم الحزن أفراد الشعب ـ وتأخر النيل مدة ٢٠ يومًا ليصل إلى معدله الكامل، لكن هذا لم يلفت اهتمام أى أحد، ولم يظل النهر على هذه الحالة سوى بضعة أيام فقط حيث انخفض فجأة، ولم ترتو الأراضى بما فيه الكفاية فزادت الأسعار.

وفى عام ٩٠٣هـ ـ ١٤٩٧م ظهر القمر الجديد لشهر محرم فى نفس يوم عيد النيروز عند الأقباط، وفقًا لحساب توفيق السنة القبطية مع السنة العربية، واكتمل الفيضان يوم ٤ من شهر محرم من عام ٩٠٤هـ ـ ١٤٩٨م، وتم الإعلان عن ذلك فى يوم ١٩ من شهر مسرى، وحينئذ أراد السلطان الملك الناصر أن يفتح السد بنفسه، وتوجه إلى المقياس، إلا أن أمراءه عارضوه خشية أن يقتل، حيث

صادف هذا الحاكم الكثير من المتاعب، فنزل من القصر بعد صلاة العشاء برفقة أولاد أعمامه وبعض من رجال حاشيته (١) حاملين الفوانيس والمشاعل وذهب لفتح السد تحت جنح الظلام، وقام بجولة على الجسر ثم عاد إلى القصر قبل طلوع الفجر.

وفى صباح اليوم التالى شاهد أهالى القاهرة القنوات وقد ملئت بالمياه، ولم يحدث مطلقًا قبل دخول الإسلام أو بعده أن يفتح السد فى أثناء الليل، فقد كان هذا بمثابة عيد قومى واحتفال عام للشعب المصرى يستمتعون فيه بمظاهر البهجة التى تصاحب يوم الوفاء.

وقتل الملك الناصر بعد انحسار المياه فى نفس العام، وقد اعتبر ذلك على أنه فأل سيئ نتج عن مخالفة العادات المقدسة، حيث لم يدم حكمه سوى عامين وبضعة أشهر

---

(١) خاسكين .

الفصل السادس
تاريخ المقياس خلال حكم السلاطين العثمانيين
من عام ٩٢٤هـ إلى عام ١٢١٣هـ

يشمل هذا الفصل فترة زمنية تقارب الثلاثمائة عام، وتبدأ بغزو السلطان العثمانى سليم الأول مصر، وتشير إلى الإصلاحات التى تم إجراؤها فى المقياس تبعًا لأوامر هذا الحاكم، وتلك الإصلاحات التى قام بها حمزة باشا وبعض البكوات، حتى غزا الفرنسيون أرض مصر.

المبحث الأول

إصلاحات المقياس تنفيذاً لأوامر السلطان سليم الأول

كان السلطان سليم الأول (١)

---

(١) سليم خان ابن بايزيد ونلقبه نحن بسليم الأول، لم يشتهر فقط بإنجازاته العسكرية وإنما كان شغوفًا بحب الآداب والعلوم، فاعتبره الشرقيون من الحكام الذين تمتعوا بدراية كبيرة فى اللغات العربية والتركية والفارسية، وكان يؤلف أشعارًا تروقهم، واعتاد هذا الحاكم التجول متنكرًا فى الشوارع والأسواق والأماكن المختلفة ليسمع ما يردده الشعب عن حكومته. ووفقًا لما يقول ابن أبى السرور فإن هذا السلطان عندما دخل حلب بعد هزيمة قنصوه الغورى شارك فى صلاة يوم الجمعة، وقام الإمام بالدعاء بهذه الكلمات «اللهم انصر مولانا السلطان سليم خان خادم الحرمين الشريفين» وقد أعجب السلطان كثيرًا

ابنًا لبايزيد (١) الثانى وحفيدًا لمحمد خان (٢)، ولد عام ٨٧٢ هـ - ١٤٦٨م فى أمازى بتركيا واعتلى عرش القسطنطينية خلفًا لوالده يوم ١٨ من شهر صفر عام ٩١٨هـ - ١٥١٢م، وكان يبلغ من العمر ٤٦ عامًا.

أمر سليم الأول بالقضاء على كل المماليك الذين كانوا يحكمون مصر وسوريا، وفى النهاية استطاع إخضاع مصر وكل البلاد الأخرى التابعة لهم تحت سلطانه فى عام ٩٢٤هـ - ١٥١٨م، وهيمن، على إدارة هذه البلاد، وقام بعمل بعض الإصلاحات فى المقياس، ثم توفى عن عمر يناهز ٥٤ عاما بعد حكم دام ٩ سنوات و٨ أشهر فى يوم السبت التاسع من شهر شوال عام ٩٢٦هـ - ١٥٢٠م،

وقد انشغل ابنه سليمان الأول (٣) وحفيده سليم الثانى (٤) بتنظيم الإدارة الداخلية لمصر بما تشمله من كل المؤسسات المالية والإدارية التى كانت قائمة، وعنى هذان الأميران كثيرًا بالمقياس وبغيره من المنشآت العامة النافعة للبلاد، إلا أن خلفاءهم لم يوجهوا الاهتمام الكافى لهذه الأمور.

= بهذا اللقب، بعد عودته من الجامع خلع ثيابه التى كانت تساوى أكثر من ألف قطعة ذهبية وأرسلها كهدية إلى الإمام. وبعد ذهابه إلى مدينة أندرينوبل التركية لتمضية الشتاء هناك هاجمه المرض وتوفى فيها كما يقال،أى فى نفس المكان الذى قاد فيه المعركة ضد أبيه، وخلفه على العرش سليمان بن سليم الذى يعرف بسليمان الأول عام ٩٢٦هـ - ١٥٢٠م.

(١) بايزيد خان بن محمد ويلقبه مؤرخونا ببايزيد الثانى، كان السلطان العثمانى الثامن وخلف والده محمد بين مراد الذى يلقبه مؤرخونا بمحمد الثالث، واعتلى العرش فى سن الثلاثين عامًا يوم ١٨ من شهر ربيع الأول عام ٨٨٧هـ - ١٤٨٢م وفقًا لما يقول أحمد بن يوسف.

(٢) محمد خان بن مراد، وكان مراد خان الذى لقب بالملك العادل، واعتلى العرش بعد وفاة والده يوم ١٦ من شهر محرم عام ٨٥٥ هـ - ١٤٥١، بعد أن شارك والده فى الحكم لفترة من الوقت، وحينما تولى الحكم متفردًا كان عمره ١٩ عامًا و٥ أشهر وثلاثة أيام، وحكم لمدة ٣٠ عامًا وشهرين، وهو نفسه السلطان الذى استولى على القسطنطينية عام ٨٥٧هـ - ١٤٥٣م،، وتوفى يوم الجمعة الخامس من شهر ربيع الأول عام ٨٨٦هـ - ١٤٨١م عن عمر يناهز ٥١ عامًا.

(٣) ولد سليمان بن سليم عام ٩٠٠هـ - ١٤٩٥م، واعتلى العرش عام ٩٢٦هـ - ١٥٢٠م، وتوفى فى شهر صفر عام ٩٧٤هـ - ١٥٦٦م بعد حكم دام ٤٨ عامًا.

(٤) سليم بن سليمان: اعتلى العرش عام ٩٧٤هـ - ١٥٦٦م، وتوفى عام ٩٨٣هـ - ١٥٧٥م بعد حكم دام تسعة أعوام.

المبحث الثانى

أحداث تتعلق بالمقياس خلال حكم السلاطين العثمانيين

أصبحت مصر واحدة من مقاطعات الإمبراطورية العثمانية الشاسعة، وفى الواقع لم أذكر - فى هذه الدراسة - أسماء باقى الحكام الذين اعتلوا عرش القسطنطينية، ولكننا سوف نقتصر على استعراض الأحداث المتعلقة بالمقياس تحت قيادة بعض هؤلاء الحكام.

يذكر ابن أبى السرور أنه خلال حكم السلطان عثمان (١) بن السلطان أحمد (٢)، أى فى عام ١٠٢٩هـ - ١٦٢٠م، جاء فيضان النيل مرتفعًا بصورة غير عادية، وفقد المصريون كل أمل فى رؤية نهاية الفيضان، وتسبب ذلك فى رفع أسعار المواد الغذائية،كما تفشى وباء الطاعون وأحدث خسائر فادحة فى الأرواح فى هذا العام.

وأثناء حكم السلطان مراد خان (٣) بن السلطان أحمد وخليفة مصطفى أى فى عام ١٠٣٤هـ - ١٦٢٤ م وصل فيضان النيل إلى ٢٤ ذراعًا - ووقفًا لما يذكر ابن أبى السرور - فقد كان فيضانًا عاليًا وخشى الجميع عدم انخفاض منسوب المياه بسرعة مناسبة تمكنهم من بذر الأراضى، إلا أن المياه انحسرت بعد وقت قليل وزرعت الأراضى، وكان محصول هذا العام وفيرًا جدًا.

---

(١) هو عثمان بن أحمد الذى يلقبه مؤرخونا بعثمان الثانى، اعتلى العرش عام ١٠٢٧ هـ - ١٦١٨م، وتوفى عام ١٠٣١ هـ - ١٦٢٢م، وخلفه مصطفى بن محمد الذى كان يحكم قبله، ثم عاد واعتلى العرش مرة أخرى بعد وفاته.

(٢) هو أحمد بن محمد الذى يعرفه مؤرخونا بأحمد الأول، اعتلى العرش عام ١٠١٢هـ - ١٦٠٣م. وخلفه مصطفى بن محمد عام ١٠٢٧هـ - ١٦١٨م، ولم يبق على العرش عامًا كاملاً.

(٣) كان مراد خان بن أحمد هو السلطان العثمانى السادس عشر، اعتلى العرش بعدعام من العزل الثانى للسلطان مصطفى خان فى يوم ١٥ من شهر ذى القعدة عام ١٠٣١هـ - ١٦٢٢م، وتوفى يوم ١٦ من شهر شوال عام ١٠٤٩ هـ، الموافق ٢٠ يناير ١٦٣٩م.

ومن خلال ما يروى نفس المؤرخ، أنه خلال حكم السلطان إبراهيم [١] شقيق وخليفة مراد خان والسلطان الثامن عشر فى أسرة العثمانيين،أى فى عام ١٠٥٠هـ - ١٦٤٠م كان فيضان النيل منخفضًا ولم يصل فى اليوم الأول من شهر توت إلى ارتفاع ١٦ ذراعًا، وعلى الرغم من ذلك فقد تم فتح السد، وفى نفس هذا اليوم انخفض النيل فجأة مما تسبب فى غلاء الأقوات.

المبحث الثالث

العصر الخامس للمقياس: إصلاحات حمزة باشا

خلال حكم مصطفى الثالث [٢]، خليفة عثمان الثالث [٣]

فى عام ١١٨٠هـ - ١٧٦٦م قام حمزة باشا - قائم مقام [٤] القاهرة - بإحلال دعامة جديدة فى مكان الدعامة القديمة، ونقل النصوص الكوفية القديمة التى ترجع لعصر المتوكل بحروف أخرى هى حروف الثلث [٥] التى زينت كل جوانب الدعامة الجديدة، مع الاحتفاظ بالتاريخ القديم لهذه النصوص مثلماأشرت من قبل [٦].

---

(١) خلف إبراهيم بن أحمد شقيقه بعد وفاته مباشرة، ووفقًا للتقاليد عبر مدينة القسطنطينية يوم السادس من فبراير، من جامع أيوب الأنصارى حتى القصر الإمبراطورى فى موكب مهيب، وقد اغتيل على يد الجنود المتمردين فى شهر شعبان عام ١٠٥٩ هـ - الموافق يوليو ١٦٤٩م، وخلفه ابنه محمد ابن إبراهيم.

(٢) اعتلى مصطفى بن أحمد العرش عام ١١٧١ هـ - ١٧٥٧م، وتوفى عام ١١٨٧ هـ - ١٧٧٣م، بعد حكم دام ١٦ عامًا، وخلفه ابنه عبدالحميد بن مصطفى، الذى يلقبه البعض بأحمد الرابع، واستمر فى الحكم حتى عام ١٢٠٤ هـ - ١٧٨٩م.

(٣) هو عثمان بن مصطفى ويلقبه مؤرخونا بعثمان الثالث، كان ابنًا لمصطفى بن محمد الذى يلقبه مؤرخونا بمصطفى الثانى، اعتلى العرش عام ١١٦٨هـ - ١٧٥٤م ، وتوفى عام ١١٧١هـ - ١٧٥٧م، بعد حكم دام ثلاثة سنوات تقريبًا.

(٤) قائم مقام أو قايمقام: تعنى هذه الكلمة نائب أو نائب الحاكم.

(٥) راجع دراستى حول الخطوط الكوفية التى جمعتها من مصر والأحرف الأخرى المستخدمة فى الآثار العربية.

(٦) انظر فيما سبق.

وسـوف أعـرض فى الجـزء الرابع من هذه الدراسـة هذه الكتـابة المزدوجـة مع تقديم ترجمة لها.

المبحث الرابع

إصلاحات المقياس على يد البكوات

أثناء حكم نفس السلطان عـام ١١٨٣هـ ـ ١٧٦٩م رفض على بك [١] الشـهـيـر الاعتراف بسلطات سلطان القسطنطينية، وادعى الحكم.

ويبدو أن البكوات كانوا يشعرون بأهمية الحفاظ على المقياس فى حالة جيدة تجـعله يؤدى وظيفـتـه، فكانوا يقـومـون من وقت لآخـر بعـمل بعض الإصـلاحـات الضـرورية وأعمـال الصـيانة، متبعين فى ذلك التقليد السـائد فى البلد، وآخذين برأى القاضى المكلف بإدارة المقياس، ألا أن إصلاحات هذا العصر كانت بسيطة وغير ذات أهمية، فلم يتناولها المؤرخون بعناية، ولذلك فلم أستطع الحصول على أية تفاصيل مطولة أو محددة، لا فى كتابات المؤرخين ولا فى أرشيف المقياس ذاته.

---

(١) يمكن مراجعة التفاصيل التاريخية الخاصة بالأمير على بك فى كتاب السيد دوفولنى .

الفصل السابع
تاريخ المقياس خلال حكم الفرنسيين
من عام ١٢١٣هـ إلى عام ١٢١٦هـ

يبدو هذا الفصل بعيدًا كل البعد عن الفصول السابقة، فلا يمكن مقارنته بها بسبب عدد سنواته الضئيل، إلا أنه سيكون أكثر أهمية،فالأحداث التى يسردها تمت وقائعها بالكامل تقريبًا تحت أعيننا، وشارك كل منا فيها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

المبحث الأول
أحداث تتعلق بالمقياس فى عام ١٢١٣هـ

احتفل المصريون بعيد فيضان النيل (١) فى بهجة كبيرة فى اليوم السادس من شهر ربيع الأول (٢) عام ١٢١٣هـ، الموافق ١٧ أغسطس ١٧٩٨م.

وسوف أقدم هنا بعض التفاصيل ومقتطفات من المحاضر التى سجلت بهذه المناسبة ونشرت رسميًا: القائد الأعلى يرافقه كل القادة ورئيس أركان الجيش

---

(١) أنظر فيما يلى.

(٢) ربيع الأول هو الشهر الثالث من السنة القمرية للمسلمين، وكان العرب القدامى يطلقون عليه خوان. ووفقًا لعلماء النحو العرب فإن هذه الشهرو الشهر الذى يليه: ربيع الثانى

والكيـخيا (١) والبـاشـا (٢) ، وأعضـاء ديوان (٣) القـاهرة الكبـير، والمـلا،

= أو ربيع الآخر أو ربيع الآخرة هما من الشهور التى يجب أن تسبقها كلمة شهر. وفى الواقع فكلمة ربيع وأيضًا تعبير ربيع الأول بالكامل لا يطلقان فقط على شهر من شهور العام وإنما يشيران إلى فصل الربيع الذى يسمى ربيع الكلاء، مثل تعبير ربيع الثانى الذى يعنى أيضًا الخريف ويسمى بربيع الثمار.

(١) كيحيا أو كيخيا وتكتب أحيانًا كاجيا وهى نفسها كلمة كتخذا، تعنى هذه الكلمة ملازمًا وتطلق على وجه الخصوص على ملازم الباشا الذى تملى عليه مهامه من قبل أحد البكوات الذين لهم حق دخول الديوان. وكل أوجاق ـ وهو أسم القوات العسكرية فى مصر ـ كان له الكيخيا الخاص به، مثلما هو الحال بالنسبة لكل البكوات، إلا أن بعض البكوات مثل إبراهيم بك الكبير كان لهم اثنان من الكيحيا، وكان مصطفى الرزاز هو الكيحيا الخاص بإبراهيم بك الكبير (وقد أطلق عليه هذا الاسم لأنه كأن بائعًا للأرز فيما سبق)، هذا بالإضافة إلى ذى الفقار الذى أصبح كيخيا لإبراهيم بك الصغير عندما تزوج ستة هانم ابنة إبراهيم بك الكبير.

(٣) تعنى كلمة باشا «قائدًا»، وكان هذا اللقب يطلق عامة على كبار ضباط الباب العثمانى وأيضًا كان يطلق على الضباط ذوى الرتبة الأصغر فى الجيش وبعض حراس السلطان. وفى بعض الأحيان كان لقب الشرف هذا يكتب بإضافة حرف هاء فى نهاية الكلمة، كما لو كان اختصارًا وتصغيرًا للكلمة الفارسية (پادشاده) التى تعنى إمبراطورًا، والتى استخدمت فى اللغة التركية. وقد لقب حكام الأقاليم أيضًا بالباشا، وأطلق على حاكم مصر لقب باشا القاهرة. وكانت حكومات الأقاليم تعرف باسم باشالق، أو باشالق بالعربية والتى تعنى حرفيًا المكلف بالباشوية.

(٣) تم تشكيل ديوان القاهرة الكبير بمعرفة القائد العام يوم ١٨ من شهر رجب عام ١٢١٣ هـ الموافق ٦ من الشهر الرابع للعام الجمهورى السادس الموافق ٢٦ ديسمبر عام ١٧٩٨م. وكان هذا الديوان مكلفًا بإرساء العدل بين الأهالى بإسم الحكومة الفرنسية وبتنظيم العلاقات السياسية معهم.

فى البداية وجهت الدعوة لعدد ستين عضوًا كالآتى:

سبعة من الأشراف أو النبلاء سليلى محمد (ﷺ)، اثنا عشر من الشيوخ، عشرة من أعضاء الإدارات العسكرية (الأوجقلى)، أحد عشر من الحجاج رؤساء الجوامع والجماعات الدينية، خمسة من أكابر الطوائف القبطية والسورية واليونانية، اثنان من القضاة المدنيين، تسعة من رؤساء الإدارات التجارية، ثلاثة من أكابر التجار، ثم أجريت القرعة لاختيار أربعة عشر عضوًا لتشكيل الديوان الخاص بالقاهرة. وعين الشيخ عبدالله الشرقاوى رئيسًا للديوان والشيخ محمد المهدى نائبًا له، أما الأخرون فكانوا: السادة خليل البكرى، أحمد العقاد المحروقى، مصطفى الصاوى الشيخ موسى سرسى، الشيخ سليمان الفيومى الشيخ أحمد العريشى، الشيخ محمد الدواخلى، الشيخ مصطفى الدمنهورى، على كتخدا المجدلى، أحمد ذو الفقار أودة باشى الفلاح، يوسف شوربجى باش جاويش جمليان، السيد أحمد المحروقى، المعلم لطف الله المصرى، جبران السكروج يوسوف فرحات، السيطوين والمر الطبيب، السيطوين ، وكان ذو الفقار كيخيا هو المكلف بمهام المندوب المسلم، والسيد جلوميبه هو المكلف بمهام المندوب الفرنسى لدى الديوان،

وأغـا (١) الإنكشـارية (٢) وقد توجه هذا الجمع إلى المقياس الساعة السادسة صباحًا،بينما تجمع عدد كبير من أفراد الشعب على التلال التى تحد النيل والقناة، وزينت الأعلام كل المراكب الصغيرة، كما وقف أيضًا مجموعة من الحراس حاملين أسلحتهم، مما جعل المنظر كله يبدو مهيبًا ورائعا وممتعًا فى نفس الوقت.

وما أن وصل الموكب إلى المقياس حتى أطلقت المدافع، وكانت الموسيقى الفرنسية والعربية تعزف بعض المقطوعات أثناء فتح السد، وبعد لحظات عبر النيل السد ودخلت المياه كالسيل إلى القناة لتعطى الخصوبة إلى أراضى القاهرة وريفها.

ثم قام القائد بإلقاء آلاف قطع المدينى (٣) للشعب، والكثير من قطع الذهب إلى المركب الأولى التى تعبر حطام السد بعد افتتاحه، كما ألبس الملا عباءة سوداء مبطنة بالفرو ونقيب الأشراف (٤) عباءة بيضاء مبطنة بالفرو (٥)، ووزع ٣٨ قفطانًا على الضباط الأساسيين من حكام البلاد.

---

(١) أغا هو أحد ألقاب الشرف، وكانت هذه الكلمة تكتب عادة مع إضافة حرف الهاء إلى نهايتها(أغاه) وهذا هو الشكل الذى استخدمه الأقباط فى كتاباتهم، وكان لكل أغا رئيس من الأغا، وتمتع أغا الإنكشارية بسلطة كبيرة حيث كان مكلفًا بشرطة مدينة القاهرة.

(٢) الإنكشارية هو اسم الفرقة السادسة من الجهاز العسكرى المعروف فى مصر تحت إسم أوجاق، وكان يرمز إلى فرقة الإنكشارية باسم متحفظان، وعلى الرغم من أن ترتيبها كان السادس بين الفرق العسكرية، فإنها كانت الأولى بنفوذها وقوتها.

(٣) المدينى أو البارة: هى عملة نقدية صغيرة ورفيعة مصنوعة من الفضة قليلة النقاء، وتعادل ٢٨ جزءًا من الفرنك.

(٤) نقيب الأشراف هو كبير الأشراف أو سليلى محمد (ﷺ)، وكان عمر أفندى يشغل هذا المنصب عند وصولنا إلى القاهرة، وبعد هجرته أسنده القائد العام إلى الشيخ خليل البكرى أحد الأعضاء الأساسيين فى الديوان يوم عيد المولد النبوى.

(٥) هى قطع ملابس شرفية كان أمراء الشرق يمنحونها كهدية إلى أصحاب المكانة الرفيعة، أو لهؤلاء الذين قاموا بعمل رائع ، وذلك كشهادة عرفان لهم خلال الاحتفالات العامة.

ثم رجع الموكب بعد ذلك إلى القاهرة، وتوقف فى ميدان بركة (١) الأزبكية (٢) ومن خلفه أفراد الشعب يتغنون بمدائح النبى، ويمجدون الجيش الفرنسى ويلعنون البكوات، ويشكرون الله كثيرًا لأنه حسبى مصر بهذا النيل العظيم الموجود منذ قرن من الزمان.

المبحث الثانى

العصر السادس للمقياس: ترميم المبنى على يد الفرنسيين عام ١٢١٤ هـ

ما أن أصبح الفرنسيون حكامًا لمصر حتى وجهوا اهتمامًا خاصًا إلى المقياس الذى يلعب دورًا هامًا، ففى عام ١٢١٤هـ - ١٧٩٩م أراد مهندسو الطرق والكبارى التابعون لجيش الشرق التأكد من احتفاظ المقياس بالدرجات المختلفة المسجلة عليه لمعرفة معدل فيضان النيل، وانطلاقًا من ذلك بدأوا بقياس الارتفاع الحقيقى للعمود وتقسيمه إلى أذرع، فقد اختلف على ذلك الكتاب والمسافرون وحتى السكان أنفسهم، ثم قاموا بتطهير الحوض بدءًا من أساساته، فهو المكان الذى يتوسطه عمود المقياس، وتمت هذه العملية فى حضور الشيخ مصطفى قاضى المقياس وسقاباشى (٣)،وعندئذ ظهر التقسيم الأول السفلى للعمود.

---

(١) بركة أو بحيرة، هى مكان يمتلئ بالمياه خلال فترة معينة من العام، مثل ميادين القاهرة الكبرى التى توجد تحت مستوى فيضان النيل، فتتحول إلى بحيرات خلال الفيضان السنوى. وتضم القاهرة أربعة ميادين كبرى تحمل هذا الاسم.

بركة الفيل، وكان يوجد بها منزلا مراد بك وإبراهيم بك، وقد حرقهما سكان القاهرة قبل دخول الفرنسيين.

بركة الرطلى.

- بركة السقايين وبركة الأزبكية.

(٢) بركة الأزبكية هى ميدان كبير فى القاهرة توجد به منازل الكثير من البكوات مثل منزل ألفى بك الذى أصبح فيما بعد مقر القائد العام، ومنزل عثمان بك العشقار، ومنازل أخرى خصصت بجانب كبير من إدارات الجيش.

(٣) سقا باشى هو رئيس السقاة، ويندرج من بين معامه كل ما يتعلق بالإدارة والشرطة.

وبالإضافة إلى ذلك وضع مكعب من الرخام الأبيض يبلغ ارتفاعه ذراعًا واحدًا وإصبعين أعلى تاج العمود، ونقش عليه نصان باللغتين الفرنسية والعربية (١)، وكان هذا الجزء متممًا للذراع الثامنة عشرة مع إضافة ستة أصابع.

وكانت الدعامة التى وضعها حمزة باشا (٢) قدتهالكت وسقطت، فتم رفعها وإحلالها بأخرى جديدة من قطعة واحدة وذات قوام أكثر صلابة.

كما رُمم محيط البئر والرواق الذى يحيط بالحوض، ووضعت حواجز خشبية جديدة بين الأعمدة الموجودة على جوانب الحوض، وأنشئت غرفتان تجاوران هذا الرواق لخدمة شيخ المقياس.

وأضيف رواق خارجى فى مدخل المبنى، ووضع لوح من الرخام الأبيض أعلى الباب الخارجى وأسفل هذا الرواق، نقشت عليه كتابة باللغتين العربية والفرنسية تشير إلى التاريخ الذى تمت فيه هذا الإصلاحات الجديدة، وتسجل حالة النيل فى هذه السنة سواء فى انخفاضه أو فيضانه الكبير. وسوف أقدم هذا النص المزدوج فى الجزء الرابع من هذه الدراسة.

ومما هو جدير بالذكر أن كل النقوش الكوفية والقرمطية والعربية الموجودة فى جوانب هذا الأثر تم الحفاظ عليها وعدم المساس بها.

المبحث الثالث

أحداث تتعلق بالمقياس خلال عام ١٢١٤ هـ

اتسمت مظاهر الاحتفال بفتح السد فى هذا العام بنفس بهجتها التى كانت عليها فى العام السابق، ويضم المحضر الكتابى الذى نشر رسميًا بالتقريب نفس المراسم.

وأعتقد بأننى سوف أشبع فضول القارئ عندما أقدم هنا كل ما ذكر فى هذا الاحتفال بلسان القاضى فى حضور مجلس الشيوخ المجتمعين لهذه المناسبة.

---

(١) انظر الجزء الرابع من هذه الدراسة.

(٢) راجع فيما سبق.

ويستخدم هذا التقرير الرسمى كل عام للتحقق من الميرى [١] الواجب على الشعب المصرى سداده للحكومة، وقد بدا لى كل ذلك وكأنه جزء هام من تاريخ المقياس.

أحمد العريشى أبو التيقان

القاضى الشرعى لمدينة القاهرة المحروسة

«هذا هو ما حدث فى جلسة القضاء العادل التى جمعت مشايخ الدين الذى شرعه الله وحفظه من كل تعديل أو بدعة، فقد اجتمعوا فى القصر الواقع عند مصب خليج الحاكمى فى المنطقة بين القاهرة القديمة وبولاق. وقد عقد هذا الاجتماع استجابة لأوامر سيدنا ومعلمنا، وأجل علماء المسلمين، المتبحر فى العلم، المفعم بالحكمة الرفيعة، عماد الإسلام، مصدر سعادة بلده، الماهر فى تطبيق القانون قاضى القضاة المكلف حاليًا بمدينة القاهرة المحروسة، المذكور أعلاه، أعزه الله وبارك فيه!

فى حضرة الإمام الأعظم حجة العلم، سيد الأجلاء والموقرين، فخر سلالة صديق، النجم الساطع فى سماء الحق، فرع الشجرة المكرمة، المنزه، الدرة المشرفة فى عمامة محمد، حامى الآداب، النابغة فى نصرة الحق، ذى القلب المفعم بالإيمان بعظمة الله الخالق، سيدنا وأميرنا السيد والشريف خليل البكرى الصادقى الأقاى نزيل سلالة الحسن، الشيخ الوارث لهمة أجداده أسيادنا الذائع صيتهم بين آل الصادق، نقيب الأشراف الموجود حاليًا بالقاهرة.

وكذلك بحضور سيدنا وشيخنا، جهبذ العلماء، والمهتم بتوصيل العلم إلى الراغبين فيه، سند الطلاب، عمود المؤمنين بالحق، بركة المسلمين، وريث علم سيد المرسلين من الله، زينة الشريعة والشعب والدين، معلمنا الشيخ عبدالله الشرقاوى شيخ المشايخ المقلدين بالوظائف، وأولئك المعلمين والمدرسين بالأزهر.

---

(١) الميرى هو الجزية الواجبة للسلطان عن محاصيل الأراضي الزراعية، ويطلق هذا الاسم أيضًا على الأجرة التى يدفعها الفلاحون لملاك الأراضى.

وبحضور السيد والقاضى فخر العلماء والعلم عماد الحقيقة، بالغ الحكمة، سند المثقفين، موهبة زمانه الفريدة، صدى تبليغ العلوم، لسان عصره، العالم المتبحر، ذائع الصيت بين العلماء أنفسهم، سيدنا وشيخنا شمس الدين محمد الحفناوى المعروف بالاسم الجليل المهدى (١).

وعنى بالحضر كذلك جهبذ الجهابذة محيط المعارف، لسان الفصحاء، بستان المثقفين، سند المعلمين، عماد الحق، وريث علم سيد المرسلين من الله، زينة الشريعة والشعب والدين، سيدنا الشيخ مصطفى الصاوى، عين المبصرين والعلماء باليقين والمقررين والمعلمين بالأزهر، حفظهم الله ليتموا الخيرات التى يمنحونا إياها! آمين.

وكان من بين الحضور رفيع الشرف، واسع الثراء، ذائع الصيت بين العظماء، عين فاحصة بين السادة الأشراف والعظماء ذوى المقام الرفيع، الأمير مصطفى أغا عبد الرحمن، أغا الإنكشارية بالقاهرة.

كما تفضل بالحضور فرع الشجرة الغراء، الدرة المشرفة فى عمامة النبى، التاجر الجليل، السيد الشريف الحاجى أحمد العقاد، المعروف باسم المحروقى(٢) كبير تجار القاهرة.

وحضر من بين أغنى الأغنياء وذائعى الصيت، الأكثر تقديرًا بين أجل القضاة، ذائع الصيت، صاحب السيادة، الأمير حسن أغا بكراتى، محتسب القاهرة. وحضر كذلك الشريف بين المشاهير الأجلاء المحترمين ذائع الصيت ، صاحب السيادة، الأمير على أغا شعراوى نقيب القاهرة المحروسة.

ومن بين الحضور أيضًا الشريف بين أنداده المحترم أمير يوسف چوربجى، باش جاويش توفنكجيان.

---

(١) أطلق على هذا الشيخ اسم المهدى، حيث كان أبواه مسيحيين ونشأ هو على المسيحية قبل اعتناقه الإسلام.

(١) كان يطلق عليه أيضًا اسم الصرافى.

وحضر أيضًا ذائع الصيت المحترم أمير يوسف چوربجى باش جاويش جمليان.

وكذا الشريف بين العظماء، مصطفى أغا هطال، باش اختيار متفركة.

ومن الحضور كذلك الجليل أمير مصطفى أفندى عاص، كاتب أول سرية متفركة.

والشهير المحترم أمير إبراهيم كيحيا عزبان.

والمشهور بين رجال القلم، الأكثر تميزًا، الأكثر احترامًا بين العظماء، ذائع الصيت الشريف أمير إسماعيل أفندى، كاتب أحواله.

وأخيرًا حضر جمع كبير سيكون من الصعب حصر أشخاصه، على أنهم جميعًا غاية فى الاحترام. آمين.

فى هذااليوم المبارك، الجمعة التاسع عشر من الشهر القبطى مسرى الأخير من عام ١٢١٣ من الميرى الخرجية، الموافق الحادى والعشرين منشهر ربيع الأول لعام ١٢١٤هـ - وهو اليوم المسجل فى التاريخ المدون فى نهاية هذا المحضر الذى حرر فى حضور السلطة الشريفة الممثلة فى شخص ذائع الصيت الحاكم والقائد العسكرى ديجوا، القائد العام لمدينة القاهرة (١) المحروسة، أكثر الله الخير على يديه! آمين.

أتم النيل - هذا النهر المبارك من السماء - فيضانه السنوى بفضل الله العظيم المعبود الرحمن الرحيم.

لقد غمرتنا فرحة طاغية ورضينا كل الرضا، متوسلين ومبتهلين إلى الله أن يغمرنا بالمزيد من خيراته وأفضاله، شاكرين له رحماته التى هى موضع دعائنا.

صعدت المياه المباركة للنهر هذا العام إلى ست عشرة ذراعًا وسبع أصابع، كما يظهر من قياسات العمود الكامل، وتبعًا لإعلان الشيخ مصطفى الملكف بالقياس، وبإدارة مبنى المقياس بجزيرة الروضة.

---

(١) قائم مقام مصر.

وفى اليوم المسمى، وبعد شروق الشمس تم فتح السد وانساب الماء فى خليج الحاكمى، تبعًا للعرف السائد منذ أقدم العصور، ولقد سبحنا الله على بلوغ النيل ارتفاع الست عشرة ذراعًا وسبع أصابع، والشهادة قائمة على كل ذلك.

وبناء عليه فلابد لملاك مصر كلها أداء الميرى، والمساهمة فى توفير السلع المرسلة إلى مكة والحرمين وتوفير الكسوة(١)، والوفاء بكل الحقوق الواجبة الأخرى، وفقًا لما هو متبع منذ القدم، وذلك كله عن العام ١٢١٤ من الخرجية إلى الوالى، فهو أمر شرعى وضرورى.

إذن يجب على ملاك الأراضى فى مصر كلها سداد كل مستحقات الميرى، وتوفير السلع، طبقًا للتقاليد السائد عن السنة المذكورة، ويعتبر ذلك دينًا يتم سداده إلى الوالى الذى سيطالب به، ولذلك يتحتم تسديد هذا الدين كما قلنا، دون تأجيل أو تأخير، وهذا هو أمر الشريعة. بتاريخ اليوم المبارك، الثانى والعشرين من شهر ربيع الأول من سنة الخرجية، عام ١٢١٤هـ.

الحمد والشكر لله الخالق القدير، وهو على كل شىء شهيد. توقيع: - الشيخ أحمد العريشى، السيد خليل البكرى، الشيخ عبدالله الشرقاوى، الشيخ محمد المهدى، الشيخ مصطفى الصاوى، الشيخ مصطفى أغا عبدالرحمن، السيد حاجى أحمد المحروقى، الأمير حسن أغا بكراتى، الأمير على أغا شعراوى، الأمير يوسف باش جاويش توفنكجيان، الأمير يوسف باش جاويش عزبان، الأمير مصطفى أغاهطال، باش اختيار، متفركة، الأمير مصطفى أفندى، الأمير إبراهيم كيحيا عزبان، الأمير إسماعيل أفندى كاتب أحواله.

المبحث الرابع

أحداث تتعلق بالمقياس من خلال عام ١٢١٥هـ

تم فى هذا العام إجراء آخر الإصلاحات فى المقياس بعد أن نفذ الجزء الأكبر منها فى العام السابق ١٢١٤هـ - ١٧٩٩م.

---

(١) الكسوة: يطلق هذاالاسم على الكساء الذى يرسل كل عام إلى مكة، وتحسب تكلفته على الإيرادات من الأرضى الزراعية فى مصر.

وقد قام السيد لوبير الأب - كبير المهندسين والمدير العام للطرق والكبارى وعضو المجمع المصرى - بإدارة هذه الأعمال والإشراف على تنفيذها، ثم أودع فى ديوان [(١)] القاهرة الكبيرمذكرة تتناول هذه الإصلاحات لكى يتم حفظها فى الأرشيف الخاص بالديوان.

وردًا على ذلك أرسل الديوان خطابى شكر: أحدهما إلى القائد الأعلى للجيوش، والآخر إلى السيد لوبير، بينما بقى أصل الخطابين محفوظًا فى أرشيف الديوان، وأرسل إلى القائد الأعلى للجيوش وإلى السيد لوبير صور معتمدة لكل منهما تم تسليمهما إلى السيد فورييه المفوض الفرنسى لدى الديوان ورئيس قطاع العدالة، ونشرت ترجمة لهاتين الرسالتين فى جريدة فرنسية كانت تصدر حينئذ فى القاهرة بعنوان «أحوال مصر»، إلا أن هذه الترجمة بدت لى مغلوطة وغير دقيقة إلى حد كبير، ولهذا فسوف أقدم فيما يلى النص الأصلى للرسالتين مصحوبًا بترجمة فرنسية أفضل من الترجمة الأولى [(٢)].

من محفل الديوان العالى بمصر المحروسة [(٣)].

خطابًا الى حضرة [٤] سر عسكر الكبير [(٥)].

---

(١) كان الديوان يتكون هذا العام من الأعضاء التسعة التالى ذكرهم: السيد خليل البكرى نقيب الأشراف أو سليلى النبى محمد، الشيخ عبدالله الشرقاوى، الشيخ سليمان الفيومى، والشيخ محمد الأمير، الشيخ محمد المهدى، السيد علىّ الرشيدى، عبدالرحمن الجبرتى، الشيخ مصطفى الصاوى، الشيخ موسى السرسى.

(٢) لعله من الضرورى أن أقدم هنا بعض التفاصيل فيما يتعلق بالصيغ المستخدمة فى هذين الخطابين، حتى أطلع القارئ على أساليب العرب فى مراسلاتهم الرسمية سواء الدبلوماسية أو السياسة أو الإدارية.

(٣) تطلق هذه الصفة «المحروسة» عادة على أهم مدن مصر لاسيما العاصمة.

(٤) تعنى كلمة «حضرة» باللغةالعربية وكلمة «حضرت» باللغة الفارسية «الحضور» ثم امتدت لغويا لتشير إلى حضور أمير أو سلطان أو حاكم باسم السلطان، وهى توافق فى هذه الحالة فى لغتنا عبارات مثل «سيادتكم وعظمتكم». وتستخدم هذه الكلمة كثيرًا للتعبير عن المكانة المقدسة للسيد المسيح مثلما رأينا فى كلمات «حضرت يسوع كرستوس» التى وردت فى مؤلف يحمل عنوان «استان مسيح» أى تاريخ المسيح صدر عام ١٦٣٩.

(٥) سر عسكر الكبير: تعنى هذه الكلمة حرفيًا القائد الأعلى للجيش، وترجع كلمة «سر» للهجة العامية، وتكتب عادة سارى العسكر ومن هذا التعبير أطلق الكثير من الرحالة على القادة العسكريين أوحكام المقاطعات فى الإمبراطورية العثمانية لقب «se'rasquier»

عبد الله منو امير الجيوش الفرنساوية[١]
حفظه الله تعالى *

* اما بعد الدعا[*] لكم بخير، نخبركم بانه وقع من سعادتكم

مزية كبيرة هى شان الملوك السابقين والسلاطين المتقدمين من
العباسيين وهى مقياس النيل السعيد الذى هو سبب لعمارة
الاقليم المصرى *

وفيه حيوة الآدميين[٢] والمواشى والطيور والوحوش من مبدا
بحر النيل الشلال الاعلى الى منتهى بين البحرين فى الثغرين ،
رشيد[٣] ودمياط[٤] *

وحصل السرور الكامل للناس وصاروا يدعون لكم بالتايد و

(١) إن الكلمات التى يستخدمها العرب للتعبير عن «القائد الأعلى للجيش الفرنسى» ترجمت إلى العربية «أمير الجيوش الفرنساوية».

(*) انظر الملحوظة عند كلمة دعاء.

(٢) ينتمى تعبير «الآداميون» إلى اللغة العامية، ونجد كثيرًا فى القرآن والمؤلفات العربية تعبير «بنى آدم» ، وهو يستخدم بنفس الطريقة للإشارة إلى البشر.

● تعنى كلمة دعاء صلاة ومناجاة ورجاء، وهى أحد الأسماء التى يطلقها المسلمون على أول سور القرآن، وذلك لأنهم يرددونها دائما فى صلواتهم.

(٣) وفقًا لما يذكرعبدالرشيد البكوى فإن مدينة رشيد تقع على الضفة الغربية لنهر النيل بالقرب من مصبه على مسيرة يوم من الإسكندرية عندما نتجه ناحية الشرق، وفى الجزء الذى تلتقى فيه مياه النهر بالبحر نجد المياه ثائرة تحملها الرياح فتفرق الكثيرين، ويطلق على هذا الموقع الخطر اسم بوغاز، وهو يمثل خطرًا أيضًا على الملاحة .

(٤) وردت دمياط فى اللغة القبطية باسم تامیادى وتامياتيس عند المؤرخين الإغريق الأواخر، وسأقدم هنا ما كتبه عبدالرشيد البكوى عن دمياط «تقع هذه المدينة القديمة بين تانيس ومصر، وجوها جيد وصحى للغاية، فهى تقع على شاطئ النيل بالقرب من مصبه فى البحر، ويبلغ عرض النهر فى هذا الموضع مائة ذراع.

النصر ويطلبون بقاكم وهذه هي منقبة احييتموها بعد انجراسها
من ملة المامون[1] من العباسيين فصار ذلك من مآثركم تذكرون
به الى اخر الدهور *

دامت فضايلكم على رعاياكم وحفظ عليكم بهذا التدبير العظيم
وزادكم شفقة ورحمة عليهم *

وشكركم على ذلك الخاص والعام
والســــــــلام *

والسلام

= وتم بناء أبراج للحراسة على كل جانب، وربطت سلسلة طويلة من الحديد بها تمر بالنهر من ضفة إلى أخرى، لتمنع المراكب التى تبحر فى النيل من الدخول أوالخروج دون استئذان.

والغذاء الرئيسى لمعظم سكان هذه المدينة هو الأسماك التى يصطادونها بوفرة ويأكلونها سواء طازجة أو مملحة. ويطلق الأهالى اسم «دمياطى» على قماش متعدد الألوان خليط من الكتان والقطن يتم تصنيعه فى دمياط.

وفتحت هذه المدينة فى عهد الخليفة عمر رضى الله عنه، حيث انتزعت من أيدى الروم فى العام العشرين من الهجرة ـ ٦٤٠م، ونجح الفرنجة فى الاستيلاء عليها مرة أخرى فى عهد الخليفة العباسى المتوكل عام ٢٣٨هـ ـ ٨٥٢م، وأخيرًا وقعت تحت سلطة حكام مصر، الذين احتفظوا بها حتى استولى عليها الفرنجة مرة أخرى عام ٦١٣هـ ـ ١٢١٦م، واستبعدوا عددًا كبيرًا من المسلمين، وحولوا المساجد إلى كنائس، واستطاع سلطان مصر الملك الكامل أن يستعيد دمياط بعد أن هاجم الفرنجة بالقوات الخاضعة لأسرة الأيوبيين. ومرة أخرى عام ٦٤٧هـ ـ ١٢٤٩م استولى ريد فرنس ملك فرنسا على دمياط ، ولكنه هزم بعد عام واحد وكبل بالأغلال، ورجعت المدينة إلى المسلمين.

توجد هذه المدينة ـ وفقًا للجداول الفلكية ـ عند خط طول ٣٠ ـ ٣٣° وخط عرض ٢٥ ٣١° شمالاً.

(١) لقد أشرنا من قبل إلى أن الخليفة المأمون لم يكن هو مؤسس المقياس، فقد كان هذا المبنى موجودًا قبل توليه الخلافة بمائة عام، وإنما قام فقط بعمل إصلاحات كبيرة به جعلت الشعب المصرى يعتبره المؤسس الثانى للمقياس.

والسلام (١) محرر (٢)

في ٧ شعبان (٣) الواقع لرابع نيفوس سنة ٩

الصادق على كونه منقول
عن النسخة الاصلية
القس صحيحا رافاييل
باش ترجمان
الديوان
بمصر
م

الشيخ محمد المهدى
كاتم سر الديوان
حالا
م

---

(١) إن كلمة «السلام» تعتبر اختصارًا للعبارة الكاملة «والسلام عليكم» وهى الصيغة التى تكتب عادة فى نهاية الخطابات، ويمكن أن نقرأ أيضًا «والسلام عليكم ورحمة الله».

(٢) إن كلمة مسجل أو محرر تعنى: معتمدًا، وموقعًا عليه ومختومًا، ويحمل صفة أصلية .

(٣) شهر شعبان هو الشهر الثامن من السنة القمرية عند المسلمين، وبه تسعة وعشرين يومًا فقط، وقد حرر تاريخ الخطاب المذكور أعلاه والخطاب الثانى يوم السابع من ذلك الشهر الموافق لليوم الثالث من الشهر الرابع من التقويم الجمهورى للسنة التاسعة «٢٤ ديسمبر عام ١٨٠٠» ويتوافق ذلك التاريخ مع اليوم السادس عشر من الشهر القبطى الرابع المسمى كيهك للعام ١٥١٧ من تقويم الشهداء، وبالنسبة للتقويم الشمسى للشرقيين والذى يطلق عليه عامة التقويم اليونانى أو السريانى فيوافق اليوم الثانى عشر من شهر كانون الأول لعام ١٨٠١.

الفقير[١] عبد الله شرقاوى
ريس الديوان
بمصـــر
حالا *
م



(١) إن كلمة «الفقير» هى الكلمة التى يكتبها الشيوخ عادة قبل التوقيع، ولا تعنى شيئًا آخر سوى تلك العبارة التى نستخدمها نحن «الخادم المتواضع والمطيع للغاية»، وفى أحيان أخرى يسبقون التوقيع بعبارة «الداعى بكم» أى الذى يدعو الله من أجلكم.

من محفل الديوان العالى بمصر المحروسة *
خطابًا الى حضرة الستويان الخواجا[1] لوبو[2] ربس المحنذين[3]
وفقه الله تعالى الى الخير * امين[4] *

* اما بعد الدعا لكم بخيراته بلغ الناس حسن صنيعكم وصواب

تدبيركم واتقان هندستكم فى تشييد وتعمير مقياس النيل السعيد
الذى يعمّ نفعهُ ويشتمل خيره فى القريب والبعيد *
فان اقليم مصر اجلّ الاقاليم وابهج الاراضى اجمعين *
وخيره وزروعهُ تعمّ ساير الاقطار وينتفع بهه الادميون والمواشى
والطيور والوحوش فى القفار *
ومبين خيره واسان نعمته هذا النيل المبارك الذى هو افضل
البحار والانهار فقد هندزتم واتقنتم محل رحاله *
واساس قياسه وبيانه فكانت هذه مزية منكم وثمرة ونتيجة
وأساس قياسه وبيانه فكانت هذه مزية منكم وثمرة ونتيجة

---

(١) تعنى هذه العبارة حرفيًا «متوجهًا بالحديث إلى المواطن الأستاذ» وقد استخدم العرب الكلمة الفرنسية «citoyen» مواطن بطريقتين مختلفتين فى الكتابة «الستويان» كما رأينا فى هذا الخطاب، السيطوين»، كما ورد فى قائمة أعضاء ديوان القاهرة التى طبعت فى القاهرة ضمن المقال الذى يشير إلى تعداد هؤلاء الأعضاء. كما توازى كلمة «خواجه» التى تكتب أيضًا بطريقة أصح «خوجة» كلمة «Monsieur» «أى أستاذ فى لغتنا».

(٢) كتب اسم السيد le p´ere لوبير فى اللغة العربية louber لوبير، وذلك حيث إن أداة التعريف الإيطالية Lo قد حلت محل أداة التعريف الفرنسية Le وحل حرف «ب» محل حرف «پ» فى لغتنا.

(٣) ليس لهذه الكلمة فى اللغة العربية أى دلالة يمكن أن تتوافق مع هذا النص، وربما يرجع الأمر كله إلى خطأ فى النسخ، ولذا يجب أن نقراها «مخندقين»، وهى كلمة مشتقة من الجذر الرباعى «خندق» أو ربما أيضًا مهندسين» التى يمكن أن تكتب «مهندزين».

(٤) إن هذه الكلمة «آمين» هى نفسها «آمين» التى يقولها العبرانيون، والتى استخدمت وفقًا لذلك فى كل اللغات الشرقية واحتفظنا نحن بها فى الشمائر الدينية المسيحية.

من نتيج افكاركم الغزيرة فرحت بها الناس اجمعين *
وشكروا حسان حضرة سر العسكر الكبير وعلموا كمال عقلكم
بسبب ما اتقنتموه اوحكمتموه فى هذا المحل الشامل نفعه
والمشهور فى ساير الاقطار سكر الله معروفكم والسلام * ختام *
مسجل بالديوان

فى ٧ ١٢١٥ شعبان * — الفقير محمد المهدى كاتم سر الديوان — الفقير الله عبد الشرقاوى ريس الديوان *

الجزء الثالث

الفصل الأول
حالة المقياس والمبانى الملحقة به
زمن الحملة الفرنسية

عندما نتجه لزيارة المقياس قادمين من القاهرة فإننا فى البداية نعبر جسر مزرعة إبراهيم بك الذى أقامه الفرنسيون على فرع النيل الصغير الذى يجرى بين الضفة الموجود بها خزان المياه (١) وبين جزيرة الروضة، ثم نجتاز بعد ذلك جزءًا من الجزيرة نفسها وهى مزروعة بالحدائق بعضها مسيج بحوائط والأخير غير مسيج، تاركين عن يميننا جسر المراكب الكبير الذى أقامه الفرنسيون أيضًا ليوصل إلى الجيزة.

وبهذه الطريقة نكون قد وصلنا إلى البلدة أو القرية الكبيرة التى تشغل الطرف الجنوبى للجزيرة، بعد أن نسلك طريق الجميز (٢)، حيث نجد فى البداية

(١) انظر اللوحة رقك ١٥ المجلد الأول من الدولة الحديثة.

(٢) يبدو أن شجرة الميز تتأقلم شكل جيد فى جزيرة الروضة على وجه الخصوص، حيث نرى هناك أشجار الجميز وقد تميزت بحجم ضخم غير معتاد لاسيما بين تلك الأشجار التى تكون ممرًا شبه متصل بطول ٦٠٠ قامة تقريبًا أى ١٢٠٠ مترا على الضفة الغربية لهذه الجزيرة. ويمكننا رؤية رسم لإحدى تلك الأشجار الرائعة فى اللوحة ٤٠، المجلد الأول من الدولة الحديثة.

على يمين الطريق - حديقة تحدها الجدران، تحتل المساحة بين الطريق والضفة الغربية للجزيرة المقابلة للجيزة، ويطلق على تلك الحديقة المزروعة فى جزء كبير منها بأشجار الجميز والبرتقال والحناء (١) والنخيل «غيط المقياس»، وهى تتصل فى الواقع بهذا البناء مباشرة.

ونجد أنفسنا بعد ذلك فى فناء كبير مشترك بين المقياس والمبانى الأخرى التى تحيط به، يبلغ عرضه أربعة وثلاثين مترًا بطول ستة وخمسين مترًا ونصف المتر تقريبًا. وبالقرب من نهاية هذا الفناء الأول نجد على اليسار فناء آخر صغيرًا مسطيل الشكل يتصل بالمقياس، مثلما هو الحال بالنسبة لقصر السلطان نجم الدين الذى سوف أتحدث عنه فيما بعد، ويبلغ عرض هذا الفناء الثانى ما يقارب الثلاثة عشرمترًا ونصف المتر بطول تسعةعشرمترًا تقريبًا، وهو مزروع ببعض الشجيرات، ويفصله عن الفناء الأول حائط صغير حديث البناء، ارتفاعه متران وسمكه أربعة وستون سنتيمترا تقريبًا، وندخل إلى هذاالفناء الثانى عن طريق باب صغير يبلغ عرضه ٠,٨٠ م تقريبًا، ويقع الباب على مسافة ١١,٥ م من الحائط الموجود بنهاية الفناء، وهو حائط المسجد الذى تم بناؤه بأمر الخليفة الفاطمى المستنصر بالله، وسوف أقوم بوصفه فيما بعد.

ينخفض مستوى أرض الفناء الثانى عن أرض الفناء الكبير بمقدار ٨٢سم تقريبًا، ولهذا يوجد درج نستخدمه فى الهبوط والصعود بين الفنائين يتكون من خمس درجات من الحجر، ارتفاع كل درجة أكثر من ١٧سم.

---

(٣) إن كلمة الحنة هى نفسها الجناء باللغة العربية الفصحى ووقد اطلق عليها القدماء اسم «cyprus» ويوجد هذا الاسم فى اللغات الشرقية الأخرى، فنجده فى العبرية كوفر أو كافر، وفى الكلدانية كوفيرا وفى السريانية كوفيرا أو كوفيروو وفى القبطية بى - خووبر وفى اليونانية إكس فيبووس وتنبت على هذه الشجرة زهرة بيضاء تعرف ففى مصر باسم تمر حنة، ولها رائحة كريهة بالنسبة للأوروبيين ولكن نساء هذا البلد يحببنها بشغف، ويستخدمت أوراقها بعد الطحم لتخصيب الأضافر ورواحة اليد بلون أحمر برتقالى فى أيام الحفلات وهتو شىء.. وهو شىء متعارف عليه عند المسلمين والمسيحيين.

المبحث الأول

وصف المقياس

عندما نصل إلى الفناء الخاص بالمقياس، نتجة ناحية اليمين لنصعد سلمًا آخر من أربع درجات، وهو عبارة عن سلم خارجى بارز، ارتفاع كل درجة من درجاته ١٨ سم تقريبًا، وبعدها نجد أنفسنا أمام باب المقياس الخارجى، وكان يعلوه نقش عربى «سأذكره مع ترجمة له فيما بعد (١) ». ومبنى المقياس - كما هو موجود حاليًا - رباعى الزوايا بعرض ١٦,٩٠م من الشرق إلى الغرب، و٢١,٨٠م من الشمال إلى الجنوب، بارتفاع أربعة أمتار تقريبًا بدءا من مستوى الأرض حتى السطح، أما الارتفاع الإجمالى للمبنى بداية من قاع حوض مقياس النيل حتى قمة القبة التى تغطيه فيبلغ ٦٠ و٢٤م تقريبًا.

ولقد قدم السيد لوبير الأب عضو المجمع المصرى كما ذكرنا من قبل، والذى كان مكلفًا بإجراء إصلاحات بالمقياس، قدم خريطة لهذا المبنى ومقطعًا عموديًا له فى إحدى لوحات الدولة الحديثة (٢) ولعله من الأهمية بمكان الاسترشاد بهذه اللوحة وفهم تفاصيلها، حيث إننى سوف أشير إلى أماكن العديد من النقوش، كما أن القياسات التى ذكرتها كلها تقريبية، أما القياسات المسجلة على هذه اللوحة فهى دقيقة.

ويبلغ عرض الباب الخارجى الذى تحدثت عنه ٢٠و١م، ومنه نلج إلى مدخل المقياس الداخلى الذى يبلغ عرضة ٦,٦٠م، و عمقه ٤م ويوجد باب ثان أمام باب المدخل مباشرة، يبلغ عرضه ١,٢٠م نصل من خلاله إلى رواق الأعمدةً الداخلى الذى يشكل ممرًا يحيط بحوض عمود قياس النيل، وتوجد حول الجزء العلوى لهذا الحوض أربع دعامات ارتكاز أساسية، يفصل بين كل منها عمودان من كتلة رخامية واحدة بمحيط ٠,٤٠م، ولهذه الأعمدة قواعد سفلية وتيجان كورنثية الطراز، ويشغل درابزين من الخشب المسافة بين الدعامات وأعمدة الارتكاز بارتفاع ١,٢٠م.

---

(١) انظر الجزءالرابع من هذه الدراسة.

(٢) انظر اللوحة ٢٣، المجلد الأول من الدولة الحديثة.

ونجد على يمينا عند الدخول إلى الرواق ذى الأعمدة لوحًا من الرخام الأبيض بارتفاع ٦٨, ٠م وعرض ٣٢و٠م، وهو مثبت فى الحائط ونقرأ عليه نقشًا غائرًا بالأحرف القرمطية، وسوف أذكره مع ترجمة له فيما بعد [١].

وتوجد ثريات فى أجزاءالرواق الأربعة، تضاء عادة فى المساء طوال استمرار الفيضان السنوى.

نصل من باب جانبى أسفل الرواق ذى الأعمدة من الناحية الشرقية إلى داخل قصر الدين القديم، ونجد الدرابزين مفتوحًا عند الزواية الجنوبية الشرقية للرواق، أى عند بداية السلم الذى يهبط بنا إلى حوض المقياس نفسه، ويتكون هذا السلم من درجات متفاوته العدد، كما أن أقراص الدرج به مختلفة الأبعاد، ونصل من هذا السلم كما ذكرت إلى قاع الحوض، وعندها نكون على عمق ٢٠, ١٠ م تحت مستوى الممر الداخلى، ولعل أول ما يلفت الأنظار فى هذا الجزء هو عمود المقياس الذى يحمل إشارات توضح ارتفاعات الفيضان المختلفة.

وقد وضع العمود فى وسط الحوض على قاعدة بارتفاع ٢٠, ١ م، وتوجد فى الجزء العلوى من هذا الحوض وتمثل فى الوقت ذاته جذعًا للعمود، وتأخذ فى جزء منها هيئة مثمن أضلاع من الرخام الأبيض، بقطر ٤٨, ٠م، ويبلغ عرض الجوانب ١٨, ٠م تقريبًا.

والعمود مقسم إلى ١٦ ذراعًا بعلامات عرضية منتظمة بدءًا من القاعدة حتى الجزء العلوى منه، كما ينقسم كل ذراع إلى أربع وعشرين إصبعًا أشير إليها بتقسيمات نصفية مجمعة أربعًا أربعًا على التوالى على جانبى الخط الرأسى الذى يقسم كل واجهة من واجهات العمود.

وقد تحطم العمود عندمنتصف ارتفاعه «أى عند الذراع التاسعة»، ثم جمع الجزءان فى ذلك الموضع بطوق تثبيت من معدن النحاس «كمل بدا لى نوع المعدن».

---

(١) انظر الجزء الرابع من هذه الدراسة .

ويبدو أن تقسيم الأذرع كان مشارًا إليه بكتابة منقوشة، ولكن احتكاك المياه تسبب فى محو الكتابات السفلية المنقوشة بالكامل، والكتابات الوحيدة التى استطعت التعرف عليها هى نقوش ثلاث الأذرع العلوية، وسوف أقدم فيما بعد تلك الكتابات مصحوبة بترجمة باللغة الفرنسية (١) وتنتهى الذراع العلوية الموجودة أسفل تاج العمود مباسرة بما يشبه قوس العقد الصغير، وتكسو المسافات ذات الزوايا الدائرية الشكل التى تفصل بينها بعض الزخارف الزهرية، وزخارف أخرى من طراز فريد تتميز بالأناقة والذوق والرفيع.

ونجد هذه الزخارف المتوعة منقوشة نقشاً بارزاً فى جزء مجوف يوجد فى الزوايا المستديرة التى تصل بين كل واجهتين للعمود، وتأخذ إحدى تلك الزخارف(٢) شكل سعفة رقيقة التنفيذ، وتوجد زخرفة ثانية على شكل حلية نفلية زخرفة على شكل وريقات النفل الثلاث) مقلوبة، بينما اتخذت الاثنتان الأخريان (٣) شكل الزهيرات غير المنتظمة والملتفة بنظام الأرابيسك.

وفى منتصف أقواس العقود تلك نقرأ النص الكوفى الذى تحدثت عنه للتو، والذى نُقش نقشاً بارزًا على مساحة مجوفة يبلغ ارتفاعها: ٧٦. مم وعرضها ١٥٥ , ٠مم ونقشت الحروف بداخلها بحيث لا يتعدى بروزها مستوى سطح العمود نفسه، أى أنها تعد ضمن سمك هذا الجزء.

وتتكرر الكتابات التى تحوى البيان الرقمى للذراع الأخيرة على أربعة جوانب من العمود، كما تحوى فى نفس الوقت علامات الأصابع التى تقسم علامات الأذرع المستخدمة لقياس ارتفاع المياه، وقد نقشت جميعها نقشًا غائرًا أما أربعة الجوانب الأخرى للعمود فهى تحمل فقط تقسيمات أصابع الأذرع.

ويوجد بأعلى بدن العمود تاج كورنثى الطراز من المرمر الأبيض، يبدو أنه كان مذهبًا فيما مضى، وقد وضع فى مكانه بعد إقامة العمود، وتعلوه دعامة عرضية

---

(١) انظر الجزء الرابع من هذه الدراسة .

(٢) اللوحة a رقما ١، ٣ من المجلد الثانى للدولة الحديثة

(٣) نفسه ـ رقما ٢، ٤ من المجلد الثانى للدولة الحديثة.

الغـرض منهـا تثـبـيت العـمـود ومنع الاهتـزازات، وتسـتند هذه الدعـامـة على الواجهتين الشرقية والغربية من جدران الحوض، ويوازى سطحها العلوى مستوى الرواق ذى الأعمدة، وهى مغطاة من الجانبين بنص عربى ملون، سوف أقدمه فيما بعد مصحوبًا بالترجمة (١).

بعد فحص عمود قياس النيل تبدو أكثر الأشياء التى تجذب الانتباه قربًا هى القنوات الثلاث التى تربط بين النيل وحوض المقياس، ونجد أكثر تلك القنوات انخفاضًا تلك القناة التى تخترق الجانب الجنوبى عند مستوى بلاط الحوض نفسه، ويبلغ عرضها ١٠ , ١م بارتفاع ٣٤ , ١م، أما الاثنتان الأخريان فتوجدان فى الجانب الشرقى، وتنفذان إلى فرع النيل الأيمن المواجه للقاهرة العتيقة بعد مرورهما أسفل قصر نجم الدين القديم.

وتقع القناة الأولى أى القناة السفلية تحت آخر درجة من درجات السلم نفسه، ويبلغ عرضها ٢٠ , ١م تقريبًا، أما القناة الثانية أو العلوية فتوجد فوق السابقة مباشرة ويبلغ عرضها ١م، وتنتهى فى داخل الحوض بما يشبه القنطرة ويوجد أعلاها كتلة من الرخام الأبيض نقشت عليها كتابة كوفية بارزة جميلة «سأقدمها مصحوبة بالترجمة فيما بعد(٢)»، وقد وضعت هذه القنطرة فى منتصف عمق قنطرة أخرى أكبر حجمًا تمثل واحدة من أربع قناطر على جوانب الحوض الأربعة (٣).

ويبلغ عرض القنطرة الداخلية الصغيرة التى تمثل مدخل القناة العلوية ٣٠ , ١م بارتفاع ١م تقريبًا، ويبلغ طول كتلة الرخام التى نقشت عليها الكتابات ٩٥ , ٠م بعرض ٢٤ , ٠م.

وتتبع الأقواس الأربعة الجانبية الكبيرة الطراز القوطى، وقد نفذت ثلاثة منها فى سمك جدران الحوض ذاته، وتقع أسفل الأعمدة التى تدعم الرواق الداخلى

(١) انظر الجزء الرابع من هذه الدراسة.

(٢) نفسه.

(٣) أنظر اللوحة ٢٣ من المجلد الأول من الدولة الحديثة.

مباشرة، أما القوس الرابع فقد نفذ فى كتلة الجزء الأول من السلم بحيث يتواجد فى جزئه الخارجى. وتشكل تلك الأقواس أربع نيشات أو تجويفات تظهر على المسقط الأفقى فى صورة خطوط متقطعة، ويبلغ عمقها ٩٠و. م. ويزين كلاً منها عمودا ارتكاز صغيران بقطر ١٥, ٠م وقد نفذا فى سمك الزوايا بحيث يكونان مساويين لسطح الجدار.

ويحيط بتلك الأقواس عقد مقلوب أو نتوء بعرض ١٥, ٠م يهبط إلى أعلى عمودى الارتكاز الصغيرين. وفوق تلك الأقواس مباشرة على ارتفاع ٧٠, ٠م نجد أربعة ألواح مثبتة فى الجدار يحيط بها نقش مسطح، ويتكون كل لوح من كتلتين من الرخام المائل للبياض ويبلغ عرض تلك الألواح ٣٠, ٠م ويختلف الطول من لوح لآخر، فيبلغ طول اللوح الأول على الجانب الشرقى ١٥, ٢م، أما الموجود ناحية الشمال فيبلغ طوله ٥٠, ٢م، وذلك الموجود ناحية الغرب ٤٩, ٢م، وأخيرًا يبلغ طول اللوح الجنوبى ٩٨, ١م، وقد سجلت على هذ الألواح كتابات كوفية نقشت نقشًا بارزًا سأقدمها مصحوبة بالترجمة فيما بعد(١).

وتوجد الكتابة الأولى على الواجهة الشرقية على يمين السلم فوق القنطرة التى تمثل مدخل القناة، وتحتل الكتابتان التاليتان منتصف الواجهتين الشمالية والغربية، أما الكتابة الأخيرة فتوجد على الواجهة الجنوبية أعلى الجزء الأول من السلم.

ونرى إفريزًا يزين حافة الحوض على ارتفاع ٣٢, ١م من الكتابات الأربع، وعلى مسافة ١٠, ١م أسفل مستوى الرواق، ويتكون هذا الإفريز من ثمانى عشرة كتلة من الرخام المائل للبياض بأطوال مختلفة، وتكون هذه الكتل جميعها قاعدة متصلة. وتوجد على الإفريز أربع كتابات لا تمثل فى الواقع سوى نص واحد يتصل من جانب لآخر فى الحوض دون انقطاع أو مسافة بينية، ولا يشير إلى ذلك الكلمات التى تكون هذه الكتابات فقط، وإنما يظهر اتصال النص من خلال الأحرف ذاتها.

---

(١) انظر الجزء الرابع من هذه الدراسة.

ويبلغ طول الإفريز - الذى يحوى نقشًا مسطحًا فى حافتيه - ٥,٥٠م فى الجانب الشرقى على يمين السلم، و٥,٥٠م فى الجانبين الشمالى والغربى، و٥,٢٠م فقط فى الجانب الجنوبى، بحيث ينتهى الإفريز عند الدرجتين الرابعة والخامسة من الجزء الأول من السلم الذى يهبط بطول تلك الواجهة. ويبلغ عرضه شاملاً النقش المسطح ٠,٢٧م. وسأقدم فيما بعد النقوش الأربعة التى يشملها الإفريز مع ترجمة لها (١).

وترتكز قبة خشبية فى أعلى الحوض على الأعمدة المكونة للرواق الداخلى، ويبلغ ارتفاعها ٨,٢٤م تقريبًا فى أعلى الكورنيش، وينفذ إليها الضوء من خلال اثنتى عشرة نافذة، يبلغ عرض كل منها ١,٥١م بارتفاع ١,٧٠م، وتحيط هذه النوافذ بالقبة بدون انقاطع، فلا يفصلها بعضها عن بعض إلا قوائم بسيطة. وتزين ارتفاع تلك القبة ورود ملونة وزخارف أرابيسك، تضم فيما بينها كتابات صغيرة بحروف حديثة.

المبحث الثانى

وصف مسجد المقياس

عندما نخرج من المقياس ومن فنائه الخاص، نجتاز مرة أخرى الفناء الكبير الذى يقع على اليسار، ونرى فى غرب ذلك المبنى المسجد الذى يشغل كل زاوية الجزيرة المقابلة للجيزة، والذى شيده أبو نجم بدر الجمالى الوزير الأول للخليفة المستنصر بالله بناء على أوامره.

ويوجد مدخل المسجد عند الطرف الجنوبى للفناء الكبير المشترك بين المقياس وبين المبانى الأخرى المحيطة به، ويتبع هذه المسجد المقياس ويحمل اسمه بصفة عامة. ويشغل مدخله الواجهة الجنوبية بالكامل، ونصل إليه من الناحية الجنوبية بسلم يتكون من خمس عشرة درجة، يبلغ عرض كل درجة منها ٠,٢٥م بطول ٢م، ويؤدى هذا السلم مباشرة إلى الباب الرئيسى. وتوجد بلاطة

---

(١) انظر الجزء الرابع من هذه الدراسة.

حجرية فى الجزء العلوى من ذلك الباب يبلغ عرضها ٠,٦٧ بارتفاع ٠,٩٠م، وتحمل نقوشًا قرمطية سأذكرها مصحوبة بالترجمة فيما بعد(١).

وبعد دخولنا المسجد(٢)، نجد أنفسنا فى رواق رباعى الزوايا تدعمه أعمدة، ويمتد ليشغل جوانب المسجد الأربعة وهو رواق مفرد من جهة الشمال والجنوب وزوجى من جهة الغرب، وثلاثى من جهة الشرق.

ويحمل سقف المسجد ٣٨ عمودًا منها أربعة أعمدة بالزوايا، بالإضافة إلى دعامات مربعة بارزة عن الجدران يبلغ عددها ٣٢ دعامة، وللأعمدة سمك مقداره ٠,٨ م، وتبرز أنصاف الأعمدة عن الجدران بمقدار ٠,٤م.

وتبلغ المسافة بين صفتى الأعمدة وكذا عرض الرواق الشمالى ٢,٣٠م، وبالنسبة لأروقة الجانب الغربى يبلغ طول الرواق الممتد موازياً للحائط ٢,٦٠م، أما الأروقة الداخلية على هذا الجانب وكذا أروقة الجانب الشرقى فيبلغ طولها ٣م، والرواق الجنوبى ٢,٤٠م. ويشترك المقياس والمسجد فى الحائط الشرقى للمسجد، ويحد الحائط الشمالى الفناء الكبير المشترك بين المقياس والمبانى الأخرى التابعة له. ويطل الحائط الجنوبى وجزء من الحائط الغربى على النهر، فتغمر المياه الجزء المنحدر من الجدار الساند الذى ترتكز عليه أساسات هذين الحائطين.

وتوجد النيشة التى يطلق عليها اسم «القبلة»(٣) جهة الجنوب، وهى تبين اتجاه مكة التى يجب على المسلمين أن يقفوا باتجاهها عند أداء الصلوات التى فرضت عليهم.

---

(١) انظر الجزء الرابع من هذه الدراسة.

(٢) انظر المسقط الأفقى فى اللوحة ٢٣ التى ذكرتها من قبل.

(٣) تعنى كلمة «القبلة» بصفة خاصة وعامة: المكان الذى يتجه نحوه الإنسان أو المكان الذى يستقبله بوجهه، وبمعنى أكثر تحديدًا أن المسلمين قد أطلقوا هذا الاسم على المكان الذى توجد به كعبة مكة، حيث يفرض عليهم دينهم الاتجاه نحوه عند كل صلاة، ودائمًا ما يحدد ذلك الموضع فى المساجد بشكل ملحوظ.

ويطلق الفرس على الرسول محمد ﷺ لقب «پادشاه نمروز» أى «ملك الجنوب»، ليوضحوا بذلك أنهم ينتسبون مجازًا للشمس، لأن الرسول قد جعل كعبة مكة الموجودة فى الجنوب قبلة للمسلمين.

وتتميز هذه النيشة بتجويفها الكبير؛ حيث إنها جهزت أيضًا ليوضع المنبر(١) أو المنصة التى تُلقى الخطبة(٢) عليها، وبجوار هذه النيشة على نفس الجانب نجد أربع كوات أقل حجمًا، ثلاثة فقط على اليسار وواحدة على اليمين، كما نجد سبع نوافذ تضىء المسجد تطل جميعها على النهر، ويوجد اثنتان منها يمين النيشة وخمس على اليسار. ويحوى الجدار الغربى ست نوافذ أخرى، بعضها يطل على النهر والبعض الآخر على المبانى الصغيرة المجاورة.

ونقرأ على الجانب الخارجى للجدار المواجه للجيزة كتابة قرمطية ثالثة، استطعت الحصول عليها، وسوف أقدمها مع ترجمتها لاحقًا، وقد نقشت هذه الكتابة على لوحة من الرخام الأبيض يبلغ ارتفاعها ٧٠٤, ٠م بطول ٥٦٩, ٠م.

وللحصول على نسخة طباعية من هذه الكتابة المنقوشة على جدار لا يوجد أى مدخل يوصل إليه وتوجد أسفله مياه النهر مباشرة، قررت أن أتعلق فى حبال معقودة بأعلى سطح المسجد مستخدمًا سلمًا صغيرًا ومجازفًا بتحمل أى عقبة، وكنت مجبرًا على أداء عملى من فوق دعامة ضعيفة تعلو مياه النهر العميقة، وكانت أقل غفلة أو أصغر حركة خاطئة ستتسبب فى سقوطى.

ويبلغ ارتفاع المسجد حتى سطحه ستة أمتار تقريبًا، وتقع مئذنته فى الجهة الجنوبية، وتتميز بفخامة ملحوظة بارتفاع ٢٤م تقريبًا. هذا بالإضافة إلى وجود عدة مبانٍ تصلح أن يستخدمها خدام ذلك المسجد، وتشغل قطعة الأرض المثلثة

---

(١) يتحدث المكين عن المنبر قائلاً: عندما أوصى رسول الله بتصنيعه فى العام السابع من البعثة، يُروى أن أحد زوجاته سألته قائلة: لدى خادم يعمل بأشغال النجارة فهل آمره بتنفيذ منبر لك؟ .. فوافق الرسول ﷺ وقام العامل بعمل منبر من «طرفآ الغابة» أو (الأثل البرى)، أو كما يقول البعض من الأثل. وكان هذا المنبر مكوناً من درجتين وكرسى، وقبل أن يستخدمه الرسول كان يتكئ على جذع نحلة فى المسجد أثناء إلقاء خطبته الشريفة. وبقى المنبر على هذا الحال حتى خلافة معاوية بن أبى سفيان الذى أضاف إليه ست درجات، ولم يطرأ عليه أى تغيير بعد ذلك وكان عثمان بن عفان هو أول من كسا المنبر بالقماش.

(٢) أنظر فيما سبق .

الموجودة بين جزء من جدار المسجد الغربى وبين النهر، ويبلغ عرض المبنى الرئيسى من تلك المبانى ستة أمتار بطول ١٠,٤٠م وارتفاع ٢,٥٠م.

وعندما نخرج من هذا المكان نجد على اليسار فى الفناء الكبير بابًا فى قنطرة، يؤدى إلى سلم مكون من ١٨ درجة تقريبًا يوصل إلى حافة فرع النهر الأيسر. وكانت فياضانات النيل قديمًا تقاس على درجات ذلك السلم، حيث تغمره المياه فى ذلك الوقت من العام، ويقوم أفراد الشعب فى أيامنا هذه بملاحظة ارتفاع مياه الفيضان تدريجيًا على هذا السلم، لأن دخول المقياس ممنوع بالنسبة لعامة الناس.

وتذكر روايات أهل الشرق أن النبى موسى[1] قد وُضع وهو رضيع على هذا السلم الذى يشتهر على وجه الخصوص بموت الشاعر أبى جعفر النحاس، الذى قام ابن خلكان[2] بكتابة قصته.

ويروى هذا المؤلف نهايته المشئومة قائلاً:

«كان أبو جعفر أحمد المورودى الملقب بالنحاس «أى عامل النحاس» أحد أشهر شعراء العرب، وهو مصرى المولد، وكان معلمًا لقواعد النحو العربى فى بلده، وبينما كان جالسًا ذات يوم على درجات مقياس النيل الخارجية لطمته المياه،

---

(١) هو موسى بن عمران قاهات بن لاوى بن يعقوب، كما يسميه المسلمون، وهو بالنسبة لهم رسول عظيم جاء حيث ذكره كثيرًا فى القرآن، ولذا فهم يكنون له احترامًا كبيرًا ولا تقل شهرته بينهم عن شهرته بين اليهود والمسيحيين، ويلقبونه أيضاً «بكليم الله»، حيث كلمه الله أربعين ليلة كما ذكر فى الجزء الثانى من القرآن فى سورة البقرة التى تروى جزءًا من قصة موسى. كما وصفت سورة الأعراف فى الجزء السابع من القرآن المعجزت التى جاء بها موسى أمام فرعون، حيث ذُكر أن الله قد أعطاه القدرة على القيام بعدة معجزات مثل أن يخرج يده فتصبح بيضاء بنور خارق، ويشير الشرقيون إلى تلك الآيات القرآنية عندما يجدوا طبيبًا ماهرًا أو أى شخص يقوم بأداء أشياء عجيبة، فيقولون بأن له يد موسى البيضاء. ويذكر المؤرخون المسلمون أن موسى كان حيًا فى عصر منوجهر الملقب بفيروز وهو ثامن ملوك الأسرة الأولى فى فارس المعروفة بإسم البشدانيين، عام ٢٣٤٧ قبل الهجرة ١٧٢٧ قبل الميلاد

(٢) شمس الدين بن خلكان.

فتذكر بعض الأبيات التى نظمها وأخذ يرددها بصوتٍ منخفض، ومن الجائز أنه كان يعبر بقسمات وجهه وبفمه تعبيرات غريبة، فاعتقد أحد العرب المارين بالقرب منه بعد أن سمع كلامه غير المفهوم أنه يردد كلمات سحرية، وخُيل إليه أنه ساحر سيئ النية، يريد أن يتسبب فى وقف فيضان مياه النيل بسحره بعد أن كان قد بدأ فى الزيادة، فقرر العربى - مقتنعًا تمامًا بفكرته تلك ودون الإمعان فى مدى صحة اعتقاده ورأيه - أن يخلص مصر من تلك النكبة التى تهدد خيرها، ودفع الشاعر البائس فجأة إلى النهر حيث غرق على الفور. يؤرخ هذا الحادث بعام ٣٣٨هـ - ٩٤٩م».

ويوجد العديد من المبانى الأخرى فى شمال هذا السلم، حيث تم بناء عدد من المبانى، منها مخبز للجيش، ونصل من منطقة هذه المبانى إلى الحديقة المزروعة بالنخيل وأشجار الجميز التى تكلمنا عنها من قبل.

المبحث الثالث

وصف قصر نجم الدين

على الناحية الشرقية للمقياس نرى بقايا قصر السلطان نجم الدين (الملك الصالح نجم الدين) بن الملك العادل، ويشغل هذا القصر على الناحية الشرقية من جزيرة الروضة المساحة الموجودة بين المقياس وفرع النهر الأيمن، ويمر أسفله اثنتان من القنوات الجوفية التى تحمل مياه النيل إلى حوض المقياس كما ذكرنا من قبل.

ونصل إلى أطلال القصر عن طريق مدخلين:

أحدهما داخلى يتصل مباشرة بالرواق ذى الأعمدة الموجود بالمقياس والذى تحدثت عنه منذ قليل، أما المدخل الثانى فهو خارجى، ويقع فى الفناء الصغير الذى يسبق المقياس، قبالة باب الفناء الكبير المشترك الذى يؤدى إلى فناء المقايس الصغير.

ولم أصادف أية كتابات أو نقوش فى الأجزاء المتبقية من قصر نجم الدين، ولعل ما لفت انتباهى فيه هى تلك الردهة مربعة الشكل التى يبلغ عرضها ١٢,٧٠م من الشرق إلى الغرب و١٤,٦٠م من الشمال إلى الجنوب. وتعلوها قبة

مربعة الشكل مع ميل إلى الاستطالة تبلغ أبعادها ٥,٦٠م من الشرق إلى الغرب، و٦,٨٠م تقريبًا من الشمال إلى الجنوب، وتدعم كل زاوية من زواياها الأربع ثلاثة أعمدة مجموعة فى شكل مثلث.

وتسبق هذه الردهة وتتصل بها أيضًا عدة ممرات وغرف ذات أبعاد مختلفة. ويوجد سلم ناحية اليسار على الرصيف الذى يحد النهر من الشرق، والذى وضع عليه الفرنسيون قطع مدافع للدفاع عن القاهرة القديمة والسيطرة عليها، ويهبط هذا السلم إلى داخل القنوات الجوفية التى تحمل مياه النهر إلى حوض المقياس، ويوجد المنفذ الخارجى لهذه القنوات فى كساء الواجهة الشرقية لهذا الرصيف تحت قنطرة يبلغ عرضها ٢,٦٢م تقريباً، وتغمر مياه النهر عضادتيها.

ولأننى لم أرد أن أغادر المقياس بدون فحص ذلك المنفذ عن كثب، فقد أخذت قاربًا وذهبت لأتفقده، وقد كوفئت على مجهودى ودأبى عندما وجدت نصًا كوفيًا آخر منقوشًا نقشًا بارزًا على كتلة من الرخام الأبيض، يبلغ عرضها ٠,٢٧م بطول ٠,٩٧٤م تقريبًا، ولكن لم أستطع أن أحدد طولها الإجمالى، فقد كان طرف هذه الكتلة وكذا بداية ونهاية النص موضوعين أسفل جزء تم بناؤه بداخل القنطرة الخارجية بطريقة غير متقنة، ويبدو بلاشك أن البناء يرجع لعصر حديث. وسأقدم هذا النص مع ترجمته فيما بعد.

بنيت الجدران الخارجية لكل مبانى المقياس والمسجد وقصر نجم الدين من حجر مقطوع ذى جودة خاصة، لاسيما تلك الأحجار الموجودة عند الجزء الذى تغمره مياه النهر أثناء الفيضان السنوى.

الفصل الثانى

إدارة المقياس

تُعهد إدارة المقياس وحراسته لأحد الشيوخ الذى يحمل اللقب الشرفى «قاضى»، ويكلف بتسجيل ارتفاع مياه النهر المنخفضة، وملاحظة درجات ارتفاعه وذلك يومًا بيوم بدءًا من بداية الفيضان، وكان عليه أن يبلغ الحاكم بكل ذلك ويأمر بالإعلان عنه فى شوارع القاهرة، لاسيما عندما يكتمل الفيضان وفقًا للعرف الشائع، أى عندما يكمل الذراع السادسة عشرة ويصل إلى السابعة عشرة، وعندئذ يتم الإعلان ويُسمح بفتح السد الذى يحجز مياه النهر عند مدخل القناة بالقرب من خزان المياه.

ويقوم شيخ المقياس بتسجيل كل ملاحظاته يومًا بيوم فى سجل معد خصيصًا من أجل ذلك، يضم كل ارتفاعات فيضان النيل منذ تعيين المسلمين لهذا القاضى بعد فتح مصر.

وعادةً فإن لمقاييس النيل عائدًا خاصًا ورهانًا على الضرائب المقررة مسبقاً على الأرضى، وقد حقق مقياس جزيرة الروضة عائدًا سنويًا قدرة ٥٠ دنيارًا [١] أثناء الخلافة الفاطمية، خصصت كلها لصيانة القناة التى ينفذ منها الماء، ودفع هذا المبلغ للشيخ المكلف بحراسة وإدارة المقياس.

---

(١) مايعادل ٦٠٠ فرنك فرنسى.

وقد كان هذا المبنى المهم حكرًا خاصًا لليونانيين لمدة طويلة، ومن بعدهم الأقباط حتى فى العصر الإسلامى نفسه، إلا أنهم فقدوا هذا الامتياز عند إعادة إنشاء مقياس النيل فى جزيرة الروضة عام ٢٤٧هـ ـ ٨٦١م حيث عهد مصلح المقياس يزيد بن عبد الله الملقب بالترك بحراسته إلى المؤذن [(١)] عبد الله بن عبد السلام بن عبد الله بن أبى الرداد، الذى أحضره من بغداد إلى مصر.

وتَلَقّى المراقب العام للأموال أمرًا بدفع دينارين شهريًا لهذا المؤذن، ومات أبو الرداد عام ٢٦٦هـ ـ ٨٧٩م، وخلفه أولاده فى وظيفته التى لم تخرج عن العائلة حتى عام ١٥٤٠م، ويدّعى شيخ المقياس الموجود حاليًا أنه من سلالة أبى الرداد أيضاً.

---

(١) إن المؤذن هو منادٍ يعمل بالمساجد ينادى المسلمين للصلاة، ويسمى هذا النداء باللغة العربية «الأذان»، ويؤدى من أعلى المئذنة بالكلمات الآتية:

الله أكبر «مرتان» ـ أشهد أن لا إله إلا الله «مرتان» ـ أشهد أن محمدًا رسول الله «مرتان» ـ حى على الصلاة «مرتان» ـ حى على الفلاح «مرتان» ـ وأخيرًا إذا كانت صلاة الفجر يضيف المؤذن: الصلاة خير من النوم «مرتان».

الفصل الثالث
طرق تسجيل فيضانات النيل والإعلان عنها

لأن فيضانات النيل كانت مصدر ثروات مصر، فقد كان المصريون يتقربون إلى الإله سيرابيس بإقامة احتفالات وهمية عديدة وطقوس خاصة، من بينها التضحية بفتاة شابة وإلقاؤها فى النيل كل عام فى موكب مهيب، واستمرت تلك العادة الهمجية حتى عهد قسطنطين الذى قام بإلغائها ومنع إعادة إحيائها صراحةً، وعلى الرغم من ذلك فقد تفوقت العادة على الأوامر الإمبراطورية، حيث صادفها عمرو بن العاص عند دخوله مصر، فكان عليه إلغاؤها للمرة الثانية.

وقد احتفظ لنا المؤرخون العرب بذكرى تلك الواقعة التى استخلصناها من كتاباتهم فيما يلى:

عندما نزل عمرو إلى القاهرة بعد فتح مصر لم يفض النيل فى شهور بؤونة(١) .

---

(١) يسمى شهر بؤونة أيضًا باونة وبونة وفقاً للهجاء العربى، أما نطقه الحقيقى فسنجده فى اللهجة المنفية با ـ ؤنى، وفى اللهجة الطيبية با ـ ؤن، وهو الشهر العاشر فى السنة القبطية، ويبدأ يوم ٢٦ مايو، ويوافق شهر يونيو.

وأبيب[١] ومسرى[٢]، فأرسل سكان مصر إلى هذا القائد قائلين بأن النيل لن يفيض ما لم يقدموا أضحيتهم المعتادة التى تتمثل فى إلقاء فتاة عذراء بعد تزيينها فى مجرى النهر.

وقد اعترض عمرو بشدة على هذه الطقوس الوحشية قائلاً إن ذلك يخالف تعاليم الدين الإسلامى، وأمر بإلغاء كل عادة دينية كانت موجودة من قبل، وكتب فى نفس الوقت إلى الخليفة عمر الذى أيده فى تصرفه وأرسل إليه خطاباً أمره بإلقائه فى النيل، كتب فيه الآتى:

«من عبد الله أمير المؤمنين إلى نيل مصر، إن كان الله الواحد القدير هو الذى يزيد ماءك، فنحن نأمرك بإذن الله أن تفيض كعادتك»، ونفذ عمرو أوامر الخليفة، وذكر الكتاب العرب أن النيل فاض فى ليلة يوم الصليب[٣] وبلغ ارتفاعه ١٦ ذراعًا وألغيت تمامًا منذ ذلك الحين هذه الأضحية البشرية.

ويعتقد المصريون المعاصرون أن سبب فيضان النيل يرجع إلى النقطة[٤] التى تسقط من السماء كما يقولون عشية فيضان النيل. وبعد الإعلان عن فيضان النيل المتدرج تقام الاحتفالات المختلفة ويفتح السد الذى يمنع المياه من المرور إلى القناة التى تحملها إلى القاهرة. ويسمى الاحتفال بفيضان النيل «وفاء البحر أو جبر البحر».

---

(١) يسمى أبيب عند العرب، أو إبب فى القبطية، وهو الشهر الحادى عشر من السنة القبطية، ويبدأ يوم ٢٥ يونيو، ويوافق شهر يوليو.

(٢) يسمى مسرى أو مشرى عند العرب، ويطلق عليه فى اللهجة المنفية ميشورى، وفى اللهجة الطيبية ميزورى، وهو آخر شهر فى العالم القبطى، ويبدأ يوم ٢٥ يوليو، ويوافق شهر أغسطس.

(٣) يوم الصليب هو عيد قبطى اعتاد فيه الأقباط الذهاب فى موكب إلى النيل وإلقاء صليب صغير خشبى فيه.

(٤) يشيع تسميتها بالنقطة فى مصر، وهو الوقت الذى تتعكر فيه مياه النيل وتصبح مائلة للاصفرار، وتبدو كما لو كانت تضطرب لتعلن عن قدوم الفيضان لسكان مصر.

ويبدأ الاحتفال عندما يبلغ النيل ارتفاع ١٦ ذراعًا كما ذكرت من قبل، وعندئذ يفتح السد فى حضور شيخ البلد والقاضى وجميع الشخصيات الهامة بالمدينة والقوات المجتمعة، وأثناء فتح السد تطلق الألعاب النارية ويحضر الموسيقيون للغناء والعزف.

وكان المصريون القدماء يحتفلون فى نفس هذا الوقت من العام بمولد الإله أبيس، الذى كان بالنسبة لهم رمزًا للنيل، وكان الهدف من هذا الاحتفال هو نفسه هدف احتفال العصر الحديث، وإنما يختلف عنه فى الصبغة الدينية والصوفية التى يتحلى بها ، وبتجريد هذا الاحتفال من طابعه الدينى المقدس لن يحظى بنفس التبجيل المرتبط به، وفى الواقع فإن هذه الاحتفالات الكبيرة لم تتوقف على مر العصور، وأعتقد أنه يمكننا التعرف على التفاصيل الدقيقة للاحتفالات التى كانت تقام بهذه المناسبة منذ عدة قرون، وندين بهذه الرواية إلى شمس الدين محمد بن أبى السرور[١] فى كتابه الكواكب السايرة[٢]:

«عندما يصل فيضان النيل إلى ١٦ ذراعًا يفتح السد لتنساب المياه فى أراضى وقنوات مصر كلها، ويكون ذلك اليوم يوم عيد. وفيما مضى وقبل حفر قناة خليج الحاكمى كان السد يفتح عند قناة تسمى خليج القنطرة، حيث يوجد سرادق يطل على مصب القناة، وكان الخليفة أو حاكم مصر يقوم بفتح السد.

وفى ذلك اليوم يخرج السلطان أو من ينوب عنه من القصر ممتطيًا جواده حتى يصل إلى مصر العتيقة أو القاهرة القديمة فى مكان يسمى دار النحاس

---

(١) هو الشيخ شمس الدين محمد بن أبو السرور الملقب بالبكرى والصديقى، حيث ينتهى نسبه إلى محمد باكر وجعفر صديق «وهما الإمامان الخامس والسادس».

وقد اشترك فى هذين اللقبين مع عدد من العلماء الآخرين الذين ينتهى نسبهم لنفس العائلة. وولد شيخنا بالقاهرة عام ١٠٠٥هـ - ١٥٩٦م فى حكومة سيد محمد باشا.

(٢) يوجد كتاب «الكواكب السايرة فى أخبار مصر والقاهرة» فى مكتبة الملك «المخطوطات العربية رقم ٧٨٤»، وانتهى من تأليف ذلك المخطوط فى نهاية شهر ذى الحجة عام ١٠٥٥هـ - ١٦٤٦م وفقًا لما هو مدون فى آخر الكتاب.

ولقد ألحق السيد سيلفستر دو ساسى بالجزء الأول من كتابه «نبذات وفقرات من مكتبة الملك» فقرة كبيرة من ذلك الكتاب.

على ضفة النيل، فيترجل عن جواده ليجد أمامه قاربين كتب عليهما اسم السلطان وزينا بمختلف أشكال الزينة، فيستقل أحدهما ويسمى «حراكة»، وبرفقته أهم شخصيات الحاشية، ويسمى القارب الآخر «ذهبية» وكان مخصصًا لبقية أفراد الحاشية، هذا بالإضافة إلى عددٍ كبير من القوارب مختلفة الأشكال التى تخص الأمراء والضباط، وقد تنافس الجميع فى تزيين هذه القوارب.

ويذهب السلطان بقاربه ويتبعه الجميع إلى جزيرة الروضة المواجهة لمصر العتيقة، والتى تقع بين فرع النهر الكبير والفرع المار بنهاية المدينة التى يشغلها عدد كبير من البيوت والقصور، وعندما يصل السلطان إلى الجزيرة يمتطى جواده متجهًا إلى مقياس النيل الموجود فى منتصف النهر، ويدخل ويتبعه أفراد حاشيته، ويلقى فى الحوض الزعفران المبلل بمياه الورد، وعندما ينتهى من الصلاة تقدم له وليمة رائعة، وبعد أن يتناول الطعام تكون القوارب قد إقتربت من أسوار مقياس النيل وهى مغطاة بالأقمشة المذهبة والزينات ليستقل أحدها ويعود مع الباقين، وسط عزف الطبول والآلات الموسيقية.

وقرب وصوله لمصر العتيقة يدير قاربه نحو منصب القناة المتجهة للقاهرة. ويقوم السلطان بإلقاء قطع النقود الذهبية والفضية والفواكه والحلوى وأشياء أخرى مشابهة إلى الشعب أثناء رحلته البرية أو النهرية ذهابًا وإيابًا.

ويكون السد الذى يجب أن يفتتحه عبارة عن نوع من الأسوار مبنى فى مواجهة القنطرة؛ ويأمر السلطان أو من يحل محله - عن طريق الإشارة بمنديل فى يده - الأشخاص المكلفين بهدم السد والذين يحملون فى أيديهم جواريف(١)، بأن يبدأوا فى مهمتهم، فيبدأون على الفور ويسقط السد فى وقت وجيز، وفى النهاية يعود السلطان إلى القلعة ممتطيًا جواده.

وبعد أن أصبحت مصر من ولايات الإمبراطورية العثمانية كان بجليربسك هو الذى يرأس هذا الاحتفال، فيخرج فى الصباح ممتطيًا جواده من القلعة، ويتجه إلى بولاق، حيث يجد القوارب مجهزة له وللأمراء والسناجقة أمام الترسانة، ثم

---

(١) فى الوقت الحاضر يكلف اليهود والحفارين بالقاهرة بأداء تلك المهمة كل سنة بالتبادل.

يبحر فى النهر حتى يصل إلى مقياس النيل بجزيرة الروضة وتتبعه كل القوارب الأخرى، وتطلق المدافع عددًا كبيرًا من الطلقات أثناء رحلته.

وكان هذا الاحتفال يبدأ عندما تبلغ المياه ارتفاع ١٦ ذراعًا إلا ٢٠ إصبعًا فيبقى هناك بالمقياس حتى تصل المياه إلى ارتفاعها الكامل، وإذا كان الفيضان بطيئًا فعليه أن يظل هناك يومًا أو يومين.

وفى ذلك الوقت تُجهز القوارب وتُشكل تماثيل من الطمى تسمى «عروس» ثم تزين، وتمارس بعد ذلك العديد من الألعاب الترفيهية.

ويقيم بجليريسك وليمة كبيرة للسناچقة[١] والجاويشية[٢] والمتفركة والمجموعات الأخرى قبل الشروق فى اليوم الذى يتجه فيه لفتح السد، وبعد الوليمة يقوم بتوزيع قفاطين على الكاشف[٣] وشيخ عرب الجيزة والمسئول عن التموين وضباط الجيش وضباط الشرطة الآخرين، ثم يستقل مع حاشيته القوارب ويتجه إلى السد ليفتحه وسط دقات الطبول، ثم يمر من الفتحة التى أحدثت به لكى يعود إلى القصر مرة أخرى».

وخلال إقامتنا بمصر شاهدنا احتفالاً له نفس المظاهر، ولذا فأعتقد أن ذكر التفاصيل السابقة مهم لكى نتمكن من مقارنتها بما ذكرته من قبل.

---

(١) السنچق هو لقب شرقى يماثل بك أو بيك وفقًا للكتابة والنطق التركى، وكان السناچقة يعينون من قبل الديوان بعد موافقة باشا القاهرة باسم السلطان العثمانى.

(٢) الجاويشية هو اسم أكبر شانى جماعة فى مصر تتبع لقبا الأوجاق وكانوا مكلفين برفع الميرى.

(٣) الكاشف هو لقب شرفى أقل من لقب البك، إلا أن الكشاف من حكام الأقاليم كانت لهم سلطة واسعة تماثل سلطة البكوات.

الفصل الرابع
تفاصيل خاصة بفيضان النيل

يبدأ الفيضان عادة فى اليوم الخامس من شهر بؤونة، وتسقط النقطة فى الليلة الثانيةعشرة من هذا الشهر، أى فى عيد القديس ميخائيل عند الأقباط، وتبدأ مياه النيل فى الفيض، ويقاس النيل قبل الفيضان لمعرفة ارتفاع المياه القديمة الموجودة فى مجراه.

ويذكر المسعودى(١) أن فيضان النيل يبدأ ويستمر فى شهور بؤونة وأبيب ومسرى القبطية، وربما أيضًا فى شهر توت (٢) إذا كان الفيضان شديدًا.

وعندما تبلغ المياه ارتفاع ١٦ ذراعًا يكون الحصاد وفيرًا وتجبى الضرائب كاملة، إلا أن ركود الماء لفترة طويلة فى الأراضى يقلل من فرصة الرعى ومن ثم..

---

(١) إن الاسم الكامل لهذا الكاتب الشهير بين الشرقيين هو ابن الحسان على بن الخير بن على بن عبد الرحمن بن عبد الله، ويعرف عادة بلقب المسعودى، حيث ينتهى نسبه إلى مسعود الهذلى أحد صحابة الرسول ﷺ. وبدأ المسعودى فى الكتابة عام ٣٣٦هـ - ٩٤٧م، ومات فى القاهرة عام ٣٤٦هـ - ٩٥٧م، وهو مؤلف كتاب يتناول علمى التاريخ والجغرافيا بعنوان «مروج الذهب ومعادن الجوهر» ويوجد هذا المؤلف فى مكتبة الملك [المخطوطات العربية رقما ٥٩٨، ٥٩٩] وقد حملت معى من مصر نسخة جيدة جدًا له.

(٢) يكتب اسم هذه الشهر «توت» فى اللغة العربية وهو أول شهو السنة القبطية ويكتب «توت» فى اللهجة المنفية و «توت» فى اللهجة الطيبية و «توت» فى القبطية الصعيدية.

يضر الحيوانات، أما فيضان السبع عشرة ذراعًا فهو أكمل الفيضانات وأكثرها فائدة لأراضى مصر، التى تُروى كلها بشكل كافٍ، ولكن عندما ترتفع مياه النهر أكثر من ذلك لتصل إلى ثمانى عشرة ذراعًا، فإنها تغمر أكثر من ربع الشعرى المصرية، وتتلف كثيرًا من الأراضى نتيجة ارتفاع المياه، وعندما يرتفع الفيضان إلى أكثر من ثمانى عشرة ذراعًا فهو يتسبب بشكل عام ـ كما نعتقد ـ فى انتشار وباء الطاعون بعد جفاف المياه.

ويروى أحد الكتاب العرب(١) ـ وكان يعيش حوالى عام ٨٧٥هـ ـ ١٤٧٠م، وسوف أتحدث عنه فيما بعد ـ أن النيل إذا بلغ فى عصره ارتفاع أربع عشرة ذراعًا فيتوقع الجميع حصادًا كافيًا لمؤونة سنة، وعندما يصل إلى ارتفاع ست عشرة ذراعًا يكفى الحصاد لمدة عامين، أما إذا كان الفيضان أقل من أربع عشرة ذراعًا فيندر الغذاء وترتفع الأسعار بصورة ملحوظة، ويصيب مصر القحط والمجاعة إذا توقف الفيضان عند ارتفاع عشر أذرع فقط.

روايات الكتاب العرب عن فيضان النيل

بالإضافة إلى الكتاب والمؤلفين الذين تناولوا موضوع مقياس النيل، والذين قدمت عرضًا موجزًا لهم فيما سبق، فهناك العديد من الكتاب العرب الآخرين الذين ذكروا بيانات تفصيلية مؤرخة عن فيضانات النيل السنوية.

وقد تناول أحد المخطوطات العربية الموجودة بمكتبة الملك بعنوان «نيل فى أحوال النيل» بشكل خاص موضوع فيضانات النيل ومقياس النيل، ويشمل المخطوط تاريخًا مفصلاً لهذا النوع من المنشآت ولكل فيضانات النيل عامًا عامًا بدءًا من سنة ٢٠هـ ـ ٦٤٠م حتى سنة ٨٧٥هـ ـ ١٤٧٠م.

كما عرض ابن إياس الجدول الزمنى لفيضانات النيل بدءًا من عام ٢٣هـ ـ ٦٤٣م وانتهاءً بعام ٩٢٢هـ ـ ١٥١٦م، وتضم مكتبة الملك عدة مخطوطات لهذا الكاتب(٢) ويجب الإشارة إلى أن نسخة المخطوط الخاصة بالسيد لوجران بها

(١) هو مؤلف كتاب بعنوان «نيل فى أحوال النيل».

(٢) المخطوطات العربية رقم ٥٩٣، ومخطوطات المرحوم السيد د و هوترى رقم ١١١.

اختلاف كبير، وقد استطعت الحصول من مصر على نسخة جيدة جدًا من هذه المخطوطة التى كتبت بدقة بالغة[١].

ومن بين من قاموا بتسجيل فيضانات النيل القاضى الفاضل الذى ذكره ابن إياس فى كتابه، وابن أبى السرور الذى أورد بعض البيانات، عن فيضان النيل، ويصدق نفس القول على أبى الفرج بن جوزى، الذى ذكره ابن إياس فى ملاحظاته حول فيضان النيل، كما يذكر المكين ـ الذى تحدثت عنه فيما سبق ـ بعض التفاصيل الخاصة بفيضانات النيل فى مؤلَّفه التاريخى الكبير.

وقدم أبو المحاسن[٢] سجلاً للفيضانات الرئيسية المحررة بالمقياس، وفى كتاب بعنوان «درر التيجان» نجد أيضاً بعض البيانات حول الفيضانات.

---

(١) وفقاً للبيان الذى ينتهى به المخطوط، فقد تمت كتابته يوم ١٩ رجب عام ١٠١٩هـ ـ ١٦٠٣م.

(٢) اسمه بالكامل:
جمال الدين أبو المحاسن يوسف.

الجزء الرابع

كتابات ونقوش المقياس وترجمتها

تنتمى الكتابات والنقوش بأحرفها المختلفة التى تزين مبنى المقياس إلى ستة عصور تاريخية ورد ذكرها فيما سبق، وقد تناولناها تباعًا وفقًا لترتيبها الزمنى، بدون النظر إلى الأماكن التى تشغلها هذه الكتابات فى أجزاء هذا المبنى الأثرى.

الفصل الأول

كتابات العصر الأول

توجد الكتابات الثلاث التى ترجع للعصر الأول على الذراع الأخيرة لعمود المقياس أسفل التاج مباشرة، وقد كتبت بأحرف كوفية. وتوجد هذه الكتابات على أربعة من جوانب هذا العمود مثمن الأضلاع، بالتبادل عند الأذرع العلوية كما ذكرنا من قبل، وهى منقوشة نقشًا بارزًا ولا تمثل فى الواقع إلا كتابة واحدة تتكون من ثلاث كلمات فقط، وتتكرر على الجوانب الأربعة.

المبحث الأول

الكتابة الكوفية على الذراع الأخيرة

من بين الكتابات التى نراها منقوشة على أربعة جوانب من العمود، هناك النقش الموجود على هذه الذراع، ويتكون من ثلاث كلمات فقط هى[1]:

---

(١) انظر الكتابات والأبجديات، اللوحة الأولى السطر الأول رقم ١، فى نهاية هذا الجزء.

سبع عشرة ذراعًا

وتختلف جوانب العمود الأربعة كثيرًا فيما بينها من ناحية الحفظ، فنجد اثنين منها وقد أصابهما تلف شديد، وعلى الرغم من ذلك يمكننا قراءة هذه الكلمات الثلاث المتكررة بطريقة سهلة على كل الجوانب، ويتميز الجانب الغربى بأنه الأفضل حفظًا، بينما يصيب التلف الشديد الجانب الشرقى، أما الجانبان الشمالى والجنوبى فهما متشابهان إلى حد كبير فيما يتعلق بوضوح الكلمات.

وقد رأينا أننى قمت بتقديم هذه الكلمات الثلاث بأحرف عربية حديثة، فسوف أذكر هنا الأسباب التى حملتنى على اختيار هذه الأحرف الحديثة للكتابة وبالتالى ترجمتها بسهولة إلى اللغة الفرنسية، ولذا سأدخل فى تفاصيل واسعة لن أكررها مرة أخرى فيما يتعلق ببقية الكتابات، لأنى أعتقد أن هذه التفاصيل التمهيدية عالية الأهمية، وسوف تساعدنا هنا على التعرف على الصعوبات التى يمكن أن تواجهنا عند نسخ وترجمة النصوص الكوفية والقرمطية، وكذا الوسائل المختلفة التى استخدمناها للحصول على القراءة الصحيحة وتفسير المعانى بدرجة كبيرة من اليقين إذا ما جاز أن نقول ذلك، ومن خلال هذه الوسائل والمواد تمكنت من الوصول إلى عدد كبير جدًا من التوافيق المختلفة التى نجدها غريبة أحياناً وقابلة لعدة تفسيرات أحياناً أخرى.

وفضلاً عن ذلك كله، فإننى أجد هذه التفاصيل ضرورية وهامة لإعطاء ترقيم محدد لأذرع عمود مقياس النيل، يختلف عن الترقيم الوارد عند عدد كبير من الكتاب والمؤرخين.

تتكون الكلمة الثالثة من ثلاثة أحرف: «د» و«ر» و«ع»، ولأن الأبجدية الحديثة تقبل وجود أو عدم وجود نقاط الحروف، وينطبق ذلك أيضًا على جميع الكتابات الكوفية والقرمطية، فإننا يمكن أن نقرأ هذه الحروف كالتالى:

الحرف الأول «د» أو «ذ».

الحرف الثانى «ر» أو «ز».

الحرف الثالث «ع» أو «غ».

وبهذه الطريقة فإن الكلمة الثالثة يمكن أن تقدم ثمانية توفيقات:

ذراعا Dz-R-A-A'-A,
ذراغا Dz-R-A-Gh-A,
ذزاعا Dz-Z-A-A'-A,
غزاغا Dz-Z-A-Gh-A.

دراعا D-R-A-A'-A,
دراغا D-R-A-Gh-A,
دزاعا D-Z-A-A'-A,
عزاغا D-Z-A-Gh-A,

ونجد أن التوفيق الخامس فقط هو الذى يحمل معنى مفهومًا بلا شك، ولا تقرأ الكلمة إلا بهذا الشكل [ذراعًا] كما تنطق فى اللغة العربية الفصحى. أو (دراعًا)، وهو نطقها العامى فى مصر.

وتتكون الكلمة الثانية أيضًا من ثلاثة أحرف هى «ع» و«س» و«ر»، ومن نفس المنطلق السابق يمكننا أن نقرأ الحروف (ع) أو (غ)، و(س) أو (ش)، و(ر) أو (ز). وتُكون هذه الأحرف بدورها ثمانية توفيقات:

غسرة Gh-S-R-H,
غسزة Gh-S-Z-H,
غشرة Gh-Ch-R-H,
غشزة Gh-Ch-Z-H.

عسرة A'-S-R-H,
عسزة A'-S-Z-H,
عشرة A'-Ch-R-H,
عشزة A'-Ch-Z-H,

ونجد أن التوفيق الثالث فقط هو الذى يحمل معنى محددًا، ولذا فإن هذه الكلمة لا تكون إلا «عشرة».

أما بالنسبة للكلمة الأولى من هذه الكلمات الثلاث والتى تتكون مثل سابقتيها من ثلاثة أحرف، فنجدها أكثر صعوبة فى القراءة، وأحرفها الثلاثة هى «س» و«ب» و«ع»، ويمكن أن تكون: «س» أو «ش»، «ب»، أو «ت» أو «ث» أو «ن» أو «ى»، و«ع» أو «غ»، وبالتالى فإن هذه الكلمة تعطينا عشرين توفيقًا وفقًا للقراءة وطريقة الكتابة بالأحرف الحديثة:

شبع Ch-B-A';
شبغ Ch-B-Gh,
شتع Ch-T-A',

سبع S-B-A',
سبغ S-B-Gh,
ستع S-T-A',

شتغ CH-T-GH,	سنغ S-T-GH,
شثع CH-TH-A',	سثع S-TH-A',
شثغ CH-TH-GH,	سثغ S-TH-GH,
شنع CH-N-A',	سنع S-N-A',
شنغ CH-N-GH,	سنغ S-N-GH,
شيع CH-Y-A',	سيع S-Y-A',
شيغ CH-Y-GH.	سيغ S-Y-GH,

وباستبعاد جميع التوافيق التى لا معنى لها، نجد أن التوفيق الأول من بينها «سبع» هو الذى يعطينا اسمًا لرقم، يُمكن أن يكوّن معنى مفهومًا بعد إضافته إلى الكلمتين السابقتين، ولكننا سنواجه هنا صعوبة ثانية لا تقل فى خطورتها عن الصعوبة الأولى وسوف تستوقفنا لبعض الوقت، والسبب فى ذلك هو أن الخطوط العمودية الأربعة التى كتب بها الحرفان الأولان من أحرف هذه الكلمة، قد ظهرت فى النقش بدون اختلاف سوى تدرجها المتتالى نحو الحرف الثالث.

وفى الواقع فليس هناك ما يشير تحديدًا عما إذا كان هذان الحرفان يكونان شكل حرف «س» و«د»، لنعتبر هنا ثلاثة الخطوط الأولى تمثل حرفًا واحدًا [س] كما افترضنا من قبل التوفيقات السابقة، أو على العكس من ذلك، فيمكننا أن نعتبر من خلال افتراض ثان أن الحرفين يمثلان «د» و«س» بعد فصل الخط الأول واعتبار ثلاثة الخطوط التى تليه حرفًا واحدًا [س]، وينبثق عن هذا الافتراض عشرون توفيقًا جديدًا كالآتى:

ثشع TH-CH-A',	بسع B-S-A',
ثشغ TH-CH-GH,	بسغ B-S-GH,
نسع N-S-A',	بشع B-CH-A',
نسغ N-S-GH,	بشغ B-CH-GH,
نشع N-CH-A',	تسع T-S-A',
نشغ N-CH-GH,	تسغ T-S-GH,

يسع Y-S-A',	تشع T-Ch-A',
يسغ Y-S-Gh,	تشغ T-Ch-Gh,
يشع Y-Ch-A',	ثسع Th-S-A',
يشغ Y-Ch-Gh.	ثسغ Th-S-Gh,

وبعد أن نستبعد من الأربعين توفيقًا التى وصلنا إليها من خلال الافتراضين السابقين، كل الكلمات التى لا معنى لها، فلن يتبقى لنا إلا كلمتان فقط تمثلان أسماء لأرقام، وبالتالى نجد أنفسنا أمام كلمتين مبهمتين ولغز جديد. فإننا ندرك أن هذه الكلمة يمكن أن تقرأ بطريقتين مختلفتين تمامًا فى القيمة وتمنحنا بدورها الافتراضين التاليين:

(١) وفقًا للتوفيق الأول من الافتراض الأول، نجد أن الكلمة تتكون من الحروف «س» و«ب» و«ع» لتصبح «سبع»، وعندما تضاف إلى الكلمة التى تليها «عشرة»، نحصل على رقم «سبع عشرة».

(٢) ووفقًا للتوفيق الخامس من الافتراض الثانى، فإن الكلمة تتكون من «ت» و«س» و«ع» لتصبح تسع، وتكوّن مع الكلمة التالية لها رقم «تسع عشرة».

وكان يجب علينا أن نستقر على رأى بخصوص هذه الكلمات بعد قراءة النقشين الموجودين على الذراعين السفليين، مما أتاح لنا فقط الاحتفاظ بأول هذين الافتراضين، وهو الرأى الذى سوف نتبناه هنا.

المبحث الثانى

الكتابة الكوفية على الذراع قبل الأخير

تحمل الذراع الموجودة أسفل تلك التى تحدثنا عنها للتو مباشرة وترتيبها الثانية أسفل تاج العمود الكتابة الآتية والتى تتكرر مثلها مثل الكتابة السابقة على أربعة جوانب من عمود مقياس النيل وهى [١]:

---

(١) انظر الكتابات والأبجديات، اللوحة الأولى السطر الأول رقم ٢.

ست عشرة ذراعًا

ومن خلال التماثل مع الكتابة السابقة التى ناقشناها من قبل، لا تمثل الكلمتان الثالثة والثانية أى صعوبة فى القراءة.

أما بالنسبة للكلمة الأولى (سس) فهى لا تقرأ إلا (سبت)، ومع افتراض أن الحرفين المكونين لها (س) و(ب) يقبلان نقط الحروف أو يرفضانه فسنجد أن الحرف الأول يمكن أن يكون (س) أو (ش) والثانى (ت) أو (ب) أو (ث)، وفى النهاية(١) تعطينا الكلمة ستة توفيقات فى كتابتها وقراءتها كالآتى:

شب CH–B,	سب S–B,
شت CH–T,	ست S–T,
شث CH–TH.	سث S–TH,

وبحذف خمسة من هذه التوافيق لا تعطينا أى معنى نجد أن التوفيق الوحيد لمقبول هو التوفيق الثانى الذى نقرأه (ست)، وبالتالى فإن العبارة الكاملة تعنى:

(ست عشرة ذراعًا)، ولن يكون لدينا أى شك عند قراءة الكتابة الموجودة بالذراع التالية.

المبحث الثالث

الكتابة الكوفية على الذراع التالية

تشغل كتابات الذراع التالية الموجودة أسفل الذراع السابقة مباشرة أربعة جوانب من عمود المقياس، وتوجد أسفل كتابات الذراع الأخيرة مباشرة، ويشوبها التلف أكثر من كتابات الذراعين السابقين، بسبب احتكاك الماء المستمر بها، وعلى الرغم من ذلك فقد استطعنا قراءة الكلمات الثلاث التى تكونها (١):

خمس عشرة ذراعًا

---

(١) انظر الكتابات والأبجديات، اللوحة الأولى السطر الأول رقم ٣.

ولا تمثل الكلمتان الثانية والثالثة أى صعوبة فى القراءة والكتابة من خلال ما رأينا فى كتابات الذراعين السابقين. إلا أن الكلمة الأولى «حمس» يمكن أن يمثل حرفاها الأول والثالث ـ من خلال قبول أو رفض النقط ـ الحروف الآتية: الأول قد يكون (ج) أو (ح) أو (خ)، والثانى: (س) أو (ش) لتُكون هذه الكلمة ستة توفيقات كالآتى:

جمش H-M-CH,	جمس DJ-M-S,
خمس KH-M-S,	جمش DJ-M-CH,
خمش KH-M-CH.	حمس H-M-S,

وعلى الرغم من ذلك فلن نجد نحن أنفسنا فى حيرة من الأمر حيث إن هذه التوفيقات لا تعطى معانى مقبولة باستثناء التوفيق الخامس (خمس)، وبعد أن نضيفه إلى الكلمتين السابقتين تصبح العبارة بالكامل (خمس عشرة ذراعًا).

ومما يجدر الإشارة إليه أن حرف (م) لم يظهر بشكل جيد فى النقش، حيث نجد الخط المائل العلوى يمر بالخط السفلى ليعطينا شكل X، وقد قمت باستبداله فى الكلمات السابقة بشكل أفضل.

الفصل الثانى

كتابات العصر الثانى للمقياس

يبلغ عدد الكتابات التى ترجع للعصر الثانى سبع كتابات، توجد أولاها أعلى مدخل القناة فى داخل الحوض، وأربع بأعلى أربعة العقود الفرعية، ويغطى اثنتان منها إفريز واجهتى الحوض من الجهتين الشرقية والشمالية.

وتحوى الكتابات الست الأخيرة آيات قرآنية مرتبطة بفيضان النيل.

وسوف أقدم هنا هذه الكتابات وفقًا للترتيب الذى ذكرته مصحوبة بترجمة فرنسية لها.

المبحث الأول

الكتابة الكوفية بأعلى الجزء الداخلى من مدخل القناة

توجد هذه الكتابة - كما ذكرت من قبل - بداخل العقد الفرعى بالواجهة الشرقية، فوق الطرف الداخلى للقناة العلوية التى تمر من خلالها مياه النيل إلى الحوض.

ويبلغ ارتفاع النص خمس بوصات (١٣٥ ملليمترًا) بسمك ثمانية أسطر (١٨

مللميترًا). ويمثل النص العبارة الآتية المأخوذة من الآية رقم ٣٩ من السورة الثامنة عشرة فى القرآن وهى سورة الكهف (١):

مَا شَآءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ (٢)

المبحث الثانى

الكتابة الكوفية بأعلى العقد الشرقى

كما ذكرنا من قبل نجد أربع كتابات بأعلى أربعة العقود التى تزين الجوانب الداخلية الأربعة للحوض، وتتميز هذه الكتابات بدقتها ورشاقة خطوطها التى تجعلها أفضل - من ناحية التنفيذ - من الكتابة التى أوردناها من قبل.

ووفقاً للشكل العام للحروف يجب إدراج هذه الكتابات ضمن نفس الفترة الزمنية، وهى كالآتى:

فى البداية نجد الكتابة الأولى بأعلى العقد من ناحية الشرق، وهى تحوى الصيغة المعتاد تواجدها فى بداية كل سور القرآن الكريم، وكل النقوش الإسلامية تقريباً (٣):

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

---

(١) هى سورة مكية باستثناء الآية «واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى»، وتشمل السورة ١١٠ آية وفقاً لطبعة هينكلمان، ولا تضم المخطوطات الكوفية منها سوى ١٠٥ آية فقط، ويذكر بدوى أن عدد آياتها ١١١ آية، وتحمل السورة هذا الاسم لأن الرسول محمد ﷺ قد ذكر قصة فتية آووا إلى الكهف خوفاً على دينهم. وتقترب هذه القصة كثيراً من قصة السبعة النائمين لإيفاز، التى ذكرتها أساطيرنا القديمة. انظر الكتابات والأبجديات. اللوحة الأولى، السطر الثانى، رقم ٤.

(٢) يتعلق هذا المعنى بمفهوم القدر الذى يمثل أساساً لعقيدة المسلمين.

(٣) انظر النقوش والأبجدية اللوحة ١، السطر ٣، رقم ٥.

وبعد ذلك نقرأ العبارات التالية التى تكون الآية رقم ٩ من السورة رقم ٥٠ وهى سور[١] «ق»[٢]، وفى هذه الآية يخاطب الله عباده[٣] قائلاً:

وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا

فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ

المبحث الثالث

الكتابة الكوفية أعلى العقد الشمالى

توجد الكتابة الثانية فوق العقد من الناحية الشمالية، وتحوى العبارات التالية المأخوذة من نهاية الآية رقم ٥ بالسورة[٤] رقم ٢٢ وهى سورة «الحج»[٥].

وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً

فَإِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ

اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ

---

(١) سورة مكية تحوى ٤٥ آية وفقًا لما يقول هينكلمان، وعلى الرغم من ذلك فهناك بعض المخطوطات تشير إلى أنها تحوى ٥٤ آية.

(٢) وفقاً لبعض الكتاب فإن حرف (ق) هو أول حرف من اسم جبل أقسم به الرسول محمد، ووفقاً لما يقول آخرون فإن هذا الحرف هو اختصار لعبارة «قضى الأمر». وفى الواقع ذكره الرسول خلال حديثه عن البعث ويوم الحساب.

(٣) انظر الكتابات والأبجديات اللوحة (١) السطر ٣، رقم ٦ والسطر ٤ رقم ٧.

(٤) هى سورة مدنية باستثناء ست آيات منها، تشمل ٧٨ آية وفقاً لما يقول هينكلمان، على الرغم من أن معظم المخطوطات تشير إلى أنها تحوى ٧٦ آية فقط.

(٥) انظر الكتابات والأبجديات اللوحة رقم ١سطر ٤ رقم ٨، وسطر ٥ رقم ٩، وسطر ٦ رقم ١٠.

* وردت فى النص «فإنا» والصواب «فإذا». (المترجم).

المبحث الرابع

الكتابة الكوفية أعلى العقد الغربى

توجد الكتابة الثالثة أعلى العقد من ناحية الغرب، وتكون فى نفس الوقت أعلى قرص الدرج الثانى بالسلم، وتحوى العبارات التالية المأخوذة من الآية رقم ٦٣ من السورة[1] القرآنية رقم ٢٢.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً

إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ

المبحث الخامس

الكتابة الكوفية أعلى العقد الجنوبى

وأخيرًا توجد الكتابة الرابعة أعلى العقد الموجود وسط واجهة الحوض من الناحية الجنوبيـة، وتكون فى نفس الوقت أعلى الجزء الأول من السلم، وتحوى العبارات التالية المأخوذة من الآية رقم (٢٨) من السورة رقم ٤٢[2] بعنوان سورة «الشورى»[3].

وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا

وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ

المبحث السادس

الكتابة الكوفية على الإفريز الذى

يحيط بالحوض من الناحية الشرقية

يجب أن أشير فى البداية إلى ملحوظة تتعلق بالكتابات الأربع المسجلة على

---

(١) انظر فيما سبق، وانظر أيضاً الكتابات والأبجديات اللوحة ١ سطر ٧ رقم ١١ وسطر ٨ رقم ١٢.

(٢) هى سورة مكية تحوى ٥٣ آية، وتبدأ بخمسة أحرف مبهمة هى (حم)، (عسق)، وقد حاول العديد من المفسرين الوصول إلى مدلول هذه الأحرف.

(٣) انظر الكتابات والأبجديات اللوحة ٢ السطر الأول رقم ١٣، والسطر الثاني رقم ١٤.

الإفريز الذى يحيط بحوض المقياس، وهى أن هذه الكتابات تتصل بعضها ببعض دون مسافات بينية ودون انقطاع، حتى أننا نجد أن معنى إحدى العبارات لا يكتمل مع نهاية آخر كلمة موجودة على الجانب الذى كتبت عليه هذه العبارة، وحتى يبدو المعنى كاملاً لابد من قراءة الكلمة الموجودة فى أول الجانب التالى من الإفريز.

وحيث إننى لا أستطيع عرض الجمل ناقصة بهذا الشكل وخالية من المعنى فيما سأقدمه هنا من نصوص وترجمات، فقد قررت إتمام هذه الجمل وكتابة ترجمتها الفرنسية، أما فيما يتعلق بالكلمات التى لا توجد على نفس الجانب الذى كتبت عليه هذه الجمل والعبارات، فقد استخدمت الكتابة بالخط المائل لتحديدها.

تنتمى كتابتان فقط من كتابات هذا الإفريز إلى العصر الثانى كما ذكرت من قبل، وتوجد الكتابة الأولى فى الناحية الشرقية، وتبدأ عند الزاوية اليمنى لأولى درجات السلم مباشرة، حيث نجد فى البداية العبارة المقدسة عند المسلمين والتى توجد على رأس كل سور القرآن وكل النصوص العربية سواء القديمة أو الحديثة[١] وهى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ثم بعد ذلك نقرأ بداية الآية رقم ٣٢ من السورة القرآنية الرابعة عشرة[٢] بعنوان سورة «إبراهيم»[٣]:

ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ
وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ
وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ[٤]

---

(١) انظر الكتابات والأبجديات، اللوحة ٢ رقم ١٥.

(٢) هى سورة إبراهيم عليه السلام، وهى سورة مكية تضم ٥٢ آية وتتحدث عن موسى وإبراهيم عليهما السلام، وقد أصدر يوهان نيسليوس طبعة خاصة بهذه السورة، أما هينكلمان ورينسيوس فقد قسما الآيات بطريقة مختلفة.

(٣) انظر الكتابات والأبجديات اللوحة ٢ الأرقام ١٦، ١٧، ١٨.

(٤) إن الكلمات التالية تمثل جزءًا من النقش الموجود على الإفريز من الناحية الشمالية.

المبحث السابع
الكتابة الكوفية على الإفريز
من الناحية الشمالية

تستمر الكتابة الثانية على الناحية الشمالية من الإفريز بدون انقطاع، وتحوى فى البداية ثلاث الكلمات التالية التى تتمم معنى الآية الأخيرة من الكتابة السابقة(١):

فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ

ثم بعد ذلك نقرأ العبارات التالية، التى تمثل تكملة الآيتين رقمى ٣٣، ٣٤(*) من السورة الرابعة عشرة من سور القرآن، حيث إن الكتابة السابقة تحوى بدايتها(٢):

وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ

وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ

وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ

وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ

وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا

إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ(٣)

---

(١) انظر الكتابات والأبجديات اللوحة ٢ رقم ١٩.

* السطر الأول هو تتمة الآية رقم ٣٢ . (المترجم).

(٢) نفسه، اللوحة ٢ رقمى ٢٠، ٢١، واللوحة ٣ الأرقام ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥.

(٣) إن الكلمة العربية التى تكمل هذه الآية توجد فى بداية الكتابة التالية على الناحية الغربية للإفريز.

الفصل الثالث

كتابات العصر الثالث

إن الكتابتين التاليتين مباشرة للكتابتين السابقتين على الإفريز من الناحيتين الغربية والجنوبية يشوبهما قلة العناية وتشيران إلى أن يد الفنان غير دقيقة، وبصفة عامة فهما تفتقران لأناقة الخطوط، ولهذا فلم أتردد مطلقًا فى الاعتقاد بأن هاتين الكتابتين ينتميان لعصر لاحق، أى إلى العصر الثالث للمقياس.

المبحث الأول

الكتابة الكوفية على الإفريز المحيط بالحوض من الناحية الغربية

تُستكمل الكتابة التالية على الإفريز بدون انقطاع على الواجهة الغربية، وتشمل فى البداية الكلمة الأخيرة من الآية السابقة لتكمل معناها(١):

كُفَّارٌ

ثم بعد ذلك نقرأ العبارات التالية التى كتبت بدون انقطاع أو مسافات بينية،

---

(١) انظر الكتابات والأبجديات، اللوحة ٢ رقم ٢٦.

والتى تمثل الآية رقم ١٠ من السورة [١] القرآنية السادسة عشرة وهى سورة النحل[٢]:

هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ

مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ

ثم نقرأ بعد ذلك العبارات التالية التى تمثل بداية الآية رقم ١١ من نفس السورة[٣]:

يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ

وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً[٤]

المبحث الثانى

الكتابة الكوفية على الإفريز من الناحية الجنوبية

وأخيرًا نجد أن الكتابة الرابعة تكمل الإفريز بالكامل لتغطى الناحية الجنوبية منه، وتنتهى عند درجات السلم الأول. وتحوى فى البداية الكلمتين التاليتين اللتين تمثلان نهاية الآية رقم ١١ من السورة القرآنية السادسة عشرة، وهما ضروريتان لإتمام معنى الآية الأخيرة فى الكتابة السابقة[٥]:

---

(١) تضم هذه السورة ١٢٨ آية وفقاً لما يقول هينكلمان، و١١٨ فقط وفقاً لما يقول هوتنجر، وهى سورة مكية باستثناء ثلاث الآيات الأخيرة منها، وقد أعطى لها هذا الاسم لأنها تتناول قدرات ومعجزات الله والحيوانات التى خلقها والنحل والعسل.

(٢) أنظر الكتابات والأبجديات اللوحة ٣ رقمى ٢٧، ٢٨.

(٣) انظر الكتابات والأبجديات اللوحة ٣ الأرقام ٢٩، ٣٠، ٣١.

(٤) إن الكلمات التالية تمثل جزءاً من الكتابة الموجودة على الناحية الجنوبية من الإفريز.

(٥) انظر الكتابات والأبجديات اللوحة ٣ رقم ٣٢.

لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ

ثم بعد ذلك نقرأ الجزء الأخير من الآيتين رقمى ٤٨، ٤٩(١) من السورة(٢) رقم ٢٥، وهى سورة «الفرقان»(٣):

وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا

وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا

أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا

وفى النهاية تحوى الكتابة العبارة التالية التى تتمم معناها، والتى ينتهى بها عدد كبير جدًا من النصوص العربية(٤).

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا

المبحث الثالث

الكتابة الكوفية أعلى المدخل الخارجى للقناة

توجد الكتابة الكوفية الأخيرة أعلى الطرف الخارجى للقناة العلوية التى تصل بين مياه النيل وحوض المقياس، كما ذكرنا من قبل، ونقرأ بها نفس الجملة التى

---

(١) توجد هذه العبارة فى نهاية الآية رقم ٥٠ وفقًا لما يقول هينكلمان وفى منتصف الآية رقم ٤٩ وفقًا لطبعة مارسى.

(٢) هى سورة مكية تضم ٧٧ آية، وهى تمجد منزلة القرآن وتتحدث عن اليوم الآخر وأعمال الرسل ومعجزات الله والخلق والعناية الإلهية المقدسة، ويعد الإسلام قارئ هذه السورة بثواب «دخول الجنة بغير نصب».

ترادف كلمة الفرقان - وهى عنوان هذه السورة - كلمة القرآن، وهى مشتقة من الجذر اللغوى «فرق» بمعنى قسم وفصل، وقد أطلق هذا الاسم على القرآن لأنه - وفقًا لما يقول المسلمون - يفرق بين الدين الحقيقى والأديان المغلوطة، ويظهر العقيدة الحقيقية للمؤمنين.

(٣) انظر الكتابات والأبجديات اللوحة ٤ الأرقام ٣٣، ٣٤، ٣٥.

(٤) نفسه. اللوحة ٤ رقم ٣٦.

توجد أعلى المنفذ الداخلى للقناة والتى ذكرت ترجمتها من قبل، ولكنها منقوشة هنا بحروف أكبر حجمًا حتى تستطيع مقاومة احتكاك المياه، الذى يكون قويًا فى هذا المكان من النهر، حيث يتفرع إلى فرعين بالقرب من جزيرة الروضة.

وكما ذكرت من قبل فإن بداية ونهاية النص مغطيان بزافرتين(*) من البناء سيئ الأبعاد غير المتقن ، حيث إنه بلاشك بناء حديث لايتناسب أبدًا مع نسب الهندسة المعمارية للبناء القديم، ولذلك فلم أستطع قراءة كل الكلمات ، وإنما فقط أجزاء منها كالآتى(١):

. . . . . اشا اللهَ لا قوة الّ. . . . . .

(*) الزافرة هى نصف قنطرة تدعم عقد أو جدار . (المترجم).

(١) انظر الكتابات والأبجديات اللوحة الرابعة رقم ٣٧.

الفصل الرابع

كتابات العصر الرابع

المبحث الأول

الكتابات القرمطية فى داخل المقياس

توجد هذه الكتابة - مثلما ذكرت سابقًا - على أحد حوائط الرواق الداخلى الذى يحيط بحوض المقياس، وتحوى ثلاثة عشر سطرًا، وتعد من أهم كتابات هذا المبنى الأثرى، لأنها تشير إلى تاريخ أحد عصور الإنشاء بشكل محدد وأكيد.

وسأقدم هنا أجزاء هذه الكتابة سطرًا سطرًا بالتتابع، مع تقديم ترجمة فرنسية لها.

يضم السطر الأول الصيغة المقدسة التى تبدأ بها كل الكتابات الإسلامية كما أشرت من قبل(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

---

(١) انظر الكتابات والأبجديات، اللوحة ٤ رقم ٣٨.

ويحوى بقية السطر العبارة التالية المأخوذة من نهاية الآية رقم ٨٨ من السورة(١) الحادية عشرة بعنوان سورة «هود» (٢):

وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ

ويتكون السطر الثانى من بداية الآية رقم ١٨ (٣) من السورة (٤) التاسعة بعنوان سورة «التوبة»، والتى تحمل أيضا اسم سورة «براءة» (٥):

إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

وفى الواقع يجب أن أشير إلى أن طبعة القرآن الخاصة بهينكلمان تحمل صيغة الجمع «يعمروا» بدلاً من صيغة المفرد «يعمر» التى نجدها فى هذه الكتابة.

ويحوى السطر الثالث فى البداية تكملة نفس الآية رقم ١٨ (٦).

وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ

ونجد فى هذه السطر - مثل السطر السابق - اختلافًا فى النص القرآنى عما ورد فى طبعة هينكلمان المذكورة أعلاه، فتحمل هذه الطبعة كلمة «الصلوة» بدلاً من كلمة «الصلاة» التى نجدها فى هذه الكتابة، ويصدق القول نفسه على كلمة «الزكوة» التى يقدمها هينكلمان بدلاً من كلمة «الزكاة» التى توجد فى نفس السطر. وفى النهاية نقرأ الكلمة التالية (٧):

---

(١) إن العنوان الكامل لهذه السورة مثلما تشير المقتطفات القرآنية هو «سورة هود عليه السلام»، وهى سورة مكية تحوى ١٢٣ آية.

(٢) انظر الكتابات والأبجديات، اللوحة ٤ رقم ٣٩.

(٣) تحمل هذه الآية رقم ١٩ وفقًا لترجمة رينسيوس.

(٤) هى سورة مدنية تحوى ١٣٠ آية وفقًا كما يقول هينكلمان ورينسيوس، و١٢٩ فقط وفقًا لبعض المخطوطات، و١٢٧ وفقًا لما يذكر هوتنجر، ويجب ملاحظة شىء متفرد يخص هذه السورة وحدها وهو أنها السورة الوحيدة التى لا تبدأ بالعبارة المقدسة «بسم الله الرحمن الرحيم» ويبدو أن هذا السهو قد وقع نتيجة أنها كتبت فى الأصل على أنها تمثل سورة واحدة مع السورة السابقة لها.

(٥) أنظر الكتاب والأبجديات، اللوحة ٤ رقم ٤٠.

(٦) انظر الكتابات والأبجديات اللوحة٤ رقم ٢٠٤ نفسه، رقم ٤٢.

(٧) نفسه، رقم ٤٢.

فـعـسى

وفى الواقع إن هذه الكلمة لا تقدم هنا مطلقًا أى معنى محددًا إذا ما قرأت مفردة، ولكنها تمثل أول كلمة من العبارة التالية التى تتصل بها، ويعد ذلك ضروريًا لإتمام المعنى، ولهذا فلن أقدم لها ترجمة فرنسية هنا، وإنما سوف ألحقها بترجمة العبارة التالية وأشير إليها بأحرف إيطالية مائلة. وفى البداية نقرأ فى السطر الرابع نهاية نفس الآية(١):

أُولَـٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ(٢)

ثم نقرأ فى نهاية نفس السطر العبارة المأخوذة من الآية رقم ١٣ من السورة(٣) الحادية والستين بعنوان سورة «الصف» (٤):

نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ

ويضم السطر الخامس بعد ذلك اسم الحاكم الذى كتبت(٥) هذه العبارة فى عصره:

لعبد الله ووليه معد ابى تميم الامام المُسْتَنْصَر بالله(٦)

كانت كلمة إمام هى اللقب الذى يطلق فيما مضى على الخليفة، أما الآن فإن هذا اللقب يعطى - فى القسطنطينية - لشيوخ بسطاء من المسلمين يشغلون وظائف الإرشاد والخدمة فى المساجد والجوامع، أو حتى من يقومون بإلقاء

---

(١) نفسه، رقم ٤٣ .

(٢) تمثل هذه الكلمات الأربع تكملة لكلمة «فعسى» من السطر السابق.

(٣) هى سورة مدينة وفقًا لطبعة هينكمان ومكية وفقًا لكتاب آخرين، وتحوى ١٤ آية، وقد أعطى لها هذا الاسم لأنها تأمر المؤمنين بأن يحاربوا فى سبيل الله «صفًا».

(٤) انظر الكتابات والأبجديات، اللوحة ٤ رقم ٤٤.

(٥) نفسه، اللوحة ٥ رقم ٤٥.

(٦) تعنى الترجمة الحرفية لهذا الاسم « الذى يستمد النصر من الله».

الخطب الصغيرة على العامة أو فى جلسات خاصة. ونقرأ ببداية السطر السادس أولاً اللقب الشرفى لهذا الحاكم(١). امير المومنين

ثم بعد ذلك بداية عبارة البركة التى ترتبط عادة بأسماء الخلفاء (٢).

صلوات الله عليه وعلى ابايه الطاهرين

ثم تقرأ بداية السطر السابع أولاً نهاية هذه العبارة (٣):

وابنايه الاكرمين

وبعد ذلك تحوى نهاية هذا السطر الغرض من كتابة هذا النص (٤):

مما امر بانشا هذا الجامع المبارك

ثم نقرأ فى بداية السطر الثامن هذه الكلمة (٥):

قبلة

إن هذه الكلمة (٦) ليست شيئا آخر سوى تكملة للجملة السابقة. وتحوى تكملة هذا السطر بعد ذلك بداية الإشارة إلى الوزير الذى أقام هذا الأثر بناء على أوامر الخليفة، وقد كتبت فى البداية كل ألقابه الشرفية العديدة وفقًا لعادة الشرقيين(٧):

السيد الاجل امير الجيوش سيف الاسلام

وينتهى هذا السطر بكلمة (٨):

---

(١) انظر الكتابات والأبجديات، اللوحة ٥ رقم ٤٦.

(٢) نفسه رقم ٤٧.

(٣) (٢) نفسه رقم ٤٨.

(٤) انظر الكتابات والأبجديات، اللوحة ٥ رقم ٤٩.

(٥) نفسه، رقم ٥٠.

(٦) انظر فيما سبق للتعرف على مدلول هذه الكلمة.

(٧) انظر الكتابات والأبجديات ، اللوحة رقم ٥١.

(٨) نفسه رقم ٥٢ .

الامـــام

لا تشير هذه الكلمة إلى أى معنى على الإطلاق إلا بعد إضافة الكلمة الأولى من السطر التالى الذى يتصل بها من ناحية المعنى، ولذلك فسوف أضيف ترجمة هذه الكلمة إلى العبارة التالية، مشيرًا إليها بالأحرف الإيطالية المائلة لأنها تمثل جزءًا من السطر الثامن (١):

نـــاصـــر

وتضم تكملة السطر التاسع بقية ألقاب الشرف (٢):

كافل قضاة (٣) المسلمين وهادى دعاة المومنين

ويوجد اسم الأمير الذى يحمل كل هذه الألقاب البراقة والصفات الشرقية فى نهاية هذا السطر وبداية السطر الذى يليه، أما الكلمة التى يختتم بها السطر التاسع فهى كلمة (٤):

ابـــو

ولإتمام المعنى يجب أن ترتبط هذه الكلمة بأولى كلمات السطر التالى، وسوف أشير إليها بالاحرف الإيطالية المائلة فى الترجمة (٥):

نجم

ويأتى بعد ذلك لقب شرفى جديد (٦):

---

(١) نفسه، رقم ٥٣.

(٢) انظر الكتابات والأبجديات، اللوحة ٥ رقم ٥٤.

(٣) قضاة هى جمع «قاض»، ونجد أن القضاة عند الشرقيين يحكمون فى الأمور المدنية والجنائية وأحيانًا أيضًا القضايا التى تتعلق بالدين، ولكل مدينة من مدن مصر القاضى الخاص بها، ويحمل قاض القاهرة لقب «قاضى عسكر» وهو مرسل من القسطنطينية مباشرة، ويتم تعينه باختيار السلطان. ويلقب كبير القضاة أحيانًا بقاضى القضاة، وقد أعطى هذا اللقب للمرة الأولى إلى الشيخ أبى يوسف فى عهد الخليفة المأمون.

(٤) انظر الكتابات والأبجديات، اللوحة ٥ رقم ٥٥.

(٥) نفسه، رقم ٥٦.

(٦) نفسه ، رقم ٥٧.

بـدر المستنصريــــن

وتشمل نهاية هذا السطر وكل السطر التالى وأول كلمة من السطر الذى يأتى بعده مباشرة ألقابًا مباركة وأمنيات لهذا الأمير (١):

عضد الله به الديــن وامتـع

بطول بقايه اميرالمومنين وادام قدرته اعلى

كلمـته

ويوجد فى نهاية السطر الثانى عشر تاريخ إنشاء هذا الأثر وتاريخ كتابة النص (٢):

فى رجب(٣) سنه خمس وثمانين وربع مايه

ويوجد فى هذا التاريخ خطأ إملائى، حيث يحمل النص كلمة «ربع» بدلاً من كلمة «أربع» التى تلزم المعنى هنا.

وفى بداية السطر الآخر نقرأ العبارة التالية التى نجدها عادة فى نهاية كتابات المسلمين(٤):

وَالْحَمْـد لِلهِ رَبِّ الْعَــالَمِـينَ

تمثل هذه العبارة الآية الأولى من السورة(٥) الأولى من سور القرآن الكريم وهى سورة «الفاتحة» ويجب ملاحظة أننا نقرأ فى هذا النص كلمة «لله» بدلاً من

---

(١) نفسه، الأرقام ٥٨، ٥٩، ٦٠.

(٢) انظر الكتابات والأبجديات ، اللوحة ٥ رقم ٦١.

(٣) يحوى شهر رجب ثلاثين يومًا وهو الشهر السابع من السنة القمرية عند المسلمين.

(٤) انظر الكتابات والأبجديات، اللوحة ٦ رقم ٦٢.

(٥) هى سورة مكية تحوى ٧ آيات، ويحمل المسلمون لها تقديرًا خاصًا ويعتبرونها سورة التسبيح والصلاة، وعلى الرغم من أنها قد وضعت فى بداية القرآن، فلم تكن أول سورة أنزلت على الرسول وفقًا للترتيب الزمنى.

كلمة «لله» التى يتطلبها المعنى هنا، إلا أن هذا الخطأ يرجع إلى جهل الفنان. وينتهى هذا السطر بعبارة التحية المعتادة التى تظهر بهذه الكلمات[١]:

وصلى الله على محمد واله الطاهرين

وهكذا وبعد أن تناولنا هذا النص بالتحليل سطرًا سطرًا وكلمة كلمة، وأضفنا الترجمة باللغة الفرنسية، فسوف أقدم هنا النص الكامل بالأحرف العربية الحديثة، مصحوبًا بالترجمة الكاملة باللغة الفرنسية، وذلك حتى أقدم المعنى بصورة أفضل، حيث إن الترجمة الجزئية على الرغم من دقتها سوف تؤدى إلى ضياع المعنى الكلى:

* بسم الله الرحمن الرحيم * وما توفيقى الآ بالله *
انما نعتمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الاخر
واقام الصلاة واتى الزكاة ولم يخش الا الله فعسى
اولئك ان يكونوا من المهتدين * نصر من الله وفتح قريب
لعبد الله ووليه معد ابى تميم الامام المستنصر بالله
امير المومنين صلوات الله عليه وعلى ابايه الطاهرين
وابنايه الاكرمين * مما آمر با نشا هذا الجامع المبارك
قبلة السيد الاجل امير الجيوش سيف الاسلام ناصر
الامام كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المومنين ابو
النجم بدر المستنصرين عضد الله به الدين وامتع
بطول بقايه امير المومنين وادام قدرته واعلى
كلمته * فى رجب سنه خمس وثمانين وربع مايه *
* والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطاهرين *

---

(١) انظر الكتابات والأبجديات، اللوحة ٦ رقم ٦٣.

(*) وردت فى النص «نعمّر» والصواب «يعمر» (المترجم).

المبحث الثانى

الكتابة القرمطية على الباب الكبير بمسجد المقياس

ترجع الكتابة الثانية إلى العصر الرابع ونجد أنها - مثلما ذكرت من قبل - تمثل نفس النص المنقوش على بلاطة من الحجر فوق الباب الرئيسى لمسجد المقياس. ويتميز هذا النقش القرمطى برشاقة الخطوط أكثر من النقوش الموجودة بالرواق الداخلى للمقياس، ويشمل نفس النص الذى انتهينا توًا من تحليله وترجمته، وعلى الرغم من ذلك توجد به بعض الاختلافات البسيطة التى سوف أشير إليها هنا.

بداية يشمل السطر الأول بعد عبارة «وما توفيقى إلابالله» العبارة التالية[١].

علـيه توكلــت

ولا يظهـر بالسطرين التـاليـين أية - اختـلافـات اللهم إلا فى ترتيب مقـاطع الكلمات التى توجد بهما - أما ثلاثة الأسطر التالية فلا يوجد بها أى تغيير أو اختـلاف فى مقـاطع الكلمـات. ولا يحوى السـطر السابع - مثل النقش السـابق - كلمة «مما» والتى لا تحمل أهمية خاصة فى معنى النص.

وكذا لا يحوى السطر الثامن أية اختلافات، ونقرأ بالأسطر الثلاثة التالية له اختلافا فى مقاطع الكلمات التى تحويها.

ولا نجد فى السطر الثانى عشـر الذى يحـوى نفس التـاريخ الموجـود بـالنقش السـابق، الخطأ الامـلائى الذى أشـرت إليه من قبل، والذى كتبت فيه كلمـة «ربع» بدلاً من كلمة «أربع»[٢]

ويضيف السطر الأخيـر بعد عبـارة «صلى الله على محمد» مباشـرة اللقب الشرفى [٣] .

---

(١) أنظر الكتابات والأبجديات، اللوحة ٦ رقم ٦٤.

(٢) نفسه، رقم ٦٥.

(٣) نفسه، رقم ٦٦.

خاتـم النبيين ﷺ(١)

وبعد أن قمت بالإشارة إلى هذه الاختلافا ت سوف اقدم هنا النص الكامل بالأحرف الحديثة:

بســم الله الرحمن الرحيم * وما توفيقى الا باالله عليه توكلت *
انما تعمر مساجد الله من آمن باالله واليوم الاخر واقام
الصلاة واتى الزكاة ولم يخش الا الله فعسى
اوليك ان يكونوا من المهتدين * نصر من الله وفتح قريب
لعبد الله ووليه معد ابى تميم الامام المستنصر باالله
امير(*) المومنين صلوات الله عليه وعلى ابايه الطاهرين

وابنايه الاكرمين * امر بانشا هذا الجامع المبارك
قبلة السيد الاجل امير الجيوش سيف الاسلام
ناصر الامام كافل قضاة المسلمين وهادى دعاه
المومنين ابو النجم بدر المستنصرين عضد الله به الدين
وامتع بطول بقايه امير المومنين وادام قدرته واعلى
كلمته * فى رجب سنة خمس وثمانين واربع مايه
والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد خاتم النبيين *

المبحث الثالث

الكتابة القرمطية على الجدار الغربى لمسجد المقياس

إن النص الثالث الذى ينتمى للعصر الرابع للمقياس هو ذلك الذى يوجد - كما

---

(١) «نبى» لا يعطى المسلمون هذا اللقب إلى محمد (ﷺ) فقط ولكن إلى غيره من الأنبياء مثل آدم وادريس ونوح وهود وصالح وإبراهيم وإسحاق وإسماعيل ويوسف.. إلخ، بينما يميزون النبى محمدًا بلقب «خاتم النبيين».

(*) الصواب «يعمر» (المترجم).

رأينا من قبل - منقوشًا على الواجهة الخارجية لجدار مسجد المقياس من الناحية الغربية. ويحوى هذا النص - الذى كتب أيضًا بالأحرف القرمطية - نفس المضمون الذى يحويه النقش الأول، إلا أنه يضم بعض الاختلافات التى تغاير الاختلافات التى فسرتها فى النقش الثانى، وسوف أشير إليها هنا.

فى البداية نجد فى نهاية السطر الأول من هذا النقش - مثله مثل نقش باب المسجد - نفس الكلمات[١] التى قدمتها من قبل وأعطيت لها ترجمة باللغة الفرنسية، ولكننا نجدها هنا بعدة تغيرات فى شكل الحروف ومواضعها.

وللسطور السبعة التالية نفس الترتيب، وتظهر الكلمات بنفس المقاطع التى ظهرت بها فى النقش الأولى، ولا توجد بها أية اختلافات سوى فى أشكال الأحرف، ونجد فى السطر السابع من هذا النقش كلمة[٢]:

مهـــا

التى وجدناها فى النقش الأول، وكانت تنقص النقش الثانى. ولا نجد بثلاثة الأسطر التالية إلا اختلافات طفيفة مع النقش الأول فيما يتعلق بترتيب ومقاطع الكلمات التى تحويها.

أما بالنسبة للسطر الثانى عشر فهو صحيح من الناحية اللغوية مثلما هو الحال فى النقش الثانى، فهو يقدم الكلمة كاملة[٣]، تلك التى رأيناها ناقصة ومحورة فى النقش القرمطى الأول، ويبدو أن هذا الخطأ لا يرجع لشىء آخر سوى لعدم دقة الفنان، فلا يمكن بأى حال من الأحوال أن ننظر إلى هذا الخطأ على أنه اختلاف أو تنوع فى الكتابة.

وعلاوة على ذلك فإن هذا السطر مثله مثل السطر الذى يليه يقدم ترتيبًا

---

(١) انظر الكتابات والأبجديات، اللوحة ٦ رقم ٦٧.

(٢) انظر الكتابات والأبجديات، اللوحة ٦ رقم ٦٨.

(٣) نفسه، رقمى ٦٩، ٧٠.

مختلفاً فيما يتعلق بمقاطع الكلمات التى تكونه . عن ذلك الترتيب الذى نلاحظه فى النقشين السابقين.

ويضيف هذا النقش الأخير بعد الثناء على النبى محمد ليس فقط ألقابه الشرفية(١)، التى توجد فى النقش الثانى ، وإنما أيضًا كلمات مختلفة عن العبارة التى ينتهى بها النقش الأول، وهى كالتالى(٢):

وعلى اهل بيته الطاهــرين

وسوف أقدم هنا النص بالكامل مكتوبًا بالأحرف الحديثة:

بسم الله الرحمن الرحيم * وماتوفيقى الا بالله وعليه توكلت *
انما نعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الاخر واقام
الصلاة واتىَ الزكاة ولم يخشَ الاّ الله فعسى اوليك أن
يكونوا من المهتدين * نصرٌ من اللّه وفتح قريب
لعبد الله ووليه معد ابى تميم الامام المستنصر باللّه
امير المومنين صلوات الله عليه و على ابايه الطاهرين *
وابنايه الاكرمين مما آمر بانشا هذا الجامع المبارك
قبلة السيد الاجل امير الجيوش سيف الاسلام ناصر
الامام كافل قضاة المسلمين وهادى دعاه المومنين
ابو النجم بدر المستنصرين عضد الله به الدين وامتع
بطول بقايه امير المومنين وادام قدرته واعلى كلمته *
فى رجب سنة خمس و ثمانين واربع ماية * والحمد لله ربّ
العالمين وصلى الله على محمد خاتم النبيين وعلى اهل بيته
الطاهرين *

---

(١) نفسه، رقم ٧١.

(٢) نفسه، رقم ٧٢.

الفصل الخامس

كتابات العصر الخامس

ينسب إلى العصر الخامس للمقياس نقشان: يوجد الأول منهما على الدعامة العلوية الموضوعة فوق تاج عمود مقياس النيل، لكى تثبت العمود فى منتصف الحوض، وتستند بدورها على واجهتين من واجهاته، أما النقش الثانى فكان يوجد فيما سبق أعلى الباب الرئيسى للمقياس.

المبحث الأول

كتابات بخط الثلث على الدعامة العلوية

مثلما لاحظنا من قبل يبدو أنه فى فترة قريبة من إعادة بناء المقياس على يد الحاكم المذكور فى النقوش السابقة، لم يكن هناك أية إصلاحات هامة لهذا البناء، ولم نجد أيضًا أى نقش لاحق فيما عدا ذلك النقش الموجود على الدعامة العلوية، وقد كتب بأحرف عربية حديثة تسمى «الثلث»، وهى شائعة الاستخدام عند العرب والأتراك، ويحمل النقش تاريخًا لعام ٢٤٧ هـ - ٨٦١م، وعلى الرغم من ذلك فيبدو أنه قد أعيدت كتابته عدة مرات مع الاحتفاظ بنفس التاريخ، ولايبدو أن آخر مرة كتب فيها ترجع إلى فترة أكثر بكثير من نصف قرن.

وفى الواقع فإن هذا النقش يرجع إلى عام ١١٨٠ هـ - ١٧٦٦م، ليشير إلى الجهود التى بذلها حمزة باشا قائم مقام القاهرة.

ويحوى النقش آية الكرسى، وهى الآية رقم ٢٥٥ من السورة[1] الثانية من سور القرآن وتسمى سورة «البقرة».

وهذا هو النص، ويمكننا أن نقرأ بدايته على الواجهة الجنوبية

الله لا اله الا هو الحى القيوم

لا تاخذه سنة ولا نوم

له ما فى السموات وما فى الارض

من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه

يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم

وتوجد تكملة النقش على الواجهة الشمالية حيث نقرأ فى البداية كلمة:

ولا يحيطون بشى من | علمه

إن هذه الكلمة ضرورية لإتمام معنى العبارة السابقة، ثم تستكمل الآية كالتالى:

الا بما شا

وسع كرسيه السموات والارض

ولا يوده حفظهما وهو العلى العظيم

(١) هى سورة مدينة تحوى ٢٨٦ آية، وهى أطول سور القرآن.

وصلّى الله على محمّد النبى وعلى آله وسلّم

في جمادى الاخر[١] سنه سبع واربعين ومايتين

المبحث الثانى

نقش عربى قديم من مدخل المقياس

فيما مضى كان يوجد أعلى الباب الرئيسى للمقياس النقش العربى التالى:

دخول هذا المكان شهادة ان
لا اله الا الله ومحمد رسول الله[٢]

لقد حرصت على تقديم هذا النقش هنا لكى أستكمل تمامًا مجموعة النقوش الموجودة بالمقياس والتى ترجع إلى عصوره المختلفة، على الرغم من أن الحجر الذى نقش عليه هذا النص قد سقط وتحطم أو أزيل من مكانه واستبدل بحجر آخر قبل وصولنا إلى مصر، وعلى الرغم من محاولاتى العديدة لم أستطع أن أحصل عليه ولم أجد له أى أثر، ولكنه كان موجودًا فى عام ١٧٣٧ حيث رآه نوردن خلال رحلته إلى القاهرة، كما قدم فى كتابه (٣) نسخة له إلا أنها سيئة التنفيذ وغير دقيقة، ويبدو أنها قد كتبت بيد اعتادت كتابة الأحرف المغربية(٤) أكثر من اعتيادها كتابة الأحرف العربية الجميلة، سواء بخط الثلث(٥) أو النسخ (٦)، ويبدو أن هذا النقش قد كتب بأحدهما.

---

(١) شهر جمادى الآخرة أو جمادى الثانية هو الشهر السادس من السنة القمرية عند المسلمين وعدد أيامه ٢٩ يومًا.

(٢) نعرف أن هذه العبارة مقدسة عند المسلمين، ولذلك نجد عددًا كبيرًا من نصوصهم تحويها، ويوجد عدد محدود من الميداليات الإسلامية لا تضم هذه العبارة. وتتمتع هذه الكلمات بمكانة خاصة فى كل البلدان التى تنتشر فيها العقيدة الإسلامية، حتى أن الزنوج أنفسهم الذين لا يتحدثون اللغة العربية، ينطقون بها باستمرار، وقد وجدنا بعض قطع الأقمشة التى تحمل هذه العبارة عند سان دومنجوس.

(٣) رحلة إلى مصر والنوبة بقلم فردريك لويس نوردان ، قام بنشره ل. لانجليه، باريس، ١٧٩٥.

(٤) انظر دراستى حول النقوش الكوفية التى جمعتها من مصر، وبقية الخطوط الأخرى التى استخدمت فى عمائره العرب.

(٥) انظر رقم ٧ من اللوحة الملحقة بنفس الدراسة.

(٦) نفسه، رقم ٦.

الفصل السادس

كتابات العصر السادس

يبلغ عدد الكتابات التى ترجع إلى العصر السادس أو إلى فترة الإصلاحات التى أجريت بالمقياس على يد الفرنسيين - ثلاث كتابات، يوجد اثنتان منها على طبلية تاج عمود مقياس النيل، وتوجد الثالثة أعلى الباب الرئيسى للمقياس فى نفس المكان الذى كان يشغله النقش العربى الذى يرجع للعصر الخامس، والذى تحدثت عنه من قبل.

المبحث الأول

النصان الفرنسيان - العربيان

على طبلية تاج عمود مقياس النيل

على الواجهتين الشمالية والجنوبية لطبلية تاج العمود الجديدة التى تعلو عمود مقياس النيل سجلنا النقشين التاليين بالقرب من مقياس الأصابع بالذراع الثامنة عشرة كما هو واضح هنا (١).

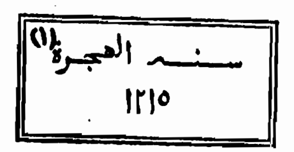
كما سجلنا على الواجهة الغربية لطبلية التاج النقش الفرنسى التالى:

---

(١) انظر الكتابات والأبجديات، اللوحة ٦ رقم ٧٣.

AN IX.
R. P. FR.

بينما زين النقش العربى التالى الواجهة الشرقية:



المبحث الثانى

النصر الفرنسى ـ العربى برواق المقياس

لقد أراد القائد العام «مينو» إجراء إصلاحات بالمقياس فى العام التاسع، مثلما رأينا من قبل، وكانت تتضمن تشييد رواق ذى أعمدة أو فناء صغير خارج مدخل هذا المبنى، وأسفل هذا الرواق وضعنا لوحًا من الرخام الأبيض أعلى الباب الخارجى الرئيسى؛ ونقشنا عليه بالنقش الغائر نصًا مزدوجًا، كتب على التوالى باللغتين الفرنسية والعربية، لكى نسجل الجهود التى بذلت فى إصلاح هذا المبنى الأثرى الجميل.

---

(١) على الرغم من أن أحدًا لا يعرف أن الهجرة هى التاريخ الخاص الذى يؤرخ به المسلمون، وهى البداية التى يبدءون بها حساب الأعوام، فأعتقد أ نه سيكون من المفيد أن أضيف بعض التعليقات التالية: يبدأ هذا التاريخ بهجرة النبى محمد خارج مكة يرافقه أتباعه الجدد لكى يتجنبوا تحرش بنى قريش بهم.

وقد اشتقت كلمة هجرة من الجذر «هجر» بمعنى فارق أو ترك أو غادر عشيرته، ويتوافق العام الهجرى الأول جزئيًا مع عام ٦٢٢م وعام ٦٢٣م، أما التاريخ المحدد لبداية السنة الهجرية فهو يوم الجمعة ٢٦ يوليو عام ٦٢٢م.

وسوف أقدم هنا باللغتين هذا النقش، الذى يحمل فى البداية ختم محمد ابن التيقان، قاضى القاهرة فى ذلك الوقت، كما يضم أيضًا العبارة المقدسة التى ذكرنا من قبل أن المسلمين معتادون على وضعها فى بداية كل كتاباتهم:



* انه بتاريخ سنة تسعة للمشيخة الفرنساوية وسنة الف وميتين وخمسة عشر للهجرة *

* ثلاثين شهر مِنْ بَعْدِ افتتاح مِصرِ مِنْ بونابرته امير الجيوش *

* رَسَم مِنتونَتر العسكر العام المقياس *

* فالنيل وقت الشحايح كانْ قياسه على ثلاثة اذرع وعشرة اصبع في اليوم العاشِر من بعد الاستواء من السَنة الثامنة *

* وابتداء بالزيادة بمِصر في اليوم السّادس عشر من بعد هذا الاستواء بعينه *

* وَعَلى ذراعين وثلاثةِ اصَابع على بَدن العامُود مَاية وَسَبعةِ ايّام مِنْ هذا الاستواء *

* وَبَداء بالنقصان فيِ اليوم الرّابع عشر بعد الهاية مِنْ هذا الاستواء ايضًا *

* فالرىّ عمّ الاراضى

فهذا الغيض الخارج عن العقاد باربعة عشر ذراع وَسَبعة عشر
اصبع الامل به لسنة خيرٍ وافرٍ جدًّا *

* اعلم ان بدن العامود طوله سِتّـةَ عَشر ذراع * .

* والذارع اربعةٍ وخَمْسِين شنتِمِتر وَهذا ينقسم إلى اربعةٍ وعشرين
اصبـع *

يتكون النقش الفرنسى من تسعة أسطر، كتبت فى هذه النسخة بمسافات بينية أكبر مما هى عليه فى الأصل، ويجب أن نلاحظ أن هذا النقش الأول الذى يتماثل تمامًا مع النقش العربى المصاحب والتالى له، لا يحوى ختم القاضى ولا العبارة العربية المقدسة.

ويتكون النقش العربى من خمسة أسطر فقط، تشمل النص بالكامل دون وجود مسافات بينية أو اختلاف فى الجمل التى تكونه.

ولكى تصبح المقارنة التى سوف يجريها القارئ بين النصين الفرنسى والعربى أكثر سهولة، فقد حرصت على أن أقدم الجمل مخطوطة بنفس الطريقة فى النصين اللذين قدمتهما هنا.

الجزء الخامس

الفصل الأول

علم قراءة الكتابات الكوفية القديمة

حتى نستطيع أن نستمد من النقوش الكوفية الموجودة بالمقياس نقشًا باليوغرافى، عن طريق تمييز الأشكال المتعددة شائعة الاستخدام فى الكتابات الكوفية طوال العصور التى استخدمت فيها هذه الكتابة، ونستطيع من خلال هذا النقش نفسه تحديد تاريخ الكتابات ذات النوع الواحد بسهولة، حتى إذا لم يكن هذا التاريخ مسجلاً على النصوص، فلقد رأيت أن أضيف هنا ثلاثة حروف من هذه الأبجدية يمكن أن تكون ذات فائدة كبيرة، لأننى سوف أضمها إلى الأشكال الكوفية المتعددة التى استخدمت فى الكتابات بشكل خاص، والتى تنتمى - فى رأيى - إلى ثلاثة العصور الأولى للمقياس(١).

ولن أقوم هنا بتكرار الاعتبارات العامة التى تخص ذلك النوع من الكتابة، أو التفاصيل التاريخية التى تناولتها من قبل عند نشر دراستى حول النقوش الكوفية التى جمعتها من مصر والخطوط الأخرى التى استخدمت فى عمائر العرب، ولكنى أرى أنه من الضرورى ذكر بعض الملاحظات المبدئية قبل عرض هذه

---

(١) انظر فيما سبق الجزء الذى يتعلق بالعصور : الأولى والثانى والثالث للمقياس والكتابات التى تنتمى إليها

الأبجدية، التى ستكون ما يشبه الملحق، وتمثل إضافة هامة لما ذكرته سابقًا فى دراستى تلك، التى أحيل القارئ إليها.

المبحث الأول
تطابق الأبجدية الكوفية
مع أبجدية اللغات الشرقية الأخرى

لا يختلف الترتيب الطبيعى لعناصر الأبجدية الكوفية نهائيًا عن الترتيب الذى اتبعه السامريون(١) وقدامى العبرانيين ومحدثيهم(٢) والكلدانيون والسوريون، ويبدو أن هذا الترتيب هو نفسه بلاشك ترتيب أبجدية الفينقيين، والذى يتبعه أيضًا ترتيب الحروف اليونانية البدائية والأحرف الكادمية وكذا الأبجدية البالميرية(٣)، وسوف أضيف أيضًا أبجدية الخط المختصر السريع الذى استخدمه المصريون القدماء، والذى رأيناه منقوشًا على حجر رشيد الشهير (٤).

(١) انظر ص١، ص٢ من البحث الذى يوجد فى نهاية الطبعة الاسبانية الرائعة للسالوست.

(٢) إن حروف الأبجدية التى يستخدمها اليهود المحدثون الذين نطلق عليهم لقب حاخامات، ماهى فى الواقع إلا تحوير للحروف العبرية القديمة وحيث نجد الأشكال ذات الزوايا الحادة وقد أصبحت مستديرة الخطوط، وكتبت بشىء من الإهمال، مما يجعل هذه الكتابة أكثر صعوبة فى قراءتها من الكتابة العبرية القديمة، وبالإضافة إلى ذلك فنجد بعض الاختلافات بين الحروف التى يستخدمها يهود ألمانيا وتلك التى يسخدمها يهودًا أسبانيا والبرتغال.

(٣) نحن على دراية جيدة بالابجدية البالميرية، ونعرف أنها تتكون من ٢٢ عنصرًا كما ذكر سان إبييفان فى دراسته حول البدع، ويبدو لنا أن هذه الكاتب كان مقتنعًا بأن اللغة البالميرية لا تختلف عن اللغة السريانية، انظر ص٢٠ من بحث (تأملات فى الأبجدية واللغة التى استخدامها أهل بالمير سابقا) للكتاب القس بارتيلومى، من الأكاديمية الملكية للنقوش والآداب، وكان يعمل حارسًا بخزانة الملك، باريس، ١٧٥٤.

(٤) اكتشف الضابط بوشار حجر رشيد فى مدينة رشيد فى الشهر العاشر من التقويم الجمهورى ـ العام السابع، وكان حينئذ ضابطًا بسلاح الهندسة يبلغ ارتفاع هذا الحجر ثلاث أقدام «٩٧٥ ملليمتر»، بعرض ٢٧ بوصة «٧٣٢ ملليمتر» وسمك ١٠ بوصات ٢٧١=

ولا تختلف حروف الأبجدية الحديثة للغة العربية ذاتها عن هذا الترتيب الطبيعى المتبع فى كل اللغات الشرقية الأخرى، إلا بإضافة ستة أحرف هى: (ث)، (خ) ، (ذ). (ض)، (ظ)، (غ)، حيث أضافها علماء النحو والصرف المحدثون فى

= ملليمتر، وينقسم إلى ثلاثة أجزاء أفقية. وقد تحطم جزء كبير من ثلثه العلوى الذى يحوى ١٤ سطرًا من الكتابة الهيروغليفية، تتجه أشكال ستة أسطر من بينها من اليسار إلى اليمين.

أما بالنسبة للنقش الثانى فهو الأكثر اكتمالاً ويتكون من ٣٢ سطرًا، كتب بأحرف الأبجدية المختصرة السريعة للغة المصرية القديمة فى اتجاه معاكس للنقوش التى تعلوها.

ولقد رأيت مثل هذه الكتابة السريعة على أجزاء من أوراق البردى وبعد خرائط النسيج الكتانى الذى يغلف المومياوات. وبدأ فى ترجمة هذه النصوص السيد المرحوم «راج» صديقى الخاص، والذى أسف أعضاء البعثة المصرية جميعًا على فقدانه.

ويحوى النقش اليونانى الموجود بالجزء السفلى ٥٤ سطرًا، تهشمت بعض أجزاء السطرين الأخرين منها. ومما تجدر ملاحظته - من الناحية الأثرية - أن هذا النص يحوى كلمات لا تمت للغة اليونانية بأى صلة، ولكنها كلمات مصرية ومن هذه الكلمات كلمة «إله» والتى تكتب بالأحرف القبطية الحديثة: فتا، وتضم الكتابة السريعة نفس هذه الكلمة، وبإدماج هذه الكلمات فى النص اليونانى نستطيع أن نحدد العصر الذى اختلطت فيه الكلمات المصرية القديمة مع اليونانية، على الرغم من الجهود التى بذلها بطليموس لاحلال اللغة اليونانية مكان اللغة المصرية، ثم زاد الاختلاط تدريجيًا حتى تكونت اللغة القبطة الحديثة حوالى القرن الرابع الميلادى.

● عندما نقوم بإجراء مقارنة بين اللغة اليونانية وبين أبجديات اللغتين الفينقية والسامرية، نجد أن هناك بعض الأصول المشتركة بينها، ويبدو من المحتمل جدًا أن استخدام أحرف هذه اللغات قد انتقل بالتدريج من الكلدانيين إلى الفينيقيين ثم عبر ساحل البحر المتوسط ليصل إلى كريت والأيسونيين ومنهما إلى اليونان.

والرأى الذى أسسه مونتفوكون الشهير، والذى يبدو مرجحًا للغاية بالنسبة لعدد كبير من علماء الآثار، هو أن الأبجدية التى أدخلها فى الأصل قادماس إلى بلاد اليونان تتكون من ستة عشر حرفًا فقط كالآتى:

Α Β Γ Δ Ε Ι Κ Λ Μ Ν Ο Π Ρ Σ Τ Υ,

ونجد ترتيبها وقيمها تتوافق فى مجملها سواء من ناحية النطق أو العدد مع الأبجدية الفينيقية وأبجدية اللغات الشرقية الأخرى.

وقت لاحق، ولم تختلف هذه الأحرف الجديدة عن الأحرف: (ت)، (ح)، (د) (ص)، (ط)، (ع)، الا بإضافة النقاط إليها، وهو اختلاف لا يمتد به مطلقًا فى الكتابة الكوفية، حيث لم تقبل أحرفها أى نقاط مثلما ذكرت من قبل.

ونجد أنفسنا مجبرين على اتباع هذا الترتيب القديم عند استخدام الأبجدية الحديثة، وذلك للتوفيق بين القيمة الرقمية للحروف العربية والقيمة التى كانت تتمتع بها منذ القدم، والتى لم تتبع التغيير اللاحق الذى طرأ على الأبجدية، فإن تلك القيمة تتماثل تمامًا مع الحروف أحادية التركيب فى اللغة العبرية، وبنظرة واحدة إلى الأبجدية العربية الحديثة نستطيع أن نفترض أن الترتيب الحالى الذى وضعه علماء الصرف والنحو المحدثون لتسلسل الحروف ـ كان يهدف إلى تجميع الأحرف ذات الشكل الواحد فى مجموعة واحدة، مغايرين بذلك الترتيب الطبيعى للأبجدية القديمة.

وإذا كانت لدينا معرفة محددة ودقيقة بنطق الأحرف العبرية القديمة لاستطعنا بلاشك أن نحدد السبب الذى حمل العرب على إضافة ستة أحرف لتدمج مع أحرف الأبجدية القديمة، حيث يمكننا أن نفترض أن العبرانيين كانوا ينطقون حرف «تو» أحيانًا مثل حرف «ت» وأحيانًا أخرى نطقًا وسطًا بين «ت» و «TH» عند الإنجليز أو (Θ) عند اليونانيين و «ث» عند العرب، كما كانوا ينطقون الحرف «حث» بطريقة جافة وحلقية وبملء النفس، بينما ينطقونه فى كلمات أخرى مثل حرف «خ» فى اللغة العربية أو «X» فى اللغة اليونانية..... إلخ.

.كما أننا نجد فى الأبجدية المستخدمة حاليًا وضع نقطة تغير نطق الحرف تمامًا فى حالة وضعها على اليمين أو على اليسار فيمكن أن يكون الحرف «ش» أو «س»، على الرغم من أن العبرانيين لم يضعوا نفس التمييز فيما يتعلق بحروف لغتهم الأخرى التى توافق الحروف العربية التى ذكرتها منذ قليل، إلا أن هذا لا يمنعنا مطلقًا من أن نفترض أن تلك الأحرف قد استمرت فى الاستخدام فى النطق الشائع، مما جعل العرب يسمحون باستخدامها فى أبجديتهم الحديثة.

وربما أيضًا كان الامتداد الشاسع للبلدان التى تتحدث اللغة العربية ولهجاتها المختلفة، هو الذى أدى إلى ادخال حروف إضافية كانت ضرورية للحصول على نطق بعض الأصوات، وربما نفترض لذلك عدم وجودها فى اللغة العربية القديمة، وبالتالى فقد أدخلت لتتلائم مع نطق شعوب كل دولة انتشرت بها هذه اللغة تدريجيًا.

وإذا ما نظرنا بعمق فى اللغة العربية ذاتها سنجد أنها تحوى اللهجة المغربية أو المورسكية التى ينفرد بها شعوب بلاد البربر أو موريتانيا القديمة، والتى تبدأ من حدود مصر حتى أطراف المملكة المغربية، حيث تتغير علامتان من علامات الأبجدية العربية: فتجد حرف الفاء بنقطة أسفلها (ڢ)، وليس فوقها كما هو معتاد، فى حين يستخدمون هذا الحرف «ف» للتعبير عن حرف القاف، الذى تجد أن بقية الشعوب العربية تستخدمه بهذا الشكل «ق»، وربما لا يمثل هذا الاختلاف شيئًا هامًا، حيث إن النطق واحد عند جميع الشعوب التى تتحدث باللغة العربية على الرغم من اختلاف وضع النقاط.

وربما وجد سبب أكبر فيما بعد، وهو أن العرب لما فتحوا البلدان الشرقية العديدة بأسلحتهم المنتصرة وجعلوا شعوبها تتخذ من اللغة العربية لغة للحديث والكتابة فى نفس الوقت، مثلما جعلوهم يدينون بديانتهم لم يجدوا بين عناصر هذه اللغة ما يكفى من الأحرف للتعبير عن الأصوات الغريبة عن اللغة العربية، والتى كانت شائعة فى بعض هذه البلدان، وبالتالى قرر أهلها إضافة النقاط لبعض الحروف لتكوين حروف جديدة ضرورية بالنسبة لهم. ومن هذا المنطلق وضع أهل فارس ثلاث نقاط تحت حرفى «ب» و «ج» لتكوين حرفين جديدين هما «پ» و «چ»، كما وضعوا ثلاث نقاط فوق الحرفين «ز» و «ك» ليصبحا «ژ» وتنطق مثل حرف (J) و (ڭ) وتنطق «جيف»، وهو مالا نصادفه فى اللغة العربية[١] وكذا فعل الهندوس حينما استعاروا من الفرس هذه التغييرات.

(٦) انظر الكتاب الرائع الذى يحمل عنوان «كتاب شكرستان درنحوى زبان پارسى تصنيف يونس أو كسفردى»، ويتناول النحو والصرف الفارسى، وهو مترجم من النسخة الإنجليزية للسيد جونز الذى يعمل ضمن هيئة التدريس فى جامعة أوكسفورد، وعضو المعهد الملكى بلندن وكوبنهاجن، لندن ١٧٧٢.

كما أدخل الأتراك فى الأبجدية العربية التى استخدموها أحرف «پ» و «چ» و «ژ» التى ابتكرها الفرس، وأطلقوا عليها الأحرف العجمية أو الفارسية أو الغريبة، أما بالنسبة للحرف «ڭ» و الذى ميزوه أيضًا بنفس الصفة السابقة مثله مثل ثلاثة الأحرف التى ذكرتها للتو، و نطقوه مثلما نطقه الفرس فكانوا يفضلون أن يكتبوه مثل حرف «ك» البسيط عند العرب بدون إضافة أية نقاط، وقد احتفظوا بهذا الحرف لتكوين حرف جديد هو حرف «صاغيرنون» حيث وجدوا أن هذا الحرف ضرورى بالنسبة للنطق فى لغتهم، ولم يكن موجودًا بهذه الكيفية فى اللغتين العربية والفارسية[١] .

كما قام الماليزيون أيضًا بإضافة تجديدات للأبجدية العربية التى استخدموها، وفى البداية استعاروا من الفرس حرف «چ» الذي نطقوه «چا»، ثم أضافوا أربعة حروف أخرى وذلك بوضع ثلاث نقاط أعلى أو أسفل الأحرف العربية التالية: «ع»، «ف»، «ك»، «ى» فأصبحت: «ڠ» «نجا»، «ڤ» «با»، «ڮ» «جا»، «ى» «نيا»، وذلك كله للتعبير عن أصوات ينفردون بنطقها.

كما استخدام سكان جزيرة جاوة الأبجدية العربية ولكن بإدخال التغيرات التى أضافها الماليزيون.

وقد حصلت على مخطوطة[٢] مثيرة جدًا عن لغة أهل مدغشقر [٣]، تثبت أنهم اتبعوا نفس الطريقة بالنسبة لإدخال تعديلات على اللغة العربية التى

---

(١) انظر ص٨، ص٩ فى كتاب «علم النحو والصرف التركى أو الطريقة السهلة والموجزة لتعلم اللغة التركية، القسطنطينية، ١٧٣٠، والذى يتناول عناصر اللغة التركية أو الجدول التحليلى للغة التركية المستخدمة وتطوراتها، للكاتب فيجييه المدير البابوى لمدارس الطائفة الإرسالية بالمشرق، القسطنطينية، مطبعة قصر فرنسا. ١٧٩٠.

(٢) إن حجم هذا المخطوط (٥)، وقد كتب على القشرة الداخلية لأحد النباتات، ويحوى أجزاء من القرآن مع بعض الصلوات على الرسول (ﷺ) وكذلك بعض الرسوم السحرية التى يستخدمها شيوخ مدغشقر.

(٣) إن المدغشقريين هم مكان جزيرة مدغشقر، ولد طبعنا فى فرنسا موجزًا عن مفردات لغتهم.

استخدموها كما حصلت أيضًا على مخطوطات للغات مستخدمة فى الهند، ووجدت أنهم يضيفون إلى الأبجدية العربية نقاطًا يصل عددها أحيانًا إلى أربع.

وهكذا أعتقد أن تلك الأمثلة كافية لنعرف كم كان سهلاً إدخال أحرف جديدة ابتكرها علماء الصرف والنحو العرب على الأبجدية العربية القديمة، وكما ذكرت من قبل فإن أحرف هذه الأبجدية ليست شيئًا آخر سوى الأحرف الكوفية نفسها. ولم تحتل الحروف المضافة مكانتها دفعة واحدة فى الأبجدية الحديثة بمجرد ابتكارها ولكنها اعتبرت فى البداية على أنها إضافات، فوضعت فى نهاية الابجدية القديمة ببساطة ولم تغير ترتيب الأحرف مطلقًا، ويمكننا أن نعتبرها وكأنها دليل يشير إلى الكلمات المبتكرة التى يستخدمها علماء الصرف والنحو العرب فى القراءة لطلابهم سواء قديمًا أو حديثًا، وتحوى تلك الكلمات بدقة الترتيب الوسط بين الترتيب القديم والترتيب الحديث لأحرف الأبجدية العربية.

ولتأكيد المعنى الذى أشرت إليه سأقدم للقارئ هنا هذه الكلمات الفنية التى تستخدم لتذكير المعلمين والطلاب لترتيب الأحرف الأبجدية.

• ابجد • هوز • حطي •

• كلمن • سعفص • قرشت •

وتحوى هذه الكلمات اثنين وعشرين حرفًا هى كل حروف الأبجدية القديمة، وهى نفسها الأبجدية الكوفية، ثم أضاف علماء اللغة فيما بعد حروفًا إضافية مجتمعة فى الكلمتين التاليتين لتكتمل بذلك حروف الأبجدية الحديثة وتصبح ٢٨ حرفاً:

• ثخذ • ضظغ •

وتشمل الأبجدية المغربية أو المورسكية فى بعض أشكال أحرفها طابع الكتابة الكوفية والترتيب الهجائى القديم مع اختلافات بسيطة فى بعض الكلمات الفنية التى يستعين بها المعلمون حين يقومون بالتدريس لطلابهم.

وقد تناولت هذه الأبجدية بمزيد من التفاصيل فى سياق دراستى عن النقوش الكوفية والخطوط الأخرى المستخدمة فى عمائر العرب، والتى أحيل القارئ إليها

ثانية، وسأكتفى هنا بذكر الكلمات الفنية اللغوية تبعًا للترتيب المغربى، وفقًا لعلم النحو والصرف الخاص بالسيد «دومباى» الذى ذكرته من قبل.

* ابجد * هوز * حطى * كلمن *

* سعفص * قرشت * ثخذ *

* ظغش *

وسوف يقدم الجدول التالى التطابق الدقيق الموجود بين الأبجدية الكوفية وأبجدية اللغات الشرقية الأخرى التى تحدثت عنها منذ قليل فى مقدمة هذا الجزء، ويكون ذلك التطابق فيما يتعلق بالترتيب أو القيم الأبجدية والعددية، ثم أضفت الأبجدية العربية الحديثة إليها بعدما خلصتها من حروفها الإضافية الستة، وبهذا رجعت إلى الترتيب الطبيعى وأصبحت متناسقة تمامًا مع الأبجديات الأربع الأخرى فى قيمها المختلفة(*).

المبحث الثانى

الأبجدية المقارنة للأحرف الفينقية والسامرية واليونانية واليونانى. المصرية والباليرية والعبرانية. الكلدانية والسريانية والعربية الحديثة والكوفية (١)

المبحث الثالث

تطابق الأبجدية الكوفية مع أبجدية الإسترانجلو

إن الرأى الذى استقر عليه معظم الباحثين - كما ذكرت من قبل (٢) هو أن أحرف الكتابة الكوفية قد اشتقت من الأحرف المسماة «استرانجلو» الخاصة

(*) لم يقدم الكاتب هذا الجدول فى الدراسة. (المترجم).

(١) انظر الكتابات والأجديات اللوحتين ٧، ٨.

(٢) انظر دراستى عن النقوش الكوفية التى جمعتها من مصر، والخطوط الأخرى المستخدمة فى عمائر العرب.

بالسريانيين القدماء، والتى تبتعد كثيرًا - بسبب أشكالها المربعة وخطوطها المستديرة - عن الأحرف السريانية الحديثة التى تتميز باستدارة خطوطها، وتقترب كثيرًا من الطابع الكوفى. وسوف أضيف هنا أبجدية مقارنة لأشكال الأحرف التى تكون الأبجديتين.

الأبجدية المقارنة للأحرف الاسترانجلو والكوفية (١).

المبحث الرابع

الأبجدية الكوفية فى كتابات

العصر الأول للمقياس (٢)

المبحث الخامس

ملاحظات حول الأبجدية الكوفية

من عصر المقياس الأول

لقد نقشت تلك الأحرف بشكل جيد وخطوط رشيقة بصفة عامة على الرغم من أنها قد محيت إلى درجة كبيرة بسبب احتكاك المياه بها سنويًا، إلا أننا استطعنا أن نتعرف عليها بسهولة بسبب تكرارها على جوانب العمود الأخرى.

وقد أخذنا شكل الألف الوسطية غير المتصلة والأخيرة المتصلة من آخر كلمة فى كتابات الذراع الأخيرة وقبل الأخيرة وما تسبقها، ويصدق نفس القول على الأشكال الوسطية المتصلة والأخيرة غير المتصلة، فهى تماثل الأشكال السابقة تبعًا لنفس طريقة الكتابة. كما أخذنا الشكل الأوسط المتصل لحرف الباء من الكلمة الأولى فى النقش الموجود على الذراع الأخيرة، وقد كتب الشكل الأول والأوسط غير المتصل وفقًا للشكل السابق بعد حذف خط الوصل. ويماثل الشكل الأخير المتصل لحرف الباء شكل التاء الأخيرة الموجودة فى آخر الكلمة، وقد

(١) أنظر الكتابات والأبجديات ، اللوحة ٨.

(٢) نفسه، اللوحات ٩، ١٠، ١١.

أسهمت كنموذج لتشكيل الشكل الأخير غير المتصل لهذا الحرف بعد حذف خط الوسط.

وجدنا أن أشكال حرف الجيم هى نفسها أشكال حرف الخاء مثلما سأذكر لاحقًا، وأشكال حرف الزاى مثل أشكال حرف الراء، وأشكال حرف الحاء مثل أشكال حرف الخاء كما سأذكر فيما بعد.

وقد أخذنا الشكل الأول والأوسط غير المتصل لحرف الدال من الكلمة الأخيرة فى كتابات الأذرع الثلاث، وقد كتبت بشكل أوسط متصل وفقًا لهذه الطريقة مع إضافة خط أفقى للوصل، ويصدق نفس القول على الأشكال الأخيرة غير المتصلة والمتصلة لهذا الحرف.

أما بالنسبة للشكل الأول والأوسط لحرف الهاء فقد فُقد تمامًا فى الكتابات الثلاث، وقد استطعنا أن نحصل على الشكل الأخير غير المتصل له من الكلمة الثانية بالكتابات الثلاث، ونجده هو نفسه فى الشكلين الأولين مع إضافة خط وصل أفقى. ولم نجد مطلقًا أشكال حرف الواو فى كتابات هذا العصر.

ووجدنا أن الشكل الأول والأوسط غير المتصل لحرف الياء يماثل أشكال حرف الباء الذى تحدثت عنه فيما سبق، والشكل الأخير لحرف الياء يجب أن يختلف عن الشكل الآخير لحرف الباء، إلا أننا لم نصادفه فى الكتابات الثلاث، مثله مثل أشكال حرف الكاف عندما تأتى فى بداية الكلمة أو نهايتها، ولذا فقد افترضت أنه يماثل حرف الدال فى خطوط العصر الثانى، ولكن لم أجرؤ على أن أجعله يحل محله.

ووفقًا لنمط كتابات هذا العصر فإن الشكل الأول والأوسط والأخير غير المتصل لحرف اللام يجب أن يتبع أشكال حرف الباء، التى تقابل الخطوط ذات الرأس المرتفعة بنفس مستوى حرف الألف، ولذا فقد كتبتها وفقًا لهذا.

وحصلت على الشكل الأول غير المتصل لحرف الخاء من الكلمة الأولى فى الذراع قبل الأخيرة وماثل هذا الشكل الأشكال المستخدمة لحرفى الجيم والحاء،

ولعل الشكل الأوسط لتلك الحروف لا يختلف عن شكلها فى أول الكلمة، حيث يضاف إليها خط الوصل الأفقى، وتماثل الأشكال الأخيرة لهذه الأحرف الأشكال الأولى لها مع إضافة خط منحن سفلى بزاوية قائمة، وهو الشكل الذى تتميز به هذه الأحرف، مثلها مثل حرف العين الموجود بكتابات الذراع الأخيرة.

ولم نصادف فى كتابات هذا العصر أى أحرف مدموجة.

المبحث السادس

الأبجدية الكوفية من كتابات العصر الثانى بالمقياس (١)

المبحث السابع

ملاحظات عن حروف العصر الثانى

تتمتع حروف هذا العصر بصفة عامة بأناقة ورشاقة أكثر من أشكال حروف لعصر الأول، فأشكال حروف الجيم والحاء والخاء الأولى والوسطى والأخيرة، تختلف عن تلك الموجودة بالعصر الأول، فبدلاً من أن يكون الخط المائل الذى يقسم خط الوصل الأفقى مستقيمًا - كما هو الحال فى العصر السابق - وجدنا به انحناءه فى الطرف تلتف أفقيًا لتكون ما يشبه شكل الخطاف.

أما أشكال حروف الدال والذال والراء فهى نفسها أشكال حروف العصر الأول.

المبحث الثامن

الأبجدية الكوفية فى نقوش العصر الثالث بالمقياس (٢)

المبحث التاسع

أدوات الوصل الكوفية (٣)

---

(١) انظر الكتابات والأبجديات، اللوحات ١١، ١٢، ١٣.

(٢) انظر الكتابات والأبجديات، اللوحات ١٤، ١٥، ١٦.

(٣) نفسه، اللوحات ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠.

الفصل الثانى
علم قراءة الكتابات القرمطية

كانت الكتابة القرمطية لاحقة على الكتابة الكوفية، حيث اشتقت منها ثم حلت محلها، وتتبع أبجديتها نفس نسق الأبجدية الكوفية من ناحية ترتيب الحروف، كما أن الحروف المتطابقة لها قيم متوافقة. وهكذا فإن الملاحظات التى ذكرتها عن الأبجديات الكوفية الثلاث[١] تنطبق أيضًا على الأبجدية القرمطية.

وأعتقد أننى قدمت تفاصيل كافية فيما يتعلق بالحروف القرمطية فى دراستى عن النقوش الكوفية التى جمعتها من مصر والخطوط الأخرى المستخدمة فى عمائر العرب، ولهذا فلن أقوم بتكرار هذه التفاصيل هنا، وأكتفى بإحالة القارئ إلى هذه الدراسة.

ولكى أحقق الهدف من وراء التعريف بعلم قراءة الكتابات القديمة، والذى فسرته فيما سبق عند تناولى للكتابة الكوفية، فسأذكر هنا أيضًا ثلاث أبجديات

---

(١) نفسه، اللوحات ٩، ١٠، ١١، ١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦.

قرمطية ترتبط كل منها بإحدى كتابات هذا الخط، وقد ذكرتها وشرحتها جميعًا في دراستى(١).

وعلى الرغم من أن تلك الكتابات الثلاث ترجع لعصر واحد وتحمل تاريخًا واحدًا، فإن كلاً منها يقدم اختلافًا ملحوظًا بالنسبة لارتباط وأناقة الخطوط التى تتكون منها الأحرف، بشكل يجعلنى لا أستطيع أن أهملها حتى لا يكون عملى أقل اكتمالاً أو أقل فائدة فيما يتعلق بالهدف الذى أرمى إليه، ولذلك فقد رأيت من واجبى أن أجمع هذه الاختلافات كل على حدة، ضمن أبجدية خاصة حتى نتمكن من إجراء مقارنة سهلة، ونصل إلى المداخل الضرورية لقراءة الكتابات القرمطية الأخرى إذا ما أردنا إجراء تطبق عملى على هذه الدراسة.

المبحث الأول

الأبجدية القرمطية من النقش الأولى بالمقياس (٢)

المبحث الثانى

الأبجدية القرمطية من النقش الثانى بالمقياس (٣)

المبحث الثالث

الأبجدية القرمطية من النقش الثالث بالمقياس (٤)

أدوات الوصل القرمطية (٥)

(١١ أنظر فيما سبق.

(١) انظر النقوش والأبجديات، اللوحات ٢١, ٢٢, ٢٣.

(٣) نفسه، اللوحات ٢٤, ٢٥, ٢٦.

(٤) نفسه اللوحات ٢٧, ٢٨, ٢٩.

(٥) نفسه، اللوحات ٣٠, ٣١, ٣٢, ٣٣, ٣٤, ٣٥, ٣٦.

الجزء السادس

نصوص الكتّاب المذكورين فى هذه الدراسة(*)

الفصل الأول

الكتّاب الإغريق

المبحث الأول

هوميروس

(١)

ΖΕΥΣ γὰρ ἐπ' Ὠκεανὸν μετ' ἀμύμονας Αἰθιοπῆας
Χθιζὸς ἔβη μετὰ δαῖτα (θεοὶ δὲ ἅμα πάντες ἕποντο).
Δωδεκάτῃ δέ τοι αὖθις ἐλεύσεσθαι Οὔλυμπόνδε.

(الإلياذة، الجزء الأول، البيت ٤٢٣)

(٢)

.... Θέουσα δὲ Ἶρις ἐπέστη
Βηλῷ ἔπι λιθέῳ............................
.... Εἶπε δὲ μῦθον·
Οὐχ ἕδος· εἶμι γὰρ αὖθις ἐπ' Ὠκεανοῖο ῥέεθρα,
Αἰθιόπων ἐς γαῖαν, ὅθι ῥέζουσ' ἑκατόμβας
Ἀθανάτοις, ἵνα δὴ καὶ ἐγὼ μεταδαίσομαι ἱρῶν.

(نفسه، الجزء ٢٣، البيت ٢٠١)

المبحث الثانى

هيرودوت

(٣)

ἜΛΕΓΟΝ δὲ καὶ τόδε μοι μέγα τεκμήριον περὶ τῆς χώρης ταύτης οἱ ἱρέες, ὡς ἐπὶ Μοίριος βασιλέος, ὅκως ἔλθοι ὁ ποταμὸς ἐπὶ ὀκτὼ πήχεας τὸ ἐλάχιστον,

---

(*) هذه النصوص مترجمة داخل الدراسة. وقد أوردها المؤلف هنا على سبيل الاستشهاد.

ἄρδεσκε Αἴγυπτον τὴν ἔνερθε Μέμφιος. Καὶ Μοίρι οὔκω ἦν ἔτεα εἰνακόσια τετελευτηκότι, ὅτε τῶν ἱρέων ταῦτα ἐγὼ ἤκουον. Νῦν δὲ εἰ μὴ ἐπ᾽ ἑκκαίδεκα ἢ πεντεκαίδεκα πήχεας ἀναβῇ τοὐλάχιστον ὁ ποταμός, οὐκ ὑπερβαίνει ἐς τὴν χώρην. Δοκέουσί τέ μοι Αἰγυπτίων οἱ ἔνερθε τῆς λίμνης τῆς Μοίριος, οἰκέοντες τά τε ἄλλα χωρία καὶ τὸ καλεόμενον Δέλτα, ἢν οὕτω ἡ χώρη αὕτη κατὰ λόγον ἐπιδιδοῖ ἐς ὕψος, καὶ τὸ ὅμοιον ἀποδιδοῖ ἐς αὔξησιν, μὴ κατακλύζοντος αὐτὴν τοῦ Νείλου, πείσεσθαι τὸν πάντα χρόνον τὸν ἐπίλοιπον Αἰγύπτιοι, τό κοτε αὐτοὶ Ἕλληνας ἔφασαν πείσεσθαι. Πυθόμενοι γὰρ ὡς ὕεται πᾶσα ἡ χώρη τῶν Ἑλλήνων, ἀλλ᾽ οὐ ποταμοῖσι ἄρδεται, κατάπερ ἡ σφετέρη, ἔφασαν Ἕλληνας ψευσθέντας κοτὲ ἐλπίδος μεγάλης, κακῶς πεινήσειν· τὸ δὲ ἔπος τοῦτο ἐθέλει λέγειν, ὡς εἰ μὴ ἐθελήσει σφίσι ὕειν ὁ θεός, ἀλλ᾽ αὐχμῷ διαχρᾶσθαι, λιμῷ οἱ Ἕλληνες αἱρεθήσονται· οὐ γὰρ δὴ σφί ἐστι ὕδατος οὐδεμίη ἄλλη ἀποστροφή, ὅτι μὴ ἐκ τοῦ Διὸς μοῦνον. (الكتاب الثاني، المقطع ١٣)

(٤)

Ὁ γὰρ δὴ Νεῖλος ἀρξάμενος ἐκ τῶν Καταδούπων, ῥέει, μέσην Αἴγυπτον σχίζων, ἐς θάλασσαν. Μέχρι μέν νυν Κερκασώρου πόλιος ῥέει εἷς ἐὼν ὁ Νεῖλος, τὸ δὲ ἀπὸ ταύτης τῆς πόλιος σχίζεται τριφασίας ὁδούς· καὶ ἡ μὲν πρὸς ἠῶ τρέπεται, τὸ καλέεται Πηλούσιον στόμα· ἡ δὲ ἑτέρη τῶν ὁδῶν πρὸς ἑσπέρην ἔχει· τοῦτο δὲ Κανωβικὸν στόμα κέκληται· ἡ δὲ δὴ ἰθέα τῶν ὁδῶν τῷ Νείλῳ ἐστὶ ἥδε· ἄνωθεν φερόμενος, ἐς τὸ ὀξὺ τοῦ Δέλτα ἀπικνέεται· τὸ δὲ ἀπὸ τούτου, σχίζων μέσον τὸ Δέλτα, ἐς θάλασσαν ἐξίει, οὔτε ἐλαχίστην μοῖραν τοῦ ὕδατος παρεχόμενος ταύτην, οὔτε ἥκιστα οὐνομαστήν· τὸ καλέεται Σεβεννυτικὸν στόμα. Ἔστι δὲ καὶ ἕτερα διφάσια στόματα ἀπὸ τοῦ Σεβεννυτικοῦ ἀποσχισθέντα, φέροντα ἐς θάλασσαν. Τοῖσι οὐνόματα κέεται τάδε. τῷ μὲν Σαϊτικὸν αὐτέων, τῷ δέ, Μενδήσιον· τὸ δὲ Βολβίτινον στόμα καὶ τὸ Βουκολικὸν οὐκ ἰθαγενέα στόματά ἐστι, ἀλλ᾽ ὀρυκτά. (نفسه، المقطع ١٧)

(٥)

Ἐπέρχεται δὲ ὁ Νεῖλος, ἐπεὰν πληθύῃ, οὐ μόνον τὸ Δέλτα, ἀλλὰ καὶ τοῦ Λιβυκοῦ τε λεγομένου χωρίου εἶναι, καὶ τοῦ Ἀραβίου ἐνιαχῇ· καὶ ἐπὶ δύο ἡμερέων ἑκατέρωθι ὁδόν, καὶ πλεῦν ἔτι τούτου, καὶ ἔλασσον. Τοῦ ποταμοῦ δὲ φύσιος πέρι, οὔ τέ τι τῶν ἱρέων, οὔτε ἄλλου οὐδενὸς παραλαβεῖν ἐδυνάσθην. Πρόθυμος δὲ ἔα τάδε παρ᾽ αὐτέων πυθέσθαι, ὅτι κατέρχεται μὲν ὁ Νεῖλος πληθύων ἀπὸ τροπέων τῶν θερινέων ἀρξάμενος ἐπὶ ἑκατὸν ἡμέρας· πελάσας δὲ ἐς τὸν ἀριθμὸν τουτέων τῶν ἡμερέων ὀπίσω ἀπέρχεται, ἀπολείπων τὸ ῥέεθρον· ὥστε βραχὺς τὸν χειμῶνα ἅπαντα διατελέει ἐών, μέχρι οὗ αὖτις τροπέων τῶν θερινέων. τουτέων ὦν πέρι οὐδενὸς οὐδὲν οἷός τ᾽ ἐγενόμην παραλαβεῖν παρὰ τῶν Αἰγυπτίων, ἱστορέων αὐτοὺς ἥντινα δύναμιν ἔχει ὁ Νεῖλος τὰ ἔμπαλιν πεφυκέναι τῶν ἄλλων ποταμῶν· ταῦτά τε δὴ τὰ λεγόμενα βουλόμενος εἰδέναι, ἱστόρεον· καὶ ὅτι αὔρας ἀποπνεούσας μοῦνος πάντων ποταμῶν οὐ παρέχεται. (نفسه، المقطع ١٩)

(٦)

Ἀλλὰ Ἑλλήνων μέν τινες ἐπίσημοι βουλόμενοι γενέσθαι σοφίην, ἔλεξαν περὶ

τοῦ ὕδατος τούτου τριφασίας ὁδούς· τῶν τὰς μὲν δύο τῶν ὁδῶν οὐδὲ ἀξιῶ μνησθῆναι, εἰ μὴ ὅσον σημῆναι βουλόμενος μοῦνον. Τῶν ἡ ἑτέρη μὲν λέγει τοὺς ἐτησίας ἀνέμους εἶναι αἰτίους πληθύειν τὸν ποταμόν, κωλύοντας ἐς θάλασσαν ἐκρέειν τὸν Νεῖλον. Πολλάκις δὲ ἐτησίαι μὲν οὔκων ἔπνευσαν, ὁ δὲ Νεῖλος τὠυτὸ ἐργάζεται. Πρὸς δέ, εἰ ἐτησίαι αἴτιοι ἦσαν, χρῆν καὶ τοὺς ἄλλους ποταμούς, ὅσοι τοῖσι ἐτησίῃσι ἀντίοι ῥέουσι, ὁμοίως πάσχειν καὶ κατὰ τὰ αὐτὰ τῷ Νείλῳ· καὶ μᾶλλον ἔτι τοσούτῳ, ὅσῳ ἐλάσσονες ἐόντες, ἀσθενέστερα τὰ ῥεύματα παρέχονται. Εἰσὶ δὲ πολλοὶ μὲν ἐν τῇ Συρίῃ ποταμοί, πολλοὶ δὲ ἐν τῇ Λιβύῃ, οἳ οὐδὲν τοιοῦτον πάσχουσι οἷόν τι καὶ ὁ Νεῖλος.

(نفسه، المقطع ٢٠)

(٧)

Ἡ δὲ ἑτέρη ἀνεπιστημονεστέρη μέν ἐστι τῆς λελεγμένης, λόγῳ δὲ εἰπεῖν, θωμασιωτέρη· ἣ λέγει ἀπὸ τοῦ Ὠκεανοῦ ῥέοντα αὐτὸν ταῦτα μηχανᾶσθαι· τὸν δὲ Ὠκεανὸν γῆν περὶ πᾶσαν ῥέειν. (نفسه، المقطع ٢١)

(٨)

Ἡ δὲ τρίτη τῶν ὁδῶν, πολλὸν ἐπιεικεστάτη ἐοῦσα, μάλιστα ἔψευσται. Λέγει γὰρ δὴ οὐδὲ αὕτη οὐδέν, φαμένη τὸν Νεῖλον ῥέειν ἀπὸ τηκομένης χιόνος· ὃς ῥέει μὲν ἐκ Λιβύης διὰ μέσων Αἰθιόπων, ἐκδιδοῖ δὲ ἐς Αἴγυπτον· κῶς ὦν δῆτα ῥέοι ἂν ἀπὸ χιόνος, ἀπὸ τῶν θερμοτάτων τόπων ῥέων ἐς τὰ ψυχρότερα; Τῶν τὰ πολλά ἐστι ἀνδρί γε λογίζεσθαι τοιούτων πέρι οἵῳ τε ἐόντι, ὡς οὐδὲ οἰκὸς ἀπὸ χιόνος μιν ῥέειν· πρῶτον μὲν καὶ μέγιστον μαρτύριον οἱ ἄνεμοι παρέχονται, πνέοντες ἀπὸ τῶν χωρίων τουτέων θερμοί· δεύτερον δέ, ὅτι ἄνομβρος ἡ χώρη, καὶ ἀκρύσταλλος διατελέει ἐοῦσα· ἐπὶ δὲ χιόνι πεσούσῃ, πᾶσα ἀνάγκη ἐστὶ ὗσαι ἐν πέντε ἡμέρῃσι, ὥστε εἰ ἐχιόνιζε, ὕετ᾽ ἂν ταῦτα τὰ χωρία· τρίτα δέ, οἱ ἄνθρωποι ὑπὸ τοῦ καύματος μέλανες ἐόντες· ἰκτῖνοι δὲ καὶ χελιδόνες δι᾽ ἔτεος ἐόντες οὐκ ἀπολείπουσι· γέρανοι δὲ φεύγουσαι τὸν χειμῶνα τὸν ἐν τῇ Σκυθικῇ χώρῃ γινόμενον, φοιτῶσι ἐς χειμασίην ἐς τοὺς τόπους τούτους. Εἰ τοίνυν ἐχιόνιζε εἰ καὶ ὁσονῶν ταύτην τὴν χώρην, δι᾽ ἧς τε ῥέει καὶ ἐκ τῆς ἄρχεται ῥέων ὁ Νεῖλος, ἦν ἂν τούτων οὐδέν, ὡς ἡ ἀνάγκη ἐλέγχει.

(نفسه، المقطع ٢٢)

(٩)

Ὁ δὲ περὶ τοῦ Ὠκεανοῦ λέξας, ἐς ἀφανὲς τὸν μῦθον ἀνενείκας, οὐκ ἔχει ἔλεγχον. Οὐ γάρ τινα ἔγωγε οἶδα ποταμὸν Ὠκεανὸν ἐόντα· Ὅμηρον δέ, ἤ τινα τῶν πρότερον γενομένων ποιητέων, δοκέω τοὔνομα εὑρόντα ἐς τὴν ποίησιν ἐσενείκασθαι.

(نفسه، المقطع ٢٣)

(١٠)

Εἰ δὲ δεῖ μεμψάμενον γνώμας τὰς προκειμένας, αὐτὸν περὶ τῶν ἀφανέων ἀποδέξασθαι, φράσω διότι μοι δοκέει πληθύεσθαι ὁ Νεῖλος τοῦ θέρεος. Τὴν χειμερινὴν ὥρην ἀπελαυνόμενος ὁ ἥλιος ἐκ τῆς ἀρχαίης διεξόδου ὑπὸ τῶν χειμώνων, ἔρχεται τῆς Λιβύης τὰ ἄνω. Ὡς μέν νυν ἐν ἐλαχίστῳ δηλῶσαι, πᾶν εἴρηται· τῆς γὰρ ἂν ἀγχοτάτω ᾖ χώρης οὗτος ὁ θεός, καὶ κατ᾽ ἥν τινα, ταύτην οἰκὸς διψῆν τε ὑδάτων μάλιστα, καὶ τὰ ἐγχώρια ῥεύματα μαραίνεσθαι τῶν ποταμῶν. (نفسه، المقطع ٢٤)

(١١)

Ὡς δὲ ἐν πλέονι λόγῳ δηλῶσαι, ὧδε ἔχει. Διεξιὼν τῆς Λιβύης τὰ ἄνω ὁ ἥλιος, τάδε ποιέει, ἅτε διὰ παντὸς τοῦ χρόνου αἰθρίου τε ἐόντος τοῦ ἠέρος τοῦ κατὰ ταῦτα τὰ χωρία, καὶ ἀλεεινῆς τῆς χώρης ἐούσης, οὐκ ἐόντων ἀνέμων ψυχρῶν, διεξιὼν, ποιέει οἷόν περ καὶ τὸ θέρος ἐώθεε ποιέειν, ἰὼν τὸ μέσον τοῦ οὐρανοῦ. Ἕλκει γὰρ ἐπ' ἑωϋτὸν τὸ ὕδωρ. Ἑλκύσας δὲ, ἀπωθέει ἐς τὰ ἄνω χωρία· ὑπολαμβάνοντες δὲ οἱ ἄνεμοι, καὶ διασκιδνάντες, τήκουσι· καὶ εἰσι οἰκότως οἱ ἀπὸ ταύτης τῆς χώρης πνέοντες, ὅ, τε νότος, καὶ ὁ λίψ, ἀνέμων πολλὸν τῶν πάντων ὑετώτατοι. Δοκέει δέ μοι οὐδὲ πᾶν τὸ ὕδωρ τὸ ἐπέτειον ἑκάστοτε ἀποπέμπεσθαι τοῦ Νείλου ὁ ἥλιος, ἀλλὰ καὶ ὑπολείπεσθαι περὶ ἑωϋτόν. Πρηϋνομένου δὲ τοῦ χειμῶνος, ἀπέρχεται ὁ ἥλιος ἐς μέσον τὸν οὐρανὸν ὀπίσω· καὶ τὸ ἐνθεῦτεν ἤδη ὁμοίως ἀπὸ πάντων ἕλκει τῶν ποταμῶν. Τέως δὲ οἱ μὲν, ὀμβρίου ὕδατος συμμισγομένου πολλοῦ αὐτοῖσι, ἅτε ὑομένης τε τῆς χώρης καὶ κεχαραδρωμένης, ῥέουσι μεγάλοι· τοῦ δὲ θέρεος τῶν τε ὄμβρων ἐπιλειπόντων αὐτοὺς, καὶ ὑπὸ τοῦ ἡλίου ἑλκόμενοι, ἀσθενέες εἰσί. Ὁ δὲ Νεῖλος, ἐὼν ἄνομβρος, ἑλκόμενος δὲ ὑπὸ τοῦ ἡλίου, μοῦνος ποταμῶν τοῦτον τὸν χρόνον οἰκότως αὐτὸς ἑωϋτοῦ ῥέει πολλῷ ὑποδεέστερος ἢ τοῦ θέρεος. Τότε μὲν γὰρ μετὰ πάντων τῶν ὑδάτων ἴσον ἕλκεται, τὸν δὲ χειμῶνα, μοῦνος πιέζεται. Οὕτω τὸν ἥλιον νενόμικα τούτων αἴτιον εἶναι. (نفسه، المقطع ٢٥)

(١٢)

Αἴτιος δὲ ωὑτὸς οὗτος κατὰ γνώμην τὴν ἐμὴν, καὶ τὸν ἠέρα ξηρὸν τὸν ταύτῃ εἶναι, διακαίων τὴν διέξοδον αὐτοῦ· οὕτω τῆς Λιβύης τὰ ἄνω θέρος αἰεὶ κατέχει. Εἰ δὲ ἡ στασις ἤλλακτο τῶν ὡρέων, καὶ τοῦ οὐρανοῦ, τῇ μὲν νῦν ὁ βορέης τε καὶ ὁ χειμὼν ἑστᾶσι, ταύτῃ μὲν τοῦ νότου ἦν ἡ στάσις, καὶ τῆς μεσαμβρίης, τῇ δὲ ὁ νότος νῦν ἕστηκε, ταύτῃ δὲ ὁ βορέης· εἰ ταῦτα οὕτως εἶχε, ὁ ἥλιος ἂν ἀπελαυνόμενος ἐκ μέσου τοῦ οὐρανοῦ ὑπὸ τοῦ χειμῶνος καὶ τοῦ βορέω, ἤιε ἂν τὰ ἄνω τῆς Εὐρώπης κατάπερ νῦν τῆς Λιβύης ἔρχεται. Διεξιόντα δ' ἄν μιν διὰ πάσης Εὐρώπης, ἔλπομαι ποιέειν ἂν τὸν Ἴστρον τά περ νῦν ἐργάζεται τὸν Νεῖλον. (نفسه، المقطع ٢٦)

Τῆς αὔρης δὲ πέρι, ὅτι οὐκ ἀποπνέει, τήνδε ἔχω γνώμην, ὡς κάρτα ἀπὸ θερμῶν χωρέων, οὐκ οἰκός ἐστι οὐδὲν ἀποπνέειν· αὔρη δὲ ἀπὸ ψυχροῦ τινος φιλέει πνέειν. (نفسه، المقطع ٢٧)

(١٣)

Ταῦτα μέν νυν ἔστω ὡς ἔστι τε καὶ ὡς ἀρχὴν ἐγένετο· τοῦ δὲ Νείλου τὰς πηγὰς οὔτε Αἰγυπτίων, οὔτε Λιβύων, οὔτε Ἑλλήνων τῶν ἐμοὶ ἀπικομένων ἐς λόγους, οὐδεὶς ὑπίσχετο εἰδέναι, εἰ μὴ ἐν Αἰγύπτῳ ἐν Σάϊ πόλει ὁ γραμματιστὴς τῶν ἱρῶν χρημάτων τῆς Ἀθηναίης. Οὗτος δ' ἐμοίγε παίζειν ἐδόκεε, φάμενος εἰδέναι ἀτρεκέως· Ἔλεγε δὲ ὧδε· εἶναι δύο οὔρεα ἐς ὀξὺ τὰς κορυφὰς ἀπιγμένα, μεταξὺ Συήνης τε πόλιος κείμενα τῆς Θηβαΐδος καὶ Ἐλεφαντίνης· οὐνόματα δὲ εἶναι τοῖσι οὔρεσι, τῷ μὲν, Κρῶφι, τῷ δὲ, Μῶφι. Τὰς ὦν δὴ πηγὰς τοῦ Νείλου ἐούσας ἀβύσσους, ἐκ τοῦ μέσου τῶν οὐρέων τουτέων ῥέειν· καὶ τὸ μὲν ἥμισυ τοῦ ὕδατος, ἐπ' Αἰγύπτου ῥέειν, καὶ πρὸς βορέην ἄνεμον· τὸ δὲ ἕτερον ἥμισυ, ἐπ' Αἰθιοπίης τε καὶ νότου. Ὡς δὲ ἄβυσσοί εἰσι αἱ πηγαὶ, ἐς διάπειραν ἔφη τούτου Ψαμμήτιχον Αἰγύπτου βασιλέα ἀπικέσθαι. Πολλέων γὰρ αὐτὸν χιλιάδων ὀργυιέων πλεξάμενον κάλον, κατεῖναι ταύτῃ, καὶ οὐκ ἐξικέσθαι ἐς βυσσόν· οὕτω μὲν δὴ ὁ γραμματιστὴς, εἰ ἄρα ταῦτα γενόμενα ἔλεγε, ἀπο-

Φασι· ὡς ἐμὲ κατανοέειν δίνας τινὰς ταύτῃ ἐούσας ἰσχυράς, καὶ παλιρροίην οἷα δὲ ἐμβαλόντος τοῦ ὕδατος τοῖσι οὔρεσι, μὴ δύνασθαι κατιεμένην καταπειρητηρίην ἐς βυσσὸν ἰέναι. (نفسه، المقطع ٢٨)

(١٤)

Μέχρι μέν νυν τεσσέρων μηνῶν πλόου καὶ ὁδοῦ, γινώσκεται ὁ Νεῖλος, πάρεξ τοῦ ἐν Αἰγύπτῳ ῥεύματος. Οὗτοι γὰρ συμβαλλομένῳ μῆνες εὑρίσκονται ἀναισιμούμενοι ἐξ Ἐλεφαντίνης πορευομένῳ ἐς τοὺς Αὐτομόλους τούτους· ῥέει δὲ ἀπὸ ἑσπέρης τε καὶ ἡλίου δυσμέων. Τὸ δὲ ἀπὸ τοῦδε, οὐδεὶς ἔχει σαφέως φράσαι· ἔρημος γάρ ἐστι ἡ χώρη αὕτη ὑπὸ καύματος. (نفسه، المقطع ٣١)

(١٥)

Ἀλλὰ τάδε μὲν ἤκουσα ἀνδρῶν Κυρηναίων, φαμένων ἐλθεῖν τε ἐπὶ τὸ Ἄμμωνος χρηστήριον, καὶ ἀπικέσθαι ἐς λόγους Ἐτεάρχῳ τῷ Ἀμμωνίων βασιλέϊ· καὶ κως ἐκ λόγων ἄλλων ἀπικέσθαι ἐς λέσχην περὶ τοῦ Νείλου, ὡς οὐδεὶς αὐτοῦ οἶδε τὰς πηγάς· καὶ τὸν Ἐτέαρχον φάναι ἐλθεῖν κοτε παρ᾽ αὐτὸν Νασαμῶνας ἄνδρας........... Παρὰ δὲ τὴν πόλιν ῥέειν ποταμὸν μέγαν. ῥέειν δὲ ἀπὸ ἑσπέρης αὐτὸν πρὸς ἥλιον ἀνατέλλοντα· φαίνεσθαι δὲ ἐν αὐτῷ κροκοδείλους. (نفسه، المقطع ٣٢)

(١٦)

Ὁ μὲν δὴ Ἴστρος, ῥέει γὰρ δι᾽ οἰκευμένης, πρὸς πολλῶν γινώσκεται· περὶ δὲ τῶν τοῦ Νείλου πηγέων οὐδεὶς ἔχει λέγειν· ἀοίκητός τε γάρ ἐστι καὶ ἔρημος ἡ Λιβύη, δι᾽ ἧς ῥέει. Περὶ δὲ τοῦ ῥεύματος αὐτοῦ, ἐπ᾽ ὅσον μακρότατον ἱστορεῦντα ἦν ἐξικέσθαι, εἴρηται· ἐκδιδοῖ δὲ ἐς Αἴγυπτον. Ἡ δὲ Αἴγυπτος τῆς ὀρεινῆς Κιλικίης μάλιστά κῃ ἀντίη κέεται· ἐνθεῦτεν δὲ, ἐς Σινώπην τὴν ἐν τῷ Εὐξείνῳ πόντῳ πέντε ἡμερέων ἰθέα ὁδὸς εὐζώνῳ ἀνδρί. Ἡ δὲ Σινώπη τῷ Ἴστρῳ ἐκδιδόντι ἐς θάλασσαν ἀντίον κέεται. Οὕτω τὸν Νεῖλον δοκέω διὰ πάσης τῆς Λιβύης διεξιόντα ἐξισοῦσθαι τῷ Ἴστρῳ. Νείλου μέν νυν πέρι τοσαῦτα εἰρήσθω
(نفسه، المقطع ٣٤)

(١٧)

Γίνεται ὁ Ἴστρος ποταμῶν μέγιστος· ἐπεὶ ὕδωρ γε ἓν πρὸς ἓν συμβάλλειν, ὁ Νεῖλος πλήθεϊ ἀποκρατέει· ἐς γὰρ δὴ τοῦτον οὔτε ποταμὸς, οὔτε κρήνη οὐδεμία ἐσδιδοῦσα, ἐς πλῆθός οἱ συμβάλλεται. (الكتاب الرابع، المقطع ٥٠)

المبحث الثالث
ديودور الصقلى

(١٨)

Τὸ δὲ ὑγρὸν ὀνομάσαι λέγουσι τοὺς παλαιοὺς Ὠκεανὴν, ὃ μεθερμηνευόμενον μὲν εἶναι τροφὴν μητέρα, παρ᾽ ἐνίοις δὲ τῶν Ἑλλήνων Ὠκεανὸν ὑπάρχειν ὑπειλῆφθαι περὶ οὗ καὶ τὸν Ποιητὴν λέγειν,

« Ὠκεανόν τε θεῶν γένεσιν καὶ μητέρα Τηθύν· »
(هوميروس، الإلياذة، الجزء ١٤، بيت ٣٠٢)

οἱ γὰρ Αἰγύπτιοι νομίζουσιν Ὠκεανὸν εἶναι τὸν παρ᾽ αὐτοῖς ποταμὸν Νεῖλον, πρὸς ᾧ καὶ τὰς τῶν θεῶν γενέσεις ὑπάρξαι.| (الجزء الأول، المقطع ١٢)|

Τὸν δὲ ποταμὸν ἀρχαιότατον μὲν ὄνομα σχεῖν Ὠκεάμην, ὅς ἐστιν Ἑλληνιστὶ Ὠκεανός.\ (نفسه، المقطع ١٧)

(١٩)

Ὕστερον δὲ Αἴγυπτον, ἀπὸ τοῦ βασιλεύσαντος τῆς χώρας προσηγορευθῆναι. Μαρτυρεῖν δὲ καὶ τὸν Ποιητὴν, λέγοντα,

« Στῆσα δὲ ἐν Αἰγύπτῳ ποταμῷ νέας ἀμφιελίσσας. »

(هوميروس، الأوديسا، الجزء ١٤، البيت ٢٥٨)

(نفسه)

(٢٠)

Τούτων δ᾽ ὄντων περὶ ταῦτα, τὸν Νεῖλον φασὶ κατὰ τὴν τοῦ Σειρίου ἄστρου ἐπιτολὴν (ἐν ᾧ καιρῷ μάλιστα εἴωθε πληροῦσθαι) ῥαγέντα κατακλύσαι πολλὴν τῆς Αἰγύπτου.

Καὶ μάλιστα τοῦτο τὸ μέρος ἐπελθεῖν, οὗ Προμηθεὺς εἶχε τὴν ἐπιμέλειαν·

διαφθαρέντων σχεδὸν ἁπάντων τῶν κατὰ ταύτην τὴν χώραν. Τὸν δὲ Προμηθέα διὰ τὴν λύπην κινδυνεύειν ἐκλιπεῖν τὸν βίον ἑκουσίως.

Διὰ δὲ τὴν ὀξύτητα καὶ τὴν βίαν τοῦ κατενεχθέντος ῥεύματος, τὸν μὲν ποταμὸν Ἀετὸν ὀνομασθῆναι.

Τὸν δὲ Ἡρακλέα μεγαλεπίβολον ὄντα, καὶ τὴν ἀνδρείαν ἐζηλωκότα, τό, τε γενόμενον ἔκρηγμα ταχέως ἐμφράξαι, καὶ τὸν ποταμὸν ἐπὶ τὴν προϋπάρξασαν ῥύσιν ἀποστρέψαι. Διὸ καὶ τῶν παρ᾽ Ἕλλησι ποιητῶν τινὰς εἰς μῦθον ἀγαγεῖν τὸ πραχθὲν, ὡς Ἡρακλέους τὸν ἀετὸν ἀνῃρηκότος τὸν τὸ τοῦ Προμηθέως ἧπαρ ἐσθίοντα.

Ἔπειτα, διὰ τὸ γινόμενον ἔκρηγμα, φασὶν Ἀετὸν ὀνομασθῆναι.|

(الجزء الأول، المقطع ١٧)

(٢١)

Ὁ γὰρ Νεῖλος φέρεται μὲν ἀπὸ μεσημβρίας ἐπὶ τὴν ἄρκτον, τὰς πηγὰς ἔχων ἐκ τόπων ἀοράτων, οἳ κεῖνται ἐπὶ τῆς ἐσχάτης Αἰθιοπίας κατὰ τὴν ἔρημον, ἀπροσίτου τῆς χώρας οὔσης διὰ τὴν τοῦ καύματος ὑπερβολήν. Μέγιστος δὲ ὢν τῶν ἁπάντων, ποταμῶν καὶ πλείστην γῆν διεξιὼν, καμπὰς ποιεῖται μεγάλας, ποτὲ μὲν ἐπὶ τὴν ἀνατολὴν καὶ τὴν Ἀραβίαν ἐπιστρέφων, ποτὲ δὲ ἐπὶ τὴν δύσιν καὶ τὴν Λιβύην ἐκκλίνων. Φέρεται γὰρ ἀπὸ τῶν Αἰθιοπικῶν ὀρῶν μέχρι τῆς εἰς θάλατταν ἐκβολῆς στάδια μάλιστά πως μύρια καὶ δισχίλια, σὺν αἷς ποιεῖται καμπαῖς· κατὰ δὲ τοὺς ὑποκάτω τόπους συστέλλεται τοῖς ὄγκοις, ἀεὶ μᾶλλον ἀποσπωμένου τοῦ ῥεύματος ἐπ᾽ ἀμφοτέρας τὰς παρακειμένας ἠπείρους.| (نفسه، المقطع ٣٢)

(٢٢)

Οἱ μὲν κατ᾽ Αἴγυπτον ἱερεῖς ἀπὸ τοῦ περιῤῥέοντος τὴν οἰκουμένην Ὠκεανοῦ φασὶν αὐτὸν τὴν σύστασιν λαμβάνειν· ὑγιὲς μὲν οὐδὲν λέγοντες, ἀπορίᾳ δὲ τὴν ἀπορίαν λύοντες, καὶ λόγον φέροντες εἰς πίστιν αὐτῶν πολλῆς πίστεως προσδεόμενον. (نفسه، المقطع ٣٧)

(٢٣)

Διὰ δὲ τὴν ἀγωνίαν τὴν ἐκ τῆς ἀναβάσεως τοῦ ποταμοῦ γινομένην, κατεσκεύασται Νειλοσκοπεῖον ὑπὸ τῶν βασιλέων ἐν τῇ Μέμφει. Ἐν τούτῳ δὲ τὴν

ἀνάβασιν ἀκριβῶς ἐκμετροῦντες οἱ τὴν τούτου διοίκησιν ἔχοντες, ἐξαποστέλλουσιν εἰς τὰς πόλεις ἐπιστολάς, διασαφοῦντες πόσους πήχεις ἢ δακτύλους ἀναβέβηκεν ὁ ποταμός, καὶ πότε τὴν ἀρχὴν πεποίηται τῆς ἐλαττώσεως. Διὰ δὲ τοῦ τοιούτου τρόπου, τῆς μὲν ἀγωνίας ἀπολύεται πᾶς ὁ λαός, πυθόμενος τὴν τῆς αὐξήσεως εἰς τοὐναντίον μεταβολήν· τὸ δὲ πλῆθος τῶν ἐσομένων καρπῶν εὐθὺς ἅπαντες προεγνώκασιν, ἐκ πολλῶν χρόνων τῆς παρατηρήσεως ταύτης παρὰ τοῖς Αἰγυπτίοις ἀκριβῶς ἀναγεγραμμένης. (نفسه، المقطع ٣٦)

(٢٤)

Οἱ δὲ περιοικοῦντες τὴν νῆσον τὴν ὀνομαζομένην Μερόην (οἷς καὶ μάλιστά τις συγκατάθοιτο), τῆς μὲν κατὰ τὸ πιθανὸν εὑρεσιλογίας πολὺ κεχωρισμένοι,

τῶν δὲ τόπων τῶν ζητουμένων ἔγγιστα κείμενοι, τοσοῦτον ἀπέχουσι τοῦ λέγειν τι περὶ τούτων ἀκριβῶς, ὥστε καὶ τὸν ποταμὸν Ἀστάπουν προσηγορεύκασιν, ὅπερ ἐστὶ μεθερμηνευόμενον εἰς τὴν Ἑλλήνων διάλεκτον, ἐκ τοῦ σκότους ὕδωρ.
(نفسه، المقطع ٣٧)

(٢٥)

Ταύτης δὲ μυθολογοῦσί τινες ἐρασθῆναι τὸν ποταμὸν Νεῖλον ὁμοιωθέντα ταύρῳ, καὶ γεννῆσαι τὸν ἐπ' ἀρετῇ θαυμασθέντα παρὰ τοῖς ἐγχωρίοις Αἴγυπτον (βασιλέα). (نفسه، المقطع ٥١)

Ἀφ' οὗ (βασιλέως Νειλέως) συμβαίνει τὸν ποταμὸν ὀνομασθῆναι Νεῖλον τὸ προτοῦ καλούμενον Αἴγυπτον. (نفسه، المقطع ٦٢)

المبحث الرابع

سترابون

(٢٦)

Ἡ δὲ Συήνη, καὶ ἡ Ἐλεφαντίνη, ἡ μὲν ἐπὶ τῶν ὅρων τῆς Αἰθιοπίας (καὶ τῆς Αἰγύπτου πόλις·[1] ἡ δ' ἐν τῷ Νείλῳ προκειμένη) τῆς Συήνης νῆσος ἐν ἡμισταδίῳ, καὶ ἐν ταύτῃ πόλις ἔχουσα ἱερὸν Κνούφιδος. καὶ Νειλομέτριον (καθάπερ Μέμφις[2]. Ἔστι δὲ τὸ Νειλομέτριον)[3] σὺν μονολίθῳ κατεσκευασμένον ἐπὶ τῇ ὄχθῃ τοῦ Νείλου φρέαρ, ἐν ᾧ τὰς ἀναβάσεις τοῦ Νείλου σημειοῦνται, τὰς μεγίστας τε καὶ ἐλαχίστας, καὶ τὰς μέσας· συναναβαίνει γὰρ καὶ συνταπεινοῦσθαι τῷ ποταμῷ τὸ ἐν τῷ φρέατι ὕδωρ. Εἰσὶν οὖν ἐν τῷ τοίχῳ τοῦ φρέατος παραγραφαί, μέτρα τῶν τελείων, καὶ τῶν ἄλλων ἀναβάσεων. Ἐπισκοποῦντες οὖν ταύτας, ἐπισημαίνουσι[1] τοῖς ἄλλοις ὅπως εἰδεῖεν· πρὸ πολλοῦ γὰρ ἴσασιν ἐκ τῶν τοιούτων σημείων, καὶ[2] τῶν ἡμερῶν τὴν ἐσομένην ἀνάβασιν, καὶ προδηλοῦσι. Τοῦτο δὲ καὶ τοῖς γεωργοῖς χρήσιμον, τῆς τῶν ὑδάτων ταμιείας χάριν, καὶ παραχωμάτων, καὶ διωρύγων, καὶ ἄλλων τοιούτων, καὶ τοῖς ἡγεμόσι τῶν προσόδων χάριν· αἱ γὰρ μείζους ἀναβάσεις, μείζους καὶ τὰς προσόδους ὑπαγορεύουσιν. (الجغرافيا، الجزء ١٧)

المبحث الخامس

أريستيد - الخطيب

(٣٧)

Καὶ τί δὴ θαυμαστὸν, εἰ περὶ ὧν μηδ' αὐτοὶ οἱ ἐπιχώριοι καὶ ταῦτα ὄντες Αἰγύπτιοι γιγνώσκουσι, περὶ τούτων οἱ τοσοῦτ' ἀπέχοντες ποιηταὶ, μηδὲν ἰσχυρὸν ἔχουσι λέγειν; ἀλλὰ γὰρ κινδυνεύει παντελῶς, ὅπερ καὶ μικρῷ πρόσθεν εἶπον, ἴδιον τὸ τοῦ Νείλου πρᾶγμα, καὶ τελέως ἀποκεχωρικὸς εἶναι τῶν ἄλλων ποταμῶν.

Τί γὰρ δὴ ποτ' εἰ βούλει μόνος ποταμῶν αὔρας οὐκ ἀφίησι; καίτοι εἴγε ἀπὸ χιόνος ἢ ὑετῶν ᾔρετο, οὐκ ἂν μόνος ποταμῶν αὔρας οὐ παρείχετο; ἀλλὰ καὶ πλείστας ἂν καὶ μεγίστας, ὅσον καὶ μέγιστός ἐστιν. Ὅπου γὰρ καὶ γῆ ψιλὴ βρεχθεῖσα ἀφίησιν αὔρας, τί τόνγε δὴ Νεῖλον πάσχειν ἂν φήσαιμεν, εἴπερ ἐξ ὄμβρων τοσοῦτος ἀνήρχετο, ἢ νὴ Δί' ἐκ χιόνος τακείσης, ὡς ὁ τῶν ἑτέρων λόγος;

Τί δ' ἂν εἴποις τὴν περὶ τὴν ἀνάβασιν αὐτοῦ τάξιν καὶ μουσικήν; τὸ ἐν Συήνῃ μὲν καὶ Ἐλεφαντίνῃ, ὀκτὼ εἴκοσιν αἴρεσθαι πήχεις· περὶ δὲ αὖ τὸ Ἰνδικὸν καὶ Ἀράβιον ἐμπόριον τὴν Κόπτον, ἵνα καὶ εἴκοσι· καὶ πάλιν τούτων ἀφαιρεῖν ἑπτὰ, καὶ τέτταρας καὶ δέκα ἄγειν τοὺς κατὰ Μέμφιν γνωρίμους, καὶ πρὸς οὓς Ἕλληνες ἤδη λογίζονται· κάτω δ' ἐν τοῖς Ἕλλησιν, εἰς ἑπτὰ καταβαίνειν εἶτα δύ' ἥκουσιν. ἆρά γε Ἴστρος ἢ Φᾶσις ἢ Στρυμὼν ταῦτα σοφίζεται, ἀλλ' οὐ τοῦ Νείλου μόνου ταῦτ' ἐστὶ σοφίσματα.

(مصر، ج ٢، ص ٣٦١)

الفصل الثانى

الكتاب اليونانيون

بلينى - عالم الطبيعة

(٢٨)

Cùm crescit, reges aut præfectos navigare eo, nefas judicatum est. Auctus ejus per puteos mensuræ notis deprehenduntur. Justum incrementum est cubitorum XVI. Minores aquæ non omnia rigant : ampliores detinent, tardiùs recedendo. Hæ serendi tempora absumunt solo madente, illæ non dant sitiente; utrumque reputat provincia. In duodecim cubitis famem sentit, in tredecim etiamnum esurit : quatuordecim cubita hilaritatem afferunt, quindecim securitatem, sexdecim delicias. Maximum incrementum ad hoc ævi fuit cubitorum decem et octo, Claudio principe : minimumque Pharsalico bello, veluti necem Magni prodigio quodam flumine aversante.

...... Sic quoque etiamnum *Siris*[1], ut antè, nominatus per aliquot millia, et in totum Homero *Ægyptus*, aliisque *Triton*.

(التاريخ الطبيعى، ج ٥، المقطع ٩)

(٢٩)

Inde Africam ab Æthiopia dispescens, etiamsi non protinus populis, feris tamen et belluis frequens, sylvarumque opifex, medios Æthiopas secat, cognominatus *Astapus*, quod illarum gentium linguâ significat *aquam è tenebris*[2] *profluentem*. Insulas ita innumeras spargit, quasdamque tam vastæ magnitudinis, ut, quanquam rapidà celeritate, tamen dierum quinque cursu non breviore transvolet : circa clarissimam earum Meroën, *Astabores* lævo alveo dictus, hoc est, *ramus aquæ venientis è tenebris*; dextero verò, *Astusapes*[1], quod *latentis* significationem adjicit : nec antè *Nilus*, quàm se totum aquis concordibus rursus junxit.

(نفسه، المقطع ٩)

(٣٠)

Nealces......, ingeniosus et solers in arte, siquidem, cùm prælium navale Ægyptiorum et Persarum pinxisset, quod in Nilo, cujus aqua est mari similis, factum volebat intelligi, argumento declaravit, quod arte non poterat : asellum enim in littore bibentem pinxit, et crocodilum insidiantem ei.

(نفسه، ج ٣٥، المقطع ٢)

الفصل الثالث

الكتاب العرب

المبحث الأول

المكين

(٣١)

وفى هذه السنة (٩٦) كتب اسامة بن يزيد الذى كان على خراج بمصر الى سليمان بن عبد الملك يعلمه ان المقياس الذى بحلوان بطل *

فامره ان يبنى مقياسا فى الجزيرة التى بين بحر الفسطاط وبحر الجيزة فبناه فى سنة سبع وتسعين وهو المقياس الذى يقاس فيه اليوم *

المبحث الثانى

المقريزى

(٣٢)

قال ابن عبد الحكم اوّل من قاس النيل بمصر يوسف عليه السلام وضع مقياسًا بمنف *

(٣٣)

وقال القضاعي كان اوّل من قاس النيل بمصر يوسف النبى عليه السلام وبنى مقياسًا بمصر وهو اوّل مقياس وضعه عليه السلام وقيل ان النيل كان يقاس بارض علوة الى ان بُنى مقياس منف وان القبط كانت تقيس عليه الى ان بطل *

(٣٤)

وقال يزيد بن ابى حبيب ان موسى صَلى الله عليه وسلّم

رعي على آل فرعون فحبس الله عنهم النيل حتى ارادوا لجلا فطلبوا الى موسى ان يدعو الله فدعا الله رجا ان يومنوا فاصبحوا وقد اجراه الله فى تلك الساعة ستة عشر ذراعًا فاستجاب الله بتطويله لعمر بن الخطاب كان استجاب لموسى عليه السلام *

(٣٥)

ثم وضعت العجوز دلوكه ابنت زبا وهى صاحبة حايط العجوز مقياسًا بانصنا وهو صغير الذراع ومقياسًا باخميم *

ومن بعلك دلوكه العجوز بنت مقياسًا بانصنا وهو صغير الذراع ومقياسًا اخر باخميم وهو التى بنت الحايط المحيط بمصر * وقيل انهم كانوا يقيسون الها قبل ان يوضع المقياس بالرصاصه * فلم يزل القياس فيها مضى قبل الفتح بقيساريه الاكسيه ومعالمه هناك الى ان ابتنى المسلمون بين الحصن والبدر ابنيتهم الباقية الان *

وكان للروم ايضًا مقياس بالقمر خلف الباب يمنه من دخل منه فى داخل الزقاق اثره قايم الى اليوم وقد بنى عليه وحوله *

(٣٦)

ثم بنى عمرو بن العاص عند فتحه مصر مقياسًا باسوان ثم بنى بموضع يقاله له دندره *

ثم بُنى فى ايام معوية مقياس بانصنا فلم يزل يقاس عليه الى ان بنى عبد العزيز بن مروان مقياسًا بحلوان وكانت منزله وكان هذا المقياس صغير الذراع *

قال يحيى بن بكر ادركت القياس يقيس فى مقياس ...سوق ويدخل بزيادته الى الفسطاط *

(٣٧)

ووضع عبد العزيز بن مرون مقياسًا بحلوان وهو صغير *

(٣٨)

قالَ القضاعي ووجدت في رسالة منسوبة الى الحسن بن محمد بن عبد المنعم قال لما فتحت العرب مصر عرف عمر بـن الخطاب ما يلقي اهلها من الغلا عند وقوف النيل عن حد في مقياس لهم فضلاً عن تقاصره وان فرط الاستسعار يدعوهم الى الاحتكار ويدعو الاحتكار الى تصاعر الاسعار لغير قحط فكتب عمر الى عمرو يساله عن شرح الحال فاجابه انني وجدت ما تروى به مصر حتى لا يقحط اهلها اربع عشرة ذراعًا والحد الذى يروى منه سايرها حتى يفضل عن حاجتهم ويبقى عند هم قوت سنة اخرى ست عشرة ذراعًا والنهايتان المخوفتان في الزيادة والنقصان وهما الظما والاستبحار اثنتى عشرة ذراعًا في النقصان وثمان عشرة ذراعًا في الزيادة هذا والبلد في ذلك الوقت محفور الانهار معقود الجسور عند ما تسلموه من القبط وجلة العمارة فيه فاستشار عمر امير المومنين رضي الله عنه عليًّا رضى الله عنهُ في ذلك فامره ان يكتب اليه ان يبنى مقياسا وان نقص ذراعين على اثنتى عشرة ذراعًا وان يقر ما بعد ها على الاصل وان ينقص من كل ذراع بعد الست عشر ذراعًا اصبعين ففعل ذلك وبناه بحلوان فاجتمع لهُ بذلك كلما اراد من حل الارجاف وزوال ما منه كان يخاف باب جعل الاثنى عشرة ذراعًا اربعة عشرون اصبعًا فجعلها ثمانيه وعشرين من اولها الى الاثنتى عشرة ذراعًا يكون مبلغ الزيادة على الاثنتى عشرة واربعين اصبعًا وهى الذراعان وجعل الاربع عشرة ست عشرة والست ثماني عشرة والثماني عشرة عشرين *

(٣٩)

ثم كتب اسامه بن زيد التنوخى عامل خراج مصر لسليم بن عبد الملك بتطلانه فكتب اليه سليم بان يبنى مقياسًا فى الجزيرة فبناه فى سنه سبع وتسعين *

ووضع اسامه بن زيد التنوخى فى خلافة الوليد مقياسا بالجزيرة وهو اكثرها *

(٤٠)

فاما المقياس القديم الذى بنى فى الجزيرة فالذى وضعه اسامة بن زيد وقيل انه كسر فيه الفىّ اقنين وهو الذى بنى بيت المال بمصر وبنى ابو قتحه *

ثم بنى المتواكل فيها مقياسًا فى اوّل سنة سبع واربعين ومايتين فى ولاية يزيد بن عبد الله التركى على مصر وهو المقياس الكبير المعروف بالجديد وأمر بان تُعزل النصارى عن قياسه فجعل يزيد بن عبد الله على المقياس ابا الرداد المعلم واسمه عبد الله بن عبد السلام بن عبد الله بن الرداد المؤذن كان يقول العمى اصله من البصرة قدم مصر وحدث بها وجعل على قياس النيل واجرى عليه سليم بن وهب صاحب خراج مصر يوميئذ سبعة دنانير فى كل شهر فلم يزل القياس مذ ذلك الوقت فى يد ابى الرداد سنة ست وستين ومايتين *

ثم ركب احمد بن طولون سنة تسع وخمسين ومايتين ومعه ابو ايوب صاحب خراجه وبكار بن قتيبه القاضى فنظر الى المقياس وأمر باصلاحه وقدر لهُ الف دينار فعُمّر وبنى الخازن فى الصناعة مقياسًا واثره باق لا يعتمد عليه *

(٤١)

وقال ابن عبد الحكم فلما فتح عمرو بن العاص مصر اتى اهلها الى عمر حين دجل بؤونه من اشهر العجم فقالوا له ايها الامير ان لنيلنا هذا سُنّة لا يجرىء الّا بها فقال لهم وما ذاك فقالوا انه اذا كان لاثنتى عشرة ليلة تخلوا من هذا الشهر عمدنا الى جارية بكر من ابويها فارضينا ابويها وجعلنا عليها من الحلى والثياب افضل ما يكون ثم القيناها فى هذا النيل فقال لهم عمرو ان هذا لا يكون فى الاسلام وان الاسلام يهدم ما قبله فاقاموا بؤونه وابيب ومسرى لايجرى قليلًا ولا كثيرًا حتى اهمو بالجلا فلما رآى ذلك وعمر كتب الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بذلك فكتب اليه عمر ان قد اصبت ان الاسلام يهدم ما قبله وقد بعثت اليك ببطاقة فالقها داخل النيل اذا اتاك كتبى فلما قدم الكتاب على عمرو فتح البطاقة فاذا فيها من عبد الله عمّ امير المومنين الى نيل اهل مصر امّا بعد فان كنت انما تجرى قِبَلِك فلا تجرى وان كان الله الواحد القهار هو الذى يجريك فنسل الله الواحد القهار ان يجريك فالقى عمرو البطاقه فى النيل قبل يوم الصليب وقد تهيّا اهل مصر للجلا والخروج منها لانه لايقوم بمصلحتهم فيها الّا النيل *

(٤٢)

واصبحوا يوم الصليب وقد اجراه ستة عشر ذراعًا فى ليلة وقطع من تلك السنة السوء عن اهل مصر *

قال القضلعى وفى هذا الباب نظر فى وقتنا لزيادة فاد الانهار وانتقاص الاحوال وشاهد ذلك ان المقاييس القايمة الصعيدية

من اولها الى اخرها اربعه وعشرون اصبعًا كل ذراع المقاييس الاسلامية على ما ذكر *

(٤٣)

منها للمقياس الذى بناه اسامه بن زيد التنوخى بالجزيرة وهو الذى هدمه المآ *

وبنى المامون اخر باسفل الارض بالشرودان وبنى المتوكل اخر بالجزيرة وهو الذى يقاس عليه الما الان وقد تقدم ذكره *

قال ابن عفير عن القبط المتقدمين اذا كان الما فى اثنى عشر يومًا من مسرى اثنتى عشرة ذراعًا فهى سنة مآ والآ فالمآ ناقص واذا تم ست عشرة ذراعًا قبل النوروز فالمآ تم فاعلم ذلك *

(٤٤)

وقال ابو الصلت واما النيل وينبوعه فهو من ورا خط الاستوا من جبل هناك يعرف بجبل القمر فانه يبتدى بالتزيد فى شهر ابيب والمصريون يقولون اذا دخل ابيب كان للماء دبيب وعند ابتدايه فى التزيد تتغير جميع كيفياته وتفسد والسبب فى ذلك مروره بنقايع مياه اجنه يخالطها معه الى غير ذلك مما يحتمله فاذا بلغ الما خمسة عشر ذراعًا وزادت السادسة عشر اصبعًا واحدًا كسر الخليج ولكسره يوم معدود ومقام مشهود ومجتمع غاص بحضرة العام والخاص *

(٤٥)

واذا كسر فتحت الترع وهى فوهات الخلجان ففاض الما وساح وعمر القيعان والبطاح وانضم الناس الى اعالى مساكنهم من الضياع والمنزل وهى على اكام وربا لاينتهى المآ اليها ولا يتسلط النيل عليها فتعود ارض مصر باسرها عند ذلك بحرًا

غامرًا لها بين جبليها ربما يبلغ الحد المحدود فى مشية الله عز وجل لهُ واكثر ذلك يحوم حول ثمانى عشرة ذراعًا ثم ياخذ عايدًا فى صبه الى مجرى النيل وصربه فينصب اولًا ما كان من الارض عاليًا ويصير فيما كان منها متطامنًا فيترك كان فرارة كالدرهم ويغادر كل تلعه كالبرد المسهم وقال القاضى ابو الحسن على بن محمد الماوردى فى كتاب الاحكام السلطانية واما الذراع السودا فهى اطول من ذراع الدور باصبع وثلثى اصبع واول من وضعها امير المومنين هرون الرشيد قدرها بدراع خادم اسود كان على راسه قايمًا وهى التى يتعامل لناس بها فى ذراع البز والتجارة والابنية وقياس نيل مصر ٭

واكثر ما وجد فى المقياس سبع اذرع واحدى وعشرون اصبعًا ٭

(٤٦)

واقل ما وجد فيه منه خمس وستين ومماية فانه وجد فيه ذراع واحد وعشر اصابع ٭

(٤٧)

واكثر ما بلغ فى الزيادة سنة تسع وتسعين ومماية فانه بلغ ثمانية عشر ذراعًا وتسع عشرة اصبعًا واقل ما كان فى سنه ست خمسين وثلثماية الهلالية فانه بلغ اثنى عشر ذراعًا وتسع عشرة صبعًا وهى ايام كافور الاخشيدى والمقياس عمود رخام ابض مثمن فى موضع ينحصر فيه الما عند انسيابه اليه وهذا العمود مفصل على الثنين وعشرين ذراعًا كل ذراع مفصّل على اربعة وعشرين قسمًا متساويه تعرف بالاصابع ماعدى الاثنى عشر ذراعًا الاولى فانها مفصله على ثمانية وعشرين اصبعًا كل ذراع ٭

(٤٨)

وقال المسعودى وقالت الهند زيادة النيل ونقصانه بالسيول ونحن نعرف ذلك بتوالى الانوا وكثرة الامطار وقالت الروم لم يزد قط ولم ينقص وانما زيادته ونقصانه من عيون كثرت واتصدت ✽

وقالت القبط زيادته ونقصانه من عيون فى شاطيه يراها من سافر ولحق باعاليه ✽

وقيل لم يزد قط ولم ينقص وانما زيادته ريح الشمال اذا اكثرت واتصلت بحبسه فتضيض على وجه الارض وقال قوم سبب زيادته هبوب ريح تسمى الملتن وذلك انها تحمل المسحاب الما لمرمن خلف خط الاستوا فيمطر ببلاد السودان والحبشه والنوبه وياتى مدره الى مصر بزيادة النيل ✽

(٤٩)

ومع ذلك فان البحر الما لح يقف ماوه فى وجه النيل فيتوقف حتى يروى البلاد وفى ذلك يقول فاسمع وللسامع على يد عندى واسما يد المحسن فالنيل ذو فضل والكنه الشكر فى ذلك للملتن ويبتدى النيل بالتنقيص والزيادة بقية بوونه وهو حزيران وابيب وهو تموز ومسرى وهو اب فاذا كان الما زايدًا زاد شهر توت كله وهو ايلول الى النقصايه فاذا انتهت الزيادة الى ذراع ثمانى عشرة ففيه تمام الضراج وخصب الارض وهو ضار بالبهايم لعدم المرعى والكلا واتم الزيادات كلها العامه النفع للبلد كله سبع عشرة ذراعًا وذلك كفايتها ورىّ جميع ارضها فاذا زاد على ذلك وبلغ ثمان عشرة ذراعًا وغلقها استبحر من ارض مصر الربع وفى ذلك ضرر لبعض الضياع لما ذكرناه من الاستبحار ✽

واذا كانت الزيادة على ثمان عشرة ذراعًا كانت العاقبة فى انصرافه حدوث وبا اكثر الزيادات ثمان عشرة ذراعًا *

(٥٠)

وقد بلغ فى خلافة عمر بن عبد العزيز تسع عشرة ذراعًا ومساحة الذراع إلى ان يبلغ اثنتى عشرة ذراعًا ثمان وعشرون اصبعًا ومن اثنتى عشرة ذراعًا الى ما فوق ذلك يكون الذراع اربعا وعشرين اصبعًا واقلّ ما يبقى فى قاع المقياس من المآ ثلاثة اذرع وفى تلك السنة يكون المآ قليلا *

(٥١)

والذرع التى يستسقى عليها بمصر هى ذراعان تسمى منكرًا ونكيرًا وهى الذراع الثلثة عشر والذراع الرابعة عشر فاذا انصرف الما فى هذين الذراعين وزيادة نصف ذراع من الخمس عشرة ذراعًا استسقى الناس بمصر وكان الضرر الشامل لكل البلدان *

واذا تم خمس عشرة ودخل فى ست عشرة ذراعًا كان فيه صلاح لبعض الناس ولايستسقى فيه وكان ذلك نقصًا من خراج السلطان *

(٥٢)

السد يتخذ بمصر من مآ طوبه وهو كانون الثانى بعض الغطاس وهو يمضى من طوبه واصفى ما يكون ما النيل فى ذلك الوقت واهل مصر يفتخرون بصفا ما النيل فى هذا الوقت وفيه يختزن المآ اهل تنيس ودمياط وبونه وبنما بر قرايا البحر *

وقد كانت مصر كلها تروى من ست عشرة ذراعًا عامرها وغامرها لما احكوا من جسورها وبنا قنا امرها وتنقية خلجانها *

وكان الما اذا بلغ فى زيادته تسع اذرع دخل خليج سخا *

(٥٣)

قال والعهول عليه فى وقتنا هذا وهو سنة خمس واربعين وثلثماية انه ان زاد علت الستة عشر ذراعًا وان نقص من خراج السلطان وقد تغير فى زمننا هذا عامة ما تقدم ذكره لفساد حال الجسور والتراع والخلجان وقانونه اليوم انه يزيد فى القبط اذا حلت الشمس ببرج السرطان والاسد والسنبله حين تنقص عامة الانهر التى فى المعمور ولذلك قيل ان الانهار تهلّ بمايها عند غيضها فتكون زيادته *

وتبتدى الزيادة من خمس بوونه وتظما فى ثانى عشره واول وقعه فى الثانى من ابيب وتنتهى زيادته فى ثامن بابه وياخذ فى النقصان من العشرين منها فتكون مدة زيادته من ابتدايها الى ان تنقص ثلاثه اشهر وخمسة وعشرين يومًا من بابه ومدة مكثه بعد انتها زيادته اثنى عشر يومًا ثم ياخذ فى النقصان *

(٥٤)

ومن العادة ان ينادى عليه دايمًا فى اليوم السابع والعشرين من بوونه بعد ما يوخذ قاعه وهو ما بقى من المآ القديم فى ثلث عشر بوونه ويفتح الخليج الكبير اذا كمل المآ ست عشرة ذراعًا وادركت الناس يقولون نعوذ بالله من اصبع من عشرين *

(٥٥)

وكنا نعهد المآ اذا بلغ اصابع من عشرين ذارعًا فاض ما النيل وترق الضياع والتسعتين وفارت البلاليع ونحن فى زمن منذ كانت الحوادث بعد ستة ست وثمان مايه اذا بلغ المآ فى سنة اصبعًا من عشرين لايعم الارض كلها لما قد فسد من الجسور *

(٥٦)

وكان الى بعد الخمس مابة من الهجرة قانون النيل ست عشرة ذراعًا فى مقياس الجزيرة وهى فى الحقيقة ثمان عشرة ذراعًا واحدًا زاد خراج مصر مابة الف دنيار لما يروى من الارض العالية *

فان بلغ ثمان عشرة ذراعًا كانت الغاية القصوى فان الثمان عشرة ذراعًا فى مقياس الجزيرة اثنان وعشرون ذراعًا فى الصعيد الاعلى فان زاد على الثمان عشرة ذراعًا واحدًا نقص من الخراج مابة الف دينار الهآ يستبحر من الاراضى المنخفضة قال ابن ميسر فى حوادث سنة ثلاث واربعين *

دراسة حول وادى النيل
ومقياس النيل بجزيرة الروضة

بقلم السيد / لوبير الأب

مفتش مقاطعة للطرق والكبارى

وعضو المجمع المصرى

نظرًا لأن مقياس النيل(*) بجزيرة الروضة بدا لنا من المنشآت الهامة التى تستحق أن نجرى حولها أبحاثًا مفيدة وذات ضرورة قصوى، فقد استشعر أعضاء المجمع المصرى بالحاجة إلى دراسة هذه المنشأة ووصفها، وسرد الأحداث التاريخية المتعلقة بها، وتسجيل كافة التغيرات التى تنتج عن ارتفاع مجرى وحوض نهر النيل، وكذا التعديلات والإصلاحات التى عملت بها أثناء عمليات

(*) تعد هذه الدراسة تكملة للدراسة التى تتناول اتصال المحيط الهندى بالبحر الأبيض المتوسط عن طريق البحر الأحمر وبرزخ السويس، الدولة الحديثة.

عند ظهور الطبقة الأولى كانت هذه الدراسة أكثر شمولاً مما هى عليه الآن إلا أن المؤلف قرأ ضمن مؤلفات أعضاء المعهد عددًا من الأبحاث الدراسات التى تتناول أجزاء من هذه الدراسة، ولتفادى التكرار قام باختصار نصف هذا البحث تقريبًا واكتفى بإحالة القارئ إلى هذه الدراسات.

الترميم المختلفة، ولهذا فقد قام المجمع بتكليف لجنة مشكلة من السادة دولوميو، وكوستاز، ودوترتر، ونورى ومعد هذه الدراسة (١).

ولأن المعلومات التى سيقوم هؤلاء السادة بتجميعها حول النهر وهذه المنشأة كانت بلا شك نتاج أبحاث وأعمال السادة المهندسين، فقد كلفتنا اللجنة بالاستجابة لتوجيهات المجمع، وكانت الأبحاث التى تجرى حول مياه هذا النهر وتأثيرها تتطلب انقضاء مدة فيضان واحد على الأقل، مما أدى إلى أن نقدم هذا التقرير إلى المعهد فى الشهر الرابع من التقويم الجمهورى من العام الثامن (يناير ١٨٠٠).

وعلاوة على ذلك فقد دوّنا بعض الملاحظات اللاحقة المتعلقة بالفيضان وانحسار مياه النيل، وتشمل أيضًا بعض الأعمال السنوية والترميمات لعمارة المقياس وقد شكلت فى مجملها إضافة هامة للتقرير المبدئى.

ولما كانت هذه العمليات من اختصاص السادة المهندسين، فلقد عهدنا بها إليهم مكتفين بالملاحظة والمتابعة والتنسيق. وتشتمل هذه الدراسة - التى تعد تجميعًا لنتائج العمليات السابقة - على جزأين نستعرض فى الجزء الأول منهما وادى النيل، فى حين يشغل المقياس وهو الموضوع الرئيسى فى هذه الدراسة الجزء الثانى منها.

---

(١) كان من المفترض أن يشترك زميلنا الموقر السيد چيرار فى هذا المشروع، ولكنه كان حينئذ فى مهمة بصعيد مصر حيث كان مكلفًا بالإشراف على عدة أبحاث ومشاريع مماثلة قدم لها نتائج مثمرة بمساعدة السيدين چولوا وديفيلييه.

الجـزء الأول
حول وادى النيل

تم تكليفنا بأداء عدة مهام تتعلق بترشيد المياه وإتاحة الفرصة لتحسين الملاحة النهرية والحفاظ على رى الأراضى الزراعية كما هو مطلوب، والسيطرة على مياه الفيضان أثناء الفترة المحدودة لبذر الحبوب والاطمئنان على سلامة الأرياف، ولإنجاز كل هذه المهام بنجاح كان لزامًا علينا أن ندرس أولاً نظام النيل فى الفترة التى تكون فيها مياهه فى أدنى مستوى لها وكذلك خلال فترات الفيضانات الموسمية، هذا بالإضافة إلى دراسة كل ما يتعلق بمجرى النهر ومصباته المختلفة وانحداره وسرعته وحجم وطبيعة مياهه والمواسم والأسباب والتأثيرات والمدة الزمنية والمقدار التى تخص فيضاناته، وكذا ارتفاع مجرى النهر الذى يشكل حوضه، وأخيرًا النتائج المترتبة على كل هذه الأمور وتأثيرها على الزراعة، بما أنها سوف تحدد الضريبة المفروضة على الأراضى والمزروعات والتى تسمى «الميرى»، والتى يسهم المقياس بطريقة دقيقة أحيانًا فى تقديرها، وفى أحيان أخرى يكون هذا التقدير جزافيا كما سوف نرى فى الجزء الثانى من هذه الدراسة.

ومن بين العديد من المؤرخين والجغرافيين والرحالة الذين كتبوا عن مصر اعتمدنا على وجه الخصوص على من نعتبرهم حجة فى استقاء المعلومات، وأهمهم هيرودوت وديودور وسترابون وبلينى من القدامى والقلقشندى وأبو الفدا والمقريزى من العرب، وبوكوك ونيبور وڤولنى من رحالة القرن الماضى. وخلال إجرائهم للأبحاث تعرض كل هؤلاء الرحالة إلى عدة أخطار ومصاعب نتج بعضها عن معتقدات أهل البلد، وعن بخل وعدم ثقة الحكام، أما بالنسبة لنا فقد استطعنا ـ بفضل استقرارنا بمصر ـ أن نشاهد ونقيس ونسأل، وبالتالى نحصل على النتائج اللازمة لأبحاثنا.

حول أسماء نهر النيل

لما كان نهر النيل [١] بهذه الأهمية والشهرة، فقد جعلتنا دراسة ظواهره وأحواله نلتمس العذر لوثنية الشعوب التى نظرت إليه نظرة التقديس، وآمنت بوجوب تقديم شكرها وامتنانها إليه قبل أن تتقدم بهما لنجم النهار، الذى كان سيتسبب ـ بدون المياه المباركة لنهر النيل - فى أن يجعل مصر قديمًا وحديثًا أرضًا جرداء مثل صحارى أفريقيا الواسعة والحارقة الملاصقة لها.

أطلق على هذا النهر اسما: نيلوس وإجيبتوس، وفقًا لأسماء بعض الملوك الذين حكموا مصر، وقد أطلق الاسم الأخير منهما أيضًا على الإمبراطورية نفسها ـ كما أطلق الكهنة على النيل اسمى: حورس وزيدوروس، اللذين يعنيان الشمس والخصوبة، وكانوا يدّعون أن النيل يحدد مواسم العام الواحد، فيبدأ الصيف بفيضانه ويأتى الخريف عندما تنحسر مياهه ونشعر بالربيع عندما نرى

---

(١) كثيرًا ما ظهر النيل فى الأشعار والقطع الفنية على هيئة شيخ هرم يستند بذراعه على جرة ويمسك بيده حربه ثلاثية هى رمز المياه، وللإشارة إلى الست عشرة ذراعًا التى كانت تصل إليها المياه فى أعلى مستوى مرغوب للفيضان، رأينا حول هذا الشيخ ستة عشر طفلاً يُعَدّون من رموز الخصوبة، وتشير الملامح اللطيفة لهؤلاء الأطفال إلى التأثير المحمود والمثمر لفيضان النهر عندما يبلغ الست عشرة ذراعًا مما ينتج عنه وفرة المحاصيل ورغد العيش.

الزهور التى تنمو على ضفافه، ومن خلال بيض التماسيح. أم الشعوب الأخرى فقد منحت نهر النيل أيضًا عدة صفات (*)

حول منابع النيل

يؤكد كل من بلينى وكلوديان النظرية القائلة بأن القدماء لم يعلموا شيئًا عن منابع النيل، حيث إن الأبحاث التى أمر بإجرائها عدد كبير من الملوك الذين حكموا مصر - أمثال سنوسرت، وقمبيز، والإسكندر وملوك البطالمة مثل فيلادلفوس ويورجتيس وأخيرًا القيصر ونيرون - لاكتشاف منابع النهر جاءت كلها مخيبة للآمال، وقد عبر الشاعر كلوديان عن ذلك بقوله: إن كل هذه المساعى لاجدوى منها كما سلك بعض الحكام الأجانب نفس هذه الطريق ولكن دون أن يحققوا أيضًا أى نجاح.

ورغم خطورة وفشل هذه الأبحاث فإنها أشعلت الحماس لكشف غموض هذه المنابع التى لا تمثل فى الواقع أى فائدة حقيقية، فنحن نعرف أن الجزء الجنوبى من نهر النيل يطلق عليه اسم «البحر الأبيض» ويتغذى هذا الجزء وتزيد مياهه فى فترات الفيضانات الموسمية من منابعه الخاصة التى تقع بالقرب من الجزء الشمالى لسلسلة جبال القمر، كما تغذيه أيضًا بقدر أكبر فروعه العديدة التى تمثل بدورها أنهارًا مثل مارب وأباوى وتكازى، هذا بالإضافة إلى الروافد الثانوية العديدة والأمطار المنهمرة التى تهطل على هذه المنطقة الحارة فى الفترة التى تكون فيهاالشمس أبعد ما يكون عن خط الاستواء السماوى.

وعلى الرغم من أنه يمكننا أن نؤكد بصورة دقيقة عدم وصول أية إمدادات إلى نهر النيل بدءًا من مدينة أسوان حتى البحر المتوسط، فإننا يجب أن نضع فى الاعتبار أنه يتغذى بمياه العديد من الأودية التى تصب فيه، لاسيما من ناحية الضفة الشرقية، وينطبق ذلك على الأودية الضيقة والسريعة والعديدة التى توجد على كلا الضفتين وتتعامد على مجرى النهر بانحدار شديد، ونجد مياهها

(*) انظر الجزء الأول من هذه الدراسة (المترجم).

تجـرف إلى حـوض النيل بعض الرواسب التى تشـتمل على بقـايا قطع من مـواد معدنية نزعت من الجبال المحيطة.

وإذا كـان فى الإمكان أن يتم تحـديد الوصف التفـصيلى للتضـاريس الخـاصـة بالمنابع المخـتلفـة والعـديدة لنهـر النيل فى يوم من الأيام، فسـوف تبـدو هذه المنابع كـمـا ذكـرناهـا من قـبل، وذلك بحـسب إسـهام كل منهـا فى مجـرى النهـر، إلا أنه سـيكون من الصـعب العـثور على المنبع الـرئيسـى إلا إذا تم ذلك عن طريق البـدو الأصليين، حـيث تدَّعى كل قـبيلة من القـبـائل التى تعـيش هناك سـيطرتهـا دون غيرها على المنبع الرئيسى لنهر النيل.

وسـوف نكتفـى هنا بذلك دون ذكر تفـاصـيل أكـثر طولاً عن الأبحـاث المتـتـاليـة للعـديد من الرحـالة الآخـرين الـذين لم نذكـر أسـمـاءهم، ولكننا نحـيل القـارئ إلى قـراءة أبحــاثهم، ونكـتـفـى نـحن بقـول كلوديان الـذى ينطبق عـمليًا على كل هـذه الأبحاث بطريقة جيدة.

حول مجرى نهر النيل

قـام عـدد قليل من الفـرنسـيين ـ أثناء احـتـلالنـا لمصـر ـ بصـعـود نهـر النيل إلى أبعد من شـلال أسـوان، حيث لم يتثن لهم مـد نطاق أبحـاثهم لتشـمل النوبة، كمـا أمكن الحصـول على عدة معلومـات وتفـاصـيل قيمة بعد الجـلاء عن هـذه البلاد كان من شـأنهـا أن تيسـر للعلمـاء اسـتكشـاف المناطق الجـانبـية والمناطق المرتفـعـة التى شكلت بخصـوصهـا لجان عـدة من العلماء والفنانين والمهندسين، الذين كـان عليهم أن ينتشروا ويتوغلوا فى الشرق والجنوب والغرب من مصر.

لا شـىء إذن يمكننا أن نذكره اليوم يتعلق بمجرى النيل فيما وراء خطر المدارى أثناء تواجـد الفـرنسـيين بمصـر، ولذا فنحـن نسـتعين عـادة بالمؤلفـات القـديمـة التى تـتـعلق بهـذا المـوضـوع أكـثـر من تلك الأبحـاث التى نـشـرت فى وقت لاحق، مع الاهتـمـام بإضـافـة مـا نعـرفـه من مـعلومـات، ومنهـا أن النيل الأبيض أثنـاء جريانه بدءًا من الدرجـة السـابعـة إلى الدرجـة الحـادية والثـلاثين ونصف الدرجـة من خط العـرض الشــمـالى، يقـابله بروز الدلتـا عن البـحـر، ويكون مـجـمـل نموه بمقـدار

تسعمائة وخمسة وعشرين فرسخًا، منها ثلاثمائة وخمسون إلى الجنوب والشرق من دارفور، وثلاثمائة وخمسون فى النوبة، ومائتان وخمسة وعشرون فقط فى مصر.

ويتعلق بهذه المنطقة أيضًا عمل جغرافى ناجح نفذته الوحدات الهندسية بالجيش، وأشرف على إدارته السيد العقيد چاكوتان والسيدان لوچنتى وچومار، وغيرهم آخرون من ضباط الهندسة الجغرافية والهندسة العسكرية والطرق والكبارى(١).

حول نظام نهر النيل

يكمن نظام أى نهر فى النتائج التى تنبثق عن حجمه وانحدار وسرعة المياه، ومدة بقاء المياه مرتفعة أو منخفضة، وثبات قاعه وضفافه وفقًا لدرجة مقاومة نشاط التيار الذى يقوم بنحتها خلال الفيضانات القوية العرضية أو الموسمية، وعلى هذا الأساس فإن استقرار نظام النهر ينتج عن طبيعة الأرض التى تجرى فيها مياهه.

غير أننا نعتبر أن نظام نهر النيل غير مستقر إلى حد ما، لاسيما فيما يتعلق بمصر السفلى، حيث إن قاعه لم يتشكل بفعل الرواسب النهرية وإنما فقط عن طريق الرمال والطمى قليلى التماسك، هذا بالإضافة إلى أن قاع النيل فى مصر العليا ورشيد ودمياط قد تغير موضعه عدة مرات فى الأزمنة القديمة، حتى إننا يصعب علينا اليوم أن نتتبع بنجاح اتجاهات مجراه فى بادئ الأمر.

أما فى الأزمنة التالية لذلك فقد أصبح هذا الأمر يسيرًا إلى حد ما سواء كانت الرواسب النهرية قد تكونت بصورة طبيعية أو بفعل تدخل الإنسان، وسجلها التاريخ بصفة عامة. وإذا لم يكن النيل يجرى فى موقع أعلى من مستوى مياهه مثل جبل السلسلة، فإنه يحتفظ - بفضل مقاومة الأرض التى ينحت فيها قاعه - بالطبقة المعدنية فى موضع يمكننا أن نعتبره ثابتًا وغير متغير، وتتجمع فيه كل العناصر التى من شأنها أن تشكل نظام هذا النهر.

---

(١) انظر الأطلس الجغرافى لمصر، ويشمل ٥٣ لوحة.

حول فروع ومصبات نهر النيل

بعد العدول عن الدخول فى تفاصيل عديدة تتناول عنوان هذا الجزء من لدراسة، فأنا أحيل القارئ إلى دراسة خاصة وهامة من إعداد السيد دوبوا يميه، شملت عدة مقارنات بين الأزمنة العتيقة والأزمنة الحديثة فيما يتعلق بعدد جدول أسماء واتجاهات فروع نهر النيل، وكذا زاوية تلاقى مصباته بالبحر.

ويبدو من خلال هذه الدراسة أن زميلنا قد أسس ترابطًا واضحًا بين أصول المسميات العتيقة المتتالية وبين مسميات عصرنا الحديث. وفيما يتعلق بالمصبات والبوغاز التى تم وضعها بنفس ترتيبها على الساحل الذى يشكل القاعدة البحرية للدلتا والمنحصر بين السويس والإسكندرية، نجد أنها لا تشغل حاليًا نفس مواضعها الأولى بالتحديد، فقد تغيرت أماكنها لا بسبب الأعمال المتتالية التى كان الحكام يأمرون بإجرائها والتى ذكرها المؤرخون، وإنما يرجع ذلك إلى أسباب طبيعية وتأثيرات بعضها متعاقب والبعض الآخر متزامن يتعلق بالبحر وبفيضانات النهر. وعلى أية حال فإن هذه التأثيرات من الممكن جدًا أن تتكرر فى هذه الأيام بدون توقع، وينتج عنها تغيرات ترتبط بمدى قوة هذه الطاقة على الأرض قليلة الصلابة للدلتا، وكذا على الرمال المتحركة للشاطئ الساحلى عند مدخل هذه المصبات التى يطلق عليها اسم بوغاز.

وإذا حدث عن طريق الصدفة المحتملة أن يتعرض فيضان ضعيف لنهر النيل ببحر متدفق ثائر لبضعة أيام، فسوف يتسبب ذلك فى وجود جرف رملى يسد أى بوغاز تمامًا ولا يمكن إعادة فتحه مرة أخرى عن طريق مجرى النيل، وعلى هذا فسوف ينحرف النهر عن الاتجاه الذى كان يسلكه، ليميل إلى ممر ضيق آخر أو بوغاز أو يفتح له مصبًا جديدًا على الشاطئ، ويستطيع النيل عن طريق الانحدار الطبيعى لمياهه المرور من خلاله، وبطبيعة الحال فإنه من الجائز أن تتحرك المصبات التى تكونت حديثًا من مكانها فى عصر لاحق.

ونستنتج من كل ماسبق أن أية مناقشات جديدة فى هذا الخصوص سوف تكون زائدة عن الحاجة وتبدو مملة، بعد التمعن فى الدراسات التى قام زملاؤنا بعملها، والتى تغطى كل الجوانب المطلوبة.

وسنكتفى فقط بأن نضيف أن السيد دوبوا إيميه لم يذكر - خلال حديثه عن المصبات الثانوية أو الكاذبة - أى مصب أو قناة ربما كانت توجد بين بحيرة مريوط والمرسى الطبيعى بالاسكندرية، غير بعيد عن الميناء القديم وفى الموقع الضيق حيث يصل انخفاض الشاطئ إلى أقصى درجة له، وربما يرجع السبب فى عدم ذكر أى شىء بهذا الخصوص إلى صمت المؤرخين ونقص المعلومات.

وسواء كانت هذه القناة طبيعية أو نتيجة تدخل بشرى بأوامر الحكام، فقد كان يخشى عند افتتاحها أو الاحتفاظ بوجودها، أن تقوم رواسب النيل بإتلاف هذا المرسى الطبيعى الرائع وميناء الإسكندرية ذاته، فمن المرجح أن النهر كان له مصب مفتوح بصفة مستمرة فى هذا الجزء، وبالإضافة إلى ذلك فكان يخشى أيضًا أن تتسبب ملوحة مياه البحر فى إفساد مياه البحيرة الصالحة للرى، والتى كان النيل يصب فيها سنويًا أثناء الفيضان.

وفى الواقع قد واتتنا فكرة إعادة فتح هذه القناة أثناء حصار مدينة الإسكندرية بالأسطول الصغير المشترك بين الإنجليز والأتراك، والذى استطاع الدخول إلى بحيرة مريوط بعد قطع بعض السدود وتوسيع قناة الإسكندرية، إلا أن الاعتبارات القهرية كانت ستؤدى بنا إلى مخاوف مماثلة فى ذلك الوقت. وبالفعل فقد اقترحنا حينئذ القيام بسد[1] هذا الشق لاحقًا، وبحفر قناة بين الميناء القديم وبحيرة مريوط حتى نعيد إلى هذه البحيرة الواسعة العميقة وإلى الأحياء النائية بالإسكندرية النشاط الصناعى والتجارى الكبير الذى كان يتمتع به قديمًا سكان هذه المدينة ذائعة الصيت وضواحيها.

وعلى الرغم من ذلك فلم نستطع أن نستكمل المشروع الذى شرعنا فى تنفيذه فيما يتعلق بهذا الشق، وذلك بسبب التطورات السريعة للحصار ونتائج

---

(١) لم يكن نظام حبس الماء فى الهويس معروفًا قديمًا ولكن أصبح استخدامه ضروريًا اليوم بسبب اختلاف مستوى سطح البحر والبحيرة والأضرار التى تحدث بسبب حبس مياه البحر بصفة مستمرة فى هذه البحيرة والعكس.

المفاوضات التى كانت تتبئ بالجلاء بلا رجعة عن مصر، وكان قائد الحملة قد افضى إلينا برغبته الملحة فى تنفيذ هذا المشروع بأقصى سرعة، وربما سيكون من الملائم حقًا أن نهتم بتنفيذه فى الوقت الحالى.

حول انحدار نهر النيل (٢)

بما أنه لم تحدث أية تعلية أو هبوط مؤثرين فى مجرى النيل على الجرف الجرانيتى الذى يشكل شلال أسوان فيمكننا إذن أن نحصر مجراه على الأراضى المصرية فقط، رغم أن المسافة التى يجريها على أرض مصر تمثل على الأكثر ربع المسافة الإجمالية لجريانه. وقد امتد مجرى النهر - الذى ارتفع بطبيعة الحال من الشلال حتى البحر- إلى الشمال أمام الدلتا ، وبذلك يكون قد فقد جزءاً من انحداره الأصلى، وسيواصل لاتساع الدلتا فى اتجاه البحر.

وإذا كان لنهر النيل - وهو على مسافة ثلثى انحصاره تقريبًا - بالقرب من القاهرة أربع إلى خمس بوصات من الانحدار لكل ١٠٠٠ قامة، إذن فسيعنى ذلك أن الانحدار ينخفض أكثر فأكثر كلما اتجهنا إلى البحر - غير أنه بقسمة المائة والعشرين ألف قامة الناتجة عن نمو فرع رشيد [من القاهرة إلى برنبال حيث يبدو أن المياه المالحة فى مجرى النيل المنخفض تحدد نهاية لجريانه]على ست عشرة قدمًا وأربع بوصات من الانحدار الذى وفره المستوى العام لهذه المسافة،فسنحصل على ناتج قسمة مقداره حوالى بوصتين لكل ألف، ويعبر هذا المقياس عن متوسط الانحدار للمستوى المنخفض من نهر النيل على امتداد الدلتا.

ولا نعتقد - على الرغم من ارتفاع (لايزال هذا الارتفاع مجهولاً) منابع نهر النيل فوق مستوى سطح البحر - أن يتمتع انحدار هذا النهر بنفس الشهرة التى يتمتع بها انحدار كبرى أنهار العالم.

---

(٢) لتفسير الاستخدام المتناوب للمقاييس القديمة والحديثة، نحيل إلى الدراسة الخاصة بقناة البحرين التى تكمل هذه الدراسة - انظر الدولة الحديثة.

ومن بين كل القياسات التى تم إجراؤها، لمعرفة وتحديد مدى انحدار نهر النيل، نقدم فقط ثلاث نتائج لخط عرض القاهرة، مع ذكر الفترات الزمنية وحالة نهر النيل أثناء انخفاضه:

التواريخ	الارتفاع فى المقياس	جملة ارتفاع الفيضان	القيمة بالقدم	المسافات	الانحدار المحسوب	الانحدار المنخفض لألف قامة
	ذراع	ذراع	قدم	قامة	خط . درجة . قدم	خط . قدم
٢٥ شهر٣ تقويم جمهورى عام ٧(١٥ديسمبر١٧٩٨)	٩,٢٠	٦,١٠	١٠,٨	١٨٠٠	٨ . ٩ . ٠	١/٢ ٥ . ٠
٢٢ شهر٣ تقويم جمهورى عام ٨ (١٣ديسمبر١٧٩٩)	٩,٦	٥,٢٠	٩,٦	١٧٠٠	٦ . ٨ . ٠	١/٢ ٥ . ٠
١٢ شهر٤ تقويم جمهورى عام ٨ (٢ يناير ١٨٠٠)	٨,١٣	٥,٣	٨,٦	٢١٠٠	٢ . ٧ . ٠	٣ . ٠

ونلاحظ عدم وجود تغيرات مؤثرة فيما يخص النتيجتين الأوليين، حيث تم الحصول عليهما فى فترتين متشابهتين من انخفاض مياه النيل خلال العامين السابع والثامن من التقويم الجمهورية فى حين تبدو النتيجة الثالثة مختلفة تمامًا على الرغم من أنه لا يوجد سوى عشرين يومًا فقط بين آخر نتيجتين، وخمس عشرة بوصة فى انخفاض المياه فى الفترة من ٢٢ من الشهر الثالث من التقويم الجمهورى إلى ١٢ من الشهر الرابع من نفس التقويم للعام الثامن.

ويبدو لنا أن هذا الفارق يرجع إلى حركة الرياح فى اتجاه انحدار النهر أثناء قيامنا بالتجربة الأخيرة، وقد تم قياس الارتفاع على فرع النيل الذى يفصل

جزيرة الروضة عن القاهرة القديمة. ويمكننا ضمان صحة هذه التجارب بسبب الدقة التى التزم بها المهندسان اللذين أشرفا عليها وهما السيدان شابرول وفيفر، وكذلك من خلال توافق هذه النتائج الجزئية مع النتائج التى حصلنا عليها لقياس الارتفاع العام، والتى أسهم فيها أيضًا هذان المهندسان، وقد استنتجنا من خلالها المستوى الخاص بكلا البحرين ونهر النيل، وتم تسجيله على المقياس .

حول سرعة نهر النيل

فى الأيام ١٥، ١٦، ١٧ من الشهر العاشر من التقويم الجمهورى للعام السابع «٢، ٣، ٤، يوليه لعام ١٧٩٩» وأثناء فترة أقصى انخفاض للمياه، قمنا بعمليات لمعرفة سرعة نهر النيل، وكنا فى ذلك الوقت على شاطئ جزيرة ترسة أعلى قليلاً من القاهرة القديمة. ويصل عرض النهر فى ذلك المكان إلى مائة وستين قامة وهو ضعف عرض نهر السين عند كوبرى لويس السادس عشر فى باريس).

وقد قمنا بإلقاء جسم عائم له نفس الثقل النوعى للماء تقريباً، ثم تركناه يعوم مع تيار النيل [ولم تشكل الرياح الشمالية الشرقية الخفيفة أى إزعاج يمس بدقة التجربة] .

وقطع هذا الجسم العائم ـ الذى غطس من ١٨ إلى ٢٠ بوصة ـ المسافات التالية:ـ

التجربة الأولى: ثلاثمائة متر فى سبع دقائق وثلاث وخمسين ثانية.

التجربةالثانية: ثلاثمائة متر فى ست دقائق وتسع عشرة ثانية.

التجربة الثالثة: ثلاثمائة متر فى سبع دقائق وست وثلاثين ثانية.

وبأخذ نتيجة متوسطة بين التجربتين الأولى والثالثة اللتين لاتختلفان إلا قليلاً فيما بينهما، نجد أن سرعة النيل تصل إلى ثلاثمائة متر فى سبع دقائق وخمس وأربعين ثانية، وعلى هذا الأساس فإن سرعة النهر أثناء أقصى انخفاض للمياه تصل إلى ستمائة وخمسة وأربعين ملليمترًا، أو قدم واحد وإحدى عشرة

بوصة وعشرة خطوط فى الثانية الواحدة، أى ما يعادل حوالى ألف ومائتى قامة فى الساعة أو قدمين فى الثانية.

وقد أكدت صحة هذه النتيجة تجربة قام بإجراءها السيد چيرار فى صعيد مصر فى العام السابع من التقويم الجمهورى، وتخلص إلى أن مياه النيل بدأت تضطرب فى أسوان فى يوم ٣ من الشهر الحادى عشر من التقويم الجمهورى وفى قنا يوم ٨ من نفس الشهر، وينتج عن فارق خمسة الأيام ومسافة الستين فرسخًا تقريبًا أن يكون فارق السرعة بمقدار اثنى عشر فرسخًا فى اليوم أو ألف ومائتين قامة فى الساعة.

وهناك تجربة أخرى تم تسجيلها فى القاهرة تتعلق بالفيضان فى إسنا وتؤكد النتيجةالسابقة، حيث بدأ الفيضان فى إسنا يوم ٩ من الشهر العاشر من التقويم الجمهورى، ولم يصل تأثيره إلى القاهرة إلا فى العشرين من نفس الشهر، وبناء على ذلك فإذا قمنا بقسمة مسافة المائة والخمسين فرسخًا على أحد عشر يومًا التى تمثل الفارق بين التاريخين، فستكون النتيجة إذن سرعة متوسطة قدرها ألف وثلاثمائة وست وستون قامة فى الساعة.

وعلى الرغم من تزايد هذه السرعة فى فترة المياه العالية فإنها لاتعد كافية لصعود نهر النيل بالتجديف أو بحبل جر المراكب كما هى العادة أو فى أغلب الأحيان بالمراكب الشرعية حينما تكون الرياح ملائمة. وإذا كانت هذه السرعة أقوى من ذلك فلن يتمكن النهر حينئذ من ترسيب رواسبه بسهولة على الأراضى أو فى مجراه بدرجة تزيد من ارتفاعها.

وفى الواقع فإن مياه الفيضان تفقد الكثير من سرعتها لاسيما عند الخروج من الوادى أسفل القاهرة، حيث تمتد على مساحة كبيرة فتفقد بسرعتها المسجلة المقدرة على الاحتفاظ جزئياً بهذه الرواسب، التى تترسب نتيجة لهذه السرعة المعتدلة، بسهولة أكثر على الأراضى.

وتتناسب سرعة القدمين فى الثانية أثناء المياه المنخفضة مع السرعة المتوسطة لنهر السين عند نهاية فترة هبوط المياه إلى أدنى مستوى فى باريس.

ومع الوضع فى الاعتبار كل المقومات التى من حقها أن تحدد المكان الذى يجرى فيه النهر (١) بأقصى سرعته ، فسيقع هذا المكان بالنسبة للأراضى المصرية أسفل جبل السلسلة مباشرة، حيث ينخفض قاع النهر إلى أقل من ثلاثمائة قامة ما بين الجبال الوعرة التى تحده من كل مكان، ويكون القاع أكثر عمقًا فى تلك المنطقة.

حول نوعية المياه والرواسب التى تحولها

بعد تحليل مياه النيل(٢)، تبين أنها لاتحتوى على أملاح مرة، ولكن فقط على كميات من الملح البحرى (مريات الصودا) والكربونات الأرضية بنسبة ضئيلة جدًا، حتى أن درجة نقائها تقترب من الماء المقطر، بل إنها يمكن أن تحل محله بنجاح فى التجارب الكيميائية ، ولكن هل تكون مياه النيل أفضل صحة من مياه أقل نقاءً بينما يشك الأطباء فى هذا الأمر، يرفضه آخرون. ومن خلال تجربتنا الشخصية ندرك أنه أيًا كانت الكمية التى تشرب منها فهى لاتسبب ضررًا لأنها خفيفة وصحية ومغذية أيضًا كما يقال عنها، وبالإضافة إلى ذلك يعتقد أنها تساعد على سرعة التكاثر عند الحيوانات ، ولعل المعدل المرتفع للولادة فى مصر يؤيد صحة ذلك ، ويساعد ماء النيل فى إدرار العرق والبول؛ وهو ملين ومسهل مثل مياه النطرون.

---

(١) من المعروف أن السرعة تعتمد إلى حد كبير على الانحدار، وتزداد بحد أقصى عند بدايته ، ولكنها لاتعتمد عليه وحده لأن ذلك يعتمد أيضًا على درجة ارتفاع المياه وما تحمله وتحركه فى مجرى النهر. ومن المؤكد أن : أقصى سرعة لايقابلها فى جميع الأحوال أكبر انحدار أو أكبر رافد، ولكنها تتناسب مع الموضع الذى يسهم فيه كل من الانحدار وحجم المياه الجارية لإحداث أكبر تأثير ، وهو ما يبدو أنه يحدد الحد الأقصى للسرعة فى منتصف الأنهار، أى فى الجزء الذى يقع بين المنابع ، حيث يبلغ الانحدار حده الأقصى، وبين المصب حيث يتساوى حجم الماء مع التدفق ويكون تأثيره أقوى.

(٢) تم إجراء هذا التحليل بعناية كبيرة على يد السيد رينولت المهندس بوحدة الطرق والكبارى.

وبعد عودتنا من كل رحلة قمنا بها فى الصحراء وشربنا فيها المياه المرة، بدت لنا مياه النيل حلوة المذاق، وقد أدى ذلك أيضا إلى جعل كل الرحالة السابقين يذكرون بتفاخر قيمة مياه النيل، وفى الحقيقة فقد وجدنا أن عينة الماء التى تم إحضارها إلى القاهرة وتحليلها، أكثر نقاءً خمس مرات من ماء نهر السين الذى يجرى فى باريس، إلا أن المياه لاتكتسب درجة النقاء هذه إلا فى الفترة التى يبدأ فيها انخفاض منسوب النهر.

وترجع المشاكل التى ينسبها البعض إلى ماء النيل فى فترة انخفاض المياه وركودها وأيضًا فى فترة بداية الفيضان، إلى كمية الحشرات الضخمة التى تولدها الحرارة المرتفعة، على أننا لم ندرس - بما فيه الكفاية - الأسباب التى تفسد نقاء ماء النيل فى المواسم المختلفة، ولكن الثابت من ذلك أنه مع بدء زيادة منسوب المياه فإن أول ما يظهر من الماء يكون ممزوجًا بالمياه الراكدة فى البحيرات والمستنقعات والمياه الضحلة التى بقيت على حالها منذ بدء انخفاض النهر، ولذا فإن المياه تبدو لزجة ومتعددة الألوان أثناء الفيضان، لأن روافد النيل التى تزداد حجمًا فى بعض الأماكن تحمل مياها كثيرة الطمى ونباتات تغطى سطح الأرض الذى يتكون من تربة متعددة الألوان، فمثلاً ربما أسهمت التربة الحمراء الموجودة فى سنّار فى منح النيل هذه الصبغة التى نلاحظها فى مياهه.

حول مصروف أو نتائج نهر النيل

لقد اقترحنا قياس مصروف النيل من المياه عند جبل السلسلة، حيث ينخفض عرض النهر المحصور بسد إلى أقل من ثلاثمائة قامة، وحيث نستطيع تحديد المنطقة بطريقة أفضل من تحديد السهل المزروع أعلى وأسفل الموقع الذى نحن بصدده. ولأننا لم نستطع الحصول على نتيجة هذا القياس المقترح، فسوف نذكر النتيجة التى حصلنا عليها عند خط عرض أسيوط والتى أمدنا بها السيد چيرار فى أول الشهر السابع من التقويم الجمهورى للعام السابع (من ٢١ إلى ٣٠ مارس عام ١٧٩٩).

فى نفس الفترة التى كان فيها نهر النيل فى زمن نهاية انخفاض مياهه، التى كانت تبلغ... خمس أذرع تقريبًا عند عمود المقياس، استنتج هذا المهندس ـ من خلال حاصل ضرب ثلاثة أقسام فى السرعة الخاصة بكل منها ـ أن متوسط المصروف من المياه فى الثانية الواحدة يبلغ ـ سبعمائة وواحدًا وثمانين مترًا وثلاثة وسبعين سنتيمترًا ، أى يعادل ثلاثة وعشرين ألفًا وأربعًا وأربعين قدمًا مكعبًا فى الثانية، أى ما يساوى مليونًا وثلاثمائة واثنين وثمانين ألفا وستمائة وأربعًا وسبعين قدمًا فى الدقيقة.

وإذا عقدنا مقارنة بين هذا المصروف ومصروف نهر السين، الذى قدره ماريوت بمائتى ألف قدم مكعب فى الدقيقة أى ما يوازى خمسمائة ألف بوصة مياه، سنجد أن مصروف نهر النيل يفوق مصروف نهر السين بنسبة ١٣ إلى ٢، أى أن مصروف نهر النيل يتعدى مصروف نهر السين بست أو سبع مرات.

حول فيضانات نهر النيل

يقدم النيل ـ من خلال فيضاناته الموسمية ـ ظاهرة يرتبط بها بشدة التواجد الطبيعى للبقاع التى يرويها النهر، فمن خلال بقاء المياه لمدة ثلاثة أشهر على الأرض ترسب العناصر الأساسية والتغذية اللازمة للحياة النباتية ، والتى ستصبح البلاد بدونها أرضًا جدباء.

ومن المعروف أن بضع أقدام من مياه الفيضان زيادة أو نقصًا سوف تضر على حد سواء، إذ إنها تسبب المجاعات والأوبئة ذات العواقب التى لايمكن تفاديها والوخيمة فى نفس الوقت. وعلى هذا فإن المستوى المتوسط هو وحده الذى يضمن وفرة المحاصيل، بحيث يمكننا أن نقر ونكرر بدون مبالغة أن نهر النيل يعتبر بالنسبة لشعب مصر بمثابة الحياة والرخاء.

ولاقتناعه بهذه الحقيقة منذ القدم قام هذا الشعب بدراسة كل ما يتعلق بنهر النيل بعناية، وينطبق ذلك على الحركة والارتفاع ومدة الفيضان، حتى لايتعرض إلى فقد ثمار البذور التى أودعها أرضه المنتجة.

ويحفظ لنا التاريخ ذكرى سنوات عجاف امتنع فيها النهر تمامًا وبطريقة طبيعية بلاشك عن الفيض، ولعل ما يدعم القصص التى وردت عن محاولات تغيير مجرى النيل لجعله يصب فى الصحارى الإفريقية الواسعة هى الأحداث المذكورة فى النصوص التالية:-

نقل الكاتب سافارى فى كتابه «مذكرات عن مصر» المجلد الثانى صـ١٨٧ الفقرة التى ذكرها المكين (١):-

«فى عام ١١٠٦ وأثناء ولاية المستنصر سلطان مصر امتنع الفيضان تمامًا، فأرسل هذا الحاكم ميخائيل بطريرك اليعقوبيين إلى إمبراطورية أثيوبيا محملاً بهدايا رائعة ، وجاء الملك لملاقاته، واستقبله استقبالاً حسنًا، وسأله عن سبب زيارته، فرد عليه البطريرك قائلاً إنه قد حضر بسبب إمتناع النيل عن الفيض، وهو ما جعل المصريين يخشون فظاعة المجاعة ويصابون بحالة هلع، وبناء على هذه الشكوى أمر الملك بهدم سد كان يغير مجرى النيل فعادت المياه إلى مجراها الطبيعى وارتفعت بمقدار ثلاث أذرع فى يوم واحد. وعاد ميخائيل من رحلته واستقبل بحفاوة بالغة».

ويذكر لنا بروس حدثًا تاريخيًا آخر يتعلق بمحاولات مماثلة قام بها أهل الحبشة: «فى حوالى عام ١٢٠هـ/ ٧٣٨م شرع لاليبالا ملك الحبشة فى تحقيق الرغبة الكامنة لدى شعبه بتغيير مجرى نهر النيل (٢)». إذا كانت هذه الروايات صحيحة فى مجملها فإنها تؤكد إذن إمكانية تغيير مجرى نهر النيل وما يستتبع ذلك من وقوع ضرر بالغ على مصر، ولكن هل من الممكن أيضًا - من وجهة النظر الأخرى - أن يتم تغيير مجرى بعض الأنهار الصغيرة لتصب فى النيل بدلاً من أن تجرى وتستهلك مياهها فى الصحارى الإفريقية، إذا ما تم الاتفاق على ذلك مع حكام البلاد الجنوبية فيمكن التأكد من توفير فيضان مستمر الفائدة بالنسبة لمصر، بل ومن الممكن أيضًا أثناء فترات زيادة الفيضان عن الحاجة وجود وسائل

---

(١) فى ظل خلافة أبى القاسم ، الخليفة الثامن والأربعين بعد وفاة الرسول محمد ﷺ.
(٢) انظر كتاب بروس «رحلة إلى النوبة والحبشة» المجلد الأول صـ٦٠٩.

لزيادة مساحة الرقعة الزراعية، وذلك بجلب المياه إلى عدة مواضع من الصحراء مهيأة لتأسيس وإنشاء الواحات.

حول مواسم الفيضانات

وفقًا لما يذكر القدماء لاسيما هيرودوت الذى استفسر من الكهان عن طبيعة هذا النهر، فإن فيضاناته الموسمية كانت تحدث بصفة منتظمة، فى حين تكون الشمس أبعد ما يكون عن خط الاستواء السماوى فى فصل الصيف. ويعتبر المحدثون أن شهر يونيه هو أفضل الأوقات لبدء فيضان النيل، الذى لايبدأ فى الانخفاض إلا مع اقتراب الاعتدال الخريفى، ولكن قبل أن تصل الفيضانات فى هذه الفترة إلى مصر (على خط عرض القاهرة) يجب أن تكون قد بدأت من منبعها قبل سبعين إلى ثمانين يومًا ، فى الوقت الذى تكون فيه الشمس أبعد ما يكون عن خط الاستواء السماوى. وهى فترة تعد ثابتة إلى حد ما، وعلى الرغم من ذلك فقد جاءت بعض الفيضانات متأخرة وكان لها عواقب وخيمة.

وبسبب جهل الأقباط ببعض الأمور وتشاؤمهم فإنهم يعتقدون أن تلك الفترة تبدأ يوم ٢٠ يونيه، ويتم الإعلان عنها كل عام بما يسمونه «النقطة»، التى يدَّعون أنها تسقط عشية هذا اليوم، وهى على وجه التحديد نقطة القديس يوحنا، ويعتقدون أن هذه النقطة - التى هى فى الواقع ليست شيئا آخر سوى قطرة ندى - تنقى الهواء وتطرد الطاعون وتنبئ بفيضان مثمر للنيل.

وفى الحقيقة توجد قطرات ندى وفيرة تسبق الفيضان كل عام وتعتبر ذات تأثير صحى جيد.

وربما يبدو لنا من المستحيل أن نتتبع خطوات منتظمة فيما يخص ظاهرة الفيضانات، حيث إنها ترجع إلى أسباب مختلفة تتمثل فى الموسم والوفرة ومدة الأمطار وقوة وعدم ثبات الرياح وفى نهاية الأمر نجد أن نهر النيل ليس هو النهر الوحيد الذى يفيض فى الصيف (١)، حيث نجد فى إفريقيا والهند أنهارًا ينطبق عليها ذلك.

---

(١) موسم الأمطار فى الحبشة يمثل الشتاء بالنسبة لشعوب هذه المنطقة.

حول أسباب الفيضانات

لن نعرض هنا وجهة نظرنا ، ولن نقوم بالإعلان عن مختلف النظريات المغلوطة التى وضعها القدماء لتفسير أسباب الفيضانات السنوية لنهر النيل.

إننا نعرف جيدًا أن هناك كمية هائلة من الأمطار تسقط كل عام فى نفس الموسم على المنطقة شديدة الحرارة، وأن هذه الأمطار ترجع إلى تكون السحب على البحر الأبيض المتوسط، ثم تحملها الرياح إلى خط العرض المرتفع هذا، وهى رياح تهب سنويًا على المنطقة الشمالية فى مواسم ثابتة إلى حد ما.

إذن فالأمطار وحدها هى سبب نشأة فيضانات النيل التى تأتى فى نفس الوقت من العام تقريبًا، أما فيما يخص التغيرات والتقلبات فهى ترجع إلى جملة من الأسباب والظروف الطبيعية التى لاتجتمع أبدًا بنفس الطريقة دائمًا.

حول ارتفاع ومدة الفيضانات

إن الملاحظات التى سجلناها لمعرفة الارتفاع الفعلى للفيضانات، أوضحت أن تلك التى ترتفع إلى عشرين وأربع وعشرين ذراعًا أو أكثر فى مصر العليا، إذا بها تصبح خمس عشرة ذراعًا فى القاهرة، وذراعين فقط عند رشيد ودمياط.

يرتفع مستوى سطح ضفتى النهر تدريجيًا بشكل يتناسب جيدًا مع انحدار سطح المياه، إلا أن هذا الانحدار يختلف وفقًا لاتساع مجرى النهر أو انحصاره، ومدى تأثير تعرجاته بمفعول الرياح ، حيث إن السرعة فى منحنى يدفع التيار إلى الشرق من الممكن زيادتها بفعل الرياح الغربية، فى حين أن نفس هذه الرياح تميل إلى انخفاض السرعة فى المكان الذى يتجه فيه التيار بشكل عكسى.

على أنه يجب أن يكون هناك اتجاه مستقيم فى منطقة منتظمة الشكل ومستقرة من مجرى النهر حتى يتسنى للرياح - رغم تقلباتها - أن تنطلق بسرعة يمكن حسابها مع مقارنة الانحدار ومقاومة الأرض ، وتشكل هذه العناصر فى مجملها نظام النهر، ولكن الطبيعة لا تستجيب عادة لكل هذه الافتراضات.

حيث نجد أن من غير المجدى أن نحاول إثبات قانون للفيضانات والانخفاضات اليومية فى موضع معين من مجرى النهر، ويصدق نفس القول على مدة الفيضانات التى تخضع لتوافق عدد من الأسباب المختلفة التى لايمكن التكهن بها، فمن المعروف على سبيل المثال أن الفيضان أضعف فى إسنا عنه فى قنا رغم أن هذه المدينة الأخيرة تنخفض عن الأولى بمقدار درجة ، إلا أننا سرعان ما نجد تفسيرًا لذلك عندما نضع فى اعتبارنا ضيق مجرى النهر فى قنا، وكذلك المنحنى ذا الزاوية القائمة تقريبًا من جهة الغرب والذى يؤدى إلى وجود اتجاه معاكس لرياح الغرب التى تحمل المياه لأعلى ولمدة زمنية أطول.

ومن الغريب أيضًا أن ينخفض النيل فى صعيد مصر رغم أنه لايزال يرتفع فى القاهرة ومصر السفلى ، كما يصل إلى الجزء المنخفض من قناة الإسكندرية ولازالت المياه ترتفع، رغم أن الانخفاض يكون ملموسًا بالقرب من الرحمانية.

وينتج عن هذه الاعتبارات السابقة أنه يجب عمل دراسة خاصة عن حركة الفيضانات لنحصل على مدى تأثيرها ونستفيد من ذلك فى خدمة احتياجات الزراعة والسكان ، وعن طريق هذه المعلومات يمكن تأسيس نظام مناسب للرى يتلاءم مع مختلف الأماكن بمصر.

حول تأثير الفيضانات

لعلنا ندرك بما فيه الكفاية أنه دون تواجد المياه على الأراضى لمدة معينة حتى يتم ريها بالقدر الكافى، فلن نحصل إلا على محصول ضعيف، أو ربما لن نحصل على أى محصول بالمرة. ويكمن المفعول الجيد للفيضانات فى التغطية الشاملة الكافية للأرض ومن ثم فى تقديم التغذية الملائمة للنباتات عن طريق الماء الذى يساعد على نمو محصولين أو ثلاثة محاصيل ، بمساعدة الشمس المتوهجة ودون أن تكون هناك حاجة إلى أسمدة ، حيث تحمل المياة معها الطمى الخصب، ويمكنها بذلك أن تجدد الأرض لمصلحة المزارع وفى حدود احتياج النباتات.

ومن بين كل أنواع المزروعات فإن زراعة النيلة وقصب السكر والأرز تقدم جميعها إشارة خاصة على ذكاء الفلاح فى اقتصاد المياه والتجديد فى مبدأ توفير البيئة الجيدة للنباتات.

قياس الفيضانات

من الممكن أن نستنتج مما سبق ذكره عن مفعول الفيضانات أنه ينبغى وجود قياس لعمليات الرى، فإن الفيضان الضعيف قد ينبئ بقدوم المجاعة والآلام التى تصاحبها، كما أن الفيضان الزائد عن الحاجة يؤدى أيضًا إلى وقوع مأساة، فالأراضى التى تم تبريدها وريها لمدة طويلة لاتكون صالحة للزراعة فى كثير من الأحيان بسبب تأخير مواسم البذر.

وسوف نذكر قياسات هذه الفيضانات المسجلة عند عمود المقياس، ونعرض مصدر الأخطاء المتناقضة للقدامى والمحدثين من خلال تعريف معدل الفيضانات الأكثر ملاءمة للزراعة ولمواسم الحصاد «انظر الجزء الثانى من هذه الدراسة».

ومن خلال تجربة طويلة ومؤسفة تأكد لنا أنه ينبغى خشية الفيضانات الضعيفة والزائدة عن الحاجة على حد سواء ، وأثبتت هذه التجربة أن المعدل المتوسط هو الذى يوفر وحده للمزارع المحصول الجيد ويؤكد للحاكم اكتمال دفع الضرائب. ومن خلال كل هذه الاعتبارات ندرك أن المعدل الكافى للرى الشامل يتراوح ما بين ثلاث عشرة إلى أربع عشرة ذراعًا فعليًا «٢١ إلى ٢٣ قدمًا»، ولا يجب الأخذ فى الاعتبار بأقاويل الرحالة الذين ذكروا أن المعدل المناسب لمحصول جيد هو ٢٠ إلى ٢٦ ذراعًا، وهم يرجعون فى ذلك إلى خط عرض القاهرة، حيث إن هذه الأذرع ليست هى التى يتم قياسها عند العمود، كما سأشرح فيما بعد.

ويمكن للكفاءة المناسبة أن تعالج مشكلة المياه الزائدة عن الحاجة، خلال الفيضانات، عن طريق نظام جيد للرى والتجفيف، وعلى أية حال فعند الضرورة يمكن للسدود التى تحبس الماء فى الهويس أن توجه للبحر الفائض عن القنوات، كما يمكن أيضًا ضخ المياه فى الأجزاء المنخفضة من الصحراء، وفى كل مكان يتيح الفرصة لزراعة نباتات مفيدة.

وبنفس الطرق يمكننا فى الفيضانات الضعيفة حبس الماء ومنعه من الجريان بدون فائدة حينما تكون الزراعة فى حاجة إليه، ولهذا السبب نفسه قام القدماء بفتح مصرف للنهر فى الحوض الواسع الطبيعى لبحيرة موريس. ولكى يتسنى

تطبيق نظام التحسين هذا، فلا غنى عن الدراية الكافية بنظام نهر النيل، كما ينبغى دراسة البلاد من الناحية الچيولوچية والزراعة الموضعية والصناعة. تلك هى إذن المعارف التى ينبغى الحصول عليها من خلال الإعداد لخريطة مائية لمصر، ودراسة كافة الظروف، وهو السبب الذى أدى إلى انتشار المهندسين فى مختلف محافظات مصر.

ويعد النظام الحالى للرى بمثابة بقايا هزيلة لنظام أفضل، فقد تحمل ما يكفى من المحاولات المستمرة لاستغلال السلطة، حيث يقوم ذوو النفوذ والقادرون بتوجيه عمليات الرى لما يخدم مصالحهم الشخصية غير عابئين بجيرانهم أو بالمصلحة العامة وكان ينبغى أيضًا مقاومة هذا التدخل غير المسؤول ، وتهيئة المناخ المناسب للقضاء على استغلال السلطة.

وبعد غزوه لمصر ومن أجل تحقيق المصلحة العامة قام السلطان سليم الأول بإعادة العمل الجاد إلى قواعده القديمة، للتحقق من أفضل توزيع للمياه وما سيترتب عليه من تأثير عظيم الشأن يزيد من رخاء البلاد، كما خصص مبالغ مستقطعة سنوية من الميرى للصيانة الدورية للقنوات والسدود التى تشرف عليها الحكومة.

وكان هناك حرص شديد على أن تستخدم هذه المبالغ بأسلوب اقتصادى نزيه، فلم يكن فى الإمكان الاستيلاء عليها أو توظيفها بعيدًا عن الغرض الأساسى لها (١).

---

(١) يمكننا الحكم - من خلال الخطاب التالى - على الرأى السائد بخصوص أهمية صيانة القنوات والسدود والكبارى التى كان يخصص لها ثلث الدخل من الضرائب.

من الخليفة عمر بن الخطاب - وهو من تولى الخلافة بعد أبى بكر - إلى عمرو بن العاص القائد تحت إمرته: «يا عمرو بن العاص إن ما أطلبه منك عند استلامك لهذه الرسالة هو أن تسرد لى وصفًا لمصر يبلغ من الصحة والدقة ما يجعلنى أتخيل أننى أرى بعينى هذه البقعة الجميلة - والسلام عليكم».

رد عمرو بن العاص:

«يا أمير المؤمنين لك أن تتخيل صحراء جرداء وريفًا خلابًا بين جبلين أحدهما على هيئة تل=

كانت صيانة القنوات الفرعية من قرية إلى قرية، والسدود والأشغال الهندسية الأخرى بمثابة المهام الداخلية لأهالى القرى والملاك، وكانت هذه العمليات تبدأ قبل زيادة مياه النيل بشهرين، ولضمان استفادة الملاك بقدر الإمكان كانت هذه الأعمال تنفذ بصورة جيدة ولكن عندما وصل المماليك إلى السلطة فسد كل شىء حيث استولوا على المبالغ المقررة لهذه الأشغال، أو أنهم لم

= من الرمال، والآخر على هيئة معدة جواد نحيف أو ظهر جمل. تلك هى مصر بكل ما فيها من خيرات وثروات بدءًا من أيزورا حتى ما نشا «أى بدءًا من أسوان حتى غزة» وهى تدين بجمالها إلى نهر مبارك يجرى بعظمة فى أرضها، كما أن زمنى الفيضان وانخفاض المياه منظمان كدورتى الشمس والقمر ، وهناك زمن محدد تأتى فيه كل منابع الكون لتقدم لملك الأنهار هذا كل عرفان فرضه القدر عليها تجاهه، فتزداد المياه وتخرج من مجراه لتروى كل أرض مصر وترسب لها الطمى النافع.

ولاتوجد وسيلة انتقال من قرية إلى أخرى إلا عن طريق القوارب الخفيفة العديدة مثل أوراق النخيل.

وعندما يأتى الوقت الذى تفقد فيه المياه أهميتها بالنسبة لخصوبة الأرض ينحسر هذا النهر الطيب إلى الحدود التى منحها له القدر، . ليتيح فرصة حصاد الكنوز التى خبأها فى باطن الأرض.

ويشبه هذا الشعب - الذى تحميه عناية السماء - النحلة، فيبدو وكأنه يعمل لغيره دون أن يستفيد هو من ثمرة تعبه وعرقه، فهو يحرث الأرض ويضع فيها البذور ثم ينتظر الرخاء والبركة من الخالق العظيم ، الذى يجعل المحاصيل تنمو وتزدهر ، فتنمو البذور وترتفع السيقان، وتتشكل السنابل بمساعدة قطرات الندى اللطيفة التى تعوضهم عن الأمطار.

وبعد المحصول الوفير يحل الجفاف. وهكذا تتعرض مصر على التوالى يا أمير المؤمنين لأن تكون فى صورة صحراء جرداء رملية وهضبة مفضضة اللون، ومستنقع يغطيه الطمى الأسود السميك والحقول الخضراء المموجة، والأرض المزينة بالزهور المتنوعة ، والحقول الواسعة المغطاة بمحاصيل صفراء اللون. سبحان الله خالق كل شىء!

وهناك ثلاثة أمور تسهم بصفة أساسية فى رخاء مصر وسعادة أبنائها : أولاً - عدم إقرار مشروع من شأنه زيادة الضرائب. ثانيًا - استخدام ثلث الإيراد فى زيادة عدد القنوات والسدود والكبارى والعناية بها، وثالثًا- عدم فرض ضرائب إلا على الثمار التى تنتجها الأرض. والسلام عليكم». (مأخوذ عن نص عربى بعنوان: مختصر جغرافى وسياسى عن مصر أيام سلاطين المماليك، ترجمة السيد ڤونتور) .

يخصصوا لها سوى مبالغ بسيطة تصرف فى حالات الضرورة القصوى ، غير عابئين إلا بمصالحهم الخاصة.

ولقد حاولنا ـ دون جدوى ـ البحث عن مستندات هذه اللوائح التى اختفت وأصبح كل شىء حاليًا خاضعًا للعرف الذى تحميه قوة القانون، مثله مثل السلطة، ويصدق ذلك أيضًا على العنف والتحكيم اللذين لايأتيان بجديد، ويمثلان فى أغلب الأحيان ظلمًا تجاه صغار الملاك أو من ليست لديهم القدرات المالية.

وكثيرًا ما يحدث ـ فى الأعوام التى يأتى فيها الفيضان ضعيفًا ـ أن تتسلح كل قرية لتستولى بالقوة من الخزان العمومى على المياه اللازمة لها، غير عابئة بمصالح جيرانها ، فيصبح رى قرية بأكملها خاضعًا لنتيجة معركة بين الفلاحين، ويحدث ذلك أيضًا عندما يأتى فيضان النيل عاليًا ، حيث رأينا بعض الفلاحين وقد جاءوا مسلحين لقطع السدود، حتى يتخلصوا من الماء الفائض الذى يخشون طول بقائه على أراضيهم، حتى لو كان فى ذلك ضرر لجيرانهم.

ولهذا فقد اضطررنا فى مرات عديدة أن نطلب تدخل السلطة العسكرية لإقامة العدل فى هذا الخصوص. وتقع أراضى القرى التى حرمت من الماء تحت بند الشراقى (١)، ولايتمكن الفلاحون من بذرها فى العام التالى حتى ولو كان النيل قد أتى بفيضان مناسب جدًا. وبعد توالى هذه الأحداث يمكننا أن نرى عائلات بأكملها من الفلاحين ينتقلون إلى الصحراء ليعيشوا عيشة البدو رعاة الغنم . ماذا يمكن أن ننتظر إذن من هؤلاء الرجال الذين خسروا كل شىء ؛ حيث إن من لايملك شيئًا يصبح بالفعل العدو الطبيعى لمن يملك كل شىء، فمصير هؤلاء يمكن أن يكون غير محتمل إذا لم يجدوا فى الإيمان بالقضاء والقدر وفى عقائدهم الدينية قوة تجعلهم يتحملون البؤس ورحمة تشعرهم بالرضا، فيقولون ببساطة «من الله» أى أن هذا الأمر من الله.

---

(١) تطلق تسمية الشراقى على الأراضى التى لم يتم بذرها ، لأنها لم ترتو بمياه الفيضان، وهى معفاة من كل الضرائب وعندما يكون الفيضان ضعيفًا تزداد مساحات أراضى الشراقى.

دراسات مقترحة بخصوص نظام الرى

حتى يتسنى تطبيق التوزيع الضرورى للمياه لتصل إلى المناطق النائية ، وحتى يتم توزيعها بأسلوب اقتصادى خلال الفيضانات الضعيفة مع وجود إمكانية لتصريفها وحمل الفائض منها إلى البحر أثناء الفيضانات العالية، وأخيرًا حتى نتمكن من وضع خطة شاملة لتوزيع المياه، فقد قمنا بتصور سلسلة من الأمور التى تتطلب وضع حلول لها ، وأبحاث يجب إجراؤها بهذا الخصوص، وسلمنا هذا كله إلى المهندسين المنتشرين فى المدن والقرى.

وكانت كل هذه الأمور التى تخص الصالح العام وتيسير الملاحة النهرية والرى والمحافظة على الصحة ، ترتبط بإنجاز مشاريع عامة ودقيقة ترتكز على كل الاعتبارات السابقة. وكان على المهندسين أن يضيفوا إلى عملياتهم الطبوغرافية والمساحية والقياسية أبحاثًا فى كل المجالات المهنية والإجراءات والمصاريف الخاصة بأعمالهم ودراسة أفران الجير والجبس والوسائل الميكانيكية المستخدمة، والمواد التى ينبغى إعادة إنتاجها، والوسائل التى تستخدم لنقل واستخدام المواد المختلفة.... وهكذا. ومن جانبه كان زميلنا السيد چيرار مكلفًا بالإشراف على دراسات مماثلة فى أى مكان كانت الخدمة تتطلب وجوده فيه. وأخيرًا فقد كنا نقوم بلفت أنظار المهندسين إلى ما يتعلق بالنواحى الإدارية والشرطة والتقاليد المحلية فى كل ما يخص عمليات الرى ، وكان عليهم أيضًا تنفيذ اللوائح القديمة التى عفى عليها الزمن ومن الممكن إعادة العمل بها فورًا عند الضرورة.

ولإنجاز كل هذه الأمور بنجاح كان المهندسون يتناقشون مع أهل البلد الذين يحتفظون بذكريات ثمينة أتاحت التعرف على أسرار المصالح الخاصة، التى تتعارض مع الإصلاحات اللازمة والضرورية. تلك إذن الأمور التى كان من الواجب معالجتها، وبالفعل فقد حصل العديد من المهندسين على معلومات مفيدة، ولكنها فقدت بعد الجلاء عن البلاد، ولم نجد فيها سوى ماتم نشره بالفعل فى دراسات السادة الزملاء.

تقدير القدماء للفيضانات

لم نتوصل حتى الآن لإيجاد حل لمقارنة قياس الفيضانات فى العصور القديمة مع قياسها فى العصور الحديثة. ولازلنا نتساءل حتى الآن لماذا كان الفيضان ذو الأذرع الثمانى كافيًا فى زمن موريس وأصبح غير كاف الآن؟.. وكيف كان مطلوبًا أن يصل الفيضان إلى خمس عشرة أوست عشرة ذراعًا؟.. «ما رواه لى الكهنة كما يقول هيرودوت ـ عن هذا البلد هو دليل آخر على ما ذكرته سابقًا، ففى زمن حكم الملك موريس وفى كل مرة كان النهر يفيض بمقدار ثمانى أذرع فقط كان ذلك يعد كافيًا لرى مصر أسفل ممفيس، وفى الوقت الذى كانوا يذكرون لى فيه هذه القصص، لم تكن تسعمائة عام قد مضت على وفاة موريس ، والآن إذا لم يصل ارتفاع النهر إلى ست عشرة ذراعًا، أو على الأقل إلى خمس عشرة ذراعًا، فإن مياهه لن تنتشر على كل الأراضى(١)».

لقد عانى الكثير من المؤرخين والمفسرين من صعوبة إيجاد تفسير لأن يكون فيضان مقداره سبع إلى ثمانى أذرع كافيًا، ويبدو لنا أن ذلك نتيجة أنهم جميعًا قد افترضوا بما فيهم هيرودوت أن هذا المقدار يجب أن يرتفع فوق مقياس مماثل من مياه النيل يبلغ بالفعل ثمانى أذرع أيضًا، وكان هذا يعد كافيًا فى زمن موريس. ونعتقد أنه إذا كان مستوى الفيضانات يرتفع بشكل ملموس كما يرتفع مجرى النيل وضفافه، فإن حجم المياه سوف يظل مستقرًا ولن يتغير إلا عند حدوث الفيضانات الضعيفة أو القوية.

لعل هذا يبدو صحيحًا إلا إذا كان القدماء قد وجدوا فارقًا كبيرًا عند قياس الفيضانات، ولايمكن إرجاع ذلك إلى وجود خطأ فى الحساب، فقد كانوا يقيسون بنسب متغيرة ومختلفة عن مستوى المياه المنخفضة، وينتج هذا الفارق عن تعدد مقاييس النيل التى وضعوها قديمًا عند المستوى الضحل (٢) للنهر.

---

(١) تاريخ هيرودوت، الكتاب الثانى، المبحث الثالث عشر.

(٢) إن مصطلح ضحل «مياه الصيف» يعتبر هنا غير ملائم للتعبير عن المياه المنخفضة نظرًا لأنه بقدوم الصيف يبدأ النيل فى الزيادة، ويبلغ أقصى مستوى له فى نهاية الصيف على وجه التحديد.

وفى اعتقادنا أنه لايمكن بأية حال من الأحوال إقرار هذه الزيادة الملموسة فى حجم المياه، حيث كانت ستعتبر فائضة، بل وذات عواقب وخيمة أيضًا إذا كان ارتفاع ثمانى أذرع كافيًا فى العصور القديمة. وسوف ترى فيما يلى أنه إذا كانت ثمانى أذرع كافية قبل موريس، فإن خمس عشرة أوست عشر ذراعًا أصبحت ضرورية جدًا بعد وفاة هذا الملك ، وعند دراسة هذه الظاهرة بصورة أعمق سوف ندرك كيف أن ارتفاع الفيضانات يتفاوت بسرعة بنسبة عدة أذرع دون أن ينتج عن ذلك زيادة فعلية فى حجم المياه، أو أن يؤدى إلى تغير مفيد أو ضار بالنسبة لعمليات الرى.

وفى الواقع فإننا نفترض أنه يمكن تعميق قاع النهر أكثر فأكثر عن طريق إزالة الرواسب، التى تجعل مجراه اليوم قابلاً للعبور فى عدة مواضع فى الجزء السفلى من النيل، ومن الواضح أن المياه المنخفضة التى لاتغطى اليوم سوى نصف الذراع الرابعة للمقياس، يمكن أن تنزل إلى أسفل العمود، أى إلى درجة الصفر ، وعندئذ فإن الفيضان الذى سوف يحتسب بدءًا من الصفر حتى بلوغ الذراع السابعة عشرة، سوف يكون فى الواقع بارتفاع ست عشرة ذراعًا بدلاً من ثلاث عشرة أو أربع عشرة ذراعًا التى نعرف أنها تعتبر كافية اليوم.

ومن المعروف أنه فى زمن موريس، لم يكن النيل يتحمل سوى كمية من المياه المرتفعة، فى حين تكون الكمية الأخرى قد صبت فى بحيرة موريس وبحيرة مريوط من خلال «بحر بلا ماء»، وتبعًا لذلك فلم يكن مجرى النيل عميقًا بما فيه الكفاية ليتحمل كمية كبيرة من الماء. ولاشك أنه إذا كانت مياه النيل سوف يتم احتواؤها بالكامل فى مجراه، من خلال إغلاق مصرف بحيرة موريس، فإن هذه المياه سوف تسبب حفرًا وتعميقًا لقاع النيل، وبنزول هذه المياه إلى المستوى الضحل وعن طريق تصريفها فى القنوات الجديدة التى كانت تصب فى البحر، فإن قياس الفيضان حينئذ كان سيصبح عالى القيمة، وبهذه الطريقة نكون قد انتقلنا بسرعة من معدل ثمانى الأذرع إلى معدل الست عشرة ذراعًا، دون وجود زيادة فعلية فى الفيضان، لأن الزيادة المقدرة بسبع أو ثمانى أذرع لم تكن تحدث إلا أسفل المستوى الثابت للفيضانات فى قاع النيل وبذلك نكون قد ضمننا تجفيف الأراضى المنخفضة للدلتا نتيجة جريان النهر بسرعة أكبر.

رأينا إذن كيف يكون فى الإمكلن الحصول على ذراعين أو ثلاث أذرع زائدة فى الفيضان بتعميق قاع النهر، ولكن ذلك سوف يكون حسابيًا فقط دون أن تنتج عنه أى زيادة فعلية فى حجم المياه، لأن حجمها يتغير وفقًا لعدد روافد النيل ويتلائم مع وجود الغابات التى تحيط بالمنابع التى يتغذى منها النهر جنوبًا.

تعلية قاع ووادى النيل
بفعل الرواسب النهرية

لطالما تساءلنا ما إذا كانت التربة المزروعة فى مصر والتى تشكل الوادى هى بالفعل نتاج الرواسب النهرية التى تخلفها فيضانات النهر أم لا. لقد أخبرنا هيرودوت أن تربة مصر السفلى هى نتاج رواسب النيل: «إن ما رواه لى الكهنة عن هذا البلد[١] يبدو لى معقولاً جدًا حيث إن أى رجل سديد الرأى لم يسمع عن مصر من قبل سوف يدرك يقينًا أن هذه البلاد التى يصل إليها الإغريق عن طريق البحر هى عبارة عن أرض تم تكوينها حديثًا، وأنها هبة النهر. وسوف يكون حكمه مماثلاً أيضًا عن الجزء الذى يمتد أعلى بحيرة موريس ولمسافة إبحار لمدة ثلاثة أيام وذلك رغم عدم إفصاح الكهنة لى عن أى شىء من هذا القبيل، ولكنها لاتعدو هبة أخرى من هبات النهر. تلك هى طبيعة مصر، فإنكم إذا أردتم الوصول إليها بحرًا فقبل بلوغ سواحلها بيوم كامل، عندما تقومون بإلقاء آلة تحديد العمق فى البحر، فلسوف تستخرجون الطمى عند قياس أحد عشر «أورجى» «أى اثنى عشر أو ثلاثة عشر باعًا * تقريبًا»، من العمق وهو ما يثبت عمليًا أن النهر قد أتى بالطمى حتى هذه المسافة.

ويضيف هيرودوت الذى يستخلص مما سبق نتيجة مفزعة بالنسبة لمصر: «نظرًا لطرح النهر المستمر هذا كل عام، فسوف يبلغ مستوى ارتفاع الأرض حدًا لن تستطيع معه مياه النيل أن تجرى فيه حتى أثناء أقصى ارتفاع لها، وبالتالى

---

(١) تاريخ هيرودوت، المجلد الثانى، المبحث الخامس.

(*) قياس بحرى يتراوح بين متر ونصف ومتران. (المترجم)

سوف تصبح مصر بلدًا مجدبًا وغير آهل بالسكان مطلقًا وستصبح على الحالة التى ذكرها المصريون أنفسهم عن معاناة الإغريق فى فترة الأعوام العجاف عندما تمنع السماء عنهم مياه الأمطار».

وقد شارك أرسطو وجهة نظر هيرودوت ووصل أيضًا إلى نفس النتائج، ويبدو أن كليهما أراد أن يضحد قول قدماء المصريين أنهم أقدم شعوب الأرض، حيث يذكر الرجلان أن مصر السفلى دون إقليم طيبة لم تكن موجودة منذ القدم، وأن المصريين يزرعون أرضًا نتجت عن رواسب النهر.

إذن فالقدماء هم أصحاب وجهة النظر الخاصة بتكوين الدلتا والتعلية المستمرة لأرض مصر على امتداد كل مساحتها بفعل الترسيبات السنوية لطمى النيل . وفى الواقع فإنه يكفى النظر بتمعن على الخريطة الجغرافية لمصر وملاحظة الجزء البارز المحدب للساحل الممتد بين الإسكندرية والسويس والثغور البارزة فى رشيد والبرلس ودمياط، حتى ندرك أن النهر وحده كان السبب فى تكوين هذا الامتداد للساحل (١)

(١) يمكننا إذن وبدون الرجوع إلى نظريات أخرى أن نقر بأن الدلتا هى فى مجملها نتاج نهر النيل. وعلى الرغم من ذلك فمن وجهة نظرى أن تكوين مضيق جبل طارق سواء كان عرضًا أو بفعل الإنسان وبالتبعية مصب البحر الأبيض المتوسط فى المحيط، يمكن أن يكون قد تسبب فى نشأة الدلتا وبرزخ السويس، وتعتبر وجهة النظر هذه أقل تقديرًا بالنسبة للروايات منها بالنسبة للاعتبارات الچيولوچية ، وبعد أن تجولت فى كل جهة من البرزخ لم أر به سوى مصب طبيعى متسع يربط بين البحرين. وأود أن أذكر أيضًا أن البحر المتوسط الذى يرتفع بمقدار خمس وعشرين قدمًا، من الممكن أن يكون منخفض المستوى عند السويس، وربما كان من الممكن أن يصب فى البحر الأحمر أثناء فترة الجذر، مثله مثل نهر النيل الذى يصب فيه.

وأعتقد أن أمرًا كهذا ينطبق أكثر على التفريغ الذى حدث فى الخليج العربى حيث تسبب ضيقه وعمقه بالقرب من الجبال المرتفعة التى تمتد بطول حوضه فى الجنوب فى جعله يبدو ناتجًا - أغلب الظن - عن تيار سريع ومستمر نحو المحيط الهندى، أكثر من احتمال كونه نتاج تدفق هذا البحر، الذى تقع حدوده عند قاع خليج السويس، فتجعله يفقد الكثير من حركته عند باب المندب، حيث تكون حركة المد والجذر ضعيفة.

ويذكر هيرودوت عند سرده ومناقشته لمختلف الآراء التى ذكرها القدماء بخصوص الحدود الحقيقة لمصر : «إذا كان شعورنا تجاه مصر صحيحًا ، فإن شعور الأيونيين [شعب قديم فى آسيا الصغرى] لايكون له أساس من الصحة ، وعلى العكس من ذلك فإذا كانت وجهة نظرهم هى

فـلا يمكن الشك إذن فى أن الدلتـا تشـغل حـوض خليج صـغـيـر أكـملتـه الترسيبات المتتالية للطمى. وسوف تصيبنا الدهشة إذا ما عارض أى أحد هذا

= الصائبة، فسيكون من اليسير أن أثبت أن الإغريق والأيونيين أنفسهم لايأخذون النتائج فى الاعتبار، عندما يذكرون أن الأرض فى مجملها تنقسم إلى ثلاثة أقسام، هى: أوروبا وآسيا وليبيا، وتبعًا لذلك لن يكون النيل هو الذى يفصل بين آسيا وليبيا، لأنه ينكسر عند حافة الدلتا ويحتويها بين فرعية بحيث يقع هذا القطر بين آسيا وليبيا».

(هيرودوت، المجلد الثانى، المبحث السادس عشر، ترجمة لارشيه).

ولم يكن الكثير من القدماء يقسمون العالم إلا إلى جزأين فقط، هما: أوروبا وآسيا، أما أفريقيا فقد اعتبرت جزءًا من أوروبا.

ويذكر ايزوقراط: «تنقسم الأرض فى مجملها إلى جزأين هما آسيا وأوروبا». (باينج، المجلد الأول، صـ٢١٦).

ويوجد آخرون يلحقون أفريقيا بآسيا مثلما يقول سيليوس إيتاليكوس. غير أن هذه الآراء رغم أنها تبدو= =متعارضة ظاهريًا، فمن الممكن وضعها فى الاعتبار بالرجوع إلى الفترات الزمنية التى ذكرت بها. وفى الواقع فربما كانت أفريقيا مرتبطة بأوروبا ـ قبل شق برزخ جبل طارق «حدثًا افتراضيًا» ـ ومنفصلة تمامًا عن آسيا عن طريق النيل، وكان البحر المتوسط يتصل بالبحر الأحمر عن طريق مضيق السويس، وتسبب انشقاق برزخ جبل طارق فى نشأة برزخ السويس ، وهنا تنفصل أفريقيا عن أوروبا وتتصل بآسيا كما هو الحال اليوم من خلال برزخ السويس، الذى يكون قد نشأ عرضًا بسبب انخفاض مستوى البحر الأبيض المتوسط [من واقع نظريتنا الخاصة بانشقاق البرزخ القديم بجبل طارق].

أما بخصوص الانحدار المستمر للأرض الممتدة بين السويس وبور سعيد، فإن عمليات قياس الأرض التى قمنا بها، تثبت بما يكفى أن المد والجذر ـ الذى يبلغ ثمانى أقدام فى السويس كما يحدث فى بعض الأحيان ، وفى حالة أن ينتج عنه دفعًا منتظمًا ـ لن يجد سوى حائل ضعيف نتيجة لتقلب رمال الصحراء، أو على الأحرى نتيجة أعمال الإنسان ، والمثال على ذلك نأخذه من المد والجذر الذى لاحظناه شمال بحيرة عامر، ومدى تأثيره فى بحيرة المنزلة من خلال عدد من البحيرات الشاطئية التى تفصل بين هاتين البحيرتين.

وربما يمكننى تأكيد القول بأن أفريقيا كانت فيما مضى منفصلة عن آسيا ، وذلك بملاحظة أن أى من المبانى الأثرية الموجودة فى طيبة ليس عليها أى منظر يشير إلى وجود جمال فى مصر ، فى حين أن النقوش الهيروغليفية تحوى عدة أنواع من الحيوانات الأقل قيمة فى الاستخدام والحاجات المحلية . ويعد هذا أمرًا جديرًا بالملاحظة، وعليه نستنتج أن الجمال لم تعبر من آسيا إلى مصر إلا بعد تشكيل البرزخ بالطريقة التى ذكرناها.

وتبعًا للروايات المتناقلة فإن تاريخ تكوين البرزخ يعود إلى تسعة عشر قرنًا قبل الميلاد، وهى فترة سابقة على الهجرة الأولى المعروفة لليهود إلى مصر.

وهناك اعتبار أخير يمكن إضافته إلى ما سبق، وهو تشابه الأنواع الساحلية من الأسماك التى نجدها فى البحرين جنوب وشمال برزخ السويس وهى دراسة أجراها السيد چيوفروى سان هيلير أثناء أبحاثه عن الحياة الحيوانية ، هذا إلا إذا ادعى البعض أن الحرارة وطبيعة الأرض وملوحة المياة وأشياء أخرى مماثلة قد أدت إلى الوصول إلى هذه النتيجة فى تلك المنطقة الضيقة الواقعة بين الدرجة الثلاثين والدرجة الحادية والثلاثين.

القول الحاسم، فنجد العديد من الأنهار الأخرى تحتفظ بهذه الظاهرة عند مصبها ولكن مع وجود بعض التعديلات.

وكلما توسع النيل وضاعف من عدد مصباته، وكلما تباعدت هذه المصبات يكون النهر قد فقد نسبة من انحداره ومن سرعته، وبالتالى يفقد الطاقة اللازمة للحفاظ على عمق مصباته، حيث تشكل الترسيبات الأرضية خطرًا حقيقيًا شديدًا يتمثل فى وجود البوغاز الذى يفزع البحارة.

ونعتقد أنه من الصعب تحديد معدل الارتفاع الخاص بالدلتا وبوادى النيل، فأين يمكننا العثور على علامة محددة نستطيع بدء القياس عندها؟.. ويمكن إثبات هذه الظاهرة غير القابلة للنقاش بشكل أفضل عن طريق أساسات قواعد الأبنية القديمة التى تغطيها حاليًا الأراضى المزروعة، ومرة أخرى إلى أى تاريخ ترجع إقامة هذه الأبنية ، وعلى أى ارتفاع تم تشييدها على سطح الأرض الذى تغطيه الفيضانات؟.. وعلاوة على ذلك فليس هناك ما يؤكد أنها كانت فى منأى عن الفيضانات.

حول خصوبة مصر

بعد كل الاعتبارات السابقة نرى أن خصوبة مصر ترجع على الأرجح إلى النسب المتغيرة فى الحجم والموسم والمدة الخاصة بالفيضانات ، وإلى امتداد الأراضى التى تتمتع بفوائد الرى، غير أن هذه النتيجة ترتبط أيضا بالحركة المضرة لرياح الخماسين التى تحرق أحيانًا المحاصيل قبل أن تصل إلى اكتمال نموها.

وبالإضافة إلى هذا الضرر العضوى الذى لايوجد له علاج فى كثير من الأحيان، هناك أيضًا المشاكل السياسية حينما تتدخل الحكومة فى هذه الأمور، وينتج ذلك عن الهجمات المتكررة للأعراب الذين يصيبون الفلاحين بقلق شديد ويضرون بالاستقرار والأمن الضروريين للغاية بالنسبة لأعمال الزراعة ، هذا بالإضافة إلى مظاهر البخل والشراهة للأسياد والجشع الشديد لموظفى

الضرائب الذين يستولون على معايش الفلاحين التعساء ذوى المصير الذى يحتاج إلى الكثير من الاهتمام والتعاطف.

ويمكن أن ينبثق من قوة وإرادة حكومة أفضل حلاً مناسبًا لكل هذه المشاكل والآلام. وفى الواقع فإن التاريخ والمبانى الأثرية لمصر تسجل بما لايدع أى مجال للشك أن هذا البلد ذائع الصيت من نواحى عدة قد دام مزدهرًا لمدة طويلة تحت قيادة حكام البلاد الأصليين من الفراعنة الذين جعلوا منه بلدًا زاخرًا بالأشغال والصناعات.

ولكن بعد الغزو والتخريب الفارسى فسد كل شىء، وبعد احتلال الإغريق حاول ملوك البطالمة إرجاع الأمور إلى ما كانت عليه، بل أضافوا أيضًا إلى مصر بريقًا بقى حتى بعد رحيلهم عنها، هذا بالإضافة إلى الاهتمام الذى وجهه إليها الرومان وأباطرة القسطنطينية والخلفاء الأوائل.

ومرة ثانية تدهورت الأوضاع بعد أن أصبحت مصر فريسة للأتراك والمماليك ووقعت بعد فترة وجيزة فى حالة اضمحلال وهى الحالة التى وجدناها عليها فى نهاية القرن الماضى.

ومن كل ذلك نستنتج أن هذا البلد يمكن أن ينعم بأفضل عصوره فى ظل قيادة حكومة مصلحة، تعمل على التأسيس وفرض الشرعية لتنعم البلاد بالسعادة والرخاء.

الجـزء الثانى
حول مقياس النيل (١)
تعريفات

هناك عدة أسـماء مترادفة مثل سيرابيس ونيلوسكوب ومقياس ونيلومتر، وتعنى كلها عمودًا للقياس مقسم إلى عدة أذرع (٢)، مقسمة بدورها إلى أشبار ثم إلى أصـابع، ونستطيع من خـلال هذا العـمود التـعرف على الزيادة الموسـمـيـة للفيضان وكذلك انخفاض المياه وأخيرًا التغيرات التى تطرأ على النهر نتيجة الأسباب الثابتة والمتغيرة التى ترتبط بقاع النيل ونظام النهر.

وتبعًا لهذه التعريفات نرى أن المقياس لايختلف - فى الغرض منه - عن السلالم المدرجة الموجودة حاليًا على حوائط الأرصفة وعلى ركائز الجسور وأكتاف الهواويس، لتقدير فيضانات الأنهار والجداول ، أو لتقدير معدلات المد والجزر ولتنظيم ارتفاع المياه وفقًا لحاجة الملاحة النهرية وتنظيم كمية المياه اللازمة للرى بحيث يتلاءم ذلك مع الحفاظ على الصحة العامة وتجفيف الأراضى فى الوقت المناسب.

---

(١) هو مصطلح عربى يضم أيضًا المبنى الذى يحوى العمود المدرج أو المقياس الفعلى.
(٢) كلمة ذراع تعنى المسافة بين الكوع وطرف اليد.

موجز تاريخى

ارتبطت مقاييس النيل بسيرابيس [١] الذى نسب القدماء إليه القدرة على زيادة الماء وتهدئة الأعاصير.

ومن المعروف أن هناك عددًا من هذه المبانى كان موجودًا منذ العصور القديمة، وفى الواقع فإن مجرى النيل الذى تقاسمه عدة حكام ، تطلب إنشاء العديد من مقاييس النيل للتعرف على الارتفاع المتغير بطبيعة الحال للفيضانات، وأقصى زيادة تصل إليها فى مختلف الأماكن.

وسوف نذكر بصفة خاصة (متبعين النظام الطبوغرافى حيث إننا لانستطيع تتبع الترتيب الزمنى) مقياس جزيرة فيله الذى وصفه سترابون والذى لايزال قائمًا، وقد قدم زميلنا السيد چيرار تقريرًا حوله إلى المجمع المصرى.

هذا بالإضافة إلى مقياس أسوان، ووفقًا لما يذكر هيلبودور فقد كان لايزال قائمًا فى نهاية القرن الرابع، وأمر عمرو بن العاص بترميمه. ومقياس أرمنت (هرمونثيس القديمة) [٢].

وقد شاهد بقاياه كل من جرانچيه وبوكوك، وقام زملاؤنا بقياس أبعاده. ومقياس قوس (كوبتوس القديمة) ، ومقياس دندره الذى يقال إن عمرو بن العاص قد أمر بإقامته، ومقياس أخميم وانصنا ويرجع العرب إقامتهما إلى الملكة دلوكة ملكة مصر ، ويذكر المقريزى أن الأذرع المنقوشة عليهما كانت أصغر حجمًا من مثيلاتهما فى المقاييس الأخرى.

هذا بالإضافة إلى مقياس حلوان الواقع أعلى منف داخل ضواحى مدينة الفسطاط، على الضفة اليمنى للنيل ، وقد أمر عمرو بن العاص بإصلاحه،

---

(١) ترجم چايلونسكى كلمة سيرابيس على أنها قياس النيل.

(٢) انظر وصف هرمونثيس بقلم السيدچومار ، الدولة القديمة ، الفصل الثامن ، واللوحة ٩٧ من المجلد الأول للوحات الدولة القديمة.

ومقياس منف الأكثر قدمًا والأعظم شهرة، ووفقًا لما يذكر المقريزى فقد كان هذا المقياس لايزال قائمًا عند وصول المسلمين إلى مصر(١).

ومقياس بابيلون الذى أقيم فى القلعة التى بنى على أطلالها القصر الحالى ويرجع بناؤه إلى الحاكم الإغريقى نيكولاجور الذى عاش فى عهد هرقل. وأخيرًا مقياس جزيرة الروضة وهو المقياس الحالى.

وكان هناك العديد من المقاييس الأخرى فى مصر السفلى مثل مقاييس الإسكندرية ومنديس وزيوس، ولم ترتبط هذه المقاييس بمبنى معين، فلم تكن تستخدم إلا فى قياس ارتفاع بضعة أقدام فى الأماكن التى ينخفض فيها الفيضان على الشواطئ الساحلية وفى منطقة الدلتا.

ويؤكد السيوطى وعدد من المؤلفين العرب أن الأذرع المنقوشة على مقاييس النيل الموجودة بالصعيد قد قسمت بدون تمييز إلى ٢٤ إصبعًا. ويذكر المقريزى أن عمود المقياس يقسم عادة إلى اثنتين وعشرين ذراعًا، وكل ذراع إلى أربع وعشرين إصبعًا، وإذا وجد بعض الأذرع أكثر من الاثنتين والعشرين الأولى فإن كلاً منها يحتوى على ثمان وعشرين إصبعًا.

ولكن كيف يمكن لعمود مقياس يجب أن يتغير ارتفاعه بتغير ارتفاع الفيضانات فى المناطق المختلفة من مصر، أن يحتفظ بطول ثابت يبلغ اثنتين وعشرين ذراعًا؟..

ونجد فى تعدد مقاييس النيل وتواليها ما يمثل أول الصعوبات التى واجهها المؤرخون لإعداد التقارير الحقيقية الخاصة بالفيضانات فى مختلف العصور.

---

(١) وضع هذا المقياس فى معبد سيرابيس، ومنذ اليوم الأول للفيضان كان يحمل إلى معبد أبيس ويظل هناك لمدة أربعة أشهر حتى انحسار المياه. ولهذا فقد كان مقياسًا محمولاً ومدرجًا لقياس مياه النيل.

وفى عام ٣١٨م أمر قسطنطين بنقل هذا المقياس من معبد سيرابيس ووضعه فى كنيسة الإسكندرية، وهنا عرف شعب مصر لأول مرة بوجوده. وأراد جوليان القضاء على المسيحية وإعادة مصر إلى عبادة الأوثان، فأمر بإحضار المقياس ومعه التمثال الذى يمثل هذا الإله إلى معبد سيرابيس، وبقى به حتى تدمير المعبد بالكامل على يد تيوفيل بطريرك الإسكندرية تنفيذًا للأوامر التى أعطاها له ثيودسيوس عام ٣٩٠م.

ومن الثابت أن القدماء كان لهم نفس الغرض، أى معرفة المدى الفعلى للفيضانات مع عدم الاعتماد على العمق المتغير للنيل عند مواضع مختلفة من مجراه. وفى الواقع فقد أنشئت هذه المقاييس لتحقيق مصالح منفصلة وغير متطابقة فيما بينها، وذلك حتى يتسنى تقدير ارتفاع الفيضانات المحلية المتغيرة بسبب درجة الانحدار، وعمق القاع وحركة الرياح وعدد وحجم قنوات الرى وفروع التحويل ومصبات النهر التى يمكنها فى مجملها أن تحجز أو تصرف المياه فى وقت ملائم.

ومن هذه الصعوبات أيضًا تنوع المقاييس الأولى التى كانت طبيعية أو تخيلية أو مركبة، والتى عادة ما تم إفسادها بفعل سلطة الغزاة أو الملاك فى مصر. وبدون الإشارة إلى أبعاد الذراع فى زمن الفرس والإغريق والرومان، نجد أنه فى زمن الخلفاء عام ٦٤٠م كان هناك سبعة أنواع من الأذرع كما يذكر القلقشندى وهى:

ذراع عمر التى استخدمت لقياس القاعدة الكبيرة فى البصرة إلى الكوفة، وذراع حازم أو الذراع الهاشمى والتى أطلق عليها أيضًا الذراع الكبيرة المقسمة إلى أربع وعشرين إصبعًا، وهى الذراع المستخدمة عند المسلمين فى الشريعة حيث كان الإصبع يقابل سبع حبات شعيرًا أو تسع وأربعين شعرة بغل. والذراع السوداء التى تستخدم فى قياس النيل والأبنية والبضائع الثمينة.

وأخيرًا الأذرع التى يطلق عليها أسماء بلال ويوسف وقصبة ومحرم. وكانت كلها تختلف فى أبعادها وتقسيماتها الثانوية ولذا لم يتم الاتفاق على وجود قياس محدد للفيضانات حيث كانت تستخدم لذلك مختلف أنواع المقاييس كما هو الحال فى هذه الأيام.

وينتج هذا التناقض أيضًا عن التغيرات التى نشأت نتيجة إنجازات القدماء الضخمة، حيث قاموا بشق القنوات وإقامة السدود الواسعة، وفتح مصبات، واستطاعوا فى النهاية الحصول على جريان أفضل لمياه النهر. والمثال على ذلك هو ما قام به الملك موريس حيث أمر بتحويل المياه إلى بحيرة تحمل اسمه

وأصبحت خزانًا هائلاً، إلا أن الأمر كله لا يعدو الاستفادة من منخفض طبيعى، حيث يرفض المنطق بشدة أن يكون مستودع الماء الضخم هذا من عمل يد الإنسان(١).

وحتى لا نقدم المزيد من التفاصيل عن الموجز التاريخى لمقاييس النيل نحيل القارئ إلى الدراسة التى أنجزها السيد مارسيل، حيث ذكر هذا المؤلف المتبحر فى العلم مختلف المؤرخين والجغرافين والرحالة الذين تناولوا بالبحث نهر النيل ومقياس الروضة تبعًا لترتيبهم الزمنى.

وفى هذه الدراسة يذكر السيد مارسيل المخطوطات الشرقية التى استقى منها معلوماته، ومختلف مؤلفى هذه المخطوطات ويحيل القارئ بالرجوع إلى المؤلفات الأصلية.

ويتناول فى الجزء الأول نهر النيل وأسماءه وصفاته فى العصور القديمة، ومختلف المقاييس التى بنيت تباعًا فى عصور حكام البلاد الأصليين والفرس والإغريق والرومان ومنذ ذلك الوقت حتى يومنا هذا تحت الحكم العربى.

ويتناول فى الجزء الثانى جزيرة الروضة وعصور بناء المقياس وعصور إعادة بنائه وإصلاحه وهذه الفترات هى :

- العصر الأول فى عهد الخليفة سليمان من عام ٩٦ إلى ١٧٧هـ بناءً
- العصر الثانى فى عهد الخليفة المأمون من عام ١٩٩ إلى ٢٣٢هـ - إعادة بناء.
- العصر الثالث فى عهد نفس الخليفة من عام ٢٣٣ إلى ٤٨٤* - إصلاحات.
- العصر الرابع فى عهد الخليفة المستنصر بالله من عام ٤٨٥ إلى ٩٢٥ - إصلاحات.

---

(١) انظر دراسة السيد چومار حول بحيرة موريس، دراسات العصور القديمة.

(٢) الدولة الحديثة، الجزءان الأول والثانى من هذا المجلد.

* يقصد الكاتب فى هذا الجزء : بدءًا من عهد هذا الخليفة واستمرارًا فى عهود الخلفاء التاليين له. (المترجم)

- العصر الخامس فى عهد السلطان سليم من عام ٩٢٥ إلى ١٢١٣ - إصلاحات.

- العصر السادس والأخير من عام ١٢١٣ إلى ١٢١٥ - ترميم المقياس على يد المهندسين الفرنسين .

وفى الجزء الثالث يقوم السيد مارسيل بتوضيح الحالة الراهنة للمقياس بإيجاز، حتى لايدخل فى تفاصيل تتعلق بالمهام التى أوكلت إلينا وحدنا - حسبما قال - والوسائل التى تم من خلالها تحديد الفيضان والإعلان عنها، ويقوم بعمل جدول زمنى من خلال كتابات المؤلفين العرب، من شأنه أن يوضح نتائج الفيضانات السنوية للنيل بدءًا من عام ٢٠ إلى ١١٥٢هـ، أى من عام ٦٤٠ إلى ١٧٣٩م، أى فى فترة ألف ومائة وثلاث وثلاثين سنة، يتم اختصارها إلى ألف واثنتين وعشرين سنة فقط بسبب وجود تسع فجوات زمنية تشمل مائة وأحد عشر عامًا، أو إلى فترة ١٠٥٠ عامًا لتشمل ثمان وعشرين سنة أخرى مثبتة فى الجدول، ولكن دون الإشارة إلى أية فيضانات (١).

وسوف نقوم بعمل دراسة تكميلية لهذا الجدول لتشمل فترة سبعين عامًا من سنة ١١٥٠هـ إلى ١٢١٥هـ، أى من ١٧٣٧ إلى ١٨٠١م - وفى الجدول الخاص بالأعوام الألف ومائة وثلاثة وثلاثين كانت الذراع تقسم إلى ثمان وعشرين إصبعًا، وفى الجدول الخاص بالسبعين سنة اللاحقة كانت تقسم إلى أربع وعشرين إصبعًا فقط.

وفى الجزء الرابع يقدم السيد مارسيل ترجمة الكتابات الكوفية والقرمطية والعربية المنقوشة على العمود وعلى العارضة العلوية (٢) للمقياس وعلى الأفاريز التى تزين الجدران الداخلية للحوض وللغرفة ، وأخيرًا الكتابات الموجودة

---

(١) لم يتم طبع هذا الجدول لأنه يحتوى على أخطاء واضحة، ويوجد فى كتاب «نبذات عن مخطوطات مكتبة الملك»، المجلد الثامن.

(٢) لاتعرض الكتابات المنقوشة على الدعامة العلوية سوى بعض الحكم والأقوال المأثورة وبعض آيات القرآن الكريم.

بالمسجد ، ويحدد الكاتب ستة عصور لهذه الكتابات. ثم ينقل النص العربى - الفرنسى المحفور بأحرف من الذهب على لوح من الرخام الأبيض وضعناه أعلى مدخل الردهة الموجود بهذا المبنى ، أثناء فترة ترميمه عام ١٨٠٠م - ١٢١٥هـ.

ثم ينتهى بالسرد التاريخى للأحداث التى وقعت فيما يخص المقياس أثناء فترة تواجد الفرنسين على أرض مصر لاسيما فيما يتعلق بالعيد السنوى لفتح سد الخليج، وهو العيد الذى يحتفل به عند وصول مياه النيل أو تكون على وشك الوصول إلى معدل الست عشرة ذراعًا.

ونلاحظ أن الترجمة الخاصة بثلاث الأذرع العلوية تحمل عبارة العصر الأول، وقد أشير إلى الذراع الرابعة عشرة برقم ١٥ والذراع الخامسة عشرة برقم ١٦ والذراع السادسة عشر برقم ١٧، ولكن أيا كان المقصود بالمعدل الرقمى لارتفاع الفيضانات المسجل على العمود ، فأن الست عشرة ذراعًا التى ذكرها القدماء لايمكن أن تنطبق إلا على موقع منف ، وخط عرضه المماثل لمقياس الروضة، حيث يتجه أكثر إلى الشمال بثلاثة فراسخ فقط (١).

وصف مقياس الروضة

يقع هذا المقياس عند الحافة الجنوبية لجزيرة الروضة داخل مسجد، يذكر المؤرخون عنه أن كان كنيسة قائمة عندما فتح عمرو مصر، وفى ظروف غامضة قام الملك الصالح نجم الدين بإقامة قصر المقياس والقلعة - وفقًا لما يذكر السيوطى نقلاً من المقريزى - وبدأ العمل فيهما عام ٦٣٨هـ - ١٢٤٠م، كما تم عمل الكثير من التجهيزات الدفاعية فى جزيرة الروضة فى هذه الفترة ، فقد كان معروفًا أن الفرنجة يجهزون لغزو مصر الذى حدث علم ١٢٤٩م بقيادة سان لويس.

---

(١) سوف نعود إلى فقرات أخرى من دراسة السيد مارسيل، التى تعفينا هنا من نقل تلك النصوص التى قمنا بجميعها بدورنا، حيث يبدو أن زميلنا كان مهتمًا فقط بترجمة الكتابات العربية فى هذا المبنى.

يتكون المقياس من عمود من الرخام الأبيض يرتفع وسط بئر مربعة الشكل، يمكن النزول إليها من خلال درجات مثبتة على جدرانها الداخلية ، ويبلغ قطر العمود ٢٠ بوصة، وهو مثمن الزوايا، ويحمل ست عشرة ذراعًا قسمت العشرة العليا منها فقط إلى ستة أشبار لكل ذراع ، ويحتوى كل شبر على أربع أصابع، أى أربع وعشرون إصبعًا لكل ذراع ، أما ست الأذرع السفلية فليس بها تقسيمات ثانوية.

وقدقاس المهندسون الفرنسيون أذرع المقياس بفرجار ذى ذراع ، ثم بمقياس مترى مصنوع من النحاس، ووجدوا أن أقصر الأذرع يوازى ٥٣٦ أو ٥٣٥ ملليمترًا وأن أطولها يصل إلى ٥٥٠ ملليمترًا.

ورغم أن ست الأذرع السفلية لاتحمل علامات لأية تقسيمات ثانوية، فإن الأطوال الجزئية لكل الأذرع وجدت كما يلى:

ارقام اذرع عمود المقياس	الأطوال	
	متر	ملليمتر
الذراع الأولى السفلية بدءًا من الصفر	٠	٥٣٩
الذراع الثانية	٠	٥٤٠
الذراع الثالثة	٠	٥٤١
الذراع الرابعة	٠	٥٣٥
الذراع الخامسة	٠	٥٣٦
الذراع السادسة	٠	٥٤٣
الذراع السابعة مقسمة إلى أربعة أشبار بها ست أصابع	٠	٥٣٨
الذراع الثامنة	٠	٥٣٦
الذراع التاسعة	٠	٥٤١
الذراع العاشرة	٠	٥٤١
الذراع الحادية عشرة	٠	٥٣٦
الذراع الثانية عشرة	٠	٥٤٨
الذراع الثالثة عشرة	٠	٥٥٠
الذراع الرابعة عشرة	٠	٥٤٦
الذراع الخامسة عشرة	٠	٥٣٦
الذراع السادسة عشرة والأخيرة	٠	٥٥٤٠
المجموع	٠	٨,٦٤٦

إذن فعند إضافة هذه الأطوال الجزئية بعضها إلى بعض، فسنحصل على مجموع يصل إلى ثمانية أمتار وستمائة وستة وأربعين ملليمترًا، وبقسمتها على ست عشرة يكون المقدار خمسمائة وواحدًا وأربعين ملليمترًا (أى قدمًا واحدًا وسبع بوصات وأحد عشر سطرًا و $\frac{٢}{١٠}$) أو ٢٠ بوصة بمقياس القدم الفرنسى لكل ذراع.

وكان هناك اعتقاد بأن جمعها بالطريقة السابقة هو الأفضل، وأن الاختلافات فيما بينها ترجع بطبيعة الحال إلى عدم دقة يد العامل، فحتى يتسنى رؤية علامات التقسيم الثانوية عن بعد اضطر إلى إضافة عرض معين لها أثناء النحت . وعلى هذا فإن نسب نفس الذراع كانت تختلف من وجه إلى آخر على العمود، ومن هنا ظهرت الحاجة لاتباع الطريقة السابقة حتى تستطيع الحصول على نتيجة حقيقية ومتوسطة لطول ذراع المقياس. وفى الواقع يبدو أن المهندس المعمارى كان هو الذى يتولى الإشراف على إنشاء هذا العمود فى بادئ الأمر، إلا أن منحت العامل تسبب فى إفساد الدقة عند التقسيم إلى أذرع.

وسوف نمتنع هنا عن تقديم مختلف المقارنات التى عقدناها بين أنواع الأذرع القديمة للوصول إلى قيمة ذراع المقياس، وسنكتفى بذكر هذه النتيجة الوحيدة التى ربما تكون افتراضية، حيث تبدو متوافقة مع الذراع العتيقة التى تساوى بذلك خمسمائة وتسع وثلاثين ملليمترًا، يمكن أن تصبح خمسمائة وواحد وأربعين ملليمترًا نظرًا للفوارق التى توجد بين المقاييس المستخدمة يوميًا فى أعمال الفنون والتجارة وفى عمليات المساحة التطبيقية.

وفى الواقع فإن قيمة الذراع العتيقة التى تم إقرارها هى:

	١	سطر	٥	متر
	(٠	١	١٧)	٤٦٢ .
إضافة شبر	(٢	١٠	٢)	٧٧ .
المجموع	(٢	١١	١٩)	٥٣٩ .

وتتم هذه الإضافة للأسباب المبينة أعلاه:

	١	سطر	٥	متر	
	(٢ .	١١	١٩)	٥٣٩	.
	(٠	١	٠)	٠٠٢	.
فنجد مقدار ذراع المقياس	(٢	٠	٢٠)	٥٤١	.

إذا كان يوجد مبنى من بين المبانى الأثرية التى مازالت تحتفظ بحالة جيدة، فهو إذن مبنى المقياس الذى وجهت إليه عناية خاصة عند إقامته، وبرغم أنه لا يرجع إلا إلى تسعمائة عام فقط، فهو يحمل لنا مقدار الذراع فى الفترة التى واكبت فتح مصر على يد الخلفاء العرب.

وبعد انحسار المياه تكون الرغبة ملحة لتنظيف البئر، فيتم النزول إلى القاع عن طريق سلالم وأقراص درجية تشغل واجهات البئر الأربع، ونرى بكل منها جزءًا مربع على هيئة نيشة، تنتهى بقوس قوطى له نوع من العقود المقلوبة محمولاً على أعمدة صغيرة مثبتة على الزوايا. ويوجد مجرى فى الزاوية الشرقية ينتهى بفتحة حجرية، وهو يقوم بإرجاع المياه التى تم تفريغها لتنظيف المقياس، إلى الفرع الشرقى للنيل.

ويوافق مدخل هذه القناة منتصف الذراع السابقة للعمود، وفى أعلى المجرى الأول يوجد مجرى ثان تدخل وتخرج منه مياه النيل بحسب ارتفاعها أو انخفاضها، ويوافق مدخل هذا المجرى الثانى الذراع الثانية للعمود، أى على ارتفاع ثلاث أقدام وأربع بوصات من بدن العمود، مما قد يشير إلى أن علامة الصفر كانت فيما قبل مثبتة أسفل مستوى المياه المنخفضة فى عصرنا هذا، أو أنه لم تكن هناك نية مطلقًا للأخذ فى الاعتبار حركة النيل أسفل هذا المدخل، حتى عندما ينخفض النيل عند هذا الجزء، وهو ما لم يحدث كما سنرى لاحقًا.

ويغطى هذه البئر قبة مستديرة الشكل مرتفعة قليلاً، ترتكز على دعامات مبنية من الطوب الأحمر عند زواياها الأربع، ويرتكز كل طنف متصل بالجدران

الداخلية للبئر على عمودين، أى بمجموع ثمانية أعمدة. وكانت هذه الأعمدة المنحوتة من الرخام الأبيض فى حالة تلف شديد وينطبق ذلك على قواعدها وتيجانها المركبة غير متساوية الأبعاد، وقد قمنا بترميمها. بل واستبدلنا بعضها بأعمدة جديدة كانت توضع فى أماكنها وقت الجلاء عن البلاد.

وبارتفاع العتب توجد اثنتى عشرة نافذة مصنوعة من الشريط المشبك وفقًا لطراز أهل البلد. وتوجد بالقبة مثلثات ذات أشكال هرمية تربط بين المربع والمضلع ذى الاثنى عشر ضلعًا، ثم تقوم مثلثات أخرى مشابهة للأولى بالربط بين القاعدة الجديدة للمضلع بالقاعدة المستديرة للقبة. وتتكون زخارف البناء من أشكال أوان، وزخارف عربية الطراز وأفاريز وكتابات، وهى مطلية بطريقة غير جيدة على الخشب والرخام.

وينبغى أن نعترف أن تنفيذ البناء لم يتم وفقًا للتخطيط الأولى له، الذى كان يحوى ـ بدون شك ـ الأشكال الجيدة للزخارف ذات الخطوط الرشيقة النقية، وترجع الفكرة الرائعة التى التصقت بأذهان الرحالة عن هذا المبنى إلى الألوان البراقة والنسق الخاص لبعض الزخارف فقط.

وإذا ما وجهنا النظر إلى الغرض من تشييد المقياس، فسنجد أنه كان دائمًا ذا فائدة قصوى، وبناء عليه فلا يزال مبنى المقياس يخدم المصلحة العامة، فرغم مرور تسعة قرون لا زالت حالته الراهنة ـ بما فى ذلك حالة البئر ـ تشهد بجودة تشييده.

ويذكرنا هذا المبنى الأثرى ـ ذو الطراز الغريب الذى يعد خليطًا بين الطراز العربى والرومانى ـ بالعصر الذى أقيم فيه، حيث قام العرب فى عهد خلفاء محمد (ص) بفتح مصر وألحقوا بها الدمار، ثم أرادوا الاستحواذ على إعجاب الأجيال اللاحقة، فقاموا بتشييد منشآت جديدة مستخدمين المواد والأجزاء غير المنتظمة الشكل والمتهدمة التى تخلفت عن المبانى الأثرية.

وتدخل المياه إلى داخل المقياس بميل من خلال القناة السفلى التى تأخذ المياه من الفرع الشرقى للنيل المواجه للقاهرة القديمة، بعد أن تكون قدمرت بدوامات

عنيفة، وعند وصولها إلى الجزء السفلى من الجدار تكون محملة بالكثير من الطمى الذى يملأ القناة، وعن هذا الطريق تكونت رواسب فى البئر بسمك عدة أقدام، ولهدا ينبغى تنظيف البئر كل عام، وهو ما يتم بصفة منتظمة وقت انخفاض مياه النيل.

ولكن نظرًا لأن المقياس يرتبط ببعض المعتقدات الشعبية، فلقد فضلنا ترك عملية التنظيف هذه إلى الإدارة القديمة، مكتفين بمراقبة خطوات التنفيذ والتقدم فى الأداء، حتى نتمكن من الحصول على نتائج لأبحاثنا، ولكننا عقدنا العزم على تسهيل إتمام هذه العملية بنجاح وتوفير المبالغ اللازمة لذلك.

وكان المشرفون الأتراك الذين ينفذون هذا العمل يعتبرونه منتهيًا فى اللحظة التى ينكشف فيها قاع القناة الموازى للذراع الثانية من العمود حيث لم يحدث من قبل إزالة الطمى أسفل هذا المستوى، وقد انتهزوا فترة راحة السادة المهندسين - الذين ظنوا أنهم سيواصلون العمل ليلاً - وتوقفوا عن التنظيف وأمروا العمال بالصعود. ولم نكن نعلم كم يبلغ ارتفاع الأذرع بالعمود، وكيف كان تقسيمها، وهل كان هذا التقسيم يختلف من ذراع إلى أخرى أم لا، وأخيرًا ما هو نوع أساسات هذا المبنى؟..

ونظرًا لشغفنا الشديد للحصول على إجابات لكل هذه الأسئلة، فقد عدنا إلى العمل بنشاط، رغم الصعوبات التى سببتها وفرة المياه، مما أدى إلى جعل عمليات التفريغ والتنظيف تتم بصعوبة بالغة فى مكان ضيق مثل هذا، لا سيما أنه كان ينبغى القيام بالعمليتين فى آن واحد. وكان لزامًا علينا أيضًا أن نتجاهل ضيق الضباط الأتراك، اللذين لم يسبق لهم القيام بأى عمل يتعدى حدود العمل المألوف، فبدوا وكأنهم يسخرون من الافتراض الخاطئ لمشروعنا. وكانوا شبه متأكدين من فشلنا، وتذكروا المحاولة غير المثمرة لأحد الباشوات الذى كان يبحث عن كنز أسفل العمود - كما قالوا - وافترضوا وجود نفس النية عندنا.

وطالبنا نحن بإصرار أن يستأنفوا العمل، فبذلوا فيه كل جهد لمدة ستين ساعة متواصلة، حتى وصلنا فى النهاية إلى بداية العمود وإلى قاعدته، وقمنا بقياسها بكل سهولة. وأخيرًا وبعد أن تفحصنا جيدًا العمود والجزء الأسفل من جدران البئر، أما بتوقف التفريغ، وصرح لنا الأتراك بمدى دهشتهم من نجاح مشروعنا نتيجة لإصرارنا، وأنهم لم يعرفوا مثل هذا النجاح منذ قرون بل ومنذ إقامة المقياس. ومن المؤكد أن هذه كانت المرة الأولى التى يشاهد فيها الشيخ المكلف بإدارة المقياس، وكذلك السقا باشا نفسه (١) . واللذان ارتبطا بهذه الخدمة منذ أربعين عامًا ـ قاعدة عمود المقياس، وأضافا مندهشين أنهما كانا يجهلان تمامًا التقسيم والتدريج السفلى.

ولقد تأكدنا من عدم معرفتهم بهذه الأمور عندما عقدنا مقارنة بين الجدول الذى يتضمن الزيادات المعلنة وبين البيانات الفعلية للفيضانات والتحركات الواقعية للنيل، التى تابعناها بأنفسنا فى المقياس بأكبر قدر ممكن من العناية.

وقد اتضح لنا ـ عن طريق إجراء المقارنة (٢) ـ النتائج التالية :

أولاً ـ إنه فى يوم ٢٣ محرم (٢ يوليه ١٧٩٩) أمر الشيخ بإعلان فيض النيل، على الرغم من أنه ظل راكدًا (بدون حركة محسوسة) عند معدل ثلاث أذرع وعشر أصابع، وظل هكذا حتى ٤ صفر (٨ يوليه).

---

(١) هو ضابط تركى مكلف بفتح السد فى يوم عيد النيل، وإحضار ماء النيل إلى الباشا. ويساعد أيضًا الشيخ الذى يشرف على المقياس فيما يتعلق بحساب زيادة مياه النيل.

(٢) تأكد السيدان جراتيان لوبير وسان چينى ـ وهما المهندسان اللذان أدارا هذا العمل ـ من التوافق الصحيح للنيل مع انخفاض المياه فى البئر عن طريق قياس الأرض. وكانا يرغبان بإلحاح فى إجراء هذه العملية. ونظرًا لأن القناة السفلية كانت دائمًا ممتلئة بالطمى، فقد كان الماء ينزل إلى البئر بسرعة أبطأ عما كان ينزل فى النيل، ولأن ذلك لم يكن معروفًا لبعض الرحالة فقد أدى بهم إلى الاعتقاد ـ خطأ ـ بإمكانية أن نقرأ ما على العمود لنتعرف على معدل الحركة الحقيقى للنيل فى الخارج، غير أن هذا لا ينطبق إلا على أعلى مسطح الدرج الخاص بالمجرى العلوى.

ثانيًا: فى يوم ١٩ ربيع (٢١ يوليه ١٧٩٩) أمر الشيخ بإعلان أن الفيضان وصل ارتفاع ست عشرة ذراعًا، كما أعلن فتح السد، على الرغم من أن النيل لم يرتفع بالفعل إلا بمقدار أربع عشرة ذراعًا فقط.

وكان الإعلان يفترض وجود فيضان فعلى يبلغ مقداره ست عشرة ذراعًا، فى حين أنه لم يبلغ فعليًا سوى عشر أذرع وأربع عشرة إصبعًا، مع الوضع فى الاعتبار خصم ثلاث أذرع وعشر أصابع لم يكن النيل قد انخفض أسفلها عند أدنى مستوى له.

ثالثًا - فى اليوم التالى تم فتح السد، وطبقًا للمحضر الذى حرره كبار ضباط القاهرة وبناء على وجوب استحقاق ضريبة الميرى، فقد أعلن أن النيل قد فاض بمقدار ست عشرة ذراعًا وسبع أصابع.

رابعًا - عندما بلغ النيل أقصى ارتفاع له، أى مقدار ست عشرة ذراعًا وإصبعين فى بداية الشهر الأول من التقويم الجمهورى للسنة الثامنة، وبدأ فى الانخفاض فى اليوم الثانى، بدأ الشيخ يعلن زيادة الفيضان حتى الرابع والعشرين من ربيع الثانى، ربما لأنه يوافق الخامس والعشرين من سبتمبر، وهو الوقت الطبيعى لزيادة النهر، مهما كانت حالة النيل بالنسبة للأقباط.

خامسًا - وأخيرًا، فى أثناء مدة ٨٦ يومًا من الزيادة والملاحظة، قدم لنا الشيخ - وبكل دقة - سجل الزيادات المعلنة يومًا بيوم، ولكنه بذلك يقدم لنا دائمًا نتيجة مختلفة عن نتيجتنا، التى نثق بصحتها تمامًا.

ورغبة منا فى معرفة أسباب هذه الفروق فقد سألناه إذا كان لديه المقياس المحمول وهل استخدمه لقياس الزيادات؟..

وبعد تكرار السؤال عدة مرات، أتاح لنا فرصة مشاهدة هذا المقياس المسمى «ذراع القياس أو البحر» (١)، وهو مقسم إلى أربعة أجزاء، وبعد أن قمنا بقياسه

(١) كان استخدام ذراع القياس معروفًا من قبل، حيث ذكر الفرنسى فريريه أن قدمًا من ذراع المقياس كانت توازى ثلاث عشرة بوصة فرنسية تقريبًا.

وجدنا أنه يصل إلى ثلاث عشرة بوصة وأربعة أسطر (بمعيار القدم الفرنسى)، وهو ما يوازى ثلثى ذراع المقياس (مكون من عشرين بوصة)، كما هو الحال بالنسبة للقدم الإغريقى المكونة من إحدى عشرة بوصة وأربعة أسطر و ثلثى، وهو ما يوازى ثلثى الذراع التى كانت تساوى سبع عشرة بوصة وسطرًا واحدًا.

وفى الواقع، كان ينبغى للشيخ أن يحسب أربعًا وعشرين من هذه الأقدام للذراع الواحدة حتى يوازى ذلك معدل الست عشرة ذراعًا على عمود المقياس، وكان ذلك يشير ـ فى الماضى ـ إلى الفيضانات الجيدة.

ويخبرنا القلقشندى أن العرب عندما فتحوا مصر وجدوا أنه عندما لا يبلغ فيضان النيل المعدل الكافى، فإن كل شخص يسارع بعمل خزين كافٍ لمدة سنة كاملة (١)، مما يسبب الاضطراب فى النظام العام، ووصلت الشكوى من ذلك إلى الخليفة عمر الذى أمر عمرو بن العاص بالبحث فى هذا الأمر. وهذا هو نص الخطاب الذى أرسله عمرو للرد على الخليفة:

«بعد أن بحثنا فى الأمر الذى كلفتمونا به، وجدنا أنه عندما ترتفع مياه النيل إلى أربعة عشر ذراعًا ينتج عن ذلك محصول يكفى لعام واحد، أما إذا بلغت مستوى الست عشرة ذراعًا، فيكون المحصول وفيرًا، وإذا توقفت المياه عند اثنتى عشرة ذراعًا أو وصلت إلى ثمانى عشرة ذراعًا فيكون المحصول قليلاً.

---

(٢) لازال الأثرياء يعملون خزينًا لمدة عام كامل، ولديهم فى منازلهم طواحين دوارة. كما يقوم آخرون بذلك أيضًا فى حين أنهم لا يملكون سوى طواحين يدوية. وتتسبب مشاعر القلق من انخفاض الفيضان فى وجود عمليات احتكار للمواد الغذائية ليعوض ذلك عن مخاطر القحط والمجاعة، ويكون ذلك عن طريق رفع ثمن السلع أو الامتناع عن بيعها وتداولها.

وقد شجع التنوع الكبير فى المحاصيل الحكومة على بناء مخازن تحسبًا لحدوث قحط فى الأعوام التى يكون النيل فيها منخفضًا، وحتى يتمكن الفلاحون .. على الأقل.. من بذر الأراضى، حيث يكفى المحصول الوفير حاجة السكان لمدة عامين. غير أن ذلك لم يرق إلى مستوى التنفيذ، ولابد من أن الحكام قد أدركوا أن تنظيم الصادرات ووقف عمليات الاحتكار سوف يؤديان إلى عدم حدوث مجاعة فى مصر على الإطلاق.

ودراية الشـعب بكل هذه الأمـور ـ من خـلال الإعـلان المألوف ـ تؤدى إلى تطورات تضر بالاقتصاد والتجارة».

ولمعالجة هذا الضرر، ربما فكر عمر فى إلغاء الإعلان، ولكن هذا الأمر لم يكن مستساغًا، ففكر فى وسيلة تؤدى إلى نفس الغرض، حيث لم يكن التغيير المفاجئ سيفيد وإنما كان سيؤدى إلى إخافة الشعب، ونظرًا لعدم وجود سجل عينى يتم مراجعته عند حدوث الفيضان فلم يكن من اليسير تطبيق تعريفة ضريبية مناسبة للمحاصيل.

ويبدو أن نفسية هذا الشعب ـ عبد عاداته ـ كانت ترتاح دومًا عندما يبلغ النهر معدل الست عشرة ذراعًا، الذى كان فى وقت من الأوقات يحقق الوفرة (١)، رغم أن مقدار هذا القياس لم يعد هو نفسه بعد مرور سبعة عشر قرنًا من الزمان.

وكان بترونيوس ـ حاكم مصر باسم الإمبراطور الرومانى ـ يمدح وفرة المياه، عندما يبلغ النهر معدل ثلاث عشرة إلى أربع عشرة ذراعًا، وهى التى تشكل مقدار الفيضان الفعلى للنيل فى وقتنا الحالى.

وربما حاولوا قديمًا ـ للتغلب على صعوبة تحقيق معدل الوفرة بوصول النهر إلى ارتفاع الست عشرة ذراعًا. أن يتفادوا ذلك عند إقامة المقياس عن طريق تثبيت علامة الصفر فى أسفل العمود عند مقياس ثلاث أذرع أسفل أدنى مستوى لمياه النيل، حتى يتوازى الفيضان مع ارتفاع الست عشر ذراعًا، وهنا تكون هذه القيمة اسمية فقط. ورغم ضعف الفيضان الحالى ـ من خلال ما سبق ذكره ـ حيث إنه ينقص فعليًا إلى اثنتى عشرة ذراعًا وأربع عشرة إصبعًا، فإنه يعد كافيًا لجعل جباية الميرى واجبة، مثلما حدث أثناء فترة تواجدنا فى يوليه عام ١٨٠٠م ـ ١٢١٤هـ، حيث ارتفع النيل إلى إصبعين فقط أعلى من الذراع السادسة

(١) تؤكد الملاحظة المدونة فى الجدول الزمنى لابن إياس هذا القول الحازم، إذ يقول: «تبعًا للعرف القديم يعد معدل الست عشرة ذراعًا هو مقياس الفيضان الوفير، ويتم الاحتفال بعيد النيل، عندما يبلغ النهر هذا الارتفاع».

عشرة، ولكن تم تقديم طلبات بتخفيض الضرائب. ومن أجل الحفاظ على العرف والتقاليد، وصعوبة تصحيح الأخطاء القديمة، فقد كانت هناك بعض التضحيات، كما كانت التغيرات الناتجة عن تعلية قاع النهر بطيئة جدًا وغير محسوسة من عام إلى آخر، فى أن المشرفين على وعاء الضريبة لم يُقدروا أية أهمية لتلك التغيرات. ومع ذلك، وبعد مرور عدة قرون، ثم تدارك هذه الأخطاء المتراكمة، ولم يعد بالإمكان التغاضى عنها. وربما تسبب الانخفاض الذى حدث بالعمود إلى الحفاظ على معدل الست عشرة ذراعًا للفيضانات المعلنة، رغم أن الفيضان الفعلى قد توقف عن الارتفاع بهذا القدر (١).

وهناك دافع آخر يحرك الرغبة فى إخفاء مدى وفرة الفيضان، وهو جشع الفئة الحاكمة، ورغبتها فى تخفيض الإعانات المالية واجبة الدفع إلى الحكومة، حيث ارتبطت الحصة النسبية لهذه الإعانات بوفرة المحاصيل، وقد انطبق هذا على الحكام العرب تجاه الخلفاء، ثم على البكوات تجاه الوالى، ويحرصون على ما فيه منفعتهم الشخصية حتى إذا لجأوا إلى المنازعات على السلع التى يحرمون منها دائرة نفوذهم المركزية بالامتناع عن ذكر مدى وفرة المحاصيل.

ووفقًا لما ذكره پوكول (عام ١٧٣٨)، فقد كان المصريون يخفون بقدر الإمكان - حتى عن الباشا نفسه - الوقت المحدد الذى يصل فيه النيل إلى معدل الست عشرة ذراعًا، فإذا حدث وهبط هذا المعدل فجأة فلن يستطيع السلطان إذن أن يتمسك بحقه فى طلب الجزية، بناء على الوفاء (٢)، الذى يكون قد أعلن عنه من قبل (٣).

ومن هنا نفهم أن المصالح المتعددة والمتعارضة قد أدت إلى هذا الغموض الذى حير كل الرحالة فيما يخص المقياس، الذى كان من الصعب دخوله، وبالطبع فقد

---

(١) عرض دو لوميو الكثير من هذه الاعتبارات.

(٢) «وفاء الله» يعنى أن الله قد وفى بوعده.

(٣) فى حالة الانخفاض المفاجئ، كانت مصر تعفى من الجزية.

كان للباشا الحق فى دخول المقياس، ولكن الجشع كان يدفعه ـ أحيانًا ـ لتفضيل مصلحته الشخصية، عن طريق غض النظر بدلاً من التحقق بأمانة من حقوق السلطان، رغم أنه كان الممثل الشخصى له، على أن الهبات التى قدمها البكوات إلى الباشا كانت أقل من قيمة الجزية بكثير.

وفى الحقيقة، فقد كان من السهل علينا إقامة مقياس للنيل على ضفاف هذا النهر، ولكن النتيجة المرجوة من وراء تشييده لن يكون لها أية ثمار فى ظل حكومة تعسفية مطلقة.

ورغم ما عُرف عن بوكول من سداد فى الرأى، فقد كتب عن المقياس مقدار نصف مجلد مما أدى إلى تعقيد المسألة، ويعتبر ما ذكره عن درج موسى صحيحًا، حيث تبدو درجاته الثمانى والعشرون غير متساوية فيما بينها، ولكنها فى مجملها تصلح لأن تكون مقياسًا ذا دقة كافية لتقدير ارتفاع الفيضانات، وهو ما يؤدى إلى تيسير القياس، خاصة وأن تلك الفيضانات، لم تكن عادة معروفة الارتفاعات.

ولعل التوافق بين الفيضانات والمواسم يدعو إلى التفاؤل بوفرة المحاصيل، إذا أخذنا فى الاعتبار وجود ظروف أخرى يمكن أن تنبئ بكمية الفيضان، فبعد أن لاحظ أهل البلد ـ فى يونيو ويوليو عام ١٨٠٠ (العام التاسع من التقويم الجمهورى) ـ أن كمية السحب التى تحملها الرياح إلى الجنوب كانت أكثر مما هى عليه عادة، تنبؤوا لنا بفيضان وفير، وقد أكد الحدث صدق ما قالوا، فجاء فيضان زائد عن الحاجة، ثم عادوا وتنبؤوا بأنهم سيتعرضون لوباء الطاعون عند انحسار المياه، وقد تسبب هذا الوباء بالفعل فى كوارث فظيعة فى صعيد مصر ونتساءل هنا ما قيمة النظريات المناقضة لتلك النتائج التى استطاعوا التنبؤ بها؟..

ومن أجل الاستقرار حول معدل القياس الخاص بالفيضانات النافعة والضارة للزراعة، فسوف نوضح ـ من خلال الجدول التالى ـ المعدلات الموازية للفيضانات

الفعلية، ولتلك التى تم استنتاج ارتفاعها من المقياس، وأخيرًا للزيادات المعلنة، وذلك باعتبارها إما غير كافية أو ضعيفة أو جيدة أو شديدة الوفرة، بناء على التقارير المشتركة لعمليات الرى، وتلك الملائمة للصحة (بالنسبة لخط عرض القاهرة):

نتائج الفيضانات	الارتفاعات الخاصة بالفيضانات			ملاحظات
	الفيضانات الفعلية	على عمود المقياس	الإعلانات العامة بمقياس الذراع من ١٣ بوصة، ١٤	
تكون غير كافية عندما تبلغ فقط	١٠:١١ ذراعًا	١٣,٥:١٤ ذراعًا، ونصف	(١) ١٨:١٩ ذراعًا	تعد هذه الفيضانات نادرة ويتبعها القحط، وإذا كان المعدل أقل من ذلك حدثت المجاعة حتمًا.
تكون ضعيفة عندما تبلغ	١١:١٣	١٤,٥:١٦,٥	٢٠:٢١	عددها كبير، وحينها يستوجب دفع الميرى.
تكون جيدة عندما تبلغ أو تقارب مقياس	١٤	١٧,٥	٢٢:٢٣	معتادة وتتسبب فى حدوث الوفرة.
تكون قوية جدًا عندما تصل إلى	١٥	١٨,٥	٢٤:٢٥	نادرة وخطيرة للغاية، وتحدث مجاعة وطاعون، أما إذا كانت أقوى مثلما يحدث أحيانًا، يوجد فيضان عام، ويتسبب فى حدوث الكثير من الكوارث.

(١) فى الإعلانات العامة لا تُذكر الأرقام الموجودة فى العمودين السابقين من الجدول، حيث إن شيخ المقياس أو المنادين الذين يعملون تحت أوامره لا يفصحون ـ مثلما لاحظنا ـ عن أية أرقام محددة خلال هذه الإعلانات.

وعلى الرغم من إيجابية هذه المعطيات - فى الوقت الحالى - فإنها مازالت قابلة لتقديرات مختلفة فيما يتعلق بوفرة المحاصيل، أى أنه من الممكن عادة ومن خلال نظام محكم لتنسيق دور السدود وتدفق المياه، أن يتم اتقاء القحط حتى إذا كان ارتفاع المياه أقل من عشر أذرع، كما يمكن أن نتحاشى الخطر المفجع للفيضانات ذات الخمس عشرة أو الست عشرة ذراعًا من التدفقات الفعلية.

ويكمن هذا النظام فى تدبر الوسائل التى من شأنها أن تدفع المياه الزائدة عن الحاجة إلى الجريان بسرعة، كما فعل القدماء وبنجاح كبير، وذلك عن طريق استخدام بحيرة موريس، ذلك الخزان الطبيعى الواسع الذى فتحوا فيه قناة للاتصال بالنيل عند موضعين يقعان عند أقرب نقطة بين البحيرة والنهر.

وبطرق مماثلة يمكن علاج عدم الانتظام فى الفيضانات، إلا أن هذا الأمر يتطلب الكثير من المثابرة من طرف حكومة مستقرة ومصلحة.

ترميم المقياس

تعرض مبنى المقياس لتلف كبير خلال فترة حصار القاهرة، فى العام التاسع من التقويم الجمهورى بسبب مجاورة سلاح المدفعية له، وأيضًا بسبب وجود مستودعات للذخائر داخل غرفة المقياس نفسها وفى ممرات هذا المبنى الأثرى.

وبسبب معرفة القائد الأعلى الجنرال مينو لقوة تأثير العقيدة على الشعب، الذى يعتبر المقياس بمثابة مكان مقدس، فقد أمر بإجراء الإصلاحات المناسبة فيه.

وسوف نوضح الأعمال التى كلفنا بأدائها نتيجة لذلك من خلال المذكرة التالية:

«مذكرة خاصة بإصلاحات السادة مهندسى الطرق والكبارى، فى مقياس جزيرة الروضة، إذعانًا لأوامر القائد الأعلى الجنرال مينو، فى العام التاسع من

الثورة الفرنسية (١٢١٥ هـ) [١]. كان لابد للسادة المهندسين أن يوجهوا كل عناية ممكنة إلى المقياس موضع اهتمام المصريين، ونظرًا لرغبة هؤلاء المهندسين فى ضمان استمرار وصول مياه النيل إلى المقياس، فقد تأكدوا من ارتفاع العمود وتقسيمه إلى أذرع، وهما الأمران اللذان لم يتفق عليهما الكتاب والرحالة، بل وحتى سكان البلاد أنفسهم.

ومن خلال تحقيق الأغراض السابقة، قاموا بتنظيف البئر حتى الأساسات فى وجود مصطفى شيخ المقياس، والسقا باشا، اللذين شاهدا التقسيم الأول بأسفل العمود ذى البدن المقسم إلى ست عشرة ذراعًا، الست الأولى منها ليس بها أى تقسيمات ثانوية، فى حين أن العشر أذرع العلوية مقسمة إلى أربعة وعشرين جزءًا أو إصبعًا. وكل من هذه الأذرع الست عشرة يوازى أربعة وخمسين سنتيمترًا من وحدة القياس الخطى للفرنسيين.

يبلغ ارتفاع تاج العمود ذراعًا وأربع أصابع، وعليه قطعة مربعة من الرخام الأبيض ترتفع بمقدار ذراع واحدة وإصبعين.

ومنذ عدة قرون كان فيضان النيل يرتفع إلى مستوى أعلى من الست عشرة ذراعًا، وحتى يكون بالإمكان تقدير هذا الفائض أعلى مستوى بدن العمود، ثم تدريج طبلية التاج بحيث يصبح الارتفاع الإجمالى ثمانى عشرة ذراعًا وست أصابع، بما فى ذلك تاج العمود والعارضة العلوية، التى وضعت فى هذا المكان عام ١١٨٠ هـ بأمر من حمزة باشا قائم مقام القاهرة، وكادت تقع من شدة تآكلها فتم استبدالها بأخرى جديدة هى قطعة واحدة تمتد من شرق البئر إلى غربها وترتكز على طبلية تاج العمود.

كما جددت البئر، وأصلحت الغرفة ذات الرواق الدائرى، وأعيد طلاء القبة، وأولينا كل عناية ممكنة للكتابات الكوفية والعربية، وتم عمل حواجز جديدة

---

(١) قام السيد لوبير بإرسال هذه المذكرة إلى السيد فورييه المسئول الأعلى بالسلطة القضائية، بناء على طلب الديوان بغرض حفظها فى الملفات.

بالقرب من البئر، وبنينا غرفتين ملاصقتين للرواق، وخصصناهما لاستخدام شيخ المقياس.

وبنى رواق عند مدخل هذا المبنى الأثرى، وبين الرواق ذى الأعمدة والباب وضعنا لوحًا كبيرًا من الرخام الأبيض (١)، نقش عليه نص فرنسى - عربى نقشًا غائرًا بحروف من ذهب (انظر دراسة السيد مارسيل فى الجزء الأول من هذا المجلد) (٢).

(١) عُهد إلى السيد دو شابرول بالقيام بالأعمال الخاصة بترميم المقياس.

(٢) كان السيد جوبير هو مترجم القائد الأعلى الجنرال أثناء وجود الحملة فى مصر، وكانت مهامه تتمركز عادة فى القاهرة، وأخبرنا أنه زار المقياس ولاحظ اختفاء هذه الكتابة واستبدالها بكتابة أخرى قرأ فيها: «رغم كل ما قيل عن فيضان عام ١٢١٥، فإن فيضان عام ١٢١٦ كان أعظم وفرة بكثير، فى ظل حكم الباشا الجديد». ويبدو أن الأتراك قد ظنوا أن هدفنا كان نسبة حدث هام - كان بالنسبة لهم بمثابة المعجزة - إلى تواجد الفرنسيين بمصر، إلا أن الأمر لا يعدو بالنسبة لنا التحقق من أمر مادى وطبيعى. وترك الأتراك التاريخ بالنسق الفرنسى على ما هو عليه وكان مسجلاً على طبلية تاج العمود، وذلك إما لأنهم لم يلاحظوه، أو لأن هذا التاريخ كان مكتوبًا بالأحرف الكبيرة ذات الطراز الرومانى فلم يفهموا معناه.

حـول عيد النيل

يعد الاحتفال الذى يقام سنويًا بمناسبة فتح سد قناة القاهرة، يومًا بهيجًا للشعب. ونظرًا لأن المصريين منذ القدم كانوا ينظرون إلى النيل على أنه مصدر وجودهم الفعلى والسياسى، فليس من الغريب إذن أن يحتفلوا دائمًا بالفيضان بروح متجددة يملؤها التفاؤل عندما يصل النيل إلى معدل الوفرة الذى يحدد يوم هذا العيد.

وينبغى لذلك أن تكون المياه قد وصلت فى مقياس الروضة إلى المعدل المعروف، ويكون المنادون قد أعلنوا عن وصول الفيضان إلى الستة عشرة ذراعًا، ويعترفون بوفاء الله، وذلك حتى يتسنى فتح السد، الذى يشكل محور الاحتفال يوم العيد.

وفى هذا اليوم يصل الباشا وسط حاشية كبيرة العدد وعظيمة الشأن إلى مأخذ ماء القناة ويجلس فى السرادق بالقرب من السد، وبكل عظمة وفخامة يظهر البكوات وبصحبتهم حشود من المماليك المنتمين للوحدات العسكرية، ويحضر كذلك عظماء البلد، ويزداد الاحتفال رونقًا بوجود الخاصة وعدد كبير من أفراد الشعب. وتنتشر على صفحة المياه المراكب المطلية والمزخرفة والمزينة بالأقمشة والأعلام بألوان براقة ومتنوعة.

وتشكل خلفية هذه اللوحة الجذابة المناظر الطبيعية ونباتات جزيرة الروضة الجميلة، فينتج عن ذلك كله منظر غاية فى الروعة. ولكن تظل هذه الحفلات ناقصة، حيث لا يتواجد بها من يدخلون الجاذبية على حفلاتنا فى أوروبا ويزيدون من بريقها، فمن المعروف أنه فى كل البلاد الخاضعة لحكم المسلمين، لا تشارك نساء كل منزل - المحجوبات تمامًا عن نظر الرجال - بأى شكل من الأشكال فى الحفلات العامة.

وفى اللحظة التى يأمر فيها الأغا بشق السد، تبدأ الأبواق فى العزف، وينقل الهواء النغمات الحادة غير المنسجمة المنبعثة من مختلف الآلات الموسيقية، وتنطلق صيحات الفرحة فى كل مكان، وتُسمع طلقات المدافع والبنادق، والحركات المنتظمة لفرسان الخيالة، واستعراض الثياب الفاخرة الثرية، ذلك كله يضفى على الاحتفال صبغة من الفتنة، ويزيد روعة منظر السماء والطراوة الناتجة عن مياه الفيضان من مشاعر النشوة العامة.

ويمتد العيد حتى الليل وينتهى بالألعاب النارية، وأنواع الإنارة المختلفة، ويختتم العيد بكل المباهج المزعجة التى لا يخفف أى شىء من تأثيرها بين عامة الشعب.

لقد احتفل الفرنسيون بهذا اليوم لمدة ثلاثة أعوام متعاقبة، وفى العدد رقم خمسين من الجريدة الفرنسية «أحوال مصرية»، قمنا بنشر المحضر الذى حرره كبار ضباط القاهرة، والذى يقر وجوب دفع الميرى عن العام الثامن من التقويم الجمهورى.

ويؤكد عدد من المؤرخين أن المصريين اعتادوا فيما مضى التضحية بفتاة بإلقائها فى نهر النيل كل عام، أو على الأقل عند حدوث النكبات، وبالنظر إلى هذه القصة فإن ذلك لا يدع مجالاً للشك فى أن أغلب الشعوب قد قدمت ضحايا بشرية، وفى المقابل فمن المعروف أن النبى موسى، ومختلف المشرعين، والعديد من الملوك قد رغبوا فى إلغاء مثل هذه الأضاحى المنافية للقيم الدينية.

وأمر أمازيس (١) ملك مصر بتقديم أضاحى بهيئات بشرية، بدلا من التضحية الفعلية بالبشر، وربما يكون هذا الأمر بمثابة المنشأ للعرف المسمى بـ «عروسة النيل».

وأيًا كانت العصور التى كانت تُمارس فيها هذه العادة البربرية والتوقيت الذى ألغيت فيه من مصر، فأغلب الظن أنها لم تكن موجودة خلال حكم البطالمة والرومان، فعلى الأقل هذا ما نستنتجه من خلال عدم ذكر ذلك الموضوع فى كتابات اليونانيين.

غير أننا نتساءل عن مدلول الخطاب الذى أرسله الخليفة عمر إلى القائد عمرو بهذا الخصوص، فى فترة لاحقة من العصور القديمة. ذلك لأنه بحسب ما ذكر الكاتب العربى مرتضى، ففى السنة التى فتح فيها عمرو مصر، وبعد أن امتنع النيل عن الفيض فى موسمه المعتاد، أتى كبراء الشعب لملاقاة هذا الفاتح واستئذانه فى السماح لهم - تبعًا للعرف القديم - بتزيين فتاة عذراء بأثمن الملابس ثم إلقائها فى النهر، وهنا اعترض القائد الذى يدين بدين محمد (ﷺ) اعتراضًا شديدًا. وبسبب عدم فيض النيل فى فترة ثلاثة الأشهر التالية للانقلاب الصيفى، أتاه المصريون مرة أخرى يتوسلون إليه وقد أصابهم الفزع، فكتب إلى الخليفة عمر لإخباره بهذا، ورد عليه الخليفة قائلاً:

«يا عمرو، إنى لأزكى سلوكك هذا والحسم الذى أظهرته، فالشريعة التى جاء بها النبى محمد يجب أن تقضى على هذه التقاليد البَربرية، وعندما تنتهى من قراءة هذه الرسالة، ألق بالورقة التى تحتويها فى النهر».

وقرأ عمرو بها هذه الكلمات:

«بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله! من عبدالله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى نيل مصر: إذا كان الفضل يرجع

---

(١) أصبح أمازيس ملكًا لمصر بعد وفاة أبريس ٥٦٩ عامًا قبل الميلاد، وحمل معه إلى العرش أفكارًا فلسفية وحكيمة جدًا. وتميز ملكه الذى دام أربعين سنة بإنشاء العديد من المبانى المفيدة. وقام فيثاغورث بزيارة مصر فى عهده.

إليك فى جريان مياهك إلى يومنا هذا فى مصر، فقف عن الجريان. أما إذا كانت إرادة الله القادر على كل شىء هى التى تجعلك تروى هذا البلد بمياهك، فإننا ندعو الله أن يأمرك بالجريان. والصلاة والسلام على النبى وآله!».

وبعد ذلك ـ كما يذكر المؤرخ ـ ارتفعت المياه بمقدار عدة أذرع (١). ولا نعتقد كثيرًا فى وجود هذه العادة عند المصريين، لأنه من الجائز أن يكون بعض الكتاب قد تم تضليلهم عند الحديث عن عرف مازال قائمًا، أو أن يكونوا قد أساءوا تفسير ماسمعوا، حيث إنهم لم يكونوا شهداء عليه، أو أن يكون المترجمون ـ أخيرًا ـ قد أساءوا نقل العبارات.

وكان يعتقد أن الأضحية المدعاة يرجع أصلها إلى الحدث التالى: كل عام عند حلول تنظيف الخليج عند مأخذ الماء بالقرب من المجرى كان يقف شاهد ربما كان وجوده ـ من حيث المبدأ ـ ضروريًا للتحقق من مستوى ارتفاع الرديم (٢).

ويتم تدمير هذا الشاهد ـ الذى يطلق عليه اسم «العروسة» والمزين بالورود ـ يوم العيد عن طريق اندفاع المياه التى تدخل بكل قوة فى القناة بعد فتح السد(٣)، وأحيانًا يتم تدميره بالمياه قبل الاحتفال.

---

(١) سافارى، «رسائل عن مصر»، المجلد الأول، ص ١١٢ .

(٢) يأخذ هذا الشاهد ـ الذى يوضع وسط رديم الرمال والطمى الناتج عن ترسيب مياه النهر بفعل الدوامات عند مدخل القناة ـ شكلاً مخروطيًا يصل ارتفاعه إلى تسع أو عشر أقدام، ويغطى بالنباتات والورود، ويطلى باللون الأبيض، ويطلق عليه اسم «العروسة». وعلى بعد مسافة بسيطة بالقرب من السدود الخاصة بالقناة، مازلنا نجد بعض بقايا العمود الذى يُطلى باللون الأبيض، ويأخذ شكلاً يماثل شكل عمود المقياس.

ونظرًا لأنهما مدرجان فمن الممكن الاعتقاد بأنهما قد جلبا من بعض مقاييس النيل القديمة.

وفى اليوم السابع عشر من الشهر الحادى عشر من التقويم الجمهورى للعام الثامن، وصل تدفق المياه إلى مستوى عشر أذرع فى مقياس الروضة عندما بلغت المياه قدم العروسة.

(٣) كان يُعهد بتثبيت السد الذى يغلق المجرى أمام الخليج، وتنظيف هذا الجزء من القناة بين مأخذ الماء والقاهرة، إلى الأغا أغلى، الذى يصبح المتعهد لإتمام هذه الأعمال عن طريق مبلغ ثابت مقداره مائة ألف مدينى (ثلاثة آلاف وخمسمائة وواحد وسبعون جنيهًا وتسعة فلسات). وهناك نظام متبع لتنفيذ هذا العمل =

ويبدو أن هذا العرف كان بمثابة ذكرى لا تُمحى لعادة بربرية، لم يستطع المسلمون إلغاءها نهائيًا، رغم أن إيمانهم يجعلهم يحملون كل ضغينة ممكنة للوثنية، ورغم الصرامة الشديدة لحكمهم، ويرجع ذلك لأن هذه العادة تمثل خطأ قديمًا لشعب يعتقد فى الخرافات.

إلا أن العيد نفسه يحوى خاصية تبدو وكأنما تذكرنا هى الأخرى بالأضحيات البشرية التى كانت تقدم للنيل، حيث يقوم الباشا أو شيخ البلد الذى يرأس هذا العيد بإلقاء آلاف قطع المدينى فى القناة حتى يأخذها أفراد الشعب، ويتم ذلك فى نفس اللحظة التى يفتح فيها السد وتندفع المياه بشدة، ويحتشد الرجال والنساء والأطفال منتظرين هذا السخاء الذى يتشاجرون من أجله ويتنازعون عليه، فى حين يغمرهم تيار المياه، ويبعثر العملات النقدية واضعًا حدًا لهذا الصراع الخطير عادة.

كما نجد أيضًا بعض الغواصين الذين يستقلون قوارب خفيفة، ويتنافسون بشدة على عبور الثغرة التى فتحت فى السد، تاركين أنفسهم لسرعة هذا الشلال الذى تسقط مياهه من ارتفاع ثمانى إلى عشر أقدام، وكثيرًا ما نجد هذه

= حيث يحضر الأغا ليعسكر على التلال المحيطة التى تشكلت من المخلفات السنوية للأنقاض، ويستقر هناك طوال فترة العمل التى تمتد من خمسة عشر إلى عشرين يومًا. ويعمل ملاحظو العمال على الإسراع فى التنفيذ باستخدام السوط والعصا فى أحيان كثيرة لضرب العمال من الرجال أو النساء أو الأطفال.

ويراقب الأغا أيضًا عملية تنظيف القناة التى تعبر القاهرة، ويكون حينئذ فى ضيافة الخاصة من الأعيان، كلٌ عند حدوده وفى دائرة ممتلكاته.

ولا يتم فى مصر مطلقًا نقل الأتربة والمخلفات عن طريق الدفع، وإنما بحملها على ظهور الحمير والجمال، وفى أحيان كثيرة يقوم الرجال بحملها على أذرعهم، حيث تكون موضوعة فى أسبتة من الخوص المتشابك يحملها العامل بين ذراعيه أو على رأسه كما هى العادة. إن هذه الوسيلة البطيئة إلى حد ما كانت ستتسبب فى مضاعفة مصاريف النقل إذا ما استخدمناها عند القيام بالمشروعات والأعمال فى أوروبا، رغم أننا لا نعطى العامل يوميًا إلا ١٢:١٨ بارة (٩:١٣ فلسًا) و٨:١٠ بارة فقط للنساء والأطفال.

وكان الأتراك والمماليك يدفعون أقل منا بكثير، بل إنهم فى أغلب الأحيان كانوا يجعلون العمل بلا مقابل.

القوارب السريعة تسحب معها بعض هؤلاء الغواصين الشجعان المتهورين. وهكذا يمكننا القول بأنه لاتزال تقدم أضحيات بشرية إلى النيل كل عام.

كان بعض الأقباط يذهبون للحج - فيما مضى - إلى قرية تقع على بعد يومين من الإبحار أعلى القاهرة، حيث توجد «بئر الجورنو»، التى كانت لديها - وفقًا لما يقولون - المقدرة على تحديد موعد فيضان النيل، وكانوا يقومون هناك بعمل بعض التأملات حول فيضان النيل. وتبدو هذه البئر ممتلئة جزئيًا الآن، وعمودها مكسور من أسفل بحيث يكاد يكون غير مرئى عند انخفاض النيل. ولايزال أسقفهم يزور هذه البئر كل عام لأداء بعض الصلوات وقت الفيضان، وتوجد عادة أخرى لم يذكرها أى من الكتاب، وتوقفت عن الحدوث عند قدوم الفرنسيين إلى مصر : فى يوم عيد الصليب (الثالث عشر من سبتمبر)، يصل بطريرك الأقباط فى احتفالية كبيرة إلى ضفة القاهرة القديمة المواجهة للمقياس، ويكون النهرحينئذ فى أوج فيضانه.

وهناك - وبمساعدة رجال الدين المحاطين بجموع غفيرة من الشعب - يمسك البطريرك بصليب من الفضة ويقدمه ثلاث مرات، كما يقدم أيضًا القربان المقدس، ولكنه لا يبدأ فى هذا التقديم إلا بعد أن يسمع صوتًا يقدم أول عرض، مثلما يحدث فى المزاد [1]، ثم تعلو الأصوات بعد ذلك لزيادة القيمة المذكورة، وعندما تتوقف المزايدات، يقوم البطريرك بإلقاء الصليب فى النهر، وفى نفس اللحظة يقفز الغواصون الشبان المهرة إلى النهر للعثور على الصليب، إلا أن الارتفاع الكبير وعمق المياه وسرعتها والتيارات الشديدة الموجودة جنوب المقياس، كل ذلك يجعل هذا المشروع خطيرًا جدًا ومصحوبًا أحيانًا بحوادث.

جداول الفيضانات

يبقى أن نقدم نبذة من السجل الذى تدون فيه الحركات اليومية للمياه أثناء الفيضان وأثناء انخفاض النهر. ويشمل الجدول الفترة الممتدة من الرابع عشر من الشهر العاشر للتقويم الجمهورى فى العام السابع، حتى العشرين من الشهر

---

(١) ترتفع هذه العطية الخاضعة للمزايدة عادة إلى ثلاث أو أربع بورصات (بورصة القاهرة توازى خمسة وعشرين ألف مدينى) أى تقريبًا ثلاثة أى أربعة آلاف فرنك.

التـاسع فى العـام التـاسع (١)، وبعد هذه الفتـرة لم تسمح لنا الأحداث العسكرية والسياسية بمواصلة الاعتناء بسجلنا.

وإذا أردنا أن نسبق هذا الجدول بتقديم بيان (٢) بالستة والستين فيضانًا المتوالية من عام ١١٥٠ إلى عام ١٢١٥هـ ـ ١٧٣٧ ـ ١٨٠٦م، فسوف نشير إلى أن هذه النتـائج التى يتم أخذها فى الاعتبار بالنسبة للمحاصيل فقط، كان من الممكن أن تبدوا قاطعة إذا كانت منظمة وثابتة.

ولكن نظرًا لكل الأسباب التى سبق عرضها، لن نستطيع ضمان صحة هذه النتائج الرقمية، وينطبق هذا على تلك التى حاولنا أن نفسرها بالجداول الزمنية المماثلة، التى وضعها بعض الكتاب العرب خلال مدة السنوات الماضية بتاريخ الهجرة، بما تحويه من سهو وتضارب وأخطاء. إما بسبب الكتاب أو بسبب أخطاء المترجمين أو الناسخين (٣).

---

(١) من ٢ يوليه ١٧٩٩ إلى ١٠ إبريل ١٨٠١ (١٢١٤ : ١٢١٦هـ).

(٢) أخذناه من شيخ المقياس، الذى أعطاه لنا مجبرًا، فى إطار من الغموض.

(٣) انظر فى «ملاحظات ومقتطفات من مخطوطات مكتبة الملك» ج٨، ص١ ومايليها، مقالة عن علم الكون لابن إياس، بقلم السيد لانجليه.

بيان بفيضانات النيل والإعلان عنها، بداية من عام ١١٥٠ هـ حتى عام ١٢١٥هـ:

التاريخ الهجرى	الإعلانات العامة بمقياس الذراع ذات الأربع والعشرين أصبعًا		يمكن اعتبار الفيضان:	ملاحظات
	ذراع	إصبع		
١١٥٠	٢٠	١٨	ضعيف	نعتبر
١	٢٤	١٢	قوى جدًا	الفيضانات:
٢	٢٣	١٢	جيد	غير كافية: من
٣	٢٤	٦	قوى جدًا	٢٠:١٨
٤	٢٣	٨	جيد	ضعيفة: من
١١٥٥	٢٣	١٢	جيد	٢٢:٢٠
٦	٢٢	١٢	جيد	جيدة: من
٧	٢٣	١٢	جيد	٢٣,٥:٢٢
٨	٢٤	١٢	قوى جدًا	قوية جدًا:
٩	٢٣	١٩	قوى جدًا	بدءًا من ٢٤
١١٦٠	٢٤	٣	قوى جدًا	فأكثر.
١	٢٢	٦	جيد	
٢	٢١	١٢	ضعيف	
٣	٢٣	٥	جيد	
٤	٢٤	٥	قوى جدًا	
١١٦٥	٢٣	١٢	جيد	
٦	٢٤	٣	قوى جدًا	
٧	٢١	٦	ضعيف	
٨	٢٣	٦	جيد	
٩	٢٤	٦	قوى جدًا	
١١٧٠	٢٤	١٢	قوى جدًا	
١	٢٢	١٢	جيد	
٢	٢١	١٩	ضعيف	
٣	٢٢	١٧	جيد	
٤	٢٣	١٢	جيد	

التاريخ الهجرى	الإعلانات العامة بمقياس الذراع ذات الأربع والعشرين إصبعاً		يمكن اعتبار الفيضان	ملاحظات
١١٧٥	٢٠	١٧	ضعيف	
٦	٢٢	١٧	جيد	
٧	٢٣	٦	جيد	
٨	٢٤	٦	قوى جدًا	
٩	٢٣	٥	جيد	
١١٨٠	٢٢	١٢	جيد	
١	٢٠	١٢	ضعيف	
٢	٢٣	٥	جيد	
٣	٢٣	١٢	جيد	
٤	٢١	١٢	ضعيف	
١١١٨٥	٢٣	٦	جيد	
٦	١٩	١٦	غير كافٍ	
٧	٢١	٦	ضعيف	
٨	٢٢	٦	جيد	
٩	٢٣	١٢	جيد	
١١٩٠	٢١	٦	ضعيف	
١	٢٢	١٢	جيد	
٢	٢٣	٦	جيد	
٣	٢٤	٦	قوى جدًا	
٤	٢٣	١٢	جيد	
١١٩٥	٢٢	٦	جيد	
٦	١٨	٦	غير كافٍ	
٧	١٨	٢	غير كافٍ	
٨	١٨	١٢	غير كافٍ	
٩	٢٠	١٢	غير كافٍ	
١٢٠٠	٢٢	٢	جيد	
١	٢٢	١٧	جيد	
٢	٢٢	١٢	جيد	

التاريخ الهجرى	الإعلانات العامة بمقياس الذراع ذات الأربع والعشرين إصبعاً		يمكن اعتبار الفيضان	ملاحظات
	ذراع	إصبع		
٣	٢٢	٢	جيد	
٤	٢١	١٨	ضعيف	
١٢٠٥	٢١	١٨	ضعيف	
٦	١٩	١٤	ضعيف	
٧	٢٠	١٤	غير كافٍ	
٨	١٩	١٢	غير كافٍ	
٩	١٩	٩	غير كافٍ	
١٢١٠	٢٠	٢١	ضعيف	
١	٢٠	١٢	ضفيف	
٢	٢٠	١٦	ضعيف	
٣	٢٢	٢٣	جيد	
٤	٢٠	٢٣	ضعيف	
١٢١٥	٢٣	٢	جيد	

بيان عام بالستة والستين فيضانًا :

الوفيرة وفرة زائدة عن الحاجة ١١

الجيدة ٣٠

الضعيفة ١٦

غير الكافية ٩

المجموع ٦٦

ومن الممكن طبعًا الحصول على نتائج أكثر قطعية للفيضانات، من خلال بيان الضرائب السنوية.

ولكن بعد معرفة هذه النتائج، ينبغى الإقرار أيضًا أن هذه الضرائب قد تم تطبيقها بإنصاف وبالتناسب مع نواتج المحاصيل، وهذا ما لايبدو محتملاً للذين يعرفون النظام الإدارى لمصر، والتعسف الذى يتعرض له الرجل المنتج فى هذا البلد، وكل ذلك لصالح المستهلكين وأصحاب النفوذ.

ومن الممكن أن نكون قد حصلنا - بمعدل متوسط من ثمانى سنوات - على أقل من أربعة فيضانات جيدة. ويتفق الكتاب العرب فيما بينهم على الإقرار بأن الفيضان الجيد ينتج محصولاً يكفى لحاجة السكان لمدة عامين. إلا أن الضمانات ليست كافية عندما نضع فى الاعتبار (انظر الجدول السابق) العدد المتتالى من الفيضانات التى تصل إلى ثلاثة أو أربعة، فبعضها كان جيدًا بحيث أتاح الفرصة للدائرة المركزية أن تحتكر التصدير بسبب امتلاء المخازن، أما البعض الآخر فكان غير كافٍ أو زائد عن الحاجة، مما تسبب فى حدوث نكبات ومجاعات وسلبيات أخرى لم يكن فى المستطاع تفاديها، وأدت إلى نتائج مهلكة.

سجل عن حركة نهر النيل كما سجلت فى مقياس الروضة: السنة الأولى:

التاريخ العربى	التاريخ الفرنسى		الإعلانات العامة بالقاهرة		الارتفاعات الحقيقية للنيل					ملاحظات
	القديم	الجديد			بالقدم الفرنسية			بذراع المقياس		
محرم	يوليو	شهر	ذراع	إصبع	قدم	بوصة	خط	ذراع	إصبع	• أدنى مستوى
١٢١٤ ٢٨	١٧٩٩ ٢	١٠ ١٤	٢	١٢	٥	٨	٤	٣	١٠	لمياه النهر من
٢٩	٣	عام ١٥	٢	١٤	٥	٨	٤	٣	١٠	١٩:١٤ من
٣٠	٤	٧ ١٦	٢	١٥	٥	٨	٤	٣	١٠	الشهر العاشر
صفر ١	٥	١٧	٢	١٦	٥	٨	٤	٣	١٠	للتقويم
٢	٦	١٨	٢	١٨	٥	٨	٤	٣	١٠	الجمهورى،
٣	٧	١٩	٢	٢٠	٥	٨	٤	٣	١٠	العام السابع.
٤	٨	٢٠	٢	٢٣	٥	٩	٢	٣	١١	
٥	٩	٢١	٣	١	٥	١٠	١٠	٣	١٣	• بدأ النيل فى
٦	١٠	٢٢	٣	٤	٥	١١	٨	٣	١٤	الزيادة ليلة ١٩
٧	١١	٢٣	٣	٦	٦	٠	٦	٣	١٥	أو ٢٠ بعد أن
٨	١٢	٢٤	٣	٩	٦	٣	٠	٣	١٨	ظلت مياهه
٩	١٣	٢٥	٣	١٢	٦	٥	٦	٣	٢١	راكدة خلال
١٠	١٤	٢٦	٣	١٦	٦	٩	٨	٤	٢	ستة الأيام
١١	١٥	٢٧	٣	٢١	٧	٨	٦	٤	١٥	السابقة.
١٢	١٦	٢٨	٤	١	٨	٤	١٠	٥	١	وأعلن الشيخ
١٣	١٧	٢٩	٤	٥	٩	٨	٤	٥	١١	عن الفيضان
١٤	١٨	٣٠	٤	١٠	٩	٨	٨	٥	٢٠	يومى ١٥و ١٩
١٥	١٩	شهر ١	٤	١٣	١٠	٢	٦	٦	٣	حيث زاد النهر
١٦	٢٠	١١ ٢	٤	١٦	١٠	٧	٦	٦	٩	بمقدار ثمانى
١٧	٢١	٣	٤	٢٠	١٠	١٠	٠	٦	١٢	أصابع، ثم لم
١٨	٢٢	٤	٥	١	١٠	١١	٨	٦	١٤	تحدث زيادة
١٩	٢٣	٥	٥	٤	١١	١	٩	٦	١٦,٥	أخرى . وفقًا
٢٠	٢٤	٦	٥	٨	١١	٠	٣	٦	١٨	لما يقول
٢١	٢٥	٧	٥	١٠	١١	٤	٨	٦	٢٠	الشيخ.
٢٢	٢٦	٨	٥	١٤	١١	٥	١١	٦	٢١,٥	
٢٣	٢٧	٩	٥	١٧	١١	٧	٢	٦	٢٣,٥	

التاريخ العربى	التاريخ الفرنسى		الإعلانات العامة بالقاهرة		الارتفاعات الحقيقية للنيل					ملاحظات
	القديم	الجديد			بالقدم الفرنسية			بذراع المقياس		
٢٤	٢٨	١٠	٥	٢٢	١١	٩	٣	٧	١,٥	
٢٥	٢٩	١١	٦	٢	١١	١١	٤	٧	٤	
٢٦	٣٠	١٢	٦	٨	١٢	١	١٠	٧	٧	
٢٧	٣١	١٣	٦	١٣	١٢	٣	٦	٧	٩	
٢٨	أغسطس ١	١٤	٦	١٧	١٢	٥	٢	٧	١١	
٢٩	٢	١٥	٦	٢٣	١٢	٦	١٠	٧	١٣	

التاريخ العربي	التاريخ الفرنسى القديم	التاريخ الفرنسى الجديد	الإعلانات العامة بالقاهرة		الارتفاعات الحقيقية للنيل بالقدم الفرنسية			الارتفاعات الحقيقية للنيل بذراع المقياس		ملاحظات
ربيع	أغسطس	شهر	ذراع	إصبع	قدم	بوصة	خط	ذراع	إصبع	عيد النيل فى
الأول ١	١٧٩٩ ٣	١١ ١٦	٧	٤	١٢	١١	٥	٧	١٨,٥	اليوم السادس
١٢١٤ ٢	٤	عام ١٧	٧	٨	١٣	٧	٤	٨	٤	من الشهر
٣	٥	٧ ١٨	٧	١٣	١٤	٢	٠	٨	١٢	الثانى عشر
٤	٦	١٩	٧	١٩	١٤	٨	٨	٨	٢٠	من التقويم
٥	٧	٢٠	٨	٢	١٥	٣	٤	٩	٤	الجمهورى
٦	٨	٢١	٨	٨	١٥	١٠	٠	٩	١٢	حيث تم فتح
٧	٩	٢٢	٨	١٥	١٦	٥	٦	٩	٢١	سد قناة
٨	١٠	٢٣	٨	٢١	١٦	٩	٨	١٠	٢	القاهرة، وأعلن
٩	١١	٢٤	٩	٥	١٧	٢	٨	١٠	٨	الشيخ عن
١٠	١٢	٢٥	٩	١٥	١٧	٧	٨	١٠	١٤	فيضان بلغ
١١	١٣	٢٦	١٠	٠	١٨	١	٦	١٠	٢١	ست عشرة
١٢	١٤	٢٧	١٠	١٠	١٨	١٠	٢	١١	٧	ذراعًا، أما
١٣	١٥	٢٨	١٠	٢٢	١٩	٧	١٠	١١	١٩	الارتفاع
١٤	١٦	٢٩	١١	١٣	٢٠	١	٨	١٢	٢	الحقيقى وفقًا
١٥	١٧	٣٠	١٢	٤	٢٠	٦	٨	١٢	٨	للمقياس
١٦	١٨	شهر ١	١٢	١٩	٢٠	٥	٩	١٢	١٤	فكان:
١٧	١٩	١٢ ٢	١٣	١٣	٢٠	١١	٨	١٢	٢٠	ذراع إصبع
١٨	٢٠	٣	١٤	٥	٢٢	٣	٢	١٣	٨	١٤ ١٨
١٩	٢١	٤	١٥	٦	٢٣	٤	١٠	١٤	١	ويخصم ٣ ١٠
٢٠	٢٢	٥	١٦	٠	٢٤	٢	٠	١٤	١٢	بلغ ارتفاع
٢١	٢٣	٦	١٦	٧	٢٤	٧	٠	١٤	١٨	الفيضان
٢٢	٢٤	٧	١٦	١٢	٢٤	٩	١١	١٤	٢١,٥	الحقيقى ٨
٢٣	٢٥	٨	١٦	٢٠	٢٤	١١	٧	١٤	٢٣,٥	١١
٢٤	٢٦	٩	١٧	٢	٢٥	١	٣	١٥	١,٥	انظر الترجمة
٢٥	٢٧	١٠	١٧	٦	٢٥	٢	١	١٥	٢,٥	الفرنسية
٢٦	٢٨	١١	١٧	١١	٢٥	٢	١	١٥	٠	لمحضر فتح
٢٧	٢٩	١٢	١٧	١٧	٢٥	٢	١	١٥	٠	سد الخليج،

التاريخ العربى	التاريخ الفرنسى		الإعلانات العامة بالقاهرة		الارتفاعات الحقيقية للنيل					ملاحظات
	القديم	الجديد			بالقدم الفرنسية			بذراع المقياس		
٢٨	٢٠	١٣	١٧	٢٠	٢٥	٢	٦	١٥	٣	والاحتفال العام الذى يقر دفع الميرى عن شعب مصر (دراسة عن مقياس النيل، والعدد رقم ٥٠ من جريدة أحوال مصر).
٢٩	٢١	١٤	١٨	٠	٢٥	٢	٦	١٥	٠	
٣٠	سبتمبر ١	١٥	١	٣	٢٥	٥	٠	١٥	٦	
ربيع الثانى ١	٢	١٦	١٨	٧	٢٥	٦	٨	١٥	٨	
٢	٣	١٧	١٨	١٠	٢٥	٨	٤	١٥	١٠	
٣	٤	١٨	١٨	١٤	٢٥	٨	٩	١٥	١٠.٥	
٤	٥	١٩	١٨	١٧	٢٥	٩	٢	١٥	١١	
٥	٦	٢٠	١٨	١٩	٢٥	٩	٢	١٥	١١	
٦	٧	٢١	١٨	٢٢	٢٥	١٠	٠	١٥	١٢	
٧	٨	٢٢	١٩	٢	٢٥	١١	٨	١٥	١٤	
٨	٩	٢٣	١٩	٥	٢٦	٢	٢	١٥	١٧	
٩	١٠	٢٤	١٩	٩	٢٦	٣	١٠	١٥	١٩	
١٠	١١	٢٥	١٩	١٤	٢٦	٨	٠	١٦	٠	
١١	١٢	٢٦	١٩	١٨	٢٦	٨	٠	١٦	٠	
١٢	١٣	٢٧	١٩	٢١	٢٦	٨	٠	١٦	٠	

التاريخ العربي	التاريخ الفرنسي		الإعلانات العامة بالقاهرة		الارتفاعات الحقيقية للنيل					ملاحظات
	القديم	الجديد			بالقدم الفرنسية			بذراع المقياس		
ربيع	سبتمبر		ذراع	إصبع	قدم	بوصة	خط	ذراع	إصبع	• أقصى ارتفاع وصل
الثانى ١٣	١٧٩٩ ١٤	شهر١٢ ٢٨	١٩	٢٣	٢٦	٨	٠	١٦	٠	إليه الفيضان فى أول
١٢١٤ ١٤	١٥	عام٧ ٢٩	٢٠	٢	٢٦	٨	٠	١٦	٠	الشهر الأول من التقويم
١٥	١٦	٣٠	٢٠	٤	٢٦	٨	٠	١٦	٠	الجمهورى العام الثامن،
١٦	١٧	أيام ١	٢٠	٦	٢٦	٨	٠	١٦	٠	فإذا قمت بخصم ثلاث
١٧	١٨	تكميلية ٢	٢٠	٩	٢٦	٨	١٠	١٦	١	أذرع وعشر اصابع وهى
١٨	١٩	٣	٢٠	١٠	٢٦	٩	٣	١٦	١,٥	ارتفاع المياه الراكدة
١٩	٢٠	٤	٢٠	١٢	٢٦	٩	٣	١٦	١,٥	قبل الفيضان من
٢٠	٢١	٥	٢٠	١٥	٢٦	٩	٨	١٦	٢	مستوى الست عشرة
٢١	٢٢	٦	٢٠	١٧	٢٦	٩	٨	١٦	٢	ذراعًا والأصبعين
٢٢	٢٣	شهر١ ١	٢٠	١٨	٢٦	٩	٨	١٦	٢	فسيكون الناتج اثنى
		عام٨								عشرة ذراعًا وست
										عشرة إصبعًا، وهو
										الارتفاع الحقيقى
										للفيضان. ولهذا فهو
			انحسار المياه							فيضان ضعيف، ولم
ربيع ٢٣	سبتمبر ٢٤	شهر ٢	//	//	٢٦	٨	٠	١٦	٠	يغط مساحات كبيرة من
الثانى ٢٤	١٧٩٩ ٢٥	١ ٣	//	//	٢٦	٦	٤	١٥	٢٢	الأراضى.
١٢١٤ ٢٥	٢٦	عام ٤	//	//	٢٦	٥	٦	١٥	٢١	• بدأت مياه النيل
٢٦	٢٧	٨ ٥	//	//	٢٦	٥	٦	١٥	٢١	فى الانحسار فى
٢٧	٢٨	٦	//	//	٢٦	٣	١٠	١٥	١٩	الثانى من الشهر
٢٨	٢٩	٧	//	//	٢٦	٢	٧	١٥	١٧,٥	الأول للتقويم
٢٩	٣٠	٨	//	//	٢٥	١١	٨	١٥	١٤	الجمهورى، وتوقفت
جمادى ١	١	٩	//	//	٢٥	١٠	٠	١٥	١٢	فى العاشر من
الأولى ٢	أكتوبر ٢	١٠	//	//	٢٥	٧	٦	١٥	٩	الشهر العاشر فى
١٢	١٢	٢٠	//	//	٢٣	٨	٢	١٤	٥	العام الثامن.
٢٢	٢٢	٣٠	//	//	٢٢	٧	٨	١٣	١٤	• قديمًا وعند
جمادى ٢	نوفمبر ١	شهر٢ ١٠	//	//	٢٠	٣	٤	١٢	٤	ملاحظة ارتفاع
الثانية ١٢	١١	٢٠	//	//	١٨	٨	٢	١١	٥	النيل، لم يكن لدى

التاريخ العربي	التاريخ الفرنسي		الإعلانات العامة بالقاهرة		الارتفاعات الحقيقية للنيل				ملاحظات
	القديم	الجديد			بالقدم الفرنسية			بذراع المقياس	
٢٢	٢١	٣٠	//	١٧	١	١٠	١٠	٧	حكام القاهرة أى غرض سوى التأكد من استحقاق الضريبة على الأراضى من خلال مستوى ارتفاع مياه الفيضان. وبالتالى يقوم الشيخ بعمل الإعلانات العامة عندما يبدأ النهر فى الزيادة ولا يتوقف إلا عندما يتوقف الفيضان. • ويمكننا أن نرى - من خلال هذا الجدول - الإعلانات العامة والارتفاع الحقيقى المسجل على عمود المقياس، وبعد عقد المقارنة سيتضح أن الإعلان عن الفيضان يبدأ أحيانًا قبل بدء ارتفاع المياه، وربما يتوقف الإعلان أيضًا قبل توقف الفيضان.

التاريخ العربى	التاريخ الفرنسى		الإعلانات العامة بالقاهرة		الارتفاعات الحقيقية للنيل					ملاحظات
	القديم	الجديد			بالقدم الفرنسية			بذراع المقياس		
			ذراع	إصبع	قدم	بوصة	خط	ذراع	إصبع	
ربيع ١٢١٤	ديسمبر	شهر								
٣	١٧٩٩ ١	٣ ١٠	//	//	١٦	٤	٨	٩	٢٠	اقل مستوى لانخفاض ماء النيل
١٣	١١	عام٨ ٢٠	//	//	١٥	٦	٨	٩	٨	
٢٣	٢١	٣٠	//	//	١٥	٠	٠	٩	٠	
شعبان ٢	٣١	شهر٤ ١٠	//	//	١٤	٤	٦	٨	١٥	
١٣	يناير ١٠	٢٠	//	//	١٣	٦	٦	٨	٣	
٢٣	٢٠	٣٠	//	//	١٢	٦	٠	٧	١٢	
رمضان ٤	٣٠	شهر٥ ١٠	//	//	١١	٣	١٠	٦	١٩	
١٤	فبراير ٩	٢٠	//	//	١٠	٦	٨	٦	٨	
٢٤	١٩	٣٠	//	//	٩	١٠	٤	٥	٢٢	
شوال ٤	مارس ١	شهر٦ ١٠	//	//	٩	٤	٦	٥	١٥	
١٤	١١	٢٠	//	//	٨	١٠	٨	٥	٨	
٢٤	٢١	٣٠	//	//	٨	٥	٨	٥	٢	
ذو القعدة ٥	٣١	١٠	//	//	٧	١١	١٠	٤	١٩	
١٥	أبريل ١٠	شهر٧ ٢٠	//	//	٧	٦	١٠	٤	١٣	
٢٥	٢٠	٣٠	//	//	٧	٢	٨	٤	٨	
ذو الحجة ٥	٣٠	شهر٨ ١٠	//	//	٧	٠	٢	٤	٥	
١٥	مايو ١٠	٢٠	//	//	٦	٨	١٠	٤	١	
٢٥	٢٠	٣٠	//	//	٦	٤	٨	٣	٢٠	
محرم ١٢١٥ ٦	٣٠	شهر٩ ١٠	//	//	٦	٣	٠	٣	١٨	
١٦	يونيو ٩	٢٠	//	//	٦	٠	٦	٣	١٥	
٢٦	١٩	٣٠	//	//	٥	١٠	١٠	٣	١٣	
صفر ٦	٢٩	شهر١٠ ١٠	//	//	٥	٨	٤	٣	١٠	
١١	يوليو ٤	١٥	//	//	٥	٨	٤	٣	١٠	

التاريخ العربى		التاريخ الفرنسى القديم		التاريخ الفرنسى الجديد		الإعلانات العامة بالقاهرة		الارتفاعات الحقيقية للنيل بالقدم الفرنسية			الارتفاعات الحقيقية للنيل بذراع المقياس		ملاحظات
صفر		يوليو		شهر		ذراع	أصبع	قدم	بوصة	خط	ذراع	اصبع	
١٢١٥	١٢	١٨٠٠	٥	١٠	١٦	٢	١٨	٥	١٠	٠	٣	١٢	أدنى مستوى لمياه النيل. بدأ النهر فى الزيادة من ١٥ أو ١٦ من الشهر العاشر للتقويم الجمهورى العام الثامن.
	١٣		٦	عام	١٧	٢	٢٠	٦	٠	٦	٣	١٥	
	١٤		٧	٨	١٨	٢	٢٣	٦	٠	٦	٣	١٥	
	١٥		٨		١٩	٣	١	٦	٤	٨	٣	٢٠	
	١٦		٩		٢٠	٣	٤	٦	٥	٦	٣	٢١	
	١٧		١٠		٢١	٣	٦	٦	٥	٦	٣	٢١	
	١٨		١١		٢٢	٣	١٠	٦	٥	٦	٣	٢١	
	١٩		١٢		٢٣	٣	١٢	٦	٨	١٠	٤	١٢	
	٢٠		١٣		٢٤	٣	١٥	٦	٨	١٠	٤	١٢	
	٢١		١٤		٢٥	٣	١٩	٦	٨	١٠	٤	١٢	
	٢٢		١٥		٢٦	٣	٢٢	٦	٨	١٠	٤	١٢	
	٢٣		١٦		٢٧	٤	٢	٨	٤	٠	٥	٠	
	٢٤		١٧		٢٨	٤	٧	٨	٤	٠	٥	٠	
	٢٥		١٨		٢٩	٤	١١	٨	٤	٠	٥	٠	
	٢٦		١٩		٣٠	٤	١٤	٩	٣	٨	٥	١٤	
	٢٧		٢٠	شهر	١	٤	١٨	٩	٣	٨	٥	١٤	
	٢٨		٢١	١١	٢	٤	٢٣	١٠	٥	١٠	٦	٧	
	٢٩		٢٢		٣	٥	٣	١٠	٥	١٠	٦	٧	
ربيع	١		٢٣		٤	٥	٨	١١	٠	٨	٧	٠	
الأول	٢		٢٤		٥	٥	١٢	١١	٠	٨	٧	٠	
	٣		٢٥		٦	٥	١٧	١٢	٦	١٠	٧	١٣	
	٤		٢٦		٧	٥	٢١	١٢	٦	١٠	٧	١٣	
	٥		٢٧		٨	٦	٢	١٢	١١	٠	٧	١٨	
	٦		٢٨		٩	٦	٦	١٢	١١	٠	٧	١٨	
	٧		٢٩		١٠	٦	١١	١٣	١	٦	٧	٢١	
	٨		٣٠		١١	٦	١٧	١٣	١	٦	٧	٢١	
	٩		٣١		١٢	٦	٢٢	١٤	٢	١٠	٨	١٨	
	١٠	أغسطس	١		١٣	٧	٤	١٤	٢	١٠	٨	١٣	
	١١		٢		١٤	٧	٩	١٥	٦	٨	٩	٨	

التاريخ العربى	التاريخ الفرنسى		الإعلانات العامة بالقاهرة		الارتفاعات الحقيقية للنيل					ملاحظات
	القديم	الجديد			بالقدم الفرنسية			بذراع المقياس		
١٢	٣	١٥	٧	١٥	١٥	٦	٨	٩	٨	من ١٩ إلى ٢٠، زاد النيل بمقدار ذراعين
١٣	٤	١٦	٧	٢٠	١٦	٣	١٠	٩	١٩	
١٤	٥	١٧	٨	٣	١٦	٣	١٠	٩	١٩	
١٥	٦	١٨	٨	٩	١٧	٩	٤	١٠	١٦	
١٦	٧	١٩	٨	١٦	١٧	٩	٤	١٠	١٦	
١٧	٨	٢٠	٩	٢	٢١	١	٤	١٢	١٦	
١٨	٩	٢١	٩	١٧	٢٢	٦	١٠	١٣	١٣	
١٩	١٠	٢٢	١٠	١٣	٢٣	٤	١٠	١٤	١	
٢٠	١١	٢٣	١١	١٤	٢٣	٤	١٠	١٤	١	
٢١	١٢	٢٤	١٢	١٠	٢٤	٢	٠	١٤	١٢	

التاريخ العربى	التاريخ الفرنسى: القديم	التاريخ الفرنسى: الجديد	الإعلانات العامة بالقاهرة		الارتفاعات الحقيقية للنيل: بالقدم الفرنسية			الارتفاعات الحقيقية للنيل: بذراع المقياس		ملاحظات
ربيع	اغسطس	شهر	ذراع	أصبع	قدم	بوصة	خط	ذراع	أصبع	
الأول ٢٢	١٨٠٠ ١٢	١١ ٢٥	١٣	١١	٢٤	٥	٤	١٤	١٦	عيد النيل فى اليوم التاسع والعشرين من الشهر الحادى عشر للتقويم الجمهورى، وقد تأخر عدة أيام بسبب التجهيزات. تم فتح السد، ولم تصل مياه الخليج بعد فتح السد إلى ميدان الأزبكية، إلا بعد مرور خمس ساعات.
١٢١٥ ٢٣	١٤	عام ٣٦	١٤	١٧	٢٥	١	٨	١٥	٢	
٢٤	١٥	٨ ٣٧	١٥	١٨	٢٥	١٠	٠	١٥	١٢	
٢٥	١٦	٢٨	١٧	٠	٢٦	٦	٤	١٥	٢٢	
٢٦	١٧	٢٩	١٧	١٠	٢٦	٨	٠	١٦	٠	
٢٧	١٨	٣٠	١٧	١٨	٢٧	٠	٢	١٦	٥	
٢٨	١٩	شهر ١	١٧	٢٣	٢٦	٨	٠	١٦	٠	
٢٩	٢٠	١٢ ٢	١٨	٣	٢٧	١	١٠	١٦	٧	
٣٠	٢١	٣	١٨	١٦	٢٧	١	١٠	١٦	٧	
ربيع ١	٢٢	٤	١٨	١٩	٢٧	٤	٤	١٦	١٠	
الثانى ٢	٢٣	٥	١٨	٢١	٢٧	٤	٤	١٦	١٠	
٣	٢٤	٦	١٩	١	٢٧	٦	١٠	١٦	١٣	
٤	٢٥	٧	١٩	٤	٢٧	٦	١٠	١٦	١٣	
٥	٢٦	٨	١٩	٧	٢٧	١١	١٠	١٦	١٩	
٦	٢٧	٩	١٩	١١	٢٧	١١	١٠	١٦	١٩	
٧	٢٨	١٠	١٩	١٤	٢٨	٤	٠	١٧	٠	
٨	٢٩	١١	١٩	١٨	٢٨	٤	٠	١٧	٠	
٩	٣٠	١٢	١٩	٢١	٢٨	٤	٠	١٧	٠	
١٠	٣١	١٣	٢٠	١	٢٨	٤	٠	١٧	٠	
١١	سبتمبر ١	١٤	٢٠	٤	٢٨	٤	٠	١٧	٠	
١٢	٢	١٥	٢٠	٨	٢٨	٤	١٠	١٧	١	
١٣	٣	١٦	٢٠	١١	٢٨	٤	١٠	١٧	١	
١٤	٤	١٧	٢٠	١٥	٢٨	٦	٦	١٧	٣	
١٥	٥	١٨	٢٠	١٨	٢٨	٦	٦	١٧	٣	
١٦	٦	١٩	٢٠	٢٠	٢٨	٦	٦	١٧	٣	
١٧	٧	٢٠	٢٠	٢٣	٢٨	١٠	٨	١٧	٨	
١٨	٨	٢١	٢١	١	٢٨	١٠	٨	١٧	٨	
١٩	٩	٢٢	٢١	٤	٢٨	١١	٦	١٧	٩	
٢٠	١٠	٢٣	٢١	٦	٢٨	١١	٦	١٧	٩	

التاريخ العربى	التاريخ الفرنسى		الإعلانات العامة بالقاهرة		الارتفاعات الحقيقية للنيل					ملاحظات
	القديم	الجديد			بالقدم الفرنسية			بذراع المقياس		
٢١	١١	٢٤	٢١	٩	٢٩	٢	٠	١٧	١٢	
٢٢	١٢	٢٥	٢١	١١	٢٩	٣	٨	١٧	١٤	
٢٣	١٣	٢٦	٢١	١٤	٢٩	٥	٤	١٧	١٦	
٢٤	١٤	٢٧	٢١	١٦	٢٩	٥	٤	١٧	١٦	
٢٥	١٥	٢٨	٢١	١٩	٢٩	٥	٩	١٧	١٦,٥	
٢٦	١٦	٢٩	٢١	٢١	٢٩	٥	٩	١٧	١٦,٥	
٢٧	١٧	٣٠	٢٢	٠	٢٩	٩	١	١٧	٢٠,٥	
٢٨	١٨	أيام ١	٢٢	٢	٢٩	٩	١	١٧	٢٠,٥	
٢٩	١٩	تكميلية ٢	٢٢	٧	٢٩	٩	١١	١٧	٢١,٥	
جمادى ١	٢٠	٣	٢٢	١١	٢٩	٩	١١	١٧	٢٢,٥	
الأولى ٢	٢١	٤	٢٢	١٤	٢٩	١٠	٩	١٧	٢٢,٥	
٣	٢٢	٥	٢٢	١٨	٢٩	١٠	٩	١٧	٢٢,٥	

التاريخ العربي	التاريخ الفرنسي القديم	التاريخ الفرنسي الجديد	الإعلانات العامة بالقاهرة: ذراع	الإعلانات العامة بالقاهرة: إصبع	الارتفاعات الحقيقية للنيل بالقدم الفرنسية: قدم	بوصة	خط	بذراع المقياس: ذراع	إصبع
جمادى الأولى ١٢١٥	سبتمبر ١٨٠٠	شهر ١ عام ٩							
٤	٢٣	١	٢٢	٢١	٢٩	١٠	٩	١٧	٢٢,٥
٥	٢٤	٢	٢٢	٢٣	٢٩	١٠	٩	١٧	٢٢,٥
٦	٢٥	٣	٢٣	٢	٢٩	١١	٢	١٧	٢٣
٧	٢٦	٤	//	//	٢٩	١١	٢	١٧	٢٣
٨	٢٧	٥	//	//	٣٠	٠	١٠	١٨	١
٩	٢٨	٦	//	//	٣٠	١	٠	١٨	١,٢٥
١٠	٢٩	٧	//	//	٣٠	١	٥	١٨	١,٧٥
١١	٣٠	٨	//	//	٣٠	١	٨	١٨	٢
١٢	أكتوبر ١	٩	//	//	٣٠	١	٨	١٨	٢
١٣	٢	١٠	//	//	٣٠	١	٨	١٨	٢
١٤	٣	١١	//	//	٣٠	١	٨	١٨	٢
١٥	٤	١٢	//	//	٣٠	٢	٦	١٨	٣
				انحسار المياه					
١٦	٥	١٣	//	//	٣٠	٠	١٠	١٨	١
١٨	٧	١٥	//	//	٢٨	٤	١٠	١٧	٢٢
٢٢	١١	١٩	//	//	٢٩	٩	٦	١٧	٢١
٢٣	١٢	٢٠	//	//	٢٩	٨	٨	١٧	٢٠
٢٤	١٣	٢١	//	//	٣١	٣	١٠	١٧	١٩
٢٥	١٤	٢٢	//	//	٣١	٣	٠	١٧	١٨
٢٨	١٧	٢٥	//	//	٣١	٢	٢	١٧	١٧
٢٩	١٨	٢٦	//	//	٣١	١	٤	١٧	١٦
٣٠	١٩	٢٧	//	//	٣١	٢	٢	١٧	١٧
جمادى الثانية ١	٢٠	٢٨	//	//	٢٨	٥	١١	١٧	١٥,٥
٢	٢١	٢٩	//	//	٢٩	٢	١٠	١٧	١٣
٣	٢٢	٣٠	//	//	٢٩	٢	٠	١٧	١٢
٥	٢٤	شهر٢ ٢	//	//	٢٨	١١	٦	١٧	٩

ملاحظات

• توقف الشيخ عن الإعلان عن الفيضان في السادس من جمادى الأولى الموافق الثالث من الشهر الجمهوري الأول للعام التاسع.

وصل أقصى ارتفاع للمياه يوم ١٢ من الشهر الأول إلى أربع عشرة ذراعًا وسبع عشرة أصبعًا بخصم ثلاث أذرع وعشر أصابع في مستوى المياه القديمة، وقد تسبب ذلك في حدوث فيضان زائد عن الحاجة، تبعه الطاعون الذي نشر خرابه في مصر العليا ومدينة القاهرة.

• بدأت مياه النيل في الانحسار يوم ١٣ من الشهر الأول، وتوقفت يوم ١٥ من الشهر السابع للعام التاسع.

• زاد النيل بمقدار إصبع بفعل الرياح الشمالية الغربية، التي هبت بقوة في السابع والعشرين من الشهر الأول.

التاريخ العربي	التاريخ الفرنسي		الإعلانات العامة بالقاهرة		الارتفاعات الحقيقية للنيل					ملاحظات
	القديم	الجديد			بالقدم الفرنسية			بذراع المقياس		
٧	٢٦	٤	//	//	٢٨	٩	٠	١٧	٦	
٩	٢٨	٦	//	//	٢٨	٦	٦	١٧	٣	
١١	٣٠	٨	//	//	٢٨	٣	٢	١٦	٢٣	
١٣	نوفمبر ١	١٠	//	//	٢٧	١١	١٠	١٦	١٩	
١٥	٣	١٢	//	//	٢٧	٧	٨	١٦	١٤	
١٧	٥	١٤	//	//	٢٧	٢	٨	١٦	٨	
١٩	٧	١٦	//	//	٢٦	٨	١٠	١٦	١	
٢١	٩	١٨	//	//	٢٦	٠	٦	١٥	١٥	
٢٣	١١	٢٠	//	//	٢٥	٧	٦	١٥	٩	
٢٥	١٣	٢٢	//	//	٢٥	٠	٠	١٥	٠	
٢٧	١٥	٢٤	//	//	٢٤	٦	٢	١٤	١٧	
٢٩	١٧	٢٦	//	//	٢٤	٢	٨	١٤	٨	

التاريخ العربى	التاريخ الفرنسى		الإعلانات العامة بالقاهرة		الارتفاعات الحقيقية للنيل					ملاحظات
	القديم	الجديد			بالقدم الفرنسية			بذراع المقياس		
			ذراع	أصبع	قدم	بوصة	خط	ذراع	اصبع	
رجب	نوفمبر	شهر٢								منعتنا تطورات الحرب من الاستمرار فى ملاحظة انخفاض النيل، فتوقفنا يوم ٢٠ من الشهر الجمهورى السابع.
٢ ١٢١٥	١٨٠٠ ١٩	عام٩ ٢٨	//	//	٢٣	٤	١٠	١٤	١	
٤	٢١	٣٠	//	//	٢٢	١١	٠	١٣	١٨	
٦	٢٣	شهر٣ ٢	//	//	٢٢	٧	٨	١٣	١٤	
٨	٢٥	٤	//	//	٢٢	٢	٨	١٣	٨	
١٠	٢٧	٦	//	//	٢١	١١	٤	١٣	٤	
١٢	٢٩	٨	//	//	٢١	٨	١٠	١٣	١	
١٤	ديسمبر ١	١٠	//	//	٢١	٥	٦	١٢	٢١	
١٦	٣	١٢	//	//	٢١	٣	٠	١٢	١٨	
١٨	٥	١٤	//	//	٢١	١	٤	١٢	١٦	
٢٠	٧	١٦	//	//	٢٠	١١	٨	١٢	١٤	
٢٢	٩	١٨	//	//	٢٠	٨	٤	١٢	١٠	
٢٤	١١	٢٠	//	//	٢٠	٥	٠	١٢	٦	
٢٦	١٣	٢٢	//	//	٢٠	٢	٦	١٢	٣	
٢٨	١٥	٢٤	//	//	١٩	١١	٢	١١	٢٣	
٣٠	١٧	٢٦	//	//	١٩	٩	٦	١١	٢١	
شعبان ٢	١٩	٢٨	//	//	١٩	٧	٠	١١	١٨	
٤	٢١	٣٠	//	//	١٩	٥	٤	١١	١٦	
٩	٢٦	شهر٤ ٥	//	//	١٨	١٠	٨	١١	٨	
١٤	٣١	١٠	//	//	١٨	٦	٦	١١	٣	
١٩	يناير ٥	١٥	//	//	١٧	١١	١٠	١٠	١٩	
٢٤	١٨٠١ ١٠	٢٠	//	//	١٧	٩	٤	١٠	١٦	
٢٩	١٥	٢٥	//	//	١٧	٦	٠	١٠	١٢	
رمضان ٥	٢٠	٣٠	//	//	١٧	٢	٨	١٠	٨	
١٠	٢٥	شهر٥ ٥	//	//	١٦	٩	٨	١٠	٢	
١٥	٣٠	١٠	//	//	١٦	٦	٤	٩	٢٢	
٢٠	فبراير ٤	١٥	//	//	١٦	٤	٨	٩	٢٠	
٢٥	٩	٢٠	//	//	١٦	٣	٠	٩	١٨	
٣٠	١٤	٢٥	//	//	١٦	١	٤	٩	١٦	
شوال ٥	١٩	٣٠	//	//	١٥	١١	٨	٩	١٤	

التاريخ العربى	التاريخ الفرنسى		الإعلانات العامة بالقاهرة		الارتفاعات الحقيقية للنيل					ملاحظات
	القديم	الجديد			بالقدم الفرنسية			بذراع المقياس		
١٠	٢٤	شهر٦ ٥	//	//	١٥	١٩	٢	٩	١١	
١٥	مارس ١	١٠	//	//	١٥	٦	٨	٩	٨	
٢٠	٦	١٥	//	//	١٥	٣	٤	٩	٤	
٢٥	١١	٢٠	//	//	١٥	٠	١٠	٩	١	
ذو القعدة ١	١٦	٢٥	//	//	١٤	٩	٦	٨	٢١	
٦	٢١	٣٠	//	//	١٤	٦	٢	٨	١٧	
١١	٢٦	شهر٧ ٥	//	//	١٤	٢	٠	٨	١٢	
١٦	٣١	١٠	//	//	١٣	٩	٠	٨	٦	
٢١	ابريل ٥	١٥	//	//	١٣	٠	٨	٧	٢٠	
٢٦	١٠	٢٠	//	//	١٣	٠	٨	٧	٢٠	

ملاحظات

- انظر الدراسة التى قدمتها حول الكتابات الكوفية التى جمعتها من مصر وحول الخطوط الأخرى التى استخدمت فى منشآت العرب، الدولة الحديثة.

- نشرت الطبعة الأولى لرحلات ربيع بنيامين فى القسطنطينية بعنوان «مسعوت ربيع بنيامين»، و صدرت من المطبعة العبرية التى أنشأها هناك ربيع جرسون، وظلت قائمة حتى عام ١٥٣٠ ميلادية، إلا أن هذه الطبعة مليئة بالأخطاء وسيئة التنفيذ.

- قام آرياس مونتانوس بنشر ترجمته اللاتينية وفقًا لنص طبعة القسطنطينية، ولكن الأخطاء تشوبها هى الأخرى، ثم قدم الإمبراطور قسطنطين بعد ذلك طبعة جديدة تملؤها الأخطاء مثل سابقتيها.

- ولد چون فيليب باراتييه فى شڤاباخ على حدود أنسباخ، وكان ذائع الشهرة بذكائه وعلمه المتميزين، وقام بوضع ترجمة فرنسية للنص العبرى فى عمر أحد عشر عامًا، أى عام ١٧٣٢ مزودة بالتعليقات والتفاصيل المفيدة بعنوان: «رحلات ربيع بنيامين ابن چونا دوتودل فى أوروبا وآسيا وأفريقيا بدءًا من أسبانيا حتى الصين... إلخ، مترجمة عن العبرية ومزودة بتعليقات وتفاصيل تاريخية ونقدية، بقلم چون فيليب باراتييه - دارس علوم الدين - أمستردام - ١٧٣٤.

وفى العام التالى قام بيير برجرون بإضافة ترجمة أخرى لبنيامين دوتودل - وفقًا للنسخة اللاتينية لآرياس مونتانوس، وقد نقلها بكل أخطائها إلى المجلد الأول من مجموعاته عن رحلات القرون الثانى عشر والثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر، وطبعت فى لاهاى تحت عنوان «رحلة بنيامين الشهير حول العالم» بدءًا من سنة ١٥٢٣ ميلادية، مرفقة بوصف دقيق وموجز لما شاهده من عجائب فى كل أرجاء المعمورة تقريبًا، وكذلك ما نقله عن الكثير من معاصريه الذين يستحقون كل تقدير، وكذا حول المسلك والمعابد اليهودية وعدد اليهود وحاخاماتهم فى كل مكان ذهب إليه... إلخ،، والتى نجهل تفاصيلها حتى الآن، كتبها الرحالة فى البداية باللغة العبرية ثم ترجمها آرياس مونتانوس إلى اللاتينية، وترجمت حديثًا عن اللاتينية إلى الفرنسية.

- ولد بيلون عام ١٥١٨م فى قرية صغيرة بسورلتيير فى إقليم المين، وكان يعمل أستاذًا فى الطب فى جامعة باريس، وكان صديقًا للكاردينال دوتورنون وذا مكانة خاصة عند الملكين هنرى الثانى وشارل التاسع. وبعد عودته من رحلاته فى اليونان وبلاد اليهود ومصر وشبه الجزيرة العربية نشر فى باريس عام ١٥٣٣ ملخصًا لملاحظاته بعنوان «كل الأشياء المتميزة والجديرة بالذكر التى لاحظتها فى عدة بلاد أجنبية»، بقلم بيير بيلون من المين. وكانت له أبحاث تتناول طبيعة الطيور والأسماك، وتعليقات حول ما ذكره ديوسكوريد، وقام بترجمة أحد أعمال هذا العالم فى التاريخ الطبيعى، وكذا أحد أعمال ثيوفراست.. إلخ، وكان يجهز لنشر أعمال أخرى ولكنه قتل بيد أحد أعدائه بالقرب من باريس، عام ١٥٦٤ عن عمر يناهز ٤٧ عامًا.

- راجع رحلات سير إيان باليرن وفورسيان سكرتير فرنسوا دوڤالوا ودوق أنجو وآلنسون... إلخ، التى تناولوا فيها الكثير من الأشياء المتفردة والآثار القديمة الجديرة بالملاحظة فى مصر وشبه الجزيرة العربية، هذه المنطقة القاحلة ذات الأرض المليئة بالحصى، والأرض المقدسة وسوريا واليونان وعدة جزر بالبحر المتوسط وجزر الأرخبيل... إلخ التى نشرت فى ليون عام ١٦٢٦م.

وقد أرفق باليرن بكتاب رحلته ذات الطبعة النادرة قاموسًا صغيرًا للهجات المستخدمة فى بلاد المشرق، ويحوى فى ٢٣ صفحة بعض الكلمات شائعة الاستخدام والعبارات المألوفة، وكذلك بعض ألفاظ السباب، وذلك باللغات الإيطالية واليونانية العامية والإسكلافية والتركية والعربية التى أطلق عليها اسم موريسك أو أرابيسك.

وعلى الرغم من أن مفرداته غير صحيحة فى مجملها فقد كان من الطريف التعرف على كيفية تحريف الكاتب للكلمات العربية وفقًا لما يرى.

- ولد بورسبير ألبان أو ألبينى فى ماروستيكا - وهى مدينة صغيرة فى البندقية - فى نهاية عام ١٥٥٣، والتحق فى البداية كجندى فى خدمة ميلانو، ثم ترك الخدمة نتيجة تأثير والده فرانسوا ألبينى، حيث أراد أن يمتهن ابنه نفس مهنته، فذهب إلى بادوا، وحصل على درجة أستاذ فى علم الطب عام ١٥٧٨ - ثم استهواه علم النبات وفضل السفر لدراسة طبيعة الأرض والنباتات التى تنتجها، حتى يستطيع أن يتفوق فى هذا المجال. وتضم الأعمال التى تركها لنا أبحاثًا شيقة، كرس نفسه لإنجازها خلال إقامته بمصر.

وبعد عودته إلى إيطاليا اختاره الأمير أندريه دوريا أمير ميلف ليكون طبيبه الخاص، ثم اختاره أهل البندقية ليكون أستاذًا لعلم النبات بجامعة بادوا، وحظى بشهرة كبيرة هناك، وتوفى فى نهاية عام ١٦١٦م تاركًا عدة أعمال وأبحاث تتعلق بمصر.

- نشر چاك دوكاستيل رحلات سافارى بعد موته، بعنوان «مجموع رحلات السيد سافارىَ فى اليونان والأرض المقدسة ومصر وتونس والجزائر». باريس ١٦٢٨م.

- قام سافارى عام ١٦٠٤م بعقد المعاهدة التى تمت بين الملك هنرى الرابع والباب العالى، وقدم إصدارًا لها باللغتين الفرنسية والتركية، وتعد من المعاهدات النادرة جدًا، وتحمل العنوان التالى: «فرانسه پادشاهى آل عثمان پادشاهى مابيننك منعقد أولان عهد نامه دركه ذكر أولنور». المعاهدة التى عقدت بين هنرى

الأعظم ملك فرنسا ونوار والسلطان أمات إمبراطور الترك، بوساطة السيد فرانسوا سافارى حاكم بروس ومستشار الملك فى شئون الدولة وشئونه الخاصة، وكان فى ذلك الوقت سفير جلالته لدى حكومة الإمبراطور المذكور، وتمت المعاهدة عام ١٦٠٤. باريس، مطبعة اللغات الشرقية والعربية والتركية والفارسية...، ملك استيان بولان، شارع الكرم، كلية لومبارد.

وأعاد كاستيل طبع هذه المعاهدة بعد أن أصدر رحلات السيد سافارى.

- راجع «ملخص رحلة بدأت عام ١٦١٠» بقلم سانديز.

- صدرت ترجمة فرنسية بعنوان «الرحلات المشهورة لبييترو ديللافاللى»، وكان من النبلاء الإيطاليين ولقب بالرحالة ذائع الصيت، وقد ألحق بهذا الكتاب إحصاء دقيقًا للأشياء المثيرة الجذابة التى شاهدها فى تركيا ومصر وفلسطين وإيران والهند الشرقية، والتى لم تلفت نظر الكثير من الكتاب السابقين. وكان هذا العمل مكتوبًا فى شكل رسائل موجهة للسيد شيبانو، صديقه الحميم، باريس ١٦٦٣ - ١٦٦٤.

وتوجد ترجمة أخرى باللغة الفرنسية بقلم إيتيان كارنو والكونت فير، طبعت فى روان عام ١٧٤٥.

- طبع الإصدار الأول لهذه الرحلات فى روان عام ١٦٦٨ بعنوان «الملاحظات المثيرة عن رحلة بلاد المشرق»، وكانت الطبعة الثانية بعنوان «رحلة إيطاليا وبلاد المشرق للسادة فيرمانيل المستشار فى برلمان نورماندى وفوفيل رئيس ديوان المحاسبة فى مقاطعة لاديت وسير أودوفيل بودوان دولوناى وستوشوف سير سانت كاترين وأحد النبلاء الإيطاليين، وتضم وصف بلدان ومقاطعات ومحافظات ومدن ومراكز بلدان وقرى وكنائس وقصور ومساجد وأبنية قديمة وحديثة وحياة وعادات وتصرفات الإيطاليين والأتراك واليهود واليونانيين والعرب والأرمن والمور والزنوج وجنسيات أخرى عاشت بإيطاليا وتركيا والأرض المقدسة ومصر وغيرها من بلدان الشرق، مرفقًا بها ملاحظات حول العجائب والمعجزات الموجودة بالبلاد المذكورة، والمستخلصة من كتابات السادة المذكورين فى الرحلة المذكورة، روان، ١٦٨٧م.

ـ راجع رحلات وملاحظات السيد بولاى لوجوز أحد نبلاء أنجوڤان، والتى وصف فيها الأديان والحكومات والأماكن والمدن بإيطاليا واليونان وسوريا وفلسطين وكارامينيا وكلدانيا وبلاد العراق والموجول الكبير وبيچابور والهند الشرقية والبرتغال وشبه الجزيرة العربية ومصر.. إلخ، بالإضافة إلى جزر وأجزاء من أوروبا وبعض الأماكن بآسيا وأفريقيا أقام بها هذا الرحالة، باريس، ١٦٥٣ ـ ١٦٥٧م.

ـ نصوص الأهرامات بقلم چون جراڤيز، وقد قام تيڤينوت بترجمة هذا العمل ويوجد فى مجموعته الخاصة بالرحلات.

ـ انظر رحلة مونكونيوس عام ١٦٤٧.

ـ انظر رحلة إلى بلاد المشرق، تشمل الأماكن الرئيسية فى آسيا الصغرى وجزر شيو ورودس وقبرص...، وفى أكثر المدن أهمية بمصر وسوريا والأرض المقدسة، حيث توجد المراكز الشهيرة والأشياء الأخرى التى تستحق الملاحظة، مرفقًا بها عدد كبير من صور القطع الفنية المنحوتة، بقلم كورناى لوبرويان، باريس، ١٧٢٥.

ـ أرسل السيد شازيل إلى بلاد المشرق للتعرف على أماكن الموانئ الرئيسية على البحر المتوسط، وسافر من الإسكندرية إلى القاهرة عام ١٦٩٤، ورفع مقاييس الأهرامات.

انظر أبحاث الأكاديمية العلمية عام ١٧٠٢م. وقد ولد چان ماتيودوشازيل فى ليون فى الرابع والعشرين من شهر يوليو عام ١٦٥٧، وتوفى فى مارسيليا يوم ٦ يناير ١٧١٠.

ـ انظر «حكاية رحلة لبلاد المشرق» بقلم السيد دوتيڤينوت التى تناول فيها البلدان التى تقع تحت إمارة الباب العالى، وكذلك درس المميزات الخاصة التى تتميز بها جزر الأرخبيل والقسطنطينية والأرض المقدسة ومصر والأهرامات والمومياوات وصحارى شبه الجزيرة العربية ومكة... إلخ، باريس، ١٦٦٥.

هذا بالإضافة إلى «ملحق رحلة بلاد المشرق» الذى يحتوى على ملاحظات فريدة عن مصر وسوريا وبلاد النهرين والفرات ودجلة، بقلم السيد دوتيڤينوت، باريس، ١٦٧٤.

ـ انظر «حكاية جديدة لرحلة إلى مصر» فى عامى ١٦٧٢ـ ١٦٧٣ بقلم پ. ڤانسليب، باريس، ١٦٧٧م، والتى كتبها على هيئة يوميات.

ـ ظهرت الطبعة الثانية لقواعد وقاموس لودولف فى فرانكفورت عامى ١٦٩٩ ـ ١٧٠٢م.

ـ بعد عودة ڤانسليب من رحلاته اتجه إلى كنيسة القديس سيڤيرفى بورون فى أسقفية سانس، والتحق بها بصفة نائب، واستمر هناك حتى مات يوم ١٣ يونيو ١٦٧٩، وذلك وفقًا لاستخراج شهادة وفاته، والتى حصلت عليها مع أوراق أخرى تخصه مكتوبة بخط اليد ومرفقة كملحق للمخطوط الموجود بحوزتى.

ـ يبلغ عدد الحروف الطباعية ثلاثة: العربى الكبير والصغير والمتوسط.

ـ قامت عائلة ميديسى بتنفيذ النماذج الشرقية الرائعة للأحرف التى ألحقوها بالمطبعة الشهيرة التى أسسوها فى روما فى نهاية القرن السادس عشر وتحمل اسمهم، وتشمل مجموعتهم الآتى:

١ ـ الحروف العربية الجميلة التى استخدمت فى طبعتين للأناجيل الأربعة التى أصدروها عامى ١٥٩٠ و ١٥٩١، ويوجد أحدها باللغة العربية مع وجود ترجمة لاتينية بين السطور، أما الأناجيل الأخرى فقد كتبت بالعربية فقط تحت العنوان الآتى «الإنجيل المقدس لربنا يسوع المسيح المكتوب من أربع الإنجيليين المقدسين أعنى متّى ومرقص ولوقا ويوحنا.

٢ ـ الحروف العربية التى طبعت بها النسخة العربية لأوقليدس، التى طبعت فى روما عام ١٥٩٤ بعنوان «كتاب تحرير أصول لأوقليدس» من تأليف خوجة نصير الدين الطوسى.

٣ ـ الحروف العربية الأصغر حجمًا التى استخدمت فى إصدار الطبعة

العربية لابن سينا، والتى طبعت بروما عام ١٥٩٣ بعنوان «كتاب القانون فى الطب لأبى على الشيخ الرييس ابن سينا مع علم المنطق وعلم الطبيعى وعلم الكلام».

٤ ـ وأخيرًا الحروف المغربية والسريانية واليعقوبية والمارونية والإسترانجلو والتعليقية والقبطية... إلخ، وقد استخدمت فى هذه الدراسة تلك الحروف الطباعية الأخيرة التى ربما لم يستخدمها أىّ أحد غيرى.

ـ يشغل السيد فيرمين دى دوت ـ المشهور بموهبته النادرة بشكل عام ـ منصب رئيس خاص للمسبك، وكان فيما قبل يعمل فى المطبعة الملكية ناحت حروف منذ عام ١٨٠٢م.

ـ راجع «مصر القديمة والحديثة» بقلم السير دولاكروا، عام ١٧٠٤، وهو أحد مخطوطات مكتبتى.

ـ راجع رحلة السيربول لوكاس التى قام بها إذعانًا لأمر لويس الرابع عشر فى تركيا وآسيا وسوريا وفلسطين وصعيد مصر والوجه البحرى...إلخ، وفيها نجد ملاحظات مثيرة مقارنة بما كتبه السابقون عن متاهة مصر وعن عدد كبير من الآثار القديمة الأخرى التى قام هو باكتشافها، وكذلك وصف للحكومات والقوات والديانة والسياسة الحالية والحالة الراهنة للأتراك واستعدادات الحرب الأخيرة ضد الإمبراطور ومقارنة للعادات المصرية الحديثة بالعادات القديمة... إلخ، باريس، ١٧٢٤.

وقد كتب بونييه هذه الرحلات بعنوان «رحلة السيد بول لوكاس فى بلاد المشرق» ـ باريس ـ ١٧٣١.

ـ ولدكلود سيكارد فى أوبانى، وهى مدينة صغيرة مجاورة لمارسيليا عام ١٦٧٧، والتحق بالجمعية اليسوعية فى أڤينون عام ١٦٩٩، وفى عام ١٧٠٨ حلف يمينه، وبعد أن قام بتدريس الآداب القديمة لمدة سبعة أعوام تم إرساله كمبشر إلى سوريا ومنها إلى مصر، حيث توفى بالقاهرة يوم ١٢ إبريل عام ١٧٢٦، وإذا كان علينا أن نصدق ما ورد فى مقدمة المجلد الثامن من أبحاث اليسوعيين المبشرين فقد كان پ. سيكارد دقيقًا فى أبحاثه وعادلاً فى أفكاره وحكيمًا فى

انتقاداته ومحظوظًا فى اكتشافاته، وكان كل ما أنتجه قلمه متميزًا بطابع خاص تفرد به، وكان دائمًا الطابع الأجمل حقًا.

ونجد فى بعض رسائل پ ـ سيكارد التى جاءت فى المجلدين الثانى والخامس أبحاثًا جديدة عن مهمات رهبانية اليسوعيين فى بلاد المشرق، والتى نشرت فى باريس عامى ١٧١٧ و ١٧٢٥، ولقد أضيف إلى هذا الجزء الأخير خريطة من تنفيذ پ ـ سيكارد من كتاب عن مصر القديمة والحديثة، وقام بإعادة طباعتها چان ألبير فابريسيوس، فى الفصل رقم ٤٦ من كتابه المنشور فى هامبورج عام ١٧٣١، ونود أن نؤكدأن الجزء الذى وضع فيه السيد پ ـ سيكارد الخريطة قد تم بالفعل الانتهاء منه، وأن السيد پ ـ أنجلولت قد قال ـ فى المقدمة التى ذكرتها من قبل والتى لم نفقد كل الأمل فى العثور عليها ـ «سوف نتأثر جدًا بضياع هذا العمل، فهناك فائدة كبيرة سنحصل عليها من ذلك الوصف، فنحن نعلم أن الملك ـ حامى الفنون الجميلة ـ أعطى منحًا تبلغ أحد عشر ألفًا أو اثنى عشر ألفًا من الجنيهات للإنفاق على الرسامين المصاحبين للسيد پ ـ سيكارد فى رحلاته. وتحت قيادته رفعوا له الخرائط والمساقط لآثار كل البلدان، وذلك بعد أن علم الملك نية هذا المُرسَل، وأراد أن يقوم بتسهيل مهمته.

ونجد فى المجلدين السادس والسابع من نفس المجموعة بحث السيد پ ـ سيكارد عن عبور الإسرائيليين للبحر الأحمر وكل ما أمكنه الحصول عليه من أوراق عن مصر. وتحوى أبحاث تريڤو رسالة منه عن شهر ديسمبر عام ١٧١٩، بخصوص نفس الموضوع.

ـ انظر «منظر الشرق» لشارل بيرى، لندن، ١٧٤٣م.

ـ راجع «حكاية رحلة قام بها السيد جرانچر إلى مصر» عام ١٧٣٠، باريس، ١٧٤٥.

ـ يحوى وصف مصر العديد من الملاحظات المثيرة عن الجغرافيا القديمة والحديثة لهذا البلد، وعن آثارها القديمة، وأعرافها وديانة السكان وعاداتهم والحكومة والتجارة والحيوانات والأشجار والنباتات، من خلال أبحاث السيد

دومابيه القنصل الفرنسى السابق بالقاهرة وبقلم السيد القس لوماسكربية، باريس، ١٧٣٥.

وأصدرت الطبعة الثانية من هذا المؤلف فى لاهاى، عام ١٧٤٠.

ـ أعطى السيد دو مابيه لكتابه عنوان «تيلياميد»، وهو اسم يتجانس مع اسمه الشخصى، وقام بنشر أول طبعة لهذا العمل، ثم نشر السيد جوير الطبعة الثانية بعد أن أضاف إليها عدة إضافات من خلال الأصول الموجودة عنده، وتتمثل الإضافات فى ملخص لحياة السيد دو مابيه، وتحمل هذه الطبعة العنوان التالى: «تيليا ميد أو مقابلات فيلسوف هندى مع مبشر فرنسى عند انخفاض البحر بقلم السيد دو مابيه، لاهاى، ١٧٧٥.

ـ راجع «الوصف التاريخى والجغرافى لهليوبوليس وممفيس»، بقلم السيد فور مونت، باريس، ١٧٥٥.

ـ انظر صـ ٣٤٤ من الجزء السابع من تاريخ الأكاديمية الملكية للنقوش والآداب.

ـ راجع «وصف الشرق» لريتشارد بوكوك.

وقد استعنت بالترجمة الفرنسية التى تحمل عنوان «رحلات ريتشارد بوكوك فى الشرق» . فى مصر وشبه الجزيرة العربية وفلسطين وسوريا واليونان وطرسوس.. إلخ، وتحوى وصفًا دقيقًا للشرق ولمناطق أخرى عديدة، ترجمها عن الإنجليزية مجموعة من الأدباء، دولا فلوت، باريس، ١٧٧٢ .

ـ راجع أبحاث البارون دوتسوت عن الأتراك والتتار، أمستردام، ١٧٨٥.

ـ راجع «رحلة إلى النوبة والحبشة لاستكشاف منابع النيل فى الأعوام ١٧٦٨ : ١٧٧٣» بقلم چيمس بروس، وترجمها عن الإنجليزية السيد كاستيرا، باريس، ١٧٩٠ ـ ١٧٩١.

ـ راجع «رحلة إلى البحر الأحمر على سواحل شبه الجزيرة العربية ومصر وفى صحارى طيبة»، متبوعة برحلة أخرى من ڤينيسيا حتى البصرة مرورًا

بلاتيكية وحلب والصحارى... إلخ، فى عامى ١٧٨٠ ـ ١٧٨١، بقلم السيد إيليس يوروين، وقام بترجمتها السيد بارود، وقد زودت الطبعة الإنجليزية الثالثة بخريطتين جغرافيتين ـ باريس ـ ١٧٩٢.

ـ انظر «رحلات على سواحل اليمن السعيد والبحر الأحمر ومصر»، وتحوى تفاصيل معركة الإنجليز مع السيد دوسوفران، وحملتهم إلى رأس الرجاء الصالح عام ١٧٨١، بقلم السيد هنرى رووك، الفارس وقائد جنود المشاه، تُرجم عن الطبعة الإنجليزية الثانية، باريس، ١٧٨٨.

ـ انظر «رحلة من القسطنطينية إلى البصرة عام ١٧٨١ مرورًا بدجلة والفرات، والعودة إلى القسطنطينية عام ١٧٨٢ مرورًا بالصحراء والإسكندرية»، بقلم الأكاديمى سستينى، مترجم عن الإيطالية، باريس، العام السادس من التقويم الجمهورى.

ـ انظر «وصف شبه الجزيرة العربية بناء على ملاحظات أصلية وآراء تم تجميعها من مختلف الأماكن بها» بقلم كارستن ينبور، أمستردام، ١٧٧٤. ونشرت الطبعة الثانية فى باريس ١٧٧٩.

ـ انظر «رحلة إلى مصر والنوبة» بقلم فردريك لويس نوردن، وقد تمت مقارنة الطبعة الجديدة لهذا الكتاب مع الطبعة الأصلية بعناية، مع إضافة ملاحظات لكتاب سابقين ومحدثين وعلماء جغرافيا عرب، على يد السيد لوجليه كاتب أبجدية تتسار ماتتشو .. إلخ، باريس، ١٧٩٥ ـ ١٧٩٨.

ـ راجع «رحلة لصعيد مصر والوجه البحرى»، تنفيذًا لأوامر الحكومة القديمة، وتحوى ملاحظات من كل نوع، بقلم س.س. سونيتى، مزدانة بأربعين لوحة للخرائط والمناظر والرسومات والخريطة الجغرافية والآثار القديمة والنباتات والحيوانات..إلخ، باريس العام السابع من التقويم الجمهورى.

ـ انظر «رسائل عن مصر» بقلم السيد سافارى، وفيه يعقد مقارنات للعادات القديمة والحديثة للسكان، ويصف الدولة والتجارة والزراعة والحكومة وديانة

البلد القديمة ونزول سان لويس فى دمياط، بالاستعانة بما ذكره چوانڤيل وبعض الكتاب العرب، مزود بخرائط جغرافية، باريس، ١٧٨٦.

- قام سافارى بإنجاز ترجمة جيدة للقرآن الكريم ظهرت تحت العنوان التالى: «القرآن مترجم عن العربية، مع بعض الملاحظات ويسبقه مقدمة عن حياة الرسول محمد، استخلصها المترجم من الكتاب الشرقيين ذوى المكانة الرفيعة. باريس - ١٧٨٣.

وندين لهذا الرجل بعمل ثالث، وهو «نحو اللغة العربية» مشروحًا باللغتين الفرنسية واللاتينية، فى الطبعة التى أصدرها السيد لانجليه، وبدأت طباعتها منذ اثنى عشر عامًا تقريبًا، ولكنها توقفت بسبب ظروف مختلفة، وانتهت توًا فى المطبعة الملكية تحت عنوان: «حرف اللغة العربية العامية والفصحى، نشر بعد وفاة كاتبه السيد سافارى. مترجم القرآن مضافًا إليه بعض الروايات العربية على يد الناشر» باريس المطبعة الملكية، ١٨١٣.

- انظر «رحلة لسوريا ومصر خلال الأعوام ١٧٨٣ : ١٧٨٥»، مزودة بخريطتين جغرافيتين ولوحتين تعرضان أطلال معبد الشمس فى بعلبك وأطلال مدينة بالمير فى صحراء سوريا، بقلم السيد م. س. ف ڤولنى. باريس - ١٧٨٧ و ١٧٩٠.

- انظر «رحلة جديدة إلى صعيد مصر والوجه البحرى وسوريا ودارفور. التى لم يذهب إليها أى أوروبى» بقلم السيد براون، منذ عام ١٧٩٢ : ١٧٩٨، وتضم تفاصيل مثيرة عن مناطق مختلفة داخل إفريقيا ... إلخ، ترجمها عن الطبعة الإنجليزية الثانية ج. كاستيرا. باريس - ١٨٠٠.

- انظر «رحلة ف. هورنمان إلى إفريقيا الشمالية بدءًا من القاهرة حتى مورزوق عاصمة مملكة فذان، متبوعة بشرح لجغرافية إفريقيا» بقلم السيد رونال، وقام بترجمتها عن الإنجليزية السيد لانجليه وأضاف بعض الملاحظات وبحثًا عن الواحات كتب وفقًا لروايات بعض الكتاب العرب. - باريس - ١٨٠٣.

ـ إن الاسم الكامل لصلاح الدين هو «الملك الناصر صلاح الدينا والدين جليل بن أيوب»، وقد كتب عنه الكثير من مؤرخى الحروب الصليبية، وكان هذا القائد كوردى الأصل، جاء مع أخيه أسد الدين شيركوه ليكونا فى خدمة نورالدين ـ الذى سأتحدث عنه فيما بعد ـ وكان حينئذ يحكم الجزء الأكبر من سوريا وبلاد النهرين ـ وحقق الأخوان شهرة عسكرية واسعة، وفى هذا الوقت طلب خليفة مصر مساعدة نورالدين ضد الفرنجة، ولم ير هو أفضل من هذين القائدين الكورديين لقيادة القوات التى سيرسلها إلى مصر، وبعدما قام صلاح الدين بتجريد الخليفة من سلطاته ـ بناءً على أوامر سيده ـ استولى على حكم مصر لحسابه وأسس الأسرة الأيوبية التى بقيت على العرش لمدة ثمانين عامًا تقريبًا، حكم خلالها ثمانية حكام.

وتوفى صلاح الدين عن عمر يناهز السابعة والخمسين، عام ٥٨٩هـ ـ ١١٩٣م، فى قلعة مدينة دمشق. وكتب القاضى بهاء الدين بن شداد تاريخ صلاح الدين، ونشره ألبير شولتن فى لايد بإضافة ترجمة لاتينيه له وفقًا لما ورد فى مخطوطات مكتبة هذه المدينة، كما أرفق بها فقرات من أعمال أبى الفدا وعمادالدين أصفهانى تتناول حياة هذا الأمير، وصدرت هذه الطبعة تحت عنوان: «سيرة السلطان الملك الناصر صلاح الدين أبى مظفر يوسف بن شاذى».

ـ أضاف تاريخ الحروب الصليبية شهرة كبيرة لاسم الأمير نورالدين محمود الملقب بالملك العادل، وكان ابنًا لعماد الدين زنكى، وهو الأمير الثانى فى الأسرة الأتابكية التى حكمت سوريا، وُلد عام ٥١١ هـ ـ ١١١٧م، وخلف والده فى حكم سوريا وشبه الجزيرة العربية عام ٥٤٤ هـ ـ ١١٤٩م.

وعندما كان حاكمًا لمدينتى حلب وحمص استولى على مدينة دمشق، وبلغت قوته شهرة واسعة حتى أن آخر خليفة فاطمى لمصر ـ كما ذكرت من قبل ـ العاضد لدين الله طلب منه العون لمواجهة الفرنجة، فأرسل إليه نورالدين قوات ضخمة بقيادة صلاح الدين، الذى استطاع أن يصبح حاكمًا لمصر، وبعدما انشق صلاح الدين عن سيده، دخل نورالدين بنفسه مصر على رأس جيش قوى وهاجم

القاهرة وأجبر صلاح الدين على الهرب، ثم عاد بعد وقت قليل إلى سوريا، حيث مات مريضًا فى قلعة دمشق عام ٥٦٩هـ - ١١٧٣م.

- تعنى كلمة خليفة باللغة العربية: الذى خلف، والنائب، والوكيل، وهى مشتقة من الجذر اللغوى خَلَف الذى يعنى: «يأتى بعد أو يتبع أو يحل محل». وكان هذا هو لقب الولاية عند المسلمين، وشمل قوة واسعة وسلطة مستقلة تمامًا فيما يختص بالدين والحكم السياسى والعسكرى.

ويرجع الفضل فى هذا اللقب إلى أبى بكر، الذى اختاره المسلمون ليخلف الرسول محمد (ﷺ)، ولم يرد هو أن يكون له أى لقب آخر سوى خليفة رسول الله. وكانت المدينة المنورة هى مقر الخلافة، وهى المدينة التى توفى فيها الرسول (ﷺ) ودفن بها، وظلت كذلك حتى خلافة على رابع الخلفاء الذى نقل مقرها إلى الكوفة، ثم جاء معاوية - أول خليفة أموى - يجعل مقرها فى دمشق، ثم أرجعها أبوالعباس - الملقب بالسفاح - وهو أول خليفة عباسى إلى الكوفة لبعض الوقت، ثم نقلها بعد ذلك إلى أنبرة فى العراق البابلى، ثم جعلها فى مدينة شيدها بالقرب من الفرات وأطلق عليها اسم الهاشمية، ثم أقام خليفته أبوجعفر المنصور مدينة بغداد وجعلها مقرًا للخلافة. واستمرت الخلافة دون انقطاع حتى عام ٦٥٦ هـ - ١٢٥٨م.

- ضمت أسرة بنى العباس ٣٧ أميرًا تولوا الخلافة تباعًا خلال ٥٢٣عامًا أى منذ عام ١٣٢ هـ - ٧٤٩م حتى عام ٦٥٦هـ ١٢٥٨م. وقد رفضت مصر الاعتراف بسيادة العباسيين عام ٣٦٢هـ - ٩٧٢م عندما فتحها الخليفة الفاطمى المعز، ولم يُعد السلطة العباسية إلا صلاح الدين فى عام ٥٦٧هـ - ١١٧١م وأخيرًا تم إقصاء هذه العائلة عن العرش والقضاء عليها تمامًا بعد استيلاء التتار على بغداد عام ٦٥٦هـ ١٢٥٨م، ولم تمر ثلاثة أعوام حتى ظهرت ظلال السلطة العباسية، على الأقل فيما يتعلق بالجانب الدينى فى مصر، حيث قام بيبرس سلطان المماليك الشراكسة بإعادة الخلافة، وكذلك فعل خلفاؤه، وعندما فتح السلطان سليم مصر عام ٩٢٢هـ - ١٥١٦م قابل بها الخليفة المتوكل على الله الذى اصطحبه معه إلى القسطنطينية.

وقام ديار بكرى بوصف تاريخ أواخر الخلفاء العباسيين فى مصر، ونشره فى مجلده الذى يحمل عنوان «الخاميسى».

- يذكر أمراء الخلافة الفاطمية أن نسبهم ينتهى مباشرة إلى على بن أبى طالب وزوجته فاطمة ابنة الرسول (ﷺ) وقد أسست هذه الخلافة وبدأت فى أفريقيا عام ٢٩٦هـ ٩٠٨م. حيث حكم الخلافاء الفاطميون فى أفريقيا ثم أصبحوا بعد ذلك ولاة لمصر. وكان أول أمرائهم الذين حكموا مصر هو أبوتميم معد الملقب بالمعز لدين الله، وهو ابن الخليفة المنصور بالله، وأسس هذا الأمير القاهرة عام ٣٥٩هـ ٩٧٠م.

- إن الاسم الكامل للمكين هو «جرجس بن العميد أبوإلياس بن أبى المكارم ابن أبى الطيب»، ولكنه اشتهر بلقب الشيخ المكين، وكتب تاريخ العرب فى كتاب بعنوان «تاريخ المسلمين» قام بطبعه ث. اربينيوس فى طبعتين بالعربية واللاتينية بعنوان: «تاريخ المسلمين من صاحب شريعة الإسلام أبى القاسم محمد إلى الدولة الأتابكية تأليف الشيخ المكين جرجس بن العميد أبى إلياس بن أبى المكارم بن أبى الطييب»، ١٦٢٥.

أما الطبعة الثانية فكانت أصغر حجمًا ولم تضم إلا الترجمة اللاتينية وحملت نفس العنوان، وطبعت فى هذا العام فى نفس المطبعة. ثم قام بيير ڤاتييه - وكان مستشار وطبيب دوق أورلياتس - بوضع ترجمة فرنسية لها بعد ذلك بثلاثين عامًا نشرت تحت عنوان: «التاريخ الإسلامى أو التسعة والأربعين خليفة الذين ذكرهم المكين، ويحوى موجزًا مؤرخًا لتاريخ المسلمين بشكل عام منذ الرسول محمد (ﷺ) حتى حكم الملقبين بفرانسوا للأرض المقدسة» - باريس - ١٦٥٨. وكان أسلوب هذه الترجمة غريبًا وغير مفهوم بصفة عامة - كما جاءت أسماء الخلفاء محرفة تمامًا وبعيدة كل البعد عن نطقها الحقيقى.

- إن الاسم الكامل للمقريزى - ذلك المؤرخ المشهور - هو «تقى الدين أحمد بن على بن عبدالقادر بن محمد»، ولكننا نعرفه دائمًا بلقب المقريزى الذى أطلقه عليه هيربيلوت وبعض العلماء الآخرين، لأن أصله أحد أحياء مدينة بعلبك فى

سوريا وهو حى مقريز - إلا أن لقبه الحقيقى - كما ذكره فى مقدمة أحد أعماله هو ابن المقريزى، وفى الواقع فهذا هو لقب والده، لأنه هو الذى ولد بمقريز وليس هذا المؤرخ، الذى ولد بالقاهرة عام ٧٦٩هـ - ١٣٦٧م، وتوفى عام ٨٤٠هـ - ١٤٣٦م فى حين يقول البعض إنه توفى عام ٨٤٥هـ - ١٤٤١م. ولدينا له أعمال عديدة ذات شأن عظيم، إلا أنه اهتم بتاريخ مصر بشكل خاص، وكان أشهر أعماله الذى نشر بهذا الخصوص هو «كتاب المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار من تواريخ مصر» ويوجد عدد كبير من المخطوطات لهذا الكتاب فى المكتبة الملكية: (المخطوطات العربية أرقام ٦٧٣أ، ٦٧٣ت، ٦٨٠، ٦٨٢، ٦٩٣، ٧٨٩، ٧٩٧، ٧٩٨، ٧٩٩)، وتوجد نسخة بمكتبة ديرسان چيرمان دى برى، وقد نقلت الآن إلى المكتبة الملكية فى المخطوطات العربية رقم ١٠٦.

- إن الاسم الكامل للبغدادى هو «موفق الدين عبداللطيف»، وقد لقب بالبغدادى نسبة إلى مدينة بغداد مسقط رأسه، ودرس الطب كما اهتم كثيرًا بدراسة التاريخ المصرى، ولدينا له عمل حول هذا الموضوع باسم «مختصر أخبار مصر» أما العنوان الكامل فهو «كتاب الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر»، ويضم النص العربى لهذا الكتاب تفاصيل مثيرة حول تاريخ مصر، نشرت لأول مرة فى ألمانيا منذ أربعة وعشرين عامًا تقريبًا، ثم طبع هذا المؤرخ طبعة ثانية على نفقته الخاصة كتبت بالعربية و اللاتينية فى إنجلترا، وقد قام الشاب ريتشارد بوكوك بترجمة جزء منها، ثم ترجمها إلى الفرنسية السيد سلفستر دو ساسى وأثراها بالملاحظات القيمة والملحقات المهمة التى تتعلق بمصر.

- إن الاسم الكامل للسيوطى هو «أبوالفضل عبدالرحمن جلال الدين محمد»، واشتهر بالسيوطى نسبة إلى مسقط رأسه أسيوط بمصر، وقد كتب العديد من الأعمال، يوجد بعضها بالمكتبة الملكية، إلا أن أهمها هى تلك الأعمال التى كتبها عن تاريخ مصر، ولعل أفضلهم وأكثرهم تفصيلاً هو كتاب «حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة». وقد جلبت معى من مصر لهذا المؤلف عدة مخطوطات محفوظة جيدًا.

- الاسم الكامل هو «محمد بن أحمد بن إياس»، ولقب باللقبين «الحنفى» و «الچركسى»، وحمل لقب الحنفى لأنه كان على مذهب أبى حنيفه، أما اللقب الثانى فيرجع لمسقط رأسه چيركاسى. ويحمل مُؤلَفه عنوان «نشق الأزهار فى عجائب الأقطار»، ووفقًا لما يذكر ابن إياس فقد انتهى منه يوم الجمعة ١٤ من شعبان عام ٩٢٢هـ - ١٢ سبتمبر ١٥٦٦م، ويوجد هذا العمل بالمكتبة الملكية، على هيئة نسختين تحملان رقم ٥٩٥ من المخطوطات العربية لمجموعة المكتبة القديمة، ورقم ٣ فى مخطوطات (ديشوترايس) ابن أخ وتلميذ فورمان فى اللغة الصينية، وأستاذ سابق للغة العربية فى الجامعة الملكية بفرنسا. وأمتلك أنا شخصيًا نسخة جيدة جدًا لهذا العمل تحت رقم ٥٦ من مجموعة المخطوطات الشرقية التى أحضرتها من مصر.

وقام أحد الأوروبيين بعمل نسخة للمخطوط الموجود بمكتبة الملك عام ١١١٥هـ - ١٧٠٣م ويشوبها عدم الدقة والخط السيئ، إلا أن النسخة التى اشترتها المكتبة عند بيع كتب (ديشوترايس أفضل بكثير فى دقتها ونقاء خطوطها، وتم الانتهاء من تلك النسخة فى بداية شهر ربيع الأول عام ١٠٤٤هـ سبتمبر ١٦٣٤م. أما النسخة التى بحوزتى فهى أكثر قدمًا من هاتين النسختين، حيث انتهى العمل بها يوم ١٩ رجب عام ١٠١٩هـ، أغسطس ١٦١٠م، وقد نُسخ هذا المخطوط بدقة كبيرة.

وقد أجريت اتصالاً مع السيد لانجليه لأناقش معه الموجز الشيق الذى قدمه عن كوز موغرافية* ابن إياس، الذى نشره فى الجزء الأول من المجلد الثامن لاختصارات وأجزاء المخطوطات الموجودة بمكتبة الملك حيث ذكر لى أنه استقى دروسًا مفيدة ودقيقة خلال مراجعته لهذا العمل، ولن أغفل أنا ذكر الأهمية الكبيرة لهذا الموجز العلمى الذى يسر لى أبحاثى فى كثير من الأحيان، إلا أن المعلومات القليلة التى أوردها الكتاب الشرقيون الذين تناولوا حياة كاتبنا، لم تسمح لنا بتحديد يوم مولده ووفاته بشكل دقيق، كما لم نستطع معرفة التاريخ الذى اشتهر فيه إلا مما عرفناه منه شخصيًا، وهو ما أشرت إليه من قبل، ويتعلق بتاريخ انتهائه من إنجاز عمله. ولم يعط «حاجى خليفه» نفسه إلا تفاصيل قليلة

وغير كافية عن ابن إياس، ولكنه ذكر لنا ـ فى المقال الذى نشره السيد لانجليه ـ أن كاتبنا قد استقر عمله من الحوليات القديمة، وأنه أورد أكثر ما عرفه غرابة، وأعجب الأشياء فى مصر ومناطقها، وأفضل ما ذكره الحكماء فيها، ويضيف حاجى قائلاً «لقد ذكر نبذة عن حياة الملوك القدماء لهذا البلد، وتفاصيل عن النيل والأهرامات وبدأ بدراسة صغيرة عن النظام السماوى والفلك».

وقد استرشد عدد كبير من العلماء المستشرقين بكتاب ابن إياس، وكان بوكوك يمتلك نسخة منه، انتقلت إلى مكتبة بودليان بأكسفورد، ونجدها الآن تحت رقم ٩١٤، كما استعان به أيضًا دولا كروا الأب فيما يتعلق بالجزء الخاص بحياة چنكيزخان، التى كانت محورًا لمقال قصير صدر فى عمل بعنوان «موجز تاريخ الكتاب الذين تناولوا حياة چنكيزخان»، انظر صـ ٥٤٤ من هذا العمل.

ـ السيد لانجليه هو عضو بالمعهد الفرنسى وأمين المخطوطات الشرقية بالمكتبة الملكية ومدير المدرسة الخاصة للغات الشرقية الحية التى تهم السياسة والتجارة، وأستاذ اللغة الفارسية واللغة المالية بهذه المدرسة، التى أنشئت قرب مكتبة الملك، وكان فارسًا فى جوقة سان فلاديمير بروسيا ... إلخ.

ـ أود أن أسجل هنا اعترافى بالجميل لحسن المعاملة والحب الأبوى الحقيقى الذى شملنى به السيد لانجليه، حيث وضع تحت تصرفى كل المخطوطات التى لا تقدر بثمن والتى يقوم هو بالإشراف عليها وذلك حتى أنهى عملى.

ـ انظر صـ ٣٢٠ المجلد السادس من اختصارات وأجزاء مخطوطات المكتبة الملكية ومكتبات أخرى ـ نشر بالمعهد الفرنسى.

ـ السيد سلفستر دوساسى هو عضو المعهد الفرنسى وجوقة الشرف وأستاذ اللغة الفارسية بالجامعة الملكية بفرنسا، وأستاذ اللغة العربية العامية والفصحى بالمدرسة الخاصة للغات الشرقية الحية، وعضو بالجمعية الملكية بكوتينج، والأكاديمية الملكية للعلوم فى كوبنهاجن، والمعهد الملكى بهولندا، وشريك عام بالأكاديمية الإيطالية، وعضو شرفى بمتحف فرانكفورت، ومُناظر جمعية المنافسة بكامبراى وأبفيل.

ـ انظر «كتاب الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر»، ويتناول أرض مصر بقلم «عبداللطيف الطبيب العربى» ببغداد، وقد ألحق به عدة فقرات لكتاب شرقيين، ويتناول حالة الأقاليم والقرى بمصر فى القرن الرابع عشر، وقام السيد سلفستر دوساسى بترجمته وإثرائه بالملاحظات التاريخية والنقدية ـ المطبعة الملكية ـ باريس.

ـ انظر سفر التكوين، الفصل الثانى، المقطع ١٣ .

ـ انظر الدراسة التى تتناول «موقع الجنة الأرضية»، بقلم ب ـ د هوييه، مطران أفرانش، الأكاديمية الفرنسية، باريس، ١٦٩١ .

ـ أُطلق اسم عدن على الموقع الذى حدد فيه موسى الجنة الأرضية وهو اسم مشتق من الجذر اللغوى «عدن أو عيدين»، الذى يعنى فى اللغة العبرية ـ بناء على ما ورد فى مذكرات كالاسيو ـ المجلد الثالث ـ المجموعة ٤٥٧ ـ «السعادة»، ومنه اشتقت الكلمات التى لها نفس الدلالة فى اللغتين الكلدانية واليونانية، ويعنى هذا الرسم فى اللغة السريانية «فرصة أو مناسبة».

ـ لُقب رابى سعدية الشهير بالفيومى، نسبة لمسقط رأسه مدينة الفيوم، كما عرف أيضًا باسم «جاون» أى المهذب أو صاحب المكانة السامية، وهو لقب شرفى استخدام للإشارة إلى أساتذة مدرسة بابيلون فى هذا العصر. وقد قام نحو عام ٩٠٠م بترجمة أسفار موسى الخمسة، وكانت هذه الترجمة هى الأولى التى ظهرت باللغة العربية، حيث طبعت للمرة الأولى باللغة العبرية فى القسطنطينية عام ١٥٤٦ .

ـ أونكيلوس هو مؤلف التفسير الكلدانى لأسفار موسى، الذى اشتهر بالدقة والبلاغة فى التعبير، وقد عاش هذا الرجل قبل أربعين عامًا من بداية التاريخ الميلادى، وكان معاصرًا لهيليل العالم والدكتور الشهير المسؤول عن شهرة مدرسة القدس فى ذلك الوقت، وچوناثان بعد حزقيال الذى ترجم إلى الكلدانية «الأنبياء» و الكتب الشهيرة عن التوراة باسم «تاريخ القديسين» وننسب إليه أيضًا تفسيرًا لأسفار موسى الخمسة. وقد أخطأ العديد من الأحبار ـ بسبب سوء

التـأريخ - وخلطوا بين أونكيلوس وأكيـلاس واعـتـبـروا أن الأخـيـر هو صـاحب الترجمة اليونانية للإنجيل، وكان يعيش فى القرن السابق.

- لُقب يعـقـوب بن يوسف اليهـودى بلقب الطوسى، نسـبـة إلى مـدينة طوس إحدى مدن خراسان الكبيرة، وقد ترجم إلى الفـارسـيـة أسفار موسى الخمسة، وطبعت بفضل اليهود باللغة العبرية فى القسطنطينية عام ١٥٤٦، مضـافًا إليها الشـرح الكلدانى بقلم أنكيلوس والترجمة العربية بقلم سعدية جاون، وكانت هذه الطبعة فى عهد والتون الذى أعاد طباعة النسخة الفارسية باللغة الفارسية فى كتابه الرائع المكتوب بعدة لغات.

- يمكن إضـافة هذ الجملة «اسم أحدها النيل وهو المحيط بجميع بلد زويلة»، إلى ترجمة المقطع الثانى من الفصل الثانى من سفر التكوين.

- هناك بلدان يحمـلان اسم «هويله» يوجد الأول منهمـا فى الشمـال العربى، حيث تعيش الشعوب التى تتبع سلالة هويلة بن قحطان، وهى بالتالى من سلالة، سام، بينما يوجد البلد الثانى الذى يحمل كذلك اسم آخر هو زويلة، فى الحبشة، وينتسب السكان فيه إلى سلالة هويلة بن كوش حفيد حام.

- يشيـر التفسيـر الكلدانى لچوناثان بن حزقيـال إلى الهند وليس إلى هويلة، ولابد أن أشير هنا إلى الخلط الذى كان موجودًا فى العصور القديمة بين الهند وأثيوبيا، وإن كـان نفس الاسم يطلق على الاثنتين «انظر النصوص اليـونانية فى الجزء السادس من هذه الدراسـة وقد ذكر بنيامين دوتودال أن هويلة والحبشة ما هما إلا دولة واحدة.

- يشيـر النص العبرى والترجمـة الكلدانية والسـريانية إلى كلمة فيزون بينمـا يضيف النص السامرى الصفة أو النعت «كادوف» التى تعنى «الذى نبحر عليه»، من الجذر اللغوى «يبحر أو يجدف»، وإذا كان من الممكن أن نعتبر مقاطع الكلمات العبرية والأثيوبية والقبطية والفـارسـية على أنها جميعها ترتبط بإحدى أدوات اللغة المصرية القديمة، ولكنها محـرفة بطرق مختلفة، فربما لن نجد اختـلافًا محسوسًا عن اسم «سيحون».

ـ كانت الحبشة فى ذلك الوقت تمتد أكثر ناحية الغرب، انظر النصوص العربية فى الجزء السادس من هذه الدراسة.

ـ انظر سفر التكوين الفصل ١٥، المقطع ١٨ وسفر الخروج، الفصل ٢٤ المقطع ١٥. لقد أشرت إلى عدة أمثلة تتناول التسميات التى تتحول إلى اسم علم، فى إحدى ملحوظات الصفحة الأولى من دراسة النقوش الكوفية التى جمعتها من مصر.

ـ انظر سفر التكوين الفصل ٣١، المقطع الأول وسفر الخروج الفصل الأول، المقطع ٢٢ والفصل ٢٣ المقطع ٣١ وما يليه.

ـ يحمل نهر آب تبر عند الفرس اسم رودخانة أيضًا واسمًا آخر يعنى: فم الأسد.

ـ توجد مدينة بلخ ـ فيما يذكر عبدالرشيد البكوى ـ فى الإقليم الرابع، وتقع على خط طول ٥ـ ١٠٥° وخط عرض ٤١ـ ٣٦°، وهى إحدى مدن خراسان الرئيسية، وأسسها منوبهر بن أيرج بن أفريدون، ويضيف هذا المؤرخ أن أهل هذه المدينة يشتهرون بالتباهى والتفاخر، ويمكننا أن نرى بها المعبد الكبير للآلهة المسمى «النوبهار» وتمتد واجهته مائة ذراع، بارتفاع أكثر من مائة ذراع، وكان تحت حراسة البرامكة، وكان ملوك الصين والهند يأتون للتعبد ولتقبيل يد البرمكى الذى كان يحكم البلاد، واستمرت أسرته فى الحكم حتى غزا عثمان بن عفان خراسان، وعندئذ انتقلت حراسة المعبد إلى برمك بن خالد الذى اعتنق الإسلام والتحق بخدمة عثمان بن عفان ودفع فدية للبلاد من الفضة، ثم أغار عبدالله بن عامر بن كرنز على جميع أراضى خراسان، وأرسل قيس بن هيثم الذى قام بتدمير النوبهار. وكانت بلخ هى مسقط رأس إبراهيم بن أدهم العجلى الذى توفى عام ١٦١هـ ـ ٧٧٧م، و «أبوعلى شقيق» بن إبراهيم البلخى، والذى يعد من أشهر علماء خراسان، وقد لقى مصرعه فى معركة كولان عام ١٩٤ هـ ـ ٨٠٩م، وعبدالجليل بن محمد الملقب بالرشيد وهو من الشخصيات الشهيرة، وعرف أيضًا باسم الوطواطة، وكان مستشار السلطان خوارزم شاه.

- يربط الكتاب العرب عادة بين اسم مصر والنيل فيقولون «نيل مصر».

- يطلق العرب على النيل اسم نيل السودان أو نيل السود، ويعنى اسم النيجر فى اللغة الماندنجية «النهر الكبير أو المياه الوفيرة»، وفى هذه اللغة نجد أن اسم النهر الذى نطلق عليه «السنغال» هو «بافنج» أى النهر الأسود، وتعنى تسمية البخريتى عندهم البلاد السوداء.

- ليس هناك أى من الشخصيات التى شاركت فى الحملة على مصر لايدرك أن أهالى القاهرة كانوا يستخدمون تعبير «بحر» للإشارة إلى نهر النيل، كما أن الأثيوبيين يذكرون فى أشعارهم كلمة «النهر البحر» عندما يشيرون إلى نهر كبير، وتستخدم هذه الصفة على وجه الخصوص عن الحديث عند أنهار النيل والأردن والفرات... إلخ.

- إن البقايا الموجودة من اللهجة البشمورية تمثل جزأين صغيرين من نسخة التوراة التى ربما كانت مكتوبة بهذه اللهجة القديمة، وتكشف كلمات هذين الجزأين عن اختلافات ملحوظة بينها وبين الكلمات المقابلة لها فى اللهجات الأخرى التى مازالت مستخدمة فى اللغة القبطية الحديثة. وعلى أية حال فإن الشك يساورنا فى أن هذه اللهجة قد استخدمت فى شمال مصر فى بلاد «بشمور» ويرى معظم العلماء من دارسى اللغة القبطية أنها إحدى لهجات الصعيد، وبالفعل فقد عثر على هذين الجزأين فى الصعيد. واعتقد السيد كاتر يمير أنه سوف يتغلب على هذه المشكلة بافتراض أن اللهجة البشمورية كانت مستخدمة فى الواحات، وعلى العكس من ذلك يفترض مستشرق آخر أنها كانت من لهجات الفيوم، إلا أن السيد كاتر يمير ضحد هذا الرأى حيث اكتشف قطعة تسجل اللهجة الحقيقية لأهل الفيوم، وعلى الرغم من ذلك فيبدو لى فى الإمكان أن نفترض رأيًا آخر يختلف عن الرأيين السابقين فالأمر لا يعدو عن كونه تشابه لهجات اللغة القبطية، وقد وجدت ما يؤيد رأيى فى النقش المصرى على حجر رشيد.

- انظر دراسة الزميل چيرار الهامة عن وصف وادى التيه و المحصلة الچيولوچية التى بنيت على هذا الوصف، التاريخ الطبيعى.

ـ يطلق السامريون على مدينة بابل اسم ليلاك، وفى الفصل الثانى من سفر التكوين يطلقون على كوش اسم كوفين، وعلى آشور اسم حاتسفو، وعلى النهر الذى أطلق عليه موسى اسم فيزون تسمية فيزون كادرف وعلى نهر حيد كل اسم قفلوساه.. إلخ.

ـ توجد أمثلة عديدة على الكلمات المركبة فى اللغات الشرقية، وسوف أكتفى بأن أذكر هنا الكلمات التالية: نجد فى اللغة الكلدانية كلمة فتحابج «قطعة من الطعام»، وهى تتكون من كلمتى «فتح» بمعنى قطعة، و «بج» بمعنى طعام، وكلمة «أدار جيزار» التى تعنى قاضيًا أو حاكمًا وتتكون من كلمتى أدار بمعنى حاكم أو أمير، وجيذار بمعنى يقطع أو يفصل أو يقرر أو يحكم... إلخ.

وفى العبرية كلمة «ميسافوا» التى تعنى العلف، وتتكون من كلمتى: «ميسا» بمعنى: يجفف وفوا بمعنى العشب أو التبن، وكلمة تسافيردا التى تعنى الضفدعة، ولا يوجد جذراها إلا فى اللغة العربية: صف وردع بمعنى ضفة المستنقع... إلخ.

ـ اشتق السامريون كلمة عقل «حقل» من الكلمة الكلدانية حيقل، أو من السريانية حا قال، وكلمة دانة «يخرج» من الكلدانية دانية، أو من السريانية داناه، وعمر «خمر» من السريانية حمر وهى نفسها كلمة خمر عند العرب، وكان السامريون يكتبون كلمتى حتصاد وعتصاد «الحصاد أو جمع المحصول» دون تمييز وكلمتى عجال وحيجال «يرى»... وهكذا. وفى اللغة العبرية نجد أيضًا أن هناك كلمات قد كتبت دون تمييز بينها مثل كلمتى حتسار وعذار «النعيم» ... إلخ.

ـ اشتق السامريون كلمة سعر «شعر» من الكلمة العبرية سسعر وهى نفسها كلمة شعر عند العرب، وكلمة عسر «عشرة» من العبرية عسير أو عشير، وهى نفسها الكلمة العربية عشر ... إلخ.

ـ كتب العبريون على السواء كلمتى سسيثار وساثار «يختبئ»، وكلمتى فريس وفرس «يحطم»... إلخ.

ـ كتب السامريون على السواء كلمتى فيلوق وفيلوك «السماء أو قبة السماء» وكلمتى حيلاك وحيلاق «يذهب» وهما مشتقتان من الكلمة العبرية حلاك... وهكذا.

ونجد أيضًا أنه قد ظهرت فى اللغة العبرية كلمتا قوب وكوب «قبعة»، وكلمتا فيرق وفيرك «يحطم أو يفصل» ... إلخ.

ـ أدين بالهجاء الجديد لكلمة النيل إلى مطران جوندار الذى يزورنى كثيرًا فى القاهرة والذى أمدنى بالعديد من المعلومات الثمينة عن هذا البلد.

ـ انظر قاموس لودولف صـ ٣٥٣ ـ صـ ٣٥٤.

ـ أورد لودولف فى قاموسه اسم جويندر بدلاً من اسم جوندار، وعلى أية حال فإن هذا الاسم الأخير ـ وفقًا للمطران سابق الذكر ـ هو اسم منطقة أكثر من كونه اسم مدينة، وقد أطلق على عاصمة هذه المنطقة اسم كاتاما، ويضيف أن هذه العاصمة تقع بين نهرين: يجرى أحدهما ناحية الشرق منها ويطلق عليه انجاراب، ويجرى النهر الآخر ناحية الغرب ويسمى قاها، ويلتقى النهران شمال هذه المدينة ليكونا نهرًا واحدًا يحمل اسم مجانانيا، وعلى مسيرة ساعة إلى الشمال من هذا الالتقاء يستقبل المجانانيا سيل ماجاتش الذى يأتى من الشرق، وعلى مسيرة يوم من هذا المكان عندما نتجه إلى الشمال نجد أن النهر يصب فى بحيرة تانا. و يقع قصر الملك فى وسط المدينة، ويقيم هذا الحاكم فى وقت من العام فى أحد المنازل الريفية المحاط بحدائق شاسعة على ضفاف قاها وعلى مقربة من كاتاما. ولعل ذلك يبرر رأى لودولف الذى اعترض بشدة على أن تكون جوندار هى عاصمة الحبشة، ولكنه أخطأ عندما فسر كلمة كاتاما على أنها كاسترا رجيا.

ـ إن كلمة ماراب أو مارب فى اللغة الحبشية هى اسم لأحدأنواع الحمار الوحشى، ونجد فى العديد من البلدان أمثلة كثيرة على استخدام أسماء الحيوانات من ذوات الأربع، والحيوانات الأخرى لتطلق على الأنهار: فلدى اليونانيين نهر الماعز الذى يصب فى حلسبون، ونهر الذئب، الذى يصب فى پون وعند السوريين نهر الكلب بالقرب من بيروت والذى يعرفه الجغرافيون الإغريق واليونانيون باسم ليكوس، ويطلقون أيضًا هذه التسمية على أحد روافد نهر الفرات، كما يوجد أيضًا نهر الأسد فى سوريا.

ونعرف نهرين يحملان اسم «ذاب» يصبان فى نهر دجلة، وقد أطلق عليهما القدماء اسمى ذابوس الكبير، وذابوس الصغير.

وعلاوة على ذلك ففى عصور مختلفة أطلق على بلاد الحبشة واليمن نفس التسمية، كما يمكن أن يكون أصل اسم نهر مارب، هو أصل تسمية قلعة مارب أو أرب التى أقامها فى اليمن الملك عبدالشمس بن يشحب الملقب بسبأ، وليس لدينا الكثير من تراث ولغة الحميريين كما لا نملك الوثائق الكافية لكى نناقش مدلول هذا الاسم، ولذا فسوف أكتفى أن أذكر هنا أن هناك الكثيرين الذين اعتقدوا أن هذا الاسم كان لأحد حكام اليمن، وفقًا لما يقول أبوالفدا.

ـ خصص المقريزى الفصل الرابع والسبعين من كتابه الضخم عن مصر لمدينة عذاب أو عيذاب الهامة، كما ذكرها أيضًا الإدريسى وأبو الفدا وابن الوردى فى مؤلفاتهم الجغرافية، بينما كان الإدريسى هو الوحيد الذى كتب اسمها عذاب بدلاً من عيذاب.

ـ وفقًا لما يقول الكتاب العرب فقد خلفت بلقيس أبيها هادهاد. ويذكر الحبشيون أنها أنجبت من سليمان ابنًا يسمى مينلحك، خلفها فى حكم الحبشة، ويبدو أنها كانت تضم فى ذلك الوقت اليمن والجزء الشرقى من الحبشة وكانت عاصمتها سبأ أو شبأ، وفى العبرية سيبا أو شيبا، وكانت الملكة تقيم فى قلعة فى هذه المدينة التى أطلق عليها اسم مارب «انظر فيما سبق».

ـ إن الأمر الذى جعل دراسة روافد نهر النيل وتحديد أماكنها عسيرة على معظم الجغرافيين فى العصر الحديث، هو أنهم لم يدركوا أن كلمة أنسولا عند الإغريق واليونانيين لها نفس مدلول كلمة جزيرة عند العرب، وأنها تعنى جزيرة وشبه جزيرة فى نفس الوقت، وبناء على ذلك فقد أراد العديد من الباحثين أن يعتبروا جزيرة مروى القديمة أنها لا تمثل شبه جزيرة وإنما جزيرة كاملة، وبالمفهوم الذى نعطيه نحن لهذا المصطلح فهى تمثل قطعة من الأرض تحيط بها المياه من كل ناحية.

ـ تعنى كلمة نيل «النيلة أو أزرق» فى اللغة السنسكريتية، ثم أصبحت فى اللغة العربية النيل وفى اللهجة العامية نيلة بمعنى النيلة الزرقاء، ونجدها أيضًا فى

الكلمة الفرنسية آنيل، والتى تحمل نفس المعنى، ومثلها مثل العديد من الكلمات الأخرى قد دخلت إلى اللغة الفرنسية من اللغة العربية من خلال تجارة الشرق، ومن خلال الحملات الصليبية وعن طريق العلاقات التى أقامها الصليبيون مع العرب فقد اكتسب الفرنسيون من العرب كلمات: السفاح، المخزن، الأميرال، الطنبور، الترجمان، المسجد، الجبر، القهوة، الوفرة، الصفر، الإزلال، الإناء... إلخ.

سافر أسيمانى إلى مصر مع السيد البروفسير سيكارد - انظر المذكرات الجديدة لبعثات إلى الشرق»، صـ ١٢٣ وما يليها.

- كانت مدينة عيداس فى بلاد النهرين معروفة عند العرب أيضًا باسم الرهاه، ونعتقد أن هذا الاسم هو تحريف لاسم كاليرهو الذى أطلق عليها بسبب تلك النافورة الجميلة التى كانت تزينها، وأطلق عليها الرحالة الاسم الشائع أورفا.

وقد انتزعت الحملات الصليبية الفرنسية هذه المدينة من العرب، ولكنهم استعادوها مرة أخرى عام ٥٣٩هـ - ١١٤٤م، على يد عماد الدين زنكى الأتابك، فى عهد بودوان بن فولك ملك القدس، ولكنها انتزعت من العرب وخربت عام ٧٩٦هـ - ١٣٩٣م على يد تيمور لانك وذلك قبل أن يحارب السلطان العثمان بجازيت.

- نحصى عشرة ملوك لعيداس يحملون اسم أيجر، وأشهرهم هو الملك الذى كان يخكم فى عام ٣٠م وذلك بسبب الرسالة المزعومة التى حررها إلى السيد المسيح والرد المزيف من المسيح إليه، ويشير إلى ذلك العديد من المؤرخين والكتاب. انظر أسيمانى فى الجزء الذى ذكرته من قبل.

- يستخدم اليونانيون أحيانًا اسم چوبيتر وچوڤيز للإشارة إلى السماء والمطر، ويتضح ذلك من أشعار فيرچيل.

- يشتهر نهر الفرات كثيرًا فى تاريخ الشرق، ويعرفه العبرانيون باسم ڤيريث، كما يطلق عليه أيضًا بالسريانية اسم فيريث، ويطلق العرب هذا الاسم - الفرات -

على اثنين من الأنهار: وهما الفرات العظيم الذى ينبع من جبال الأكراد ويصب فى دجلة بالقرب من عنبار وفلوجيه، والفرات الصغير وهو أكثر عرضًا من الفرات العظيم، ويجتاز العراق والكوفة، ولهذا فكثيرًا ما يطلق عليه اسم نهر الكوفة، ويصب كذلك فى دجلة بين واسط ونهروان، ويطلق على مصبه اسم قرنه. ويبدو أن نهر الأرج هو نفسه نهر أبيقوس، ويمثل أحد روافد الفرات فى أرمينيا ـ وفقًا لما يذكر سترابون.

ـ يعرف جبل البُردى باسم قاف عند العرب، وهو نفسه القوقاز عند الإغريق، ويعتقد الشرقيون أن هذا الجبل يحيط بالكرة الأرضية، وقد صُور فى العديد من الخرائط الجغرافية باسم البُرز.

ـ تمثل أميتشة بلا شك حمصين، وهى إحدى مقاطعات سوريا، وكانت حمص عاصمة لها.

ـ بلاد مصريدى هى مصر، التى تحمل فى اللغة السنسكريتية اسم مصر ستان، ونحن ندرك جيدًا أن المقطع الأخير «ستان» فى لغة الهنود والفرس يضاف عادة إلى اسم الدول.

ـ وفقًا لما يقول الفرس فيجب ألا نندهش إذا ما عرفنا أن نهر «نو» يجرى من أرمينيا إلى سوريا ومصر، ويمكننا تبرير سبب هذا الاعتقاد بجهل الفرس فى مجالات الجغرافيا والچيولوچيا، فى هذه الفترة التى كانوا يستقون من معلوماتهم فيها من الكتب العقائدية، وقد أدى هذا الجهل إلى ظهور العديد من الآراء غير المعقولة، فقد اعتقدوا على سبيل المثال أن المياه تسير بين جميع الأنهار، حيث يرون أن الأنهار متصلة من خلال وصلات خفية أرضية أو سماوية، وأنها جميعًا تعتمد على نهرين رئيسيين هما: نهر «الأرج» الذى ذكرناه من قبل، ونهر «ڤيه» الذى ينبع من جبل البُردى.

ـ انظر هو بيجان «الجذور العبرية التى تخلو من الأحرف المتحركة»، صـ ١٠٤٦. وتعنى كلمة «اف» فى اللغة العربية رقمًا صغيرًا ومقياسًا صغيرًا وفى اللغة العربية العامية تعنى كلمة «وافى» كافى أو ممتلئ عند الحديث عن الأحجام.

- تمثل مجموعة الرموز الهيروغليفية التى جمعناها من الآثار المصرية جزءًا من المجلد الخامس للوحات الدولة القديمة، وتقدم هذه اللوحة جميع الرموز الهيروغليفية المعروفة والأصلية التى رسمها ورتبها السيد چومار.

- انظر «تاريخ السمـــاء» بقلم بلوش، المجلد الأول، اللوحـــة ٢٤، صـــ ٤٢٩، الشكلين H ، H ، واللوحة ٣ صـــ ٥٦ شكل ٤.

- سوف أوضح هنا ملاحظة لا يجب إهمالها، وهو أن اسم بيسارو ذى الشكل الغريب تمامًا عن اللغة العربية ليس شيئًا آخر سوى الكلمة المصرية بايارو التى تتوافق تمامًا - من خلال مدلولها الوصفى واشتقاقها مع الكلمات اليونانية مثل فلوڤياليس وفلومبتوس التى تتعلق بالنهر بصفة عامة.

- هناك نوعان من زهور اللوتس التى تتفتح على سطح المياه، وهى نباتات تنمو أثناء الفيضان وتذبل عند انخفاض مستوى المياه، ولكن تحتفظ بجذورها على الرغم من الجفاف الذى يلحق عادة الفيضان. وتنمو هذه النباتات بكثرة بالقرب من دمياط ورشيد، وبكميات صغيرة فى الجنوب عند الفيوم وفى بركة الرطلى بالقرب من القاهرة، انظر الدراسة التى تتناول النباتات البرية فى مصر بقلم السيد رافينوديليل عضو المعهد المصرى، التاريخ الطبيعى.

- يمسك التمثال العملاق لنهر النيل بقرن الخصوبة، وتخرج منه أزهار اللوتس، وتزين رأسه الفواكه وزهور وأوراق اللوتس.

- يمثل الرسم الذى أنجزته لقطعة منقوشة هامة من الآثار المصرية القديمة جزءًا من المجموعات القديمة الموجودة بآخر المجلد الخامس من لوحات الدولة القديمة، بالإضافة إلى قطع أثرية أخرى حملتها معى من مصر.

- يسافر الهدهد من الجنوب إلى الشمال ويأكل الديدان التى تعيش فى طمى النيل، وهناك عدد لا حصر له من فصائل الذباب واليعسوب والحشرات الأخرى التى تبحث عن المياه الراكدة مثل مياه النيل وقت الانحسار كى تضع البيض الذى لا يجد مكانًا أفضل من الطمى الساخن بفعل حرارة الشمس بعد تراجع النهر عن ضفافه، ولهذا فإن الهدهد يبحث فى كل الأماكن التى تراجعت عنها المياه

حديثًا، أو يتحين بمهارة التوقيت المناسب والأماكن الملائمة لتمده الحشرات الصغيرة بوجبة سهلة، قبل أن تخرج الحشرات المجنحة التى تأخذ شكل الديَدان ثم شكل النغفات من البيض لتطير وتنقل نوعها إلى أماكن أخرى. ويعبر الهدهد ـ المنجذب لهذا الطعم ـ من الحبشة إلى مصر العليا، حيث يتفرع النيل، ويتبع عادة مسار النيل من خلال مجراه الذى يصب فى البحر، وبهذه الطريقة فقد كان الهدهد رمزًا مناسبًا تمامًا لكى يجسد بصورة جيدة اتجاه الرياح الجنوبية التى تساعد على الجفاف المعتدل للأرض. ولذلك فقد رأى المصريون فى عودة الهدهد ـ ولا أقصد هنا الهدهد الطبيعى الذى لم يكن سوى رمز لشىء مختلف تمامًا، ولكن أقصد الطائر الذى يجسد رياح الجنوب والذى يحاكى الهدهد فى حركاته وطيرانه ـ بشيرًا لبداية زراعة القمح ومسح الأراضى التى أدى طمى النيل إلى الخلط بين حدودها، ويسارعون فى بذر البذور ـ انظر «تاريخ السما» لبلوش، الجزء الأول صـ ٥١ ، ٥٢.

ـ إن البردية المرسومة فى اللوحات ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥ الجزء الثانى من الدولة القديمة قد نشرت من قبل فى ستراسبورج على يد السيد كاديه، وكان سيمونيل المقدم فى فرقة المهندسين الجغرافيين هو الذى أحضر هذه البردية من طيبة وبدلاً من أن يضمها إلى مجموعة المخطوطات المرسومة فى هذا الكتاب، أعطاها إلى كاديه الذى رسمها فى ثمانى عشرة لوحة دقيقة بقدر الإمكان، بالنسبة لفنان غير معتاد على رسم النقوش الهيروغليفية. ولأننا ندرك أهمية هذه القطعة فكان لابد من أن نقوم برسمها بدقة وبطريقة تظهر الجانب الدينى لها، وقد تحمل ذلك السيد جومار المسئول الحكومى المكلف بإدارة أعمال الرسم والطباعة لكتاب وصف مصر، وقد استغرق ذلك عامين من العناية الدقيقة بالتعاون مع السيد ويلمين الرسام المتميز، ولهذا فيمكننا أن نؤكد الدقة والإخلاص فى رسم هذا العمل عند مقارنته بالنسخة الأصلية التى كانت فى حيازتى، والتى أودعتها الآن مكتبة الملك.

ـ انظر اللوحة ٧٣، الجزء الثانى من لوحات الدولة القديمة.

ـ اشتق اسم الثعبان ـ الحية فى اللغة العربية ـ من كلمة حياة أو يحيا، حيث

كان الثعبان دائمًا رمزًا للحياة فى النقوش الهيروغليفية، وكان هو الذى جعل آدم يأكل من شجرة الحياة.

وتقول الأسطورة إن إله الهند بعد أن خلق الإنسان منحه إكسير الحياة الأبدية وقام هذا الإنسان بوضع الإكسير على ظهر حمار أصابه العطش، فأرشده الثعبان إلى نافورة، وأثناء شرب الحمار سرق الثعبان الإكسير وحصل بذلك على قدرة الحياة إلى الأبد.

ـ أشرت فى الملحوظة الأولى من دراستى عن النقوش الكوفية فى مصر إلى أصل اسم طيبة وإلى أصل آخر يبدو محتملاً أيضًا كما هو الحال بالنسبة للأول، ويمكن الجمع بين الأصلين بناء على التركيب اللغوى أو على الأقل من خلال المعنى، بحيث يعنيان اسمًا واحدًا أو يصبح أحدهما مرادفًا أو ترجمة للآخر. وكلما تعمقنا فى دراسة اللغة القديمة للمصريين، سوف نرى أنها تتوافق جيدًا مع لغات العبريين والحبشيين واللغات الشرقية الأخرى، وقد أشرنا من قبل إلى أكثر من دليل يؤكد هذا الكلام من خلال تفسير أسماء نهر النيل المختلفة فى إطار اللغات الشرقية، وعلى سبيل المثال فإن الجذر حوب يعنى سكن ومنها اشتقت كلمة تابيه أو تيبيه التى تعنى يسكن، ولهذا استخدم هذا الاسم فى سفر التكوين للإشارة إلى السفن لاسيما سفينة نوح العائمة التى أقامها لكى ينقذ أسرته من الطوفان. وعلى أية حال وبناء على أصل الاسم الأول فإن طيبة تعنى المدينة، وتعنى وفقًا ـ للأصل الثانى ـ السكن، ويوجد هذا الجذر اللغوى فى الكلدانية والعبرية والسريانية، وتعنى الكلمة العربية تاب «تابى» أى سكن وتعنى «شاب» مجموعة من السكان.

ـ تعادل الغلوة لدينا ثلاثين فرسخًا وثلاثة أخماس الفرسخ، وهى تمثل وحدة الطول الشائعة عند اليونانيين، وقد أشار هيرودوت إلى نوعين لها: الأول هو الغلوة الصغيرة «واحد وخمسون قامة أى حوالى تسع وتسعين مترًا»، وأن تسعا وأربعين قامة وأكثر تعادل الفرسخ، أما الغلوة الكبيرة أو الأوليمبية فهى تحوى مائة أورجى أو ستمائة قدم يونانية أو أربعة وتسعين قامة ونصف، أى حوالى

١٨٤ مترًا، ويعادل سبعًا وعشرين غلوة كبيرة، إذا ما خصمنا واحدًا وخمسين قامة، ونصف فرسخ واحد فى مقياسنا.

- ذكر هيرودوت كثيرًا «الشون» وهو مقياس مصرى قديم، وعلى الرغم من أنه يُعادَل بعدة مقاييس، إلا أنه يساويه بستين غلوة.

- اختلفت الآراء حول أصل تسمية «ساتراب» الفارسية والتى استعارها اليونانيون دون ترجمة، ولن أشير هنا إلى رأى المكتبة الشرقية الذى يخلو من أى أساس. ووفقًا للسيد انكتيل (فى دراسة تابعة لأكاديمية النقوش، الجزء ٣١ صـ ٤١٦)، فإنه يمثل اسم حاكم بابيلون، وهو الاسم الذى يطلق الفرس على سماء النجوم الثابتة والتى يعتقدون أنها أدنى مستوى من الكواكب. ونجد فى الشرق نواب الملوك يحملون هذا اللقب أحيانًا، بينما يحمل الحاكم لقب «خورشيد بك» بمعنى «سماء الشمس» ويمكن أن تعنى كلمة «ستراب» أيضًا «أسفل النجم» أى الشخص الذى يلى الملك، ويعطى السيد سلفستر دوساسى لهذا الاسم أصلاً لغويًا مقبولاً إلى حد كبير، ويبدو أنه يعتمد على أسس قوية. (انظر دراسات الأدب الجزء الثانى، صـ ٢٣٤ وما بعدها).

- تأخذ «أنسولا» أو جزيرة فاروس حاليًا شكل شبه جزيرة، وتتصل مع ساحل الإسكندرية من خلال المرفأ الطويل.

- يُطلق على منطقة «كانوب» فى اللغة القبطية «كاهى نوب» أى «أرض الذهب»، وقد أشير إليها باسم «كانوبوس» فى مديح القس مكارى، وأيضًا فى مذكرات القديس چيروم، وفى بداية منهج القديس باخوم.

- بنيت مدينة الإسكندرية قبل الميلاد بثلاثمائة واثنين عامًا، وفيها صدرت ترجمة السبتانت بناءً على أوامر بطليموس فيلادلفوس، وفى نفس مكان الإسكندرية كانت هناك قرية أخرى تحمل اسم راكوتيس القديم، ولهذا فقد أشير إلى الإسكندرية بهذا الاسم فى القاموس العربى القبطى لابن كابار، الذى حصلت على مخطوط رائع له من مصر، وكان القدماء يشيرون إليها باسم

راشونيس. ويعتقد بعض الكتاب أن هذه المدينة هى التى أطلق عليها العبرانيون اسم «نو».

وعلى أية حال فقد سميت هذ المدينة على التوالى بالعديد من الأسماء المختلفة وكان بعضها نادرًا، ولعل أهمها بوليس وفاريس وكلوديا - چوليا وأوجستا - دومتيانا، ويطلق عليها العرب حالياً اسم الإسكندرية، وهو نفس الاسم الذى يطلقه عليها الأقباط المحدثون.

- يوضح القاموس العربى القبطى لابن كابار - الذى ذكرته من قبل - أن مدينة أرمنت كان يطلق عليها «إيرمونت»، وقد ترجمه كرشر إلى أرمنت، ويوجد هذا الإسم أيضًا فى القاموس المصرى للأكروز. ووفقًا لما يذكر أبو الفدا تقع أرمنت فى الصعيد العلوى على الضفة الغربية للنيل جنوب غرب الأقصر، وأراضيها الزراعية خصبة، وإن قلت فيها أشجار النخيل. وأطلق على هذه المدينة أيضًا فى مديح بسندى اسم «ديوبوليس سرمنت» كما يكتب اسمها أحيانًا «أرمونث»، وفى القاموس القبطى الصعيدى المحفوظ فى مكتبة الملك يطلق عليها «أرمونيكا».

- كان سترابون من مواطنى مدينة أماسى فى كابادوس، وعاصر كل من أغسطس وتيبيريوس، وبدأت شهرته حوالى عام ١٤م، ونعتقد أنه توفى فى العالم الثانى عشر من حكم تيبيريوس أى عام ٢٥م، وكان إليوس جالوس - الذى حكم جزءًا من أرض مصر - صديقًا له.

- يعطى القاموس القبطى العربى الذى ذكرته من قبل إلى بلاد النوبة والنوبية اسم «دى - لوبيه». وقد استخدم اسم ليبيا عند القدماء للإشارة إلى المنطقة الشمالية فى أفريقيا وإلى جزء كبير داخل هذا الإقليم العريض وغالبًا أيضًا للإشارة إلى أفريقيا بالكامل.

- كانت إيليثيا هى إلهة الخصوبة والإنجاب، ولهذا كان النساء يصلين لها لإتمام عملية الإنجاب بطريقة آمنة، ونعتقد أن هذه الإلهة هى نفسها لوسين.

- كان «إليوس أرستيد» ابنًا «لأودامون»، ويشير فيلوسترات أن بعض الكتاب قد أطلقوا عليه الاسم السابق، وكان فيلسوفًا وكاهنًا لچوبيتر الأوليمبى، وولد فى

عام ٨٨٢ بالتاريخ الرومانى الموافق لعام ١٢٩م أى فى العام الثانى عشر من حكم الإمبراطور هادريان، وأيام القنصلية الثانية لكل من يوفنتيتوس ومارسيلوس، وكان مسقط رأسه فى مدينة هادريانى، وهى مدينة صغيرة فى إقليم بيثانى تجاور جبل الأوليمبى ومعبد چوبيتر، بينما يعتقد البعض أنه من مواليد سميرن، ولعل ما يؤكد هذا الرأى قصيدتان من مختارات الشعر اليونانى تمنحانه لقبا ينسبه إلى هذه المدينة، وهو نفس اللقب الذى نُقش على تمثال هذا الفيلسوف، الذى أمر البابا «بى» الرابع بوضعه فى مكتبة الفاتيكان.

ومن الصحيح أن أرستيد قضى فترة كبيرة من حياته فى هذه المدينة، وكان فيها فاعلاً للخير ومحررًا، وفى الواقع فقد خربت هذه المدينة وتهدمت بالكامل نتيجة الزلازل المدمرة، فاستطاع أرستيد أن يحصل على أمر من أنطونيو بإعادة بنائها، وعرفانًا منهم بالجميل أعطاه السكان حقوق المواطن، وأقاموا له تمثالاً من النحاس الأصفر فى الأستاد الرياضى أو فى الساحة العامة، ونقشوا عليه نصًا يوضح أنه هو مؤسس هذه المدينة. وكان يعانى منذ صغره من مرض عصبى، إلا أن ذلك لم يمنعه من أن يكرس نفسه للدراسة، وبعد أن درس قواعد اللغة فى عهد الإسكندر دوكوتين، تأهل لدراسة علم الخطابة فى عهد هيرود وإتيسيوس فى أثينا، وأرستوكلس فى برجام، وبوليمون فى سميرن.

وبعد رحلته إلى مصر رجع إلى روما حيث كرمه الإمبراطور ماركوس أوريليوس، وأصيب خلال هذه الرحلة بمرض النحول الذى لم يبرأ منه إلا بعد عشر سنوات، وعلى الرغم من ذلك فلم يتوقف خلال هذه الفترة عن استكمال أعماله الأدبية.

وتوفى فى موطنه عن عمر يناهز الستين عامًا فى عهد الإمبراطور كودموس، بينما يذكر بعض الكتاب - الذين أرّخوا لحياة المشاهير - أنه توفى بعد هذا التاريخ بعشرة أعوام فى مدينة سميرن فى إقليم أيونيا.

وتتعلق كتابات أرستيد كلها بالخطابة والمديح، ونُشر جزء من أعماله لأول مرة باللغة اللاتينية فقط فى البندقية عام ١٥١٣، فى نهاية طبعة أيزوقراط التى

طبعها آل ألا، وبعد ذلك بأربعة أعوام أصدر آل چونت طبعة ثانية فى فلورنسا عام ١٥١٧ إلا أن هاتين الطبعتين كانتا معيبتين للغاية، ثم تم تصحيح بعض هذه الأخطاء والإسقاطات فى الترجمة التى قدمها أو بورين عام ١٥٦٦، وفى الطبعة التى نشرها بـ - استيان فى چنيف عام ١٦٠٤، إلا أن أفضل الطبعات جميعًا هى تلك التى استعنت بها وهى الطبعة الإغريقية اليونانية التى صدرت فى مجلدين فى إنجلترا عام ١٧٣٠.

- كوبتوس هى قفط عند العرب، وظهر اسمها فى قاموس قبطى صعيدى «كبتو» وقد استقينا بعض المعلومات عن هذه المدينة مما أورده أبوالفدا والإدريسى وعبدالرشيد البكوى، ويعتقد عدد كبير من الكتاب أن سبب تسمية هذه المدينة الموجودة بصعيد مصر يرجع إلى أن أهل البلد قد أُطلق عليهم اسم الأقباط أو الأقفاط وهو الاسم الذى يُعرفون به الآن.

- ان الاسم الكامل للقضاعى هذا الكاتب الشهير هو «أبو عبدالله محمد بن سلامة» الملقب بالقضاعى نسبة إلى قبيلة قضاعة التى ينتسب أصله إليها، ولدينا له ثلاثة مؤلفات:

المؤلف الأول: يتناول تاريخ مصر بعنوان «كتاب الخطط»، ويعرف عادة باسم «خطط القضاعى».

المؤلف الثانى: يتناول تاريخ الأنبياء والرسل وفقًا لعقيدة المسلمين بعنوان «كتاب الأنبا والأنبياء».

المؤلف الثالث: وهو الأكثر أهمية ويوجد فى مكتبة الملك بعنوان «تاريخ القضاعى»، ويتناول تاريخ العالم بدءًا من الخليقة حتى عام ٤١١ هـ ١٠٢٠م، وهو آخر عام فى حكم الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله فى مصر.

- ان الاسم الكامل للبكوى هو «على عبدالرشيد بن صالح بن نورى» الملقب بالبكوى نسبة إلى موطنه مدينة بكوية، وهى مدينة كبيرة توجد فى منطقة «دربند»، ونسبة إلى هذه المدينة أطلق بعض الجغرافيين على البحر المتوسط اسم بحر باكو أو باكّو، ويخبرنا عبدالرشيد نفسه فى كتابه أن أباه الإمام العالم صالح

بن نورى قد ولد فى هذه المدينة، وأنه تبع مذهب الإمام الشافعى، وبلغ به العمر أرذله.

ولا نعرف على وجه التحديد عام ميلاد عبدالرشيد، إلا أنه من المؤكد أنه كتب فى عام ٨٠٦هـ ـ ١٤٠٣م كتابه الذى يحمل عنوان «كتاب تلخيص الآثار فى عجائب الملك القهار»، ويتناول الجغرافيا العالمية مرتبة بترتيب الأقاليم المناخية، وقد انتهى من هذا المؤلف عام ٨١٥هـ ـ ١٤١٢م، وتعد كتابات هذا العالم الجغرافى أقل شهرة من كتابات العديد من المؤلفين الشرقيين الآخرين الذين يشتهرون فيما بيننا، وعلى الرغم من ذلك فقد أورد تفاصيل ثمينة للغاية، ولكنه ـ مثله مثل بقية الكتاب الشرقيين ـ قد وقع فى عدة أخطاء، وذكر بعض القصص الخرافية والأساطير التى تشير إلى جهلهم العام بالتاريخ القديم.

وأمتلك نسخة جيدة جدًا من مخطوط هذا الكتاب، وتوجد نسخة أخرى فى مكتبة الملك تحت رقم (المخطوطات العربية، ٥٨٥) إلا أنها قد نُسبت خطأ إلى الياقوتى فى فهرس المخطوطات الشرقية فى هذه المكتبة، وكذلك فى ملحوظة السيد جوينى.

ـ انظر العدد الأول من جريدة «أحوال مصرية» وهى جريدة أدبية واقتصادية وسياسية تنشر بالقاهرة، صـ ٢٨٤ ـ ٢٧٦ والعدد الثالث صـ ١٤٥.

ـ إن الاسم الكامل للمؤرخ عبدالحكم هو «أبوالقاسم عبدالرحمن بن عبدالله ابن عبدالحكم» الملقب بالقريشى، ويذكر السيوطى كثيرًا كتاب عبدالحكم الذى يحمل عنوان «فتوح مصر وأخبارها وأقاليمها»، ويوجد هذا الكتاب فى مكتبة الملك ضمن المخطوطات العربية رقم ٨٣٤. ويجب ألا نخلط بين هذا الكتاب وبين كتاب تاريخى آخر يحمل تقريبًا نفس العنوان ويوجد بنفس المكتبة، وهو من تأليف أبى الربيع سليمان بن سالم الكلّى ويحمل عنوان «فتوح مصر وطرابلس وأفريقيا والعراق»، ويتناول تاريخ الفتوحات الإسلامية لمصر وطرابلس أى منطقة أفريقيا والعراق. وعادة ما يشار إلى عبدالحكم باسم ابن عبدالحكم.

ـ وفقًا لما يذكر ميرخوند فقد عاش الواقدى فى عهد الخليفة المأمون وهو مؤلف كتاب «سير ومغازى».

- أعطى تاج الدين لكتابه اسم كتاب «الأنصاف الدليل بالدليل فى انثال النيل»، وكما أعلم فإنه يوجد بين المخطوطات الشرقية فى مكتبة الملك، إلا أننى لم أستطع التحقق من ذلك.

- إن كلمة «تاج» هى كلمة عربية وفارسية، وهى نفسها كلمة «تاك» فى لغة أرمينيا، وتعنى ببساطة فى اللغات الثلاث: تاج أو أكليل ملكى، وتدخل فى تركيب عدد كبير من أسماء الأعلام وعناوين الكتب، ومن بينها نستطيع أن نميز الكتاب التاريخى الذى يحمل عنوان «تاج التواريخ» وهو من تأليف مولاى سعدة الدين محمد حسن المعروف باسم خوجة أفندى، والذى توفى عام ١٠٠٨ هـ - ١٥٩٩م، ويتناول هذا المؤلف تاريخ الإمبراطورية العثمانية بدءًا من السلطان عثمان حتى نهاية حكم سليم الأول.

- انظر كتاب «ساجع الهديل فى أخبار النيل».

- إن الاسم الكامل لأحمد شهاب الدين هو أحمد شهاب الدين بن حماد.

- يوجد مخطوط شهاب الدين ضمن المخطوطات العربية، ويحمل رقم ٨١٣، وكان مِلْك كولبير، وفيه تناول المؤلف - بالإضافة لنهر النيل - الأهرامات وأكثر الأشياء تميزًا فى مصر.

- يطلق عبدالرشيد البكوى والميدانى اسم «يوسف الصديق» على يوسف ابن يعقوب، ويشير إليه بعض الكتاب العرب أحيانًا باسم يوسف اليهودى، وله منزلة هامة عند أهل الشرق، فعادة ما يكتب اسمه مرفقًا بعبارة «عليه الصلاة والسلام»، وقد ذكر هذا النبى فى القرآن، وهناك سورة تحمل اسمه هى «سورة يوسف» ولقد قام السيد البروفسير الشهير ث - أريبنوس بتقديم طبعة خاصة عن هذه السورة، نشرت مصحوبة بالترجمة اللاتينية بين السطور بعنوان سورة «يوسف وتهجى العرب» عام ١٦١٧.

ويذكر عبدالرشيد البكوى أننا يمكن أن نرى السجن الذى قضى فيه يوسف عدة أعوام فى المدنية التى بناها الفرعون، والتى تملؤها الرمال الآن.

ـ إن كلمة «فرعون» هى اللقب العربى للحاكم، الذى يطلق عليه العبرانيون لقب «فرعه أو فراعوه» والذى نطلق عليه نحن فرعون، إلا أن هذا الاسم لا يشير عند العرب إلى ملك واحد فقط، وإنما يعتبرونه تسمية عامة ولقبًا يطلقونه على كل ملوك مصر القديمة مثل بطليموس خليفة الإسكندر وقيصر وأغسطس من الأباطرة الرومان وأنتيوخس من ملوك سوريا وأيضًا ملوك فينيقيا.

وكان اسم أبى ملك هو اللقب الشائع لملوك الفلسطينيين، واسم حيران هو لقب ملوك التير، واسم أجاج هو لقب شيوخ القبائل العربية، التى أطلق عليها العبرانيون اسم «أما ليسيت» واسم تبّع لملوك اليمن، واسم مندر لملوك العراق، واسم أبجر لملوك اليمن، واسم أفراسياب لملوك نوران، واسم روستون لملوك سدچستان، واسم كى لملوك إيران، واسم خسرو أو كسرا لأسرة الساسانيين فى فارس، وكذا اسم صوفى الذى عرفت به أسرة حاكمة أخرى فى فارس، ولقب سلطان للأباطرة الأتراك فى القسطنطينية.

وأود أن أضيف إلى ما سبق أن كلمة «حازيه» فى اللغة الأمهرية تعنى حاكمًا، وتستخدم كلقب عام يستحب ملوك الحبشة أن يسبقوا أسماءهم به، وسوف أقدم هنا شيئًا مميزًا عبارة عن مقطع من المجلد الثانى لرحلات لوڤيلانت «رحلات السيد لوڤيلانت داخل أفريقيا خلال الأعوام ١٧٨٠ ـ ١٧٨٥»: (فى منطقة كافريرى يحمل الملك لقب فاراعو الذى يشبه إلى حد كبير لقب فرعون، ويبدو أن هذا اللقب كان اسما فيما مضى، ثم انتقل بعد ذلك من ملك لآخر من خلال العرف المتداول.

وقد ذكر كرغوريوس أبو الفرج الذى نطلق عليه عادة اسم جرجوار البوفرج فى كتابه الذى يحمل عنوان «تاريخ مختصر الدول»، أسماء ثلاثة ملوك مصريين من عهد الفراعنة، وأضاف أن الملك المسمى ابن سانس كان أول من حمل لقب فرعون، وخلفه فى ذلك الملوك الذين جاءوا من بعده، كما ذكر فرعون آخر باسم آمون فاثيس وكان ـ وفقًا لهذا الكاتب ـ هو فرعون موسى الذى غرق فى البحر الأحمر، ولعل التشابه بين اسم هذا الفرعون واسم أمينوفيس يحملنا على الاعتقاد أنه هو نفسه الفرعون الذى ذكره اليونانيون بهذا الاسم الأخير.

أما ثالث الفراعنة الذين ذكرهم أبوالفرج فيحمل اسم تحاوث، وأضاف الكاتب أن هذه الكلمة تعنى فى لغة المصريين القدماء «الأعرج أو الممسوخ». ونجد بين مفردات اللغة القبطية الحديثة كلمتى نياغو أى «الأحدب» ونيشو أى «العاجز أو المشلول».

ويُشتق لقب فرعون من الجذر اللغوى الموجود باللغة القبطية وهو فعل أورو بمعنى يحكم وبإضافة الأداة يصبح «فى - أورو» أو «فا - أو رو» بمعنى الملك أو الحاكم، وقد أطلق على فرعون مصر زمن موسى عدة أسماء مختلفة، فيشير إليه المسلمون باسم الوليد، ويذكره المسيحيون الشرقيون باسم «أميوس» ويبدو أن هذا الاسم هو نفسه اسم أمازيس الذى أشار إليه الكتاب الإغريق. ويزعم السوريون أنه كان يدعى فالميثوس»، ولعل هذا الاسم هو نفسه اسم «فارميثيس» الذى أطلقه الإغريق على أحد ملوك مصر القدماء.

وذكرت قصة هذا الفرعون أكثر من مرة فى القرآن خاصة فى «سورة الأعراف» و «سورة يونس» و «سورة المؤمنون». وينسب الشرقيون بصفة عامة إلى فرعون تشييد معظم الآثار المصرية القديمة، ويعتقدون أن هذا الحاكم قد أقام هذه المنشآت لكى تحوى كنوزه، وأنه ذكر عدة طلاسم تمنع أى شخص من العثور عليها.

ويستخدم العرب عادة كلمة «فرعون» بمعنى أوسع بكثير، وذلك للتعبير عن الطاغية أو الملك القاسى غير المؤمن، ويستخدم هذا الاسم مسبوقًا بأداة التعريف «ال» ليكون أحد الأسماء، يشيرون بها إلى طاغية النيل أو التمساح.

- أطلق الأقباط على منف اسم «ميفى»، انظر القاموس القبطى العربى لابن كابار.

ويذكر معجم مونبيليه أيضًا اسم ميفى، الذى يوجد فى فتاوى القديس أپاتير، بينما تعرض النسخة القبطية للنبى أزيشيال هذا الاسم مكتوبًا بثلاث طرق: ميفى، ممفى، ممفا، وأخيرًا يمكننا أن نقرؤه ممبى فى قاموسين صعيديين بمكتبة الملك.

ـ تعرف الفيوم فى اللغة القبطية باسم «ف ـ يوم»، وتوجد هذه الكلمة فى فتاوى القديس أپاتير التى ذكرتها من قبل، وتكتب بنفس الطريقة فى القواميس الممفية والصعيدية الموجودة بمكتبة الملك، وقد أوردها قاموسان آخران لنفس اللهجة ب ـ يوم ونعلم جيدًا أن هذه المدينة هى مدينة أرسينويت القديمة، ولم يكن هذا مجهولاً بالنسبة لمؤلفى القواميس الصعيدية، فقد ورد فى أحدها أرسينوى وفى قاموس آخر أرسينيكون.

أما بالنسبة لأصل اسم فيوم، فليس هناك شك فى أن كلمة يوم بالإضافة إلى الأداة ف تشير فى اللغة القبطية إلى البحر، ويبدو من المؤكد أن هذه المنطقة قد سميت بهذا الاسم بسبب البحيرة الكبيرة التى تحدها من ناحية الغرب. وقد احتفظ العرب بالكلمة القبطية وأضافوا إليها أداة التعريف «الـ»، ويذكر المقريزى أن المسعودى يزعم ـ دون وجود أساس لمزاعمه ـ أن هذا المقطع من الكلمة هو مقطع أساسى لا ينفصل عنها وهنا نقرؤها ألف ـ يوم.

وسأذكر هنا وفى الملاحظات التالية بعض المقتطفات لعبد الرشيد البكوى تتعلق بهذه المدينة وببحيرتها الكبيرة التى منحتها اسمها: «أن مدينة الفيوم هى مدينة جميلة تقع على الضفة اليسرى للنيل فى غرب مصر، وتتميز على وجه الخصوص بخصوبة تربتها وبوفرة منتجاتها المتعددة».

ـ يذكر عبدالرشيد البكوى أن مدينة الفيوم تقع على أرض منخفضة وتحيط بها مياه النيل، إلا أنها فى منأى عن الفيضانات من ناحية المدينة عن طريق سدود قوية صلبة البنيان.

ـ أطلق على بحيرة الفيوم فى اللغة القبطية «دى ـ لومنى ـ نت ـ فيوم».

وتعنى كلمة بحيرة فى اللغة العربية البحر الصغير، ووفقًا لما يقول عبدالرشيد «إن هذه البحيرة ذات المياه العذبة المليئة بالأسماك، لا تبعد عن مدينة الفيوم سوى نصف فرسخ، وتقع إلى الشمال منها ناحية الغرب قليلاً، ويمتد طولها لمسيرة يوم تقريبًا من الشرق إلى الغرب. وتحف ضفاف البحيرة أشجار الفاكهة الضخمة التى تحجب رؤية المياه، حيث نستطيع أن نراها بالاد من خلال أوراق هذه الأشجار.

- يطلق العرب المحدثون اسم كاهن على السحرة.

- يعرف أبوالحسن على باسم المسعودى، وذلك لأنه ينتسب إلى ابن مسعود الهذلى، وهو مؤلف كتاب تاريخى وجغرافى بعنوان «مروج الذهب ومعدن الجواهر» ويوجد هذا الكتاب فى مكتبة الملك. وقد حملت معى من مصر نسخة جيدة جدًا له. كما قام المسعودى أيضًا بتأليف عدد كبير من الكتب الأخرى.

- وفقًا لبعض الكتاب العرب فقد أمر نقراوش بإقامة بعض المنشآت فى النوبة لإصلاح مجرى نهر النيل، حيث كان مجراه ينقسم إلى فرعين عن طريق جبل، واستطاع أن يوصل النهر حتى جبل القمر، ووضع تماثيل بالغرب من منبعه. ويضيف هؤلاء الكتاب أنه عندما مات ترك وراءه كنوزًا ضخمة وضعت كلها داخل تابوته.

- تقر عقيدة المسلمين بوجود كائنات وسطية بين عالم البشر والعالم الإلهى وقد ذكرت هذه الكائنات كثيرًا فى القرآن باسم الجن، و استطاع سليمان وعدة ملوك آخرين تستخير الجن، وتذكر الروايات أنهم يسكنون بلادًا خرافية يطلق عليها الشرقيون اسم «جنّستان» أى بلاد الجن.

- يوجد تشابه واضح بين لقب كاشف الأسرار الذى اتخذه مصرا موبين اللقب الذى أطلقه الفرعون على يوسف، مثلما تقول التوراة، فنقرأ فى سفر التكوين أن يوسف بعد أن قام بتفسير رؤية الملك، أطلق عليه هذا الملك لقب «تسوفناث فعنيخ». وذكر كل المفسرين القدماء أن هاتين الكلمتين مصريتا الأصل، وقد ترجمهما فيلون بمعنى «ذلك الذى يعرف الأسرار» ويفسر الرؤى»، ويتفق على هذه الترجمة الكتب الشرقية القديمة والسريانية والسامرية والعربية وأيضًا التفسير الكلدانى لأونكيلوس ولچوناثان.

ووفقًا لمدلول هذا الاسم، فيمكننا أن نجد أصله اللغوى بسهولة فى اللغة القبطية، فكلمة «شوبنات» تعنى سرًا أو شيئًا خفيًا أو غامضًا، وكلمة «بانيخا» تعنى الدليل أو المؤشر، وبجمع الكلمتين نحصل على لقب «كاشف المستور أو الأسرار».

وقد أعطت الكتب الإغريقية إلى لقب يوسف نفس المدلول الذى أشار اليه الشرقيون، إلا أن كتابة اللقب قد ظهرت بشكل مختلف قليلاً، وعلى الرغم من ذلك فنستطيع أن نتتبع أيضًا أصله اللغوى.

وقد أكد كيرشر أن هذا اللقب كان يعنى فيما مضى، فى اللغة القبطية «رجلاً يتنبأ بالمستقبل» ولكنه لم يدعم رأيه بأى دليل، ولذا فقد ظهر وكأنه رأى افتراضى فقط، مما جعلنا مضطرين لأن نبحث فى مصادر أخرى عن مشتقات هذه الكلمة التى يمكننا أن نذكر لها أصلين لغويين مختلفين فى القبطية الحديثة:

كلمة «بيتو نفانيخا» التى تعنى عرّافًا ومنجمًا فى القاموس القبطى العربى لأبى إسحاق ابن العازل، وعلى الرغم من أن هذه الكلمة مختلفة بعض الشىء عن كلمة «بسونتومفانخ» فإنها تتشابه معها كثيرًا، مما يجعلنا نعتقد أن إحداهما مشتقة من الأخرى مع وجود تعديل طفيف. ولكن يوجد أصل لغوى محتمل آخر، نجد به تشابهًا كبيرًا من ناحية النطق، ومنه اشتقت كلمات فسون - تيمى - فنخوت و التى تعنى الماهر فى علم تفسير الرؤى، ويقترب هذا المعنى كثيرًا من المدلول الذى ذكر فى الكتب الإغريقية.

- يذكر بعض الكتاب أن المصريين ينسبون إلى إدريس أشياء غاية فى العجب، ويقولون إنه سافر حتى المحيط، وتنبأ بحدوث الفيضان، وأنه شيد فيما وراء خط الاستواء قلعة عند سفح جبل القمر، ووضع هناك خمسة وثمانين تمثالاً من البرونز يخرج النيل من أفواهها، ثم عاد مرة أخرى إلى أمسوس ووضع التاج على رأس ولده عرياق.

- يذكر بعض المؤرخين أن لوحيم كان ابنًا لنقراوش، ويضيفون أنه شيد آثارًا عديدة من بينها أربعة أبراج فى الزوايا الأربع لمدينة أمسوس، ظللت قائمة حتى دمر الطوفان هذه المدينة.

- تذكر بعض المخطوطات اسم «هو صال» ب «صال» فقط، وتضيف أن هذا الأمير كان يسمى أيضًا سوميل، وأنه كان ابنًا للملك الذى حكم قبله - وكان له

عشرون ولدًا قسّم المملكة فيما بينهم، وبعد أن حكموا مدة سبعة أعوام، انتهى بهم القرار إلى اختيار واحد منهم يسمى ندرسان ليكون الحاكم الأعلى.

- تذكر بعض المخطوطات اسم بدرسان بدلاً من ندرسان، ويقول بعض الكتاب أن ابنه سمرود قد خلفه مباشرة على العرش ثم ابن أخيه تواميدون الذى حكم مائة عام ثم خلفه شرياق.

- يذكر البعض أن شرقان أو شرياق قد قام بحفر عدة قنوات ليوصل مياه نهر النيل إلى المدن الغربية من مصر.

. يذكر بعض المؤرخين أن سوزيد أو سوريد هو من قام ببناء الهرمين الكبيرين وأنه دفن فى الهرم الأكبر.

- يبدو أن كلمة طوفان ترجع إلى لغة المصريين القدماء، وكانت تسمى عندهم «تيفون» وقد أطلقوا هذا الاسم على إله الدمار. ونجد جذور هذه الكلمة فى كل اللغات الشرقية، وترمز جميعها إلى فكرة الطوفان والفيضان والدمار، ويمكن لبعض هذه الكلمات أن تشير جزئيًا إلى تفضيل الرأى القائل بأن سبب هذه الكارثة الأرضية هو نجم مذنب.

- وفقًا لما يذكر المكين فإن الاسم الكامل للخليفة عمربن الخطاب هو عمربن الخطاب بن نفيل بن عبدالعزيز الملقب بأبى حفص، وأطلق عليه الرسول (ﷺ) لقب الفاروق أى الذى يفرق بين الصواب والخطأ وبين العدل والظلم وبين الإيمان والكفر. وكان هذا الخليفة هو الذى أسس مدينة البصرة عام ١٥ هـ. ٦٣٦م عند مصب نهر دجلة، وتم الانتهاء من تشييد هذه المدينة الجديدة بعد ثلاثة أعوام.

قتل عمر عن عمر يناهز ثلاثة وستين عامًا فى الخامس والعشرين من ذى الحجة عام ٢٣ هـ - ٦٤٣م بيد عبد فارسى يسمى أبو لؤلؤة، بعد خلافة دامت عشر سنوات وخمسة أشهر وثمانية وعشرين يومًا، ورفض أن يختار ابنه ليصبح خليفة له، وقام بترشيح ستة أشخاص اعتبرهم أقوم من يستطيع أن يقوم بهذه المهمة، منهم عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب وطلحة بن الزبير وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبى وقاص.

ـ كان أبوبكر الملقب بالصديق هو أول خلفاء الرسول محمد (ﷺ) واسمه بالكامل وفقًا لما يذكر المكين ـ هو عبدالله بن أبى قحافة عثمان بن عامر بن عمر، وقد تولى الخلافة فى نفس يوم وفاة الرسول عام ١١هـ ـ ٦٣٢م ولم يستمر بها سوى عامين وثلاثة شهور وتسعة أيام أو عامين وأربعة شهور وستة وعشرين يومًا. ومات مريضًا بالسل فى عمر ثلاثة وستين عامًا، يوم الجمعة ٢٣ من جمادى الآخرة عام ١٣ هـ ـ ٦٣٤هـ.

ـ ان الاسم الكامل للأمير التعس يزدجارد هو «يزدجارد بن شهريار بن خسرو برويز بن هرمز» وكان ابنًا لشهريار وحفيدًا لخسرو پرويز والحفيد الأصغر لهرمز أو هرموز، وقد لقب بالملك الأخير.

ـ يذكر عبدالرشيد البكوى أن المداين تقع فى الإقليم المدارى الثالث على خط طول ٥ً ٧٢° وخط عرض ١٦ً ٣٣° وسوف أذكر هنا الوصف الذى قدمه عن هذه المدينة فى المخطوط الذى امتلكه: «توجد سبع مدن تحمل هذا الاسم أقامها الأمراء الملقبين بخسرو على ضفاف نهر دجلة، وكانت هذه المدينة هى مقر الملوك الساسانيين فى عهد عمربن الخطاب، وذلك بسبب نقاء هوائها ومياهها وخصوبة أرضها. والمدائن الآن ما هى إلا قرية أو مدينة صغيرة على الضفة الغربية لنهر دجلة ويعمل سكانها بالزراعة ويتبعون المذهب الشيعى، ومن تقاليدهم عدم خروج النساء فى النهار.

ويوجد مقر سلمان الفارسى على الضفة الغربية لدجلة، وقد بنى آل خسرو قصرًا فى هذه المدينة ظل قائمًا حتى عهد الخليفة المكتفى الذى أمر بهدمه وأنشأ بمخلفاته مبنى أطلق عليه اسم «تاج» يوجد الآن فى قصر الخلفاء فى بغداد.

ويذكر أن قصر المدائن قد بنى بأمر من أنوشروان وأنه كان ضخمًا ومرتفعًا، ولم يعد يتبقى منه سوى أطلال وصفة أعمدة بأحد الأروقة وجناحين من أجنحته.

ـ يذكر عبدالرشيد البكوى أن أذربيچان تقع فى الإقليم المدارى الرابع وكذا الأمر بالنسبة لخراسان.

ـ يذكر عبدالرشيد البكوى أن مدينة بيت المقدس تقع فى الإقليم المدارى الثالث على خط طول ٥ˉ ٦٨° وخط عرض ٥ˉ ٣١°، ويصفها بالآتى: «أقام داوود هذه المدينة على أرض صخرية وسط عدد من الجبال تحيط بها وعلى الرغم من ذلك فهناك أراض مزروعة، ويشرب أهلها مياه الأمطار، التى يجمعونها فى خزانات، ويقع المسجد الأقصى فى شرق هذه المدينة، ويبلغ طوله سبعمائة وأربع وثمانين ذراعًا بعرض ٤٥٣ ذراعًا، ويحوى ٦٨٤ عمودًا من الرخام بألوان مختلفة ونطلق عليه نحن اسم الفسيفساء، ولا توجد هذه الخامة فى بيت المقدس مطلقًا، ويوجد فى وسط هذا الجامع حجرة كبيرة يبلغ عرضها خمس أذرع نصعد إليها عن طريق بضع درجات.

ـ وفقًا لما يذكر عبدالرشيد البكوى فإن إفريقية تقع فى الإقليم المدارى الثالث، ويذكر الكتاب الشرقيون أنها قد أطلق عليها هذا الاسم وفقًا لمدينة قديمة بنفس الاسم أعطاها عبدالرشيد البكوى الوصف التالى: «إفريقية هى مدينة كبيرة تقع فى منطقة خصبة للغاية مزروعة ومليئة بأشجار النخيل والزيتون»، وكانت قديمًا عبارة عن بلدة كبيرة، وفى الوقت الحالى فإن كل الأجزاء التى تحيط بالمدينة على مسيرة أربعين يومًا فى أرض المغرب قد أصبحت صحراء تعيش فيها قبائل البربر، الذين يشربون المياه من الآبار، وتوجد بها مناجم للفضة والحديد والنحاس والرصاص والأنتيمونيا، ومناجم الرخام.

ـ تقع برقة فى الإقليم المدارى الثالث وفقًا لما يذكر عبدالرشيد البكوى. وسأذكر هنا الجزء الذى يتعلق بهذه المدينة فى «خريدة العجايب» لابن الوردى، الذى امتلك منه عدة مخطوطات جيدة: «كانت أرض برقة تضم فى العصور القديمة مدنًا كبيرة ومزدحمة، ولكنها أصبحت الآن صحراء ليس بها سوى القليل من الزرع والسكان، ويزرع بها الزعفران كثيرًا.

ـ إن مدينة القيروان هى سيران القديمة وكانت حاضرة أفريقيا الحقيقية، ويضع الجغرافيون العرب هذه المدينة فى الإقليم المدارى الثالث قرب مدينة قرطاج القديمة وبعيدًا عن البحر، وأعاد بناءها عقبة بن نافع، وبعد أن

فتح برقة ترك فيها عمرو لتجميع السكان المغاربة الذين اعتنقوا الإسلام، وفى عام ٤٠هـ - ٦٦٠م تلقى هذا القائد تعزيزات قوامها عشرة آلاف مقاتل من الخليفة معاوية، فقام بإخضاع الشمال الإفريقى كله ووصل بجيوشه حتى نيچيريا، ولعدم ثقته بالأفارقة الذين رآهم ضعيفى التمسك بدينهم الجديد اختار مدينة القيروان ليتحصن بها هو وجنوده ويودع بها كنوزه، وكانت المدينة بعيدة عن البحر وتقترب أكثر من الصحراء، وقد أهّلها هذا الموقع لأن تكون فى منأى عن أساطيل أهل صقلية والرومان. ولم يلبث أن شيد بها العديد من المنشآت العامة والخاصة، ثم أدى الثراء والوفرة إلى ازدهار الآداب والفنون، إلا أن أزهى عصورها كان فى عصر آل الأغلب، وعلى الرغم من ذلك فقد قام زيادة بن الأغلب بهدم أسوارها خشية أن يحتمى بها عدوه عمر بن مخالد إذا ما استولى عليها.

وبدأت القيروان فى التقلص والاضمحلال عندما قام إبراهيم بن أحمد بن أخو زيادة بتشييد مدينة «رقادة» الجديدة على بعد أربعة أميال من القيروان فى أكثر المواقع جمالاً وملاءمة للصحة، وبلغ محيط هذه المدينة الجديدة ١٢٠٠٠ ذراع، وقد أقامها لاستقبال الوفود الأجنبية ولاحتواء الزيادة السكانية فى القيروان، ولأن الناس عادة يفضلون الجديد على القديم فقد أصبحت مدينة رقادة هى عاصمة المملكة ولم تلبث القيروان أن استعادت ازدهارها فى عهد بنى عبيد الملقبين بالفاطميين والذين حكموا مصر لفترة طويلة من الزمن.

وتقع هذه المدينة وفقًا لما يذكر عبدالرشيد على خط طول ٥- ٥١° وخط عرض ٤- ٣١°، وقد أعطى لها الوصف التالى:

«إن القيروان هى مدينة إفريقية كبيرة بناها عقبة بن نافع القرشى فى عهد المأمون، ويوجد بها عمودان ينضحان بالماء قبل شروق الشمس فى يوم الجمعة».

- طرابلس هى مدينة قديمة من مدن أفريقيا. وعندما يريد العرب أن يكتبوا اسم علم يبدأ بحرفين ساكنين، فكان لزامًا عليهم أن يجعلوه على هيئة مقطعين، ويضيفون حرفًا متحركًا بعد الحرف الساكن الأول، أو ربما أيضًا يضيفون حرف

الألف قبل بداية الكلمة، وبهذه الطريقة فقد أطلقوا على المدينة فى بعض الأحيان اسم «أطرابلس»، ولكى يميزوها عن مدينة طرابلس السورية أطلقوا على الأخيرة اسم طرابلس الشام وعلى المدينة الإفريقية طرابلس الغرب. وذكر الجغرافيون العرب أن هذه المدينة تقع فى دائرة القيروان ووضعوها كذلك فى الإقليم المدارى الثالث.

- أسس عمرو بن العاص مدينة الفسطاط على الضفة الشرقية للنيل مثلما يذكر المؤرخون العرب، وقد أوردت قصة تشييد هذه المدينة فى إحدى الملحوظات من هذه الدراسة.

وقد تم اختيار عمرو ليكون حكمًا فى الخلاف الذى نشب بين على ومعاوية على تولى الخلافة، وقد أبعد علياً واختار معاوية ليكون خليفة، فأصبح أول خلفاء أسرة الأمويين. وقد اعتنق عبدالله بن عمرو - الملقب بالسيحمى لأنه كان من قبيلة سحيم - الإسلام قبل والده وحصل على الإذن من الرسول محمد (ﷺ) على أن يقوم بتسجيل وتجميع كل الأحاديث التى ينطق بها، ويطلق على هذا العمل اسم «حديث» وهو يضم كل أعراف وشرائع المسلمين.

توفى عمرو فى مكة عام ٦٥هـ - ٦٨٤م، بعد وفاة يزيد بن معاوية بوقت قصير.

- يطلق على مدينة أسوان فى القاموس القبطى العربى لابن كابار اسم سوان، وأطلق عليها بنيامين دوتودال اسم سونية. وكان ترنتيانوس الملقب بموروس حاكمًا لهذه المدينة فى عهد تراچان حوالى عام ٩٠م. وفى موقع مدينة أسوان يحدد الجغرافيون الشرقيون بداية الإقليم المدارى الثانى.

- إن اسم دندرة هو الاسم الذى أطلقه العرب على مدينة تنتريس القديمة التى اشتهرت ببغض سكانها الشديد للتماسيح، وقد أطلق عليها كنتورى باللغة القبطية، ونجد هذا الاسم فى القاموس القبطى العربى لابن كابار، بينما نجد اسمًا آخر هو نيكنتورى فى قاموس اللهجة المنفية الصادر فى مونبلييه، وأيضًا فى فتاوى القديس باخوم والقديس أپاتير، كما نقرأ فيهما أيضًا كلمة بيرم.

نيكنتورى التى تعنى مولود فى دندرة، وتوجد نفس الكلمة نيكنتورى بتحوير بسيط فى قاموسين صعيديين فى مكتبة الملك وفى نص صعيدى. وورد فى فتاوى القديس بافنوش ذكر مدينة تسمى جنتيرى، وقال العالم تيلمونت إنها مدينة مجهولة بالنسبة لكل الجغرافيين، ولكن برهن ب ـ چيورچى أن هذه المدينة ما هى إلا مدينة دندرة.

وقد قدم لها عبدالرشيد البكوى الوصف التالى «دندرة هى مدينة جميلة تقع على الضفة الغربية للنيل فى الصعيد، وهى وفيرة المياه والأشجار والنخيل وبها عدد كبير من البرابى «للآثار» والمبانى القديمة التى تحوى العديد من الطلاسم.

ـ تولى عثمان بن عفان الخلافة عام ٢٣ هـ ـ ٦٤٤م وهو ثالث خلفاء محمد (ﷺ)، وقتل عام ٣٥ هـ ـ ٦٥٥م بعد خلافة دامت أحد عشر عامًا وعشرة أشهر وأربعة عشر يومًا.

ـ كان على بن أبى طالب زوج ابنة الرسول محمد هو رابع الخلفاء حيث تولى الخلافة عام ٣٥ هـ ـ ٦٥٥م، وقتل عام ٤٠هـ ـ ٦٦٠م، بعد خلافة دامت أربعة أعوام وثمانية أشهر واثنين وعشرين يومًا.

ـ كان الحسن بن على بن أبى طالب هو خامس خلفاء الرسول محمد (ﷺ) حيث تولى الخلافة عام ٤٠هـ ـ ٦٦٠م ولم يحكم سوى ستة أشهر وخمسة أيام، حيث تنازل عن الخلافة عام ٤١هـ ـ ٦٦١م.

ـ كوَّن بنو أمية أول أسرة للخلافة، وضمت هذه الأسرة أربعة عشر حاكمًا.

ـ قام معاوية بن أبى سفيان بفتح مدينة غزة إذعانًا لأوامر عمر بن الخطاب وباسم هذا الخليفة، وتقع هذه المدينة على الحدود بين مصر وسوريا.

وقد أصبح معاوية فى البداية خليفة لمصر عام ٣٦ هـ ـ ٦٥٦م، ولم تمر خمسة أعوام ـ أى فى عام ٤١ هـ ـ ٦٦١م ـ حتى أصبح خليفة المسلمين، وتوفى فى دمشق بعد حكم دام تسعة عشر عامًا عام ٦٠هـ ـ ٦٨٠م، عن عمر يناهز ثلاثة وسبعين عامًا، أو وفقًا لما يقول بعض المؤرخين ثمانية وسبعين عامًا، أو ربما خمسة وثمانين عامًا.

- ورد اسم انصنا فى المعجم القبطى العربى - الذى ذكرته من قبل - «أنديدنو» وهى نفسها أنتينوبوليس القديمة، وكانت هذه المدينة فى العصر الرومانى عاصمة إقليم طيبة، وقد ورد ذكرها كثيرًا فى كتابات المؤرخين المسيحيين.

ويتميز المقطع الذى يصف هذه المدينة فيما يروى عبدالرشيد البكوى بالرواية الأسطورية التى يحويها: «إن انصنا مدينة كبيرة وقديمة تقع إلى الشرق من النيل فى مصر وفى العصور القديمة تحول كل سكان المدينة إلى أحجار، ورأى بها الناس رجالاً نائمين بجوار نسائهم، وآخرين فى أوضاع مختلفة كلاً وفقًا للوضع الذى كان عليه فى لحظة التحول.

- كان يزيد بن معارية هو سابع خلفاء الرسول محمد (ﷺ) وثانى خلفاء أسرة الأمويين، تولى العرش عام ٦٠هـ - ٦٨٠م.

وحكم ثلاث سنوات وثمانية أشهر وتسعة أيام فقط، ومات فى التاسعة والثلاثين من عمره فى اليوم الرابع من شهر ربيع الأول عام ٦٤هـ - ٦٨٤م.

- كان معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان هو ثامن خلفاء الرسول محمد (ﷺ) وثالث خلفاء أسرة الأمويين تولى العرش عام ٦٤هـ - ٦٨٤م ولم يحكم سوى شهر ونصف أو عشرين يومًا فقط، حيث توفى فى نفس العام فى عمر عشرين عامًا، ويذكر البعض أنه حكم أربعة أشهر، ويذكر آخرون أنه قد تنازل عن الخلافة ومات بعد ذلك بأربعين يومًا، أو ربما بثلاثة أشهر.

- يذكر المكين أن الاسم الكامل للزبير بن العوام هو «عبدالله بن الزبير بن العوام بن حرملة بن أسد بن عبدالعزى»، وكان تاسع خلفاء الرسول محمد (ﷺ) وتولى العرش فى اليوم التاسع من شهر رجب عام ٦٤هـ - ٦٨٤م، ولم يحكم فترة أطول من سلفه، ومات فى نفس العام بعد حكم دام أربعة أشهر وثمانية أيام.

- حكم مروان بن الحكم بن العاص بن أمية وهو عاشر خلفاء الرسول محمد (ﷺ) ورابع خلفاء أسرة الأمويين - عشرة أشهر إلا يومين - ولا يجب أن نخلط بين هذا الخليفة وبين خليفة آخر يدعى مروان أيضًا، جلس على العرش عام ١٢٧هـ - ٧٤٤ م وحكم خمسة أعوام وشهرًا واحدًا.

- كان عبدالملك بن مروان بن الحكم بن أبى العاص هو سادس خلفاء أسرة الأمويين، جلس على العرش عام ٥٦هـ - ٦٨٤م خلفًا لأبيه مروان، ومات فى منتصف شهر شوال عام ٨٦هـ - ٧٠٥م بعد حكم دام عشرين عامًا وخمسة عشر يومًا، وخلفه ابنه الوليد.

- لم يكن عبدالعزيز بن مروان خليفة، ولكن ابنه عمر بن عبدالعزيز تولى الخلافة عام ٩٩هـ - ٧١٨م خلفًا لابن أخيه سليمان بن عبدالملك.

- وفقًا لعبدالرشيد البكوى فقد كانت حلوان «بلدة صغيرة تقع فى شمال مصر على الضفة الشرقية للنيل، وكانت تتميز باتساعها وجمالها وموقعها المتميز».

وتوجد مدينة أخرى تحمل هذا الاسم تقع شرق بغداد فى العراق أو آشور القديمة، بينما يحدد البعض موقعها فى العراق العجمى، وقد أسسها قباد فيروز ساسانى.

ووفقًا لما يذكر الياقوتى توجد مدينة صغيرة تحمل نفس الاسم فى منطقة جبال نيسابور على أطراف خراسان من ناحية أصفهان.

- يوجد خليفتان يحملان اسم الحاكم بأمر الله، وكلاهما من أسرة العباسيين الذين تولوا الخلافة على يد سلاطين مصر بعد وفاة المستعصم بالله، وقد تولى أولهما الخلافة عام ٦٦٠هـ - ١٢٦١م خلفًا للمستنصر بالله وتوفى عام ٧٠١هـ ١٣٠١م. وتولى الثانى الخلافة خلفًا للواثق بالله عام ٧٤١هـ - ١٣٤٠م وتوفى عام ٧٥٤ هـ - ١٣٥٣م.

- تترادف كلمات الصعيد وطيبة ومصر العليا، ويطلق العرب على طيبة العليا اسم الصعيد العالى، وعلى أية حال فإن كلمة صعيد فى حد ذاتها تعنى البلد العالى، وقد أطلق هذا الرسم على إقليم طيبة لأنه أعلى من بقية أجزاء مصر، ويذكر عبدالرشيد البكوى فى المخطوط الذى امتلكه: ««أن الصعيد هو إحدى مناطق مصر يقع جنوب الفسطاط وتحده سلسلتان من الجبال يجرى النيل بينهما، ويحيط به على الضفتين عدد كبير من المدن والقرى، ونجد بالصعيد

الكثير من الآثار القديمة ومن بينها نجد فى الجبال المقابر الصخرية المنقورة تحت الأرض والتى تحوى عددًا كبيرًا من أجساد البشر والطيور والقطط والكلاب جميعها ملفوفة فى أشرطة من الكتان، مثلهم مثل الأطفال الرضع.

- تقع أخميم فى إقليم طيبة الأوسط، وقد ذكرنا ذلك لنميز هذه المنطقة عن طيبة العليا وطيبة السفلى. وفى كتابه الأول الفصل الثامن عشر أطلق ديودور على هذه المدينة اسم أكزمو، وورد فى القاموس القبطى العربى لابن كابار اسمان لهذه المدينة هما «شمين وهاناس»، وورد لها ثلاثة أسماء فى القاموسين الصعيديين بمكتبة الملك، هى: «شمين وخميم وبانوس».

ويشير إليها الكتاب العرب على أنها تحوى البقايا الرائعة للقصور والمسلات وللتماثيل العملاقة المنحوتة من الحجر أو من المرمر. ووفقًا لما يذكر أبو الفدا: «أخميم هى مدينة كبيرة تقع فى الطرف العلوى للصعيد الأوسط على مبعدة يومين تقريبًا من مدينة أسيوط، ونرى بها بربا (معبد) شهير يمكننا أن نعتبره من بين أفضل الآثار القديمة وأروعها وذلك بسبب الأحجار الضخمة التى بنى بها وأيضًا... المناظر الملونة الجميلة التى تغطى جدرانه».

ويحدد عبدالرشيد البكوى لهذه المدينة موقعًا فى الإقليم المدارى الثالث: «أخميم هى مدينة صغيرة على الضفة الشرقية للنيل مزدحمة بالسكان بسبب وفرة زراعة أرضها ونخيلها ونرى بها برابى «آثار» تعد من عجائب العالم. إن البربا أقوى من المنزل وذلك بسبب الطلاسم العديدة التى وضعت به. وكانت هذه المدينة هى موطن أبى الفيض ذى النون الملقب بالمصرى، وكان أفضل أهل زمانه بعلمه وتواضعه وأدبه، ونمتلك له مؤلفًا بعنوان «حالات عجيبة».

وينسب أيضًا لهذا الرجل كتاب «مجربات»، والكتاب ملىء بالخرافات السحرية، وقد اشتهرت هذه المدينة فيما مضى بأنها مركز السحرة الأقوياء.

* * *

الفهرس

رقم الإيداع بدار الكتب ١٧٩٥١ / ٢٠٠٢

I. S. B. N 977 - 01 - 8248 - 6

